تراثنا

صبح الأعشى

في

صناعة الإنشا

تأليف

أبي العباس أحمد بن علي القلقشندي

٨٢١هـ - ١٤١٨م

الجزء التاسع

نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية

ومذيلة

بتصويبات واستدراكات وفهارس تفصيلية

مع دراسة وافية

وزارة الثقافة والارشاد القومي

المؤسسة المصرية العامة

للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

Collection of Prof. Muhammad Iqbal Mujaddidi
Preserved in Punjab University Library.

پروفیسر محمد اقبال مجددی کا مجموعہ
پنجاب یونیورسٹی لائبریری میں محفوظ شدہ

Marfat.com

تراثنا

صبح الأعشى

فى

صناعة الإنشاء

تأليف

أبى العبَّاس أحمد بن على القَلْقَشَنْدى

٨٢١ هـ - ١٤١٨ م

الجزء التاسع

نسخة مصورة عن الطبعة الاميرية

ومذيلة

تصويبات واستدراكات وفهارس تفصيلية

مع دراسة وافية

وزارة الثقافة والارشاد القو...
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والن...

Marfat.com

Marfat.com

صفحة

القســـــم الثـــانى — من مقاصـد المكاتبات الإخوانيات ... ... ،
وهى على سبعة عشر نوعا ٥

النـــــوع الأوّل — التهانى، وهى علىٰ أحد عشر ضربا ٥

الضرب الأوّل — التهنئة بالولايات ٦
« الثـــانى — « بكرامة السلطان، وأجوبته ٢٥
« الثـــالث — « بالعود من الحج... ... ... ٣١
« الرابـــع — « بالقدوم من السفر ٣٣
« الخـامس — « بالشهور والمواسم والأعياد ٣٩
« الســادس — « بالزواج والتسرى ٥٤
« الســابع — « بالأولاد ٥٦
« الثـــامن — « بالإبلال من المرض والعافية من السقم... ٦٣
« التـــاسع — « بقرب المزار ٧٠
« العـــاشر — « نزول المنازل المستجدّة ٧١
« الحادى عشر — نوادر التهانى ٧٣

النـــوع الثـــانى — من مقاصد المكاتبات التعازى، وهى علىٰ أضرب ٨٠

الضرب الأوّل — التعزية بالأبن... ... ... ٨٠
« الثـــانى — « بالبنت ٨٥
« الثـــالث — « بالأب ٨٦
« الرابـــع — « بالأم ٨٧
« الخـامس — « بالأخ... ... ... ٨٨
« الســادس — « بالزوجة ٩٠
« الســابع — التعازى المطلقة ٩٢

Marfat.com

صفحة
النـــوع الثـــالث — من مقاصد المكاتبات التهادى والملاطفة ... ١٠٠
« الرابـــع — الشفاعات والعنايات ١٢٤
« الخـامس — التشوّق ١٤٢
« الســادس — فى الاستزارة ١٥٠
« السابـــع — فى اختطاب المودّة وافتتاح المكاتبة ١٥٥
« الثـامن — فى خِطبةِ النساء ١٥٩
« التـاسـع — فى الاسترضاء والاستعطاف والاعتذار ١٦٥
« العـــاشر — فى الشكوى ١٧٣
« الحادى عشر — فى استماحة الحوائج ١٧٦
« الثـانى عشر — فى الشكر ١٨٣
« الثالث عشر — فى العتاب ١٨٩
« الرابع عشر — فى العيادة والسؤال عن حال المريض ٢٠٣
« الخامس عشر — فى الذم ٢١٧
« السادس عشر — فى الأخبار ٢١٩
« السابع عشر — فى المداعبة ٢٢٥
الفصـــل الثـامن — فى إخفاء ما فى الكتب من السر، وهو على نوعين ٢٢٩
النـــوع الأوّل — ما يتعلق بالكتابة، وهو على ضربين ٢٢٩
الضـــرب الأوّل — ما يتعلق بالمكتوب به ٢٢٩
« الثـانى — ما يتعلق بالخط المكتوب ٢٣٠
النـــوع الثـــانى — الرموز والإشارات التى لا تعلق لها بالخط والكتابة ٢٤٩
المقـالة الخـامسة — فى الولايات، وفيها أربعة أبواب ٢٥٢
البـــاب الأوّل — فى بيـان طبقاتها وما يقع به التفاوت، وفيـه ثلاثة فصول ٢٥٢

Marfat.com

صفحة
الفصل الأوّل — فى بيان طبقات الولايات ٢٥٢
الطبقة الأولىٰ — الخلافة ٢٥٢
« الثانية — السلطنة ٢٥٢
« الثالثة — الولايات عن الخلفاء والملوك وما يكتب عن السلطان بالديار المصرية فى أقطار المملكة بمصر والشام والحجاز، وهى علىٰ خمسة أنواع ٢٥٢
النوع الأول — ولايات أرباب السيوف ٢٥٣
« الثانى — ولاية أرباب الأقلام ٢٥٥
« الثالث — ولاية أرباب الوظائف الصناعية ٢٥٩
« الرابع — ولايات زعماء أهل الذمة ٢٥٩
« الخامس — ما لا يختص بطائفة ولا يندرج تحت نوع ... ٢٦٠
الفصل الثانى — من الباب الأوّل من المقالة الخامسة فى بيان ماتجب علىٰ الكاتب مراعاته فى كتابة الولايات علىٰ سبيل الإجمال... ... ... ٢٦١
الفصل الثالث — من الباب الأوّل من المقالة الخامسة فى بيان ما يقع به التفاوت فى رتب الولايات . وذلك من سبعة أوجه ٢٦٣
الوجه الأوّل — الألقاب ، وهى علىٰ ثلاثة أنواع ٢٦٣
النوع الأوّل — ألقاب الخلفاء... ... ... ٢٦٣
« الثانى — « الملوك ٢٦٣
« الثالث — ألقاب ذوى الولايات الصادرات عن السلطان ٢٦٤
الوجه الثانى — ألفاظ إسناد الولايات إلىٰ صاحب الوظيفة... ٢٦٦
« الثالث — الافتتاحات ٢٦٨
« الرابع — تعدّد التحميد فى الخطبة أو فى أثناء الكلام واتحاده... ... ... ٢٦٩

Marfat.com

صفحة
الوجـه الخـامس — الدعاء ٢٦٩
« الســادس — طول الكلام وقصره ٢٧٠
« الســابـع — قطع الورق ٢٧١
البـــاب الثـــانى — من المقالة الخامسة فى البيعات، وفيه فصلان ٢٧٣
الفصـــل الأوّل — فى معناها... ... ... ٢٧٣
« الثـانى — فى ذكر تنويع البيعات، وهى نوعان ٢٧٤
النـــوع الأوّل — بيعات الخلفاء، وفيها سبعة مقاصد... ... ... ٢٧٤
المقصد الأوّل — فى أصل مشروعيتها ٢٧٤
« الثـانى — فى بيان أسباب البيعة الموجبة لأخذها على الرعية ٢٧٥
« الثـالث — فى بيان ما يجب على الكاتب مراعاته فى كتابة البيعة... ... ... ٢٧٦
« الرابـع — فى بيان مواضع الخلافة التى تستدعى الحـال كتابة المبايعات فيها ٢٧٩
« الخامس — فى بيـان صورة ما يكتب فى بيعات الخلفاء، وفيه أربعة مذاهب ٢٨٠
المذهب الأوّل — أن تفتتح المبايعة بلفظ «تبايع فلانا أمير المؤمنين» خطابا لمن تؤخذ عليه البيعة ٢٨٠
« الثـانى — مما يكتب فى بيعات الخلفاء أن تفتتح المبايعة بلفظ «من عبد الله ووليه فلان أبى فلان الامام الفلانى» إلى أهل دولته ٢٨٦
« الثالث — أن تفتتح البيعة بعـد البسملة بخطبـة مفتتحة بالحمد لله الخ ٢٩٨
« الرابع — مما يكتب فى بيعات الخلفاء أن تفتتح البيعة بلفظ « هذه بيعة الخ ٣٢٠

Marfat.com

صفحة
المقصدالسادس — فيما يكتب فى آخر البيعة ٣٣١
« السابع — فى قطع الورق الذى تكتب فيه البيعة ، والقلم الذى تكتب به، وكيفية كتابتها وصورة وضعها ٣٣٢
النوع الثانى — من البيعات بيعات الملوك ٣٣٧
الباب الثالث — من المقالة الخامسة فى العهود، وفيه فصلان... ٣٤٨
الفصل الأوّل — فى معنى العهد ٣٤٨
« الثانى — فى بيان أنواع العهود ، وهى ثلاثة انواع ... ٣٤٩
النوع الأوّل — عهود الخلفاء عن الخلفاء، ويتعلق النظر به من ثمانية أوجه... ... ... ٣٤٩
الوجه الأوّل — فى أصل مشروعيتها ٣٤٩
« الثانى — فى معنى الأستخلاف ٣٥٠
« الثالث — فيما يجب على الكاتب مراعاته ٣٥١
« الرابع — فيما يكتب فى الطرّة وهو تلخيص ما يتضمنه العهد... ... ... ٣٥٧
« الخامس — فيما يكتب لاولياء العهد من الألقاب ٣٥٨
« السادس — فيما يكتب فى متن العهد، وفيه ثلاثة مذاهب ٣٥٨
المذهب الأوّل — أن يفتتح العهد بعد البسملة بلفظ «هذا» مثل هذا ما عهد به فلان لفلان، وللكتّاب فيه طريقتان... ... ... ٣٥٨
الطريقة الاولى — طريقة المتقدّمين ٣٥٩
« الثانية — « المتأخرين ٣٦٨

صفحة

المذهب الثانى — أن يفتتح العهد بعد البسملة بلفظ « من فلان إلى فلان » ٣٧٧

„ الثالث — أن يفتتح العهد بعـد البسملة بخطبـة مفتتحة بالحمـــد لله ٣٨٦

الوجـــه السابع — فيما يكتب فى مستند عهد ولىّ الخلافة عن الخليفة الخ ٣٩١

„ الثـامن — فى قطع الورق الذى تكتب فيه عهود الخلفاء والقلم الذى يكتب به ، وكيفية كتابتها وصورة وضعها ٣٩٤

النـــوع الثـانى — عهود الخلفاء للملوك ، ويتعلق النظر به من سبعة أوجـــه ٣٩٨

الوجـه الأول — فى أصل مشروعيتها ٣٩٨

„ الثـانى — فى بيان معنى الملك والسلطنة اللتين يقع العهد بهما ٣٩٨

„ الثـالث — فيما يجب على الكاتب مراعاته فيه ٤٠٥

„ الرابـع — فيما يكتب فى الطرة ؛ وهو نمطان ٤٠٦

النمط الأول — ما كان يكتب فى وزارة التفويض فى دولة الفاطميين ٤٠٦

„ الثـانى — ما يكتب فى طرة عهود الملوك الآن ٤٠٧

(تم فهرس الجـــزء التـاسع من كتاب صبح الأعشى)

Marfat.com

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله وسلّم علىٰ سيدنا محمد وآله وصحبه

القسم الثانى

من مقاصد المكاتَبَات، الإخوانيَّاتُ،

(مما يَكْتُب به الرئيسُ إلىٰ المرءوس والمرءوسُ إلى الرئيس والنظيرُ إلىٰ النظير)

قال فى "مواد البيان" : ولها مَوْقِع خَطِير من حيثُ تشترِك الكافَّةُ فى الحاجة إليها . قال : والكاتبُ إذا كان ماهرا، أغربَ معانِيَهَا، ولَطَّف مبانِيَهَا، وتسهَّلَ له فيها مالايَكادُ أن يتَسَهَّل فى الكُتُب التى لها أمثلةٌ ورسومٌ لاتتغيَّر ولا تُتجاوَزُ،

وهى علىٰ سبعةَ عشرَ نوعا :

النوع الأوّل

(التَّهَانِى)

قال فى "مواد البيان" : كُتُب التَّهانِى من الكُتُب التى تظهَرُ فيها مقاديرُ أفهامِ الكُتَّاب، ومنازِلُهم من الصَّناعة ، ومواقِعُهم من البَلَاغة . وهى من ضُروب الكتابة الجليلةِ النفيسةِ، لما فى التهنئة البليغةِ من الإفصاح بقَدْر النعمة، والإبانةِ عن مَوْقِع المَوْهِبة، وتَضاعُف السُّرور بالعطيَّة . وأغراضُها ومعانيها متشعِّبة لاتقِف عندَ حدّ، وإنما نذكر منها الأصولَ التى تفرَّعتْ منها فروعٌ رجعَتْ إليها، وحُمِلتْ عليها .

قال : ويجب على الكاتب أن يرعى فيها مرتبة المكتوب إليه والمكتوب عنه في رسالة للائقة بهما مما لا يتسامح بمثله .

ثم التهاني على أحد عشر ضربا :

الضـــــرب الأوّل

(التهنئة بالولايات ، وهي على تسعة أصناف)

الصنف الأوّل — التهنئة بولاية الوزارة :

قد تقدم في المقالة الثانية في الكلام على ترتيب المملكة أنّ الوزارة كانت في الزمن المتقدم هي أرفع وظائف المملكة وأعلاها رتبة ، وأنّها الرتبة الثانية بعد الخلافة ، وكانت في زمن الخلفاء تكاد أن تكون كالسلطنة الآن ، فهي من الأتباع ومن[1] في معناهم على نحو ما كانت في الزمن المتقدم بين الرؤساء والأكابر ، ومن الرؤساء والأكابر بحسب ما تقتضيه رتبة المهنّأ .

وهذا نسخ تهانٍ من ذلك على ما كان عليه الحال في الزمن القديم .

تهنئة بوزارة : من إنشاء أبي الحسين بن سعد ، كتب بها إلى الوزير محمد بن عبد الله بن عبيد رحمه الله ، وهي :

مَنْ كانت النعمة — أيد الله الوزير — نافرة عنه وبفنائه غريبة ، فهي تأوي من الوزير إلى مثوى معهود ، وكنف محمود ، وتجاور منه من يوفيها حقها ، ويقابلها بحسن الصحبة لها ، ويجري في الشكر لما يولاه ، والرعاية لما يسترعاه ، على شاكلة مشى عليها السلف من أهله ، ونشأ في مثلها الخلف ، مقتديا بالأول الآخر ، وبالماضي

(١) أي تهنئة من الأتباع الخ .

الغابر، تَشَابُهاً فى كَرَم الأفعال ، ورِعايةً لحُقُوق الآمال ، واعتماداً للرأفة والرَّحْمه ، وعُمُوم بالإنْصاف والمَعْدِله ؛ إنْ ماخَصَّ اللهُ به أهلَ البيت رضى الله عن الماضين منهم وأقدم عِزّ لباقِين وحِراسَتهم : من العلم بالسياسة والدُّرَابة (١) بتدبير المَمْلَكة ورِعَايةِ الأُمَّة ، والهداية فيهم لطُرُق الحَيْطة ونَهْج المصلحة .

والحمدُ لله على ماخَصَّ به الوزيرَ من فضله الذى رفع قَدْرَه فيه عن مُساماة ومشاكلة المُقَادر والشَّبيه (٢) ، وجعله فيما حباه به نَسيجَ وَحْدِه ، وقَرِيعَ دَهْرِه ، وجمع له من مَوَاهب الخير ، وخَصائص الفَضْل ما أبان به مَزِيَّته فى الدِّين ، وأعطاه معه الوِلايةَ من جميع المسلمين .

والحمدُ لله حمداً يجدِّدا على ما جَلَّله له من رأى أمير المؤمنين واجتبائه ، ومحلّه من اختياره واصطفائه .

والحمدُ لله على ما منَحه من كرامته ، وجلَّله له من نِعْمته ، فما أطاه إلا تدبيره من وِزارته ، وأشركه فيه من أمانته ، واصطفاه منه للمشاركة ، ونظرا للعامّة والخاصّة ، فإنّ عائدة رأيه سَوَّت بين الضعيف والقَوِىّ ، ووصلت إلى النائى والقاصى ، وأعادت إلى المُلْك بهاءه ، وإلى الإسلام نُورَه وضياءه ، فما كتمت الدنيا من إلْفَة بعد الإخلاف ، ونَضَارة بعد الإنْهاج (٣) ، فلم يكن يعهد مثلُه إلا بالوزير الذى تَمَرَّس منصبه ، وكَرُم مَرْكَبه ، فهنّأ اللهُ الوزيرَ ما آتاه وتابع له قِسْمه ، ووصل له ما حلّله به وأمدّه فيه بالزّياده ، وأعطاه من كلّ مأمول أفضلَ محلّ وأزلفَ [illegible]

---

(١) فى الأصل «والوراثة لتدبير» وهو تصحيف قبيح .

(٢) فى القاموس «قادرته قايسته وفعلت مثل فعاله» .

(٣) «الإنهاج البلى» انظر القاموس فى مادة (ن هـ ج) .

Marfat.com

فى مُدّة العُمْر، وتناهيًا فى درَجة العِزّ، واحتياطًا بالمَوْهِبَة فى العاجلة، وفَوْزًا بالكرامة فى الآجلة، إنه فعّال لما يشاء.

تهنئة أخرى فى مثل ذلك: أوردها فى رسائله، وهى:

التهنئة بالوزير للزمان وأهله بما خصّهم به من جميل العزّ، وجعله لهم ردءًا من خلّة الأمن بولايته، والنعمة على أوليائه وأعوانه على قضاء ما ألزمهم من شكره وحفظ نظمهم من معاليه ظاهرة، ولله على ذلك الحمد الفاضل، والشكر الكامل. وللوزير من هذه النعمة الجليلة، والدولة السعيدة، أهنؤها موقعًا، وأمرؤها مغبّة، وأدومها مُدّة، وأجملها لَفْيه، وأثراها مَبْوَءًا، وأسلمها عُقْبى، فتولّاه الله بالكفاية والحراسة، وأيّده الله بالنصر وبالكفاية، وأنهضه بما قلّده وأسبغه، وبلّغه غاية ما يؤمّله، وأرجو أن يكون موقعى من تقدّم الوزير بالتعنّى عنده بمن مكّنته الأيام من التعنّى فى شؤون الولاية والإبعاد، ويُعوّضنى بتفضيله عما أخّرنى عنه أجلّ ذرى الإخلاص وأجزل الاعتداد.

تهنئة أخرى فى مثل ذلك: أوردها فى رسائله أيضًا، وهى:

رضا الله أن يتمّ بالسعد بلا تناهٍ ولا نقص بإذن الله ومشيئته، بل يكون مرتقيًا لا ينتهى منه غاية إلا شفعتها درجة تُرقى، تكفّل ذلك كفاية من الله شاملة كاملة، وعناية فى البدء والعاقبة بلا انقطاع، ولا ارتجاع، حتى يكون المنقلب من بقية يوم العمر مستهدفًا إلى فوز برحمة الله ورضاه، فهنيئًا للوزير بما لا يقدر أحد أن يتعدّى فيه مساعفة بمقدار، ولا ينالها بغير استحقاق، إذ لا مثل ولا نظير للوزير: فى سعد ظاهر، وعلا على العلوّ مُرتقى، وسابقة فى غلاب نظراؤه طُرًّا لِبَطْء، وحظّ للدهر شطر بعد شطْر، وجمعًا من مثل السلطان لم كان متفرّقًا، وحفْظًا

Marfat.com

لما كانَ ضائِعا، وحمايةٌ لبَيْضةِ المُلْك، وضَبْطا للثُّغُور، وتلَقِّياً للخُطُوب بما يَفُلُّ حَدَّهَا، ويُطْفِئ نارَها ولهَبَها ويُقِيم أوَدَها، وما وهَبَ اللهُ فى رَأْيه من فَتْح البلاد المُرْتَجَة، وقَمْع الأعداء المتغَلِّبة، وسُكُون الدَّهْماء، وشُمُول الأمْن، وعُمُوم العَدْل، والله يَصِل ذلك بأحسَنِه.

تهنئةٌ أُخْرىٰ فى مثل ذلك: من إنشاء علىّ بن خلف فى "مواد البيان" وهى:

أطال اللهُ بقاءَ حضرةِ الوِزَارة السامية، فارِعةً من المَعَالِى أَسْمَقَها نُجُودا، كارعةً من المِنَنِ أعذَبَها وُرُودا، ساحِبةً من المَيَامِن أرَقَّها بُرُودا، ممتَّعةً بالنِّعم التى يُرامِى الشُّكْرُ عن حَوْزتِها، ويُحامِى البِشْرُ عن حَوْمَتِها، مبلَغةً فى أولِيائِها وأعدائِها، قاضيةً ما ترمى إليه رِحَابُها، فلا تَرىٰ لها ولِيًّا إلَّا لاحِبَ المَذْهَب، ثاقِبَ الكَوْكَب، سامِىَ الطَّرْف، حامِى الأَنْف، ولا عدُوًّا إلا ضَيِّق المَطْرَح، وَعِرَ المَسْرَح، صالِدَ الزَّنْد، مفَلَّل الحَدّ، راغِمَ العِرْنِين، مَتْلُولًا للجَبِين. ولازالتْ أزِمَّةُ الدنيا بيَدِها حتّى تَبْلُغ بآمالها مُنْتَهاها، وتَجْرِىَ بأيَّامها إلىٰ أقْصىٰ مَدَاها، [فهى] من أعظَم النِّعم خَطَرا، وأحسَنِها علىٰ الكافَّة أثَرا، وأوْلاها بأن يُفَاضَ فى شكرها، وتتعَطَّرَ الآفاقُ بذِكْرها. ولسيدنا الوزيرِ الأجلِّ يَراعٌ يستَيْقِظ فى صلاحهم وهم هاجِعُون، ويَنْصَبُ فى الذَّبِّ عنهم وهم وادِعُون، وكَلَ تدبيرَهُم فيه، إلىٰ مدبِّرٍ يخافُ اللهَ ويتَّقِيه، ويعمَلُ فيمَنِ آستَرْعاه بما يرتَضِيه، ولا يَمُدّ يَدَ الاقتدار عليهم متسلِّطا، ولا يتَّبِع دَواعِىَ الهَوىٰ فيهم مَتَسَقِّطا، واضعًا الأشياءَ فى حقائِقِها، سالكًا بها أمثَلَ طرائِقِها، مُلَايِنًا من غير ضَعْف، مُخَاشِنًا من غير عُنْف، قريبًا من غير صِغَر، بَعِيدًا من غير كِبْر، مُرَغِّبًا بلا إسْراف، مُرْهِبًا بإنصاف، ناظرًا إلىٰ محقَّرات الأمور وأطرافِها، كما يَنْظُر فى مَعاظِمِها وأشْرافِها، آخِذًا بوَثائق الحَزْم، متمسِّكا بعَلَائق العَزْم، راميًا بفِكْرته من وراءِ العَواقب، خاطِمًا بآرائِه أُنُوفَ المَصَاعب،

Marfat.com

ناظمًا بإياليه عُقود المَصالح، مُوَطِّئا بِرِياضَتِه ظُهور الجَوامح؛ إن ثَقَّفَ ذَا النَّبْوة الفَريده، وطَفَّوة الوحيده؛ آقتصر على مايُوافِقُه الوالِدُ الحَدِب، من مُقَوِّم الأدَب [وإنْ قَبَضَ](١) على المرتكِس فى غَوايته. المُفْلِس فى عِنَايته؛ ضَيَّق عليه مجَالَ العَفْو، وأحاق به أليمَ العذاب والسَّطْو؛ فقد سكنَتِ الرعيَّةُ فى عَدْله، وأوَتْ حَرَمًا مَنِيعا من ظُلْمه؛ ووَثِقَتْ أنَّ الحق بنظره شائِعٌ شاهِق، والباطلَ سائِغ زاهِق. والإنصافَ مبْسُوط منْشُور، والإجحافَ مَحْطُوط مبْتُور؛ والشَّمْل منْظُوم، والشَّرَّ مضْمُوم. فنطقَتْ أَلسِنَتُها بإحْماده، وآشتملَتْ أفئدتُها على وِدَاده؛ وآتفقَتْ أهواؤُها على رِياسَته، وتطابقَتْ آرَاؤُها المسابِقةُ على دَوام سِيادَته؛ وعرفَ أميرُ المؤمنين عَدْقَ النظر فى دَوْلته، وسلَّم أمورَ مملكته إلى النَّصيح المأمُون، والنَّجيح الميْمون؛ الذى وفَّقَه اللهُ تعالى لآختياره، ويَسَّره لآصطفائه وإيثاره؛ وأنَّه قد نَاطَ أمورَه بمن لم يستخِفَّ ثَقيلَ حِمْلها، ويَنُوء بِبَسيط ثِقْلها؛ تمتَّع بِلَيل الكَرَى، وتَوَدَّع بعد السَّيْر والسُّرَى، وألِمَّ من المَنام بملمّ مُفْضِل، وشَاهَدَ من حَالَاتٍ مُشْكِل. وهذه نعمةٌ تعُمُّ الخاصَّة والعامَّة عُمومَ الغيث إذا شَمِل وتَدَفَّق، وتَشْتَمِلُه شمولَ النهار إذا لَمَع وتألَّق؛ وهم أولَى بالتهنئة فيها وبشكْر الله تعالى عليها.

وسيلتُنا الفوزُ بحقيقٍ بأن يُلْتَفَتَ إليه دعاءُ المرفُوع، والتضرُّعُ المسمُوع؛ بأن يُنْهِضَه الله تعالى بما حَمَّلَه، ويُعِينَه على ما كَفَّلَه؛ ويتولَّاه بتوفيق يَشُبُّ أُوارَه، ويُبيِّضُ بالصُّبْح نهارَه؛ ويُحْسِنُ آثارَه، ويُجْمِلُ ما يتولَّاه على أوضح سبيل وأقصَده، وأرجَحِ دليل وأرشَده؛ إذ لا يجوز أن يُهْمِلَ عِمالَه عِيالُه وكَدُّه، وبلدُعيته صلاحُه كلُّه. والعبدُ يسأل الله ضارعًا لديْه، باسطًا يدَه إليه؛ في أن يَقْبَل صالحَ أدعيَته لحضرة الوزارة السامية؛ وأن يجعل ما أحَلَّه في محَلِّه من رياستها، وأوقعه

(١) الزيادة يقتضيها المقام كما لا يخفى.

Marfat.com

فى مَوْقِعه من سياستها، دائبًا لايُنْتَزَع، وخالدا لا يرتَجَع، وأن يؤيِّدها فيه بما يقضى له بالإحراز والتَّخْويل، ويحْمِيه من الٱبتزاز والتحويل، إنَّه سميعُ الدعاء، فعَّالٌ لما يشاء، إنْ شاء الله تعالىٰ.

الصنف الثانى — التهنئة بكَفَالة السلطنة :

وهذه نسخةٌ من ذلك، كُتِب بها عن نائب الشام، من إنشاء الشيخ جمال الدين ٱبن نُبَاتة، وهى بعد الألقاب :

لا زالَ دائرًا بهنَائِه الفَلَك، مُنِيرا بِضِيَاء عَدْله وبِشْره الحَلَك، قريرًا بحُسْن كَفَالته المُلْكُ شاهدًا بفضل أسمائِهِ وسِمَاته المَلَك، مقْسُوما بأمر الله نَدَاه وبأْسُه ليَحْيَا مَنْ حَىَّ ويَهْلِكَ مَنْ هَلَك، تقبيلًا يُشافَهُ به التُّراب، ويُشاهَدُ شَرَفُ مَطْلَعه علىٰ السَّحاب، ويُنْهِى قيامَهُ علىٰ قَدَمِ وَلاءٍ ودعاء : هذا يَنْزِلُ القلبَ وهذا يَصْعَد إلىٰ الأُفُق، ومُقامَه علىٰ بُشرىٰ وحمدٍ منهما ٱلأمنُ يحلّىٰ بوصْفِه النُّطْقُ كما تُحَلَّىٰ الأعطافُ بالنُّطُق، وأنه وَرَدَ مثالٌ شريفٌ علىٰ يَد فلانٍ يتضمَّن البِشارةَ العامَّه، والمَسَرَّة التامّه، والنعمةَ التى يُعوَّذُ سَنَا جَبِينها من كل عينٍ لامَّه، وخبرَ الخيرِ الذى حَيَّت أزهارُه المتضوِّعةُ نَدَّ مِصْرَ فأوّلُ مابلَّغه مَنافِسَ الشام شامَّه، بأنَّ المواقفَ الشريفةَ — أعزَّ الله تعالىٰ سلطانَها — قد فوّضَتْ إلىٰ مولانا كَفالةَ الإسلام وبَنِيه، وكِفايَةَ المُلْك بصالح مُؤْمِنيه، ونيابةَ السلطنة الشريفة وما نَسقَتْ، وتدبيرَ الممالك وما وَسَقَتْ، فيالها بُشرىٰ ٱبتسمَتْ لها ثغورُ البَشَر، ومسَرَّةً ٱستجلىٰ سَنَاها مَنْ آمَنَ وبُهِتَ الذى كَفَر، وخبرًا تلقَّت الأسماعُ بَرِيدَه منشدة : قُلْ وأعِدْ بأطْيَبِ الخَبَر، هنالك أخذ المملوكُ حَظَّه من خيرِ بُشْرىٰ، ونصيبَه من مَسَرَّةٍ حُمِد بصَباح طِرْسِها المَسْرىٰ، وحمِدَ الله تعالىٰ علىٰ أن أقام لسلطانِ البسيطة من يَبْسُط العدْلَ والإحسانَ لمَنَابه، ويقلِّد رعيَّته

Marfat.com

عقودَالنِّعم إذا تقلَّد ماوراءَ سَريره وبابِه ، ومَنْ إذا كَفَل سيفُه مَمَالكَ الإسلام وثِقَتْ بالمَغْنَم والسَّلامه ، وإذا كتب قلمُـه قالتْ ولا سيَّما أخبارُ جند المسلمين : هكذا تكونُ العَلَامه ، وجهَّز المملوكُ هـذه الخدمةَ نائبةً عنه فى تقبيل الأرض . وعَرْض الهناء بين يَدَىْ من يُسَرُّ المملوكُ بوَلَائه اليومَ ويرجو أن يُسَرَّ به يومَ العَرْض ، ولو وصفَ المملوكُ ماعنـدَه من السُّرور والشَّوْق لضاق الورقُ عن تسطير الواجب منه وضاقَ الوقتُ عن أداء الفَرْض . والله تعالىٰ يجدِّدُ لمولانا ثمراتِ الفضلِ الواضح ، والرأى الراجح ، والقَـدْر الذى هو علىٰ ميزان الكواكب راجح ، ويمتِّعنا كافَّةَ المماليك بدَوْلة سلطانه الذى علم البيتُ الشريفُ أنَّه علىٰ الحقيقةِ الخلَفُ الصَّالح .

وهذه نسخة تهنئةٍ لأمير جانْدار بولاية إمْرةِ جاندار ، من إنشاء الشيخ جمال الدين ابن نُباتةَ ، وهى بعد الألقاب :

أعلىٰ اللهُ مَنارَها ومَنالَها ، وخلَّد قبولَهـا وإقبالَها ، وأجزل من الغَضِّ الذى تناولَتْه ثَمَرَها وأسبغَ به ظِلَالَها ، ولا زال فى سَيْفها وعَصَاها مآربُ للمُلْك ، وفى بأْسها ونَدَاها مواقعُ للنَّجاة والهُلْك ، ولا بَرِحتِ القُضُب من سُيُوف وغُصون : هـذه حاكمةٌ بسَعْدها حُكْمَ الملك ، وهذه مُسَخَّرة فى تجريدها تسخيرَ الفُلْك ، تقبيلَ مخلِص فى وَلَائه ودُعائه ، مُهَنِّئا القلبِ مسرورٍ بمـا يتجدَّدُ من مَسَرَّات مولانا وهَنَائه ، ويُنْهِى أنه بلغه ماأفاضتْه الصدقاتُ الشريفةُ علىٰ مولانا من المَبَرَّات ، وما جَدَدتْ له من المَسَرَّات ، وأنها ضاعفَتْ مزيدَ الإحسان إليه ، ودعَتْه أميرَ جاندار وَدَّتِ العِصِىُّ النُّجومِيَّة لو قدمتْ نفْسَها بين يَدَيْه ، وأنَّ المواقفَ الشريفةَ قرَّتْ به عينا وأقرَّتْ ، وأنَّ الدولة القاهرةَ ألقَتْ عصاها إليه واستقرَّتْ ، وكما سَلَّمت إليـه العَصَا فى السِّلْم سَلَّمت إليه السـيفَ فى الحَرْب . وكما قرَّبتْـه فى مواقف العَدْل والإحسان قرَّبتْـه فى مواقف الطَّعْن والضَّرْب . فأخذ المملوكُ حظَّه من البُشْرىٰ ، وأوجب علىٰ نَفْسـه الفَـرَحَ

Marfat.com

وسَجدَ للهِ شُكرا ؛ وودَّ لو حضَرَ يُشافِه بهـذا الهَناء الشامِل ، ومَثَل قائمًـا لديْهِ بحقِّ التهنئة القيامَ الحقيقَّ الكامل ؛ وحيثُ بعُـدَتْ دارُه ، ونأتْ عن العِيَان أخبارُه ؛ فقد علم الله تعالىٰ مُواصلتَهَ بالأدعية الصالحةِ ليْلا ونَهارا ، والموالاةِ والمحبَّة التى يشْهَد بها الخاطرُ الكريمُ سِرًّا وجِهَارا ؛ واللهُ تعـالىٰ المسئُول أنْ يزيدَ مولانا من فضله ، ويُسُرَّه بمتجدِّداتِ الخير الذى هو من أهلِه ؛ ويمتِّعَنا كافَّةَ المماليك بدوام سلطانِ هذه الدولة الذى شَمِل بظله ، وغَنِى بنَصْره عن نَصْله ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف الثـالث ــ التهنئـــة بالإمارة .

من كلام الأقدمين :

تهنئـــة من ذلك ، أوردها أبو الحسين بن سَعْد فى ترسُّله ، وهى :

وهَنَأ اللهُ الأميرَ مواهِبَه الهنيَّـه ، وعطاياه السَّويَّه ؛ وأدام تمكينَه وقُدْرتَه ، وثبَّت وَطْأته ، وحَرَس ماخَوّله ؛ وجعـل مَاهيَّأ له من مُؤتَنَف الكرامة أيمَنَ الأمُور فاتحـةً وأسعَدَها عاقِبه ؛ ووصل أيَّامَه بأجمل الوِلَايه ، وأجَلِّ الكِفَايه ؛ حتّٰى ينتهِى [من] استِيفاءِ سعاداتِ الحُظُوظ وحَوْز القِسَم والآمال ، [إلىٰ] الدرجةِ التى تليقُ بما أفرده اللهُ به من الكمال ، وخَصَّه به من الفضل فى جميع الخِصَال . ومن أفضلِ ماأعتَدَّ به من نِعَم اللهِ علَىَّ بالأمير وبجميل رَأْيه ، ومَحَلِّى من طاعتِه وخِدْمته ؛ أنِّى لا أخْلُو فى كل وَقْت وحالٍ من بَهْجةٍ تتجدَّدُ لى ، ومسرَّةٍ تصِلُ إلىّ ، وتتوفَّرُ علىّ ، بمـا يُسَهِّله الأمير علىٰ يده من مستصْعَبِ الأمور ، ومستغْلَق الخُطوب ؛ التى تبْعُد عَمَّن يُزاوِلُهـا ، ويجعل اللهُ بطَوْله وحَوْله للأمِير القُدرة عليها ، ويتوَحَّد بالكِفَاية فيها ؛ فينْمُو بجميل تدبيره ولَطِيف نَظَره ، ويَطَّرِدُ بصاعِدِ نَجْمـه ويُمْن نَقِيبته وعِزِّ دَوْلتـه ؛ وذلك من فَضْل الله ونِعْمته ، يُؤْتِى فَضْلَه مَنْ يَشاء وهو ذُو الفَضْل العَظيم .

Marfat.com

الصنف الرابع ــ التهنئـــة بولاية الحجابة .

وقد كان لها فى الزمن القديم المحلُّ الوافر فى الدولة وعلو الرتبة فيها .

من كلام الأقدمين :

تهنئـــةٌ من إنشاء أبى الحُسَين بنِ سعد، كُتِب بها إلىٰ أبى بكر بن ياقوت حين وَلِىَ الحجابةَ بعد نَكْبةٍ أصابته، وهى بعد الصدر :

وقد كانتْ أنفُسنا مَعْشَرَ عبيدِ سيدنا وحَمَلةِ إنعامه، ومؤمِّلى أيامه، فى هذه الأحوال التى نقد سيدنا منها فيما ٱبتلاه صَبْرَه، وأبانَ فيه قَدْرَه، وزاد العارفَ بفضله نفوذا فى البصيره، وأعاد ذَوِى الٱرتياب فيه إلىٰ الثقة، فاستوىٰ المنازع والمُسلِّم، وٱستوىٰ العالمُ والمُعانِد ــ نعمةٌ منه تعالىٰ ذكره خَصَّه بها وصانَهُ عن مُشاكَلة النظير، ومُزاحمةِ الأكْفاء ــ علىٰ سبيل من القَلَق والٱرتماض، والسُّقُوط والٱنخفاض، جزءٍ من تلك الحال الغليظه، وإشفاقًا علىٰ تلكَ النَّفْس النَّفيسه، وخوفاً علىٰ معالم البرِّ والتُّقىٰ، وبَقيَّة العلم والنجا، وتاريخ الكَرَم والنَّدىٰ، أن يَدْرُسَ مَنارُها، وتُطْمَسَ آثارُها، ولولا مامنَّ الله به من الخَلاص منها وما مَنَح بكرمه فى عاقبتها، لأوْشكَتْ أن تأتىَ عليها وتُعجِلَها عن مواقيت آجالها، لكنه عَظُمت آلاؤه، وتقدَّستْ أسماؤه، أتىٰ بالأمن والفَرَج، بعد ٱستيلاء الكَرْب والوَجَل، وانْبتات أسباب الرَّجاء والأمل، فعرَّف سيدنا مَوْقِعَ الخيرة فيما قضاه، ومُيِّزَ له الخبيثُ من الطيِّب ممَّنْ عاداه وتولَّاه، وجعل النعمةَ التى جدَّدها له فيما رَدَّه أميرُ المؤمنين إلىٰ تدبيره من أمْر داره ومملكته، وحِراسة بيضة رعيَّته، مشتركةَ النفْع والفائده، مقْسومةَ الخَيْر والعائده، بين كافَّة الأمَّة فيما عمَّ من العدله، وشمل من المَصْلحه، ولاحَ من تباشير الخيره، وأمارات نبركة، فى ٱستقامة أمور البلاد، وصلاح أحوال العباد، وأفرد اللهُ سيدَنا بحَظٍّ من

Marfat.com

المَوْهِبَـة وَفَّانِى فيه علىٰ حُظُوظ الأولياء، وزادنى علىٰ سِهَام الشُّركاء . وأنا أرغَبُ إلىٰ الله فى إسعاد سيدنا بما جدّدَهُ له ، وتَعْرِيفه بركةَ مُفْتَتَحه ويُمْنَ خاتِمَته . والحمد لله فى مُبْتَـداه . والسلامةِ فى عُقْباه ؛ وتبليغه من حَظٍّ مأمول ، وخيرٍ مَطْلوب ؛ وحالٍ عَلِيَّـه ، ورُتْبة سَنِيَّه ؛ أفضَلَ ما بَلَّغ أحدا ٱختصَّه بفضله ، وٱصطفاه من خَلْقه . إنه جَوَاد ماجِد . فإنْ رأىٰ سـيدُنا أن يتطوّل بإجراء عبده علىٰ كريم عادته فى تشريفه بمكاتبته ، وتصريفه فى أمره ونهيه ، محقِّقا بذلك أمَلَه ، وزائدًا فى نِعَمه عنده ، فعل إن شاء الله تعالىٰ .

تهنئةٌ أخرى من ذلك ، من إنشاء علىّ بن خَلَف أوردها فى "موادّ البيان" وهى :

إنمـا يُهَنَّأ بالوِلَاية ـ أطال الله بقـاءَ الحاجب الجليل سيِّدى ومولاى ـ مَن ٱنْبَسطتْ إليها يدُه بعد ٱنقِبَاض ، وٱرتَفَع لها قَدْرُه مِنَ ٱنْخِفاض ، وأوجدَتْه الطريقَ إلىٰ إحراز جزيل الأجْر والجَزَاء ، وٱكتنازِ جميـل البركة والثَّنـاء ، وأفضَتْ به إلىٰ ٱتِّساع السُّلْطان ، وٱنتِفَاع الأَعْوان ؛ فأمَّا من جعل الله يَدَه الطُّولىٰ ، وقَدْرَه الأعْلىٰ ، ورِيَاسَتَهُ حاصلةً فى نفسه وجوهره ، وسِيادتَهُ مُجتناةً من سِنْخه وعُنْصُره ، فالأَوْلىٰ ـ اذا ٱسْتُكْفِىَ رَغْبـةً فى إنْصافه وعَدْله ، وحاجةً إلىٰ سَـدَاده وفَضْله ، وٱفْتقارًا إلىٰ فَضْل سِيرته ، وٱضْطِرارا إلىٰ فاضل سِياسَته ـ أن تُهَنَّأَ الرعيَّةُ بولَايته ، وتُسَرَّ الخاصَّة والعامَّة بمـا عُدِقَ من أمورها بكِفَايته ؛ وغير بِدْعٍ رَبْطُ[1] أمير المؤمنين بالحاجب الجليل أمْرَ حجابته ، ونَصْبُه لِلزَّحمة[2] عن حَضْرته ، وجعلُه الوَسِيطَ والسفيرَ بينه وبين خَواصِّ دَوْلته ، وقد وَثِقَ بيُمْنِ نَقِيبته ، وٱطَّلع علىٰ خُلُوص نِيَّته ، وسكَنَ إلىٰ صِدْق طاعتِـه ؛ وعَرَفَ طهارةَ جَيْبه ، وسلامةَ غَيْبه ، وصِدْقَ لَهْجته ، وحَصافَةَ أمانَته ؛

(١) فى الأصول ارباط ولم نقف على فعله فيما بأيدينا من كتب اللغة .

(٢) أى الدفع والذب يقال زحمته عنه أى دفعته انظر المصباح .

Marfat.com

واعتمادَه للحقّ فيما يُورِد ويُصْـدِر ، ويُنْهِى ويُجِيب ؛ وٱبتلاه فعَرَف طِيبَ طُعْمته ، وخِفَّة وَطْأته ؛ ورأفَتَه بالضَّعِيف المَهْضُوم ، وغِلْظَته على العَسُوف الظَّلُوم ؛ [فرأى] أن يُحِلَّه محلّ مَنْ لا يَغِيب عمَّا شَهِده ، ولا يرتابُ بما سمعه ، على أنّى المهنّأ بكل نعمةٍ يجدّدها الله لدَيْه ، وسعادةٍ يُسْبِغُها عليه ؛ [ولو أنصفت] لسلَكْتُ من الصَّواب سَنَنًا ، وٱعتقَدْتُ جميلًا حَسَنا : لٱستشعارى بالأنْفَس من لَبُوس سِيادته ، وتَحَلِّى بالأنْصَع من عُقُود رِياسته ؛ وإذا كانت رعِيَّتُهُ أجدَرَ أن تُهَنّأ بوِلَايته ، وتَعْرِفَ قَدْر مالها من الحظّ فى نظـره ؛ فأنا أعْدِلُ من هنائه إلى الدُّعاء له بأن يبارِكَ اللهُ تعـالى له فيما قلّده ، ويُرَفِّقَهُ فيما وَلّاه ويُسَدِّدَه ، ويُلْهِمَه ٱدِّخارَ الثوابِ والأجْر ، وٱكتنازَ الحمد والشكر ، والهدايةَ إلى سَنَن الٱسـتقامه ، وما عاد بمحبَّة الخاصَّـة والعامه ؛ وإنهاضه فى خِدْمة أمير المؤمنين ، والعَمَل من طاعته بما يُزْلِفُ فى الدنيا والدين ؛ واللهُ يستجيبُ فى الحاجب الجليل هذا الدعاءَ ويَسْمَعُه ، ويتقبّلُه ويرفَعُه ؛ إن شاء الله تعالى .

الصنف الخامس — التهنئـــة بولاية القَضَاء .

التهنئة بذلك من كلام الأقدمين :

تهنئة من ذلك : من إنشاء علىّ بن خلف ، أو ردها فى "مواد البيان" وهى :

أَوْلى المِنَح أن يُتفاوض شكْرُها والتحدّثُ بها ، ويُتقارضَ حمدُها والقيامُ بواجبها ؛ نعمـةٌ شَمِلَ عطَافُها ، وعَمَّت ألطافُها ؛ وٱشترك الناسُ فيها ٱشتراكَ العُموم ، وحلَّتْ منهم فى النفع محـلَّ الغيث السَّجُوم . وهـذه صورةُ النعمة فى ولاية قاضى القُضاة — أطال الله بقاءه — لمـا تتضمّنه من إثبات العَـدْل والإنصاف ، وٱنْحِسار الجَوْر والإجْحاف ، وٱعْتِلاء الحقّ وظُهوره ، وٱخْتلاءِ الباطل وثُبُوره ؛ وعِزّ المظلوم وإدالته ، وذُلّ الظَّلُوم وإذَالَتِـه ، وتمكين المضْعُوف وٱقتداره ، وٱنْخزال العَسُوف وٱقْتساره .

وإنْ هَنَّأتُه حرس الله عُلَاه بمَوْهِبَة أتىٰ بارقُها بجميل الثَّناء ، وجزيل الجَزَاء ؛ قد ناء من تحمَّلَها بباهظ الشيء ومتعبه ، وقام من سئلها بكل الأدب ومنصبه ، عدلت عن الأمثل وضَلَلْتُ عن الطريقة المُثْلىٰ ؛ لكنِّى أهنِّئه خُصوصًا بالمَواهِب المختصَّة به آختصاصَ أطواقِ الحمائم بأعناقِها ـ والمناقِبِ المُطيفةِ به إطافَةَ كواكب السَّماء بنِطَاقها ، فى أنْ ألَّف اللهُ القلوبَ المتباينةَ علىٰ الإقرار بفَضْله ، وجمعَ الأفئدةَ المتنافيةَ على الآعتراف بقُصُور كلِّ محلٍّ عن محلِّه ، وجعل كلَّ نعمةٍ تُسْبَغ عليه ، ومِنَّةً تُسْدىٰ إليه ، موافقةَ الآمالِ والأمانِى ، مُفْضِيَةً للبشائر والتَّهانِى : لأنَّ مَنْ أحبَّ الحقَّ وآثره ، ولبِسَ الصِّدْق وآستشْعره ، يَنْطِقُ بلسان الإرادةِ والآختِيَار ، ومَنْ تركهُما وقَلَاهما ، وخلَعَهُما وألْقاهما ، ينطِقُ بلسانِ الآفتقار والآضْطِرار ـ والخصائص التى هو فيها نَسِيجُ وَحْدِه ، وعِطْرُ يومِه وغدِه ـ والمحاسنِ التى هى أَنَاسِىُّ عيونِ الزَّمان ، ومَصابيحُ أعيانِ الحُسْن والإحْسان . ثم أعُودُ فأُهنِّئُه عمومًا بالنِّعم المشتَركةِ الشُّمُول ، الفَضْفاضة الذُّيُول ، التى أقرَّت القَضاءَ فى نِصَابه ، وأعادتِ الحكْمَ إلىٰ وطَنِه بعد نُجْعتِه وآغْترابه ، وأعلَتْهما فى الرُّتْبة الفاضله ، وقَدَعتْ بهما أنْفَ الذِّروة العالِيَه . وأرفَعُ يدى إلىٰ الله تعالىٰ داعيًا فى إمداد قاضِى القُضاة بتوفيقٍ يُسَدِّدُ مَرامِيَه ، ويُرْشِد مَساعِيَه ، ويهذِّب آراءه ويصحِّحها[1] ، ويُبْلِج أحكامَه ويُوضِّحها ، ويخلِّد عليه النعمةَ خُلودَها علىٰ الشاكرين . ويُبَصِّره بحُسْن العقْبىٰ فى الدنيا والدِّين ، وهو سبحانه يتقَبَّل ذلك ويرفَعُه ، إن شاء الله تعالىٰ .

التهنئة بذلك ، من كلام أهل العصر :

تهنئة من ذلك : أوردها الشيخُ شِهابُ الدين محمودٌ الحلبىّ فى كتابه "زَهْر الربيع فى الترسُّل البديع" وهى :

(١) فى الأصل و يفخمها وهى تصحيف لا يناسب المقام .

Marfat.com

أنفَذ اللهُ تعالىٰ أحكامَه، وشكر إحسانَهُ وإنعامَه، وخلّده ناصرًا للشريعة المطَهّرة وأدَامه، وجدّد سَعْدَه وأسعد أيّامَه ؛ وجعله المسترشِدَ والمقتفِيَ بأمر الله والرّاشدَ والمستنْجِد والمستَنْصِر والنـاصِر والعاضِـد، والحـاكم القـائم بأمر الله (١) من القُضاة الثلاثة الواحِد .

المملوكُ يقبِّل اليدَ العاليـة تبرُّكا بتَقْبِيلها، وأداءً لواجب تعظِيمها وتَبْجِيلها؛ ويهنِّئُ المَوْلىٰ بمـا خصّهُ الله تعالىٰ من مُضاعفة نَفَاذ كلمته ورَفْع منزلتِه ، وإمضاءِ أحكامِه الشريفةِ وأقضيَتِه ؛ وتقليدِه أمورَ الإسلام، وتنفيذِ أوامره فى الخاصّ والعام؛ ويهنِّئُ بالمَوْلىٰ مَنْ رُدّت أمورُه إليـه، وعُوِّل فى ملاحظةِ مصالحه عليه؛ فإنَّ مَوْلانا مازال بالعِـلْم والعَمَل مشهورا ، وسعْيُه فى الدنيـا والآخرةِ سَعْيا مشكُورا؛ ويقظةُ مولانا جديرةٌ بزيادةِ الاهتمام، والاحتياطِ التامّ؛ بملاحظةِ طلبةِ العلم والمشتَغِلين، والفُقَهاءِ والمدرِّسين ؛ وسَـبْرِ أحوال النُّواب ، وأنْ لايكفِيَهُ الاعتمادُ على حسن البِزّة وطهارة الأثواب؛ بل يُمْعِنُ فى الاطّلاع علىٰ مايعتمِدُونه النَّظَر، ويُلاحِظ كلًّا منهم إن غاب عن مجلِسه أو حضَرَ؛ فَمَنْ رآه يَهْدِى إلىٰ الحقّ وإلىٰ الطريق المسـتَقِيم، ولا يَقْرَب إلا بالتى هى أحسَنُ مالَ اليَتِيم ؛ فيحقِّق له من العِنَـاية أمَلا ، ولا يُضِيع أجْرَ مَنْ أحسَنَ عملا ؛ حرس اللهُ المولىٰ ومتّع بحياته ، وأعاد علىٰ الكافّة بركةَ صِيامِه المقبُول وصَلَاته ؛ ونفع الإسلامَ بمستجاب دَعَواته، إن شاء الله تعالىٰ .

الصنف السادس ــ التهنئة بوِلَاية الدعوة علىٰ مذهب الشّيعة .

وقد تقـدّم فى الكلام علىٰ ترتيب المملكة فى الدّولة الفاطميّة، بالديار المِصْرية، ذِكْرُ موضُوعها وعُلُوّ رُتْبتها عندهم ؛ وإنمـا ذكرناها حِفْظا للأصل ولاحتمال وُقُوعها .

(١) بياض بالأصل بقدر كلمة ولعله حتى يكون من القضاة الخ .

Marfat.com

تتمّةٌ من ذلك : من إنشاء علىّ بن خَلَف، أوردها فى "مواد البيان" وهى:

أطال اللهُ بقاءَ داعِى الدُّعاة لصَبَاح من الرحمة يُبْلِجه ، وطريقٍ من الحكمة يُظْهِر بيانَه، وليلٍ من السُّنَّة يَنْزِع طَيْلَسانَه؛ وحَرسه على الإيمان يُجَدِّدُ ماأخلَقَ من بُرُوده، ويُنَظِّم ماوَهىٰ من عُقُوده؛ وعلىٰ المؤمنين يفتَحُ لهم أبواب الرَّشاد، ويُهْمِى إليهم سَمَاءَ الإفادة والإمْداد . ولا زالت الحقائقُ مقصودةً منه بالمِيَرَة التى رشَّحته لحِفظ مَبانِيها، وأهَّلته للعِبارة عن مَعَانِيها ؛ حتّى يرقُمَها فى الأَخْلاد، ويَمْحُوَ بها رُسومَ العِناد، ويَنْشُر بُشَرَها فى الآفاق والبِــلاد . أنا أعْدِلُ عن هَنــاءِ داعِى الدُّعاة ــ أطال الله بقاءه ــ بما عُدِق به من أمر الدَّعْوة الهادِيَّة العَلَويَّه ، ونُصِب له من فَرِّ مَضَاحك المُشْكِلات عن أسرار الحقائق الإلهِيَّــه، والترجمةِ عن غوامض الحِكَم الشَّرْعيَّه؛ والتوقيف علىٰ مَوَارد الهُــدىٰ ومَشَارعه ، والإرشادِ إلىٰ مَشَارق الحق ومَطالِعه؛ إلىٰ هَنــاءِ الدَّعْوة وأهلِها بمــا قيَّضه الله تعالىٰ لهم من مَحلِّه الرفيع الذى ألحقه العقلُ نحوَ هذا الكمال . ووطَّأ له مَدَارِجَ الترقِّى والاتِّصال؛ فشَفَّتْ نفسُه وشَرُفَتْ، وتطلَّعتْ علىٰ عالَم الملَكُوت وأشرفَتْ؛ وجَنىٰ بيَدِ التَّبصِرَة ثِمــارَ الحِكْمه، واستنْزلَ بمَنْزِل المَوَادّ غُيوثَ النِّعمه ؛ وجَرَّد الضِّــياء من الظلام ، تجريدَ الأرواح من الأجسام إلىٰ دار السلام؛ واستمَدّ بلَطِيفته موائدَ علوم عالَم اللَّطافه؛ وأمدّ بمَرَكَّب ألفاظها تحاكم الكائنه ، وحَلَّ فى الغَبْراء محلَّ الغَرَّاء فى الخَضْراء، إنْ أوضَحَتْ سبيلَ سائرٍ بجنب طريق [illegible] حاشية إظلام، حُسِر عن الحق قِناعُ إبهام، أوفعلَتْ(١) فى الخواطر [illegible] أخذت تعاديا(؟) فأدْلَتْه للهمم العاملة شَرَفاً وسُمُوّا: لما أعلىٰ بذلك من قدرها وقَدْرهم . وطيَّب من ذكرها وذِكْرهم ؛ وأعْطف إلى الدعاء لداعى الدّعاة بأن يجعل الله تعالى

(١) كذا فى الاصلين ولم نهتد الى حقيقة المراد .

Marfat.com

ماخُوّله من هذه الرِّياسة راهنًا لا يُرتَجَع ، وما نُوّله من هذه السيادةِ مستقِرًا لا يُنتَزَع ؛ وأن يؤيِّده بالتوفيق ، ويُعبِّد له مَنَاهِج التحقيق ؛ ويُطْلِق لسانَه بالبيان ، ويُمِدّه بروح منه فى نُصْرة الإيمـان ؛ وقد حَتَم الله تعالىٰ باجابة داعيه ، ولا سيمـا داعى الدعاة [فإنه] جدير بأن يُجاب الدعاءُ فيه ، إن شاء الله تعالىٰ .

قال فى " موادّ البيان " : وإنمـا أوردت هذا المثال بهذه الألفاظ ، لأن ألفاظ هذا الداعى يجب أن تكون مشتقّة من ألفاظ الدعوة ، مناسبةً لمَذْهبها ؛ ولولا ذلك لأُغنىٰ عنـه مثالُ تهنئة قاضى القضاة ؛ ومن تأملهما عرفَ ما بينهما من الفُرْقان .

الصنف السابع — التهنئـــة بالتقدمة علىٰ الرجال .

رقعة من ذلك :

[من حلّ] محـلَّ سيدى — أطال الله بقاءه — من السُّؤْدَد الناطقِ الشَّواهـد ، المنتظِم المَعَاقِد ، المُتضارِع الطارِف والتالِد ، المنتقِل فى الوَلَد عن الوالد — والمجدِ الذى قَصُر عن مُطاوَلته الطِّرازُ الأوّل ، وتَطاطأ له الإنعامُ المخوّل ، وحاز ماحازه من شَرَف الرِّياسه ، وفَضْل السِّياسه ، والآستقلالِ بحقوق ماتولّاه ، وتَسْديد مانوّله وآستكفاه ؛ فتشوّفتْ إليـه أعالى الرُّتَب ، وتشوّقتْ إليه المنازلُ السنِيَّة من كَثَب — خطبتْه العُلَا سالفة عنه مَهْرَها ، وتَطامنتْ له مُوَطَّئةً ظَهْرَها ؛ فلم يَكْثُرْ له أن يتقدّم علىٰ [أهل] عَصْره فَضْلا عن قبيلته ، ويتأمّر علىٰ جميع نَوْعه فضلا عن طائفته : لأنه المتقدّم عليهم بالرُّتْبة والطَّبْع ، لا بالآصطلاح والوَضْع ؛ فشكر المملوكُ اللهَ تعـالىٰ علىٰ بُزُوغ هِلاله وإشراقه ، وطُلوعه لميقات العز وتنفاقه ؛ وسأله أنْ يجعلَ ماأقرّ العيونَ من سـيادته ، وحَقّق الظنونَ فى سـعادته ؛ خالدًا راهنـا ، ومُقيمًا قاطِنا ؛ وأن يَزيده من السعاده ، ويُرقّيه كلَّ يوم فى دَرَج السياده : لتكونَ هـذه الرتبةُ علىٰ آمتناع مَرْقَبها ، وآرتفاع

مَرْكَبها ؛ أوّلَ درجة تخطَّاها ، ومنزلةٍ فَرَعَها وعلَاها ؛ ثم لايزالُ راقيا فيما يتلوها حتّى يحتَذِىَ بكواكب الجَوْزاء ، ويَطْحُودارةً علىٰ الحُلَفاء ، مُهَنَّأً غيرَ منغَّص ، ومُزَيَّدا غيرَ منقَّص ؛ والله تعالىٰ يجيب هذه الأدعيةَ الواقعةَ مواقِعَها . والمستحَقَّات الموضوعةَ مواضِعَها .

الصنف الثامن - التهنئةُ بولاية الديوان .

رُقعةٌ من ذلك :

ويُنْهِى أنَّ من حلَّ محلَّ مولانا - أطال اللهُ بقاءه رافلًا فى لَبُوس السَّعادة ، متحفِّلا بسُلُوس السِّيادة ؛ متنقِّلا فى رُتَب المَجْد ، متوقِّلا إلىٰ غَدَنِ[1] الحَمْد ؛ مستَوْلِيا علىٰ شِعَاب العُلَا ، متمكِّنا من رِقَاب الأعداء - فى الاستقلال والاضطلاع ، والمعرفةِ بحُقُوق الاصْطفاء والاصْطِناع ؛ ورفْعة مذهَبِه علىٰ الكِفَاية والغَنَاء ، والنهوض بثقيل الأعباء ؛ خطبَتْه التصرُّفات حاملةً عنه صدَاقَها ، وتشوَّفتْه الولَايات مادَّةً إليه أعناقَها ؛ وقد اتَّصل بالمملُوك ماجدّده الله تعالىٰ من سعادَته ، وأنجزه من مَواعِيد سيادَته ، التى كانت واضحةً فى مَخَايِل فضله ، لائحةً فى دلائل نُبْله ، مكتُوبةً فى صَفَحات الأقدار ، مرقومةً بسَواد اللَّيْل علىٰ بَيَاض النهار ؛ فخَدِل المملوكُ بذلك ، جذَلَ الحَمِيم المُشارِك ، وسُرّ به سرورَ الخليطِ المُشَابِك ؛ وليس ذلك لأنَّ الذى تولَّاه مَوْلانا وجدَ [فيه] خَلَلا فرَقَعه ، وخُمُولا فرفَعه ؛ بل لأنَّ الحقَّ غالَبَ الحظَّ فغلَبَه . والواجبَ سالَبَ المُكْنَة فسلَبَه ؛ وأناخَ رِكَابَ الرِّياسة فى المحلِّ الخِصْب الذى يحمَدُه ويَرتَضيه . والله تعالىٰ يتفضَّل علىٰ رعيَّته ، المتوطِّنين بفاضل سياسته ، من حِبائِه ولطفه ، ورأفته وعَطْفه ، بما يُسْبِغ عليهم ظلالَ العَدْل ، ويقلِّص عنهم سُدُولَ الجَور والحَيْف ، إن شاء الله تعالىٰ .

(١) فى " اللسان " الغدن سعة العيش والنعمة .

Marfat.com

قلت : وكتبتُ للمَقرّ البَدْرىّ محمودٍ الكلستانى الشهير بالسّراى مهنّئا له باستقراره فى كتابة السِّرّ الشريف بالديار المصرية فى الدولة الظاهرية «برقوق» فى سلطنته الأولى :

رَفَعْتَ للمَجْدِ مُـــذْ وُلِّيتَ بُنْيـانَا * وشِدْتَ للفَضْل بَعد الوَهْن أركانَا !

وأصـــبحَ المُلْكُ فى زَهْوٍ، ومالِكُه * يَمِيسُ عُجْبًا، وهَنَّا التَّخْتُ إيوانَا !

قدِمْتَ مِصْرا فامسَتْ مِنْكَ فى فَرَهٍ * تَهُـزُّ بالبِشْرِ من لُقْياكَ أرْدَانا !

وغُودِرَ النِّيـلُ مُذْ وَافَيْتَ مُبْتَهِجًا * وقد رَمَى الصَّـدُّ والإبعادُ جَيْحانا !

ألفاظُكَ الغُرُّ صارَتْ لِلْوَرَى مَثَلا * وكُتْبُكَ الزُّهْرُ بَعْـــدَ اللَّثْمِ تِيجانَا !

تَفُوقُ قُسًّـا إذا تَبْـــدُو فصاحَتُها * وتَفْضَحُ المِصْـقَعَ المَلَّاقَ سَحْبانَا !

قد أَفْحَمَتْ فى مَجَـازاتٍ بلاغَتُهـا * تُرْكًا ورُومًا وبعد الفُرْس عُرْبانا !

كلُّ المَوَالى إذا وَلَّوْا فلا أَسَـــفٌ * إذ أنْتَ باقٍ، ويُبْـقِى اللهُ مَوْلانا !

مولًى به قـــدْ تَشَرَّفْنـا وجَمَّلنَـا * بوجهـــه، ولذِكْرِ القومِ أنْسانَا !

الصنف التـاسع ــ التهنئـــةُ بولاية عمل .

أبو الفَرَج البَبَّغاء :

عَرَّف الله سيدى بركةَ هـذا العملِ الجليل، بنبيلِ نَظَرِه الجميل، وحَمِيدِ أثَرِه المحروس ؛ وتناصُر سياسته الشريفة بسِمَةِ رياسته ؛ ووفّق رعيّتَه لشُكْرِ ماوَلِيَها من فائض عَدْله ومحمودِ فِعْله . فالأعمالُ منه ــ أيده الله تعالى ــ بالتهنئة أَوْلى، وبالتَّطاوُل بما شَمِلَها من بركات تدبيره أَحْرى ؛ والله بكَرَمه يسمَعُ فيه صالحَ الدعاء، ويبلِّغُه أبلغَ مُدَد البقاء، فى أسبغِ نِعْمه، وأرفعِ مَنْزِله، وأصدقِ أُمْنِيَّه، وأنجحِ طَلِبَه، بمَنِّه .

132316

Marfat.com

وله فى مثـــله :

لولا ما يَشْرَكُ التَّهـانِىَ من بركات الدُّعاء الذى أرجُو أنْ يسمَعَ اللهُ فيك صالِحَه، ويُجِيبَ أحسَنَه ؛ لأجلَلْناك عن التَّهنِئة بمستَجِدِّ الأعمـال ، ومستَحْدَث الوِلَايات ، لقُصُورها عن آستِحْقاقِك ، وآنْحطاطِها وإن جلَّتْ عن أيْسَرِ واجِبـاتك ؛ وتعَجُّلِها بمأْثُورِ كِفَايتك ، وبَرَكاتِ نَظَرك ، ومواقِع إنصافِك . فهنَأك اللهُ نِعمةَ الفَضْل التى الولايةُ أصـغَرُ آلاتها ، والرِّياسةُ بعضُ صِـفاتها ؛ ولا أخْلاكَ من مَوْهِبَةٍ مُجَدَّده ، ومِنْحةٍ مُؤَبَّده .

وله فى مثـــله :

سيدى ـ أيده الله ـ أرفَعُ قَدْرا ، وأنْبَهُ ذِكْرا ؛ وأعظَمُ نُبْلًا ، وأشهَرُ فَضْلا ؛ مِنْ أنْ نُهَنِّئَه بوِلَاية وإنَّ جَلَّ خَطَرها ، وعَظُم قَدْرها ؛ لأنَّ الواجبَ تهنِئةُ الأعمال بفائِضِ عَدْله ، والرَّعِيّة بمحمُودِ فِعْـله ، والأقَاليم بآثارِ رِيَاسته ، والولاياتِ بسِمَات سِيَاسته ؛ فعرَّفه اللهُ يُمْنَ ماتولَّاه ، ورعَاه فى سائرِ ما آسْتَرْعاه ؛ ولا أخْلاه من التوفيق فيما يُعانِيه ، والتسديد فيما يُبْرِمه ويُمْضِيه .

الأجوبة عن التَّهانِى بالولَايات

قال فى "مواد البيان" : هذه الكُتُب إذا وردَتْ ، وجبَ على المُجيب أن [illegible] من كل كتاب منها المعنىٰ الذى يُجيب به . قال : والطريقةُ [illegible] فيها أنَّ كتاب المجيب يجب أن يبنىٰ علىٰ أن المهنَّأَ قسيمٌ فى النِّعمة المتجدده ، وشريكٌ فى المنزلة المستحْدَثة ، وأن الحظَّ الأوفَرَ فيما ناله المهنَّأ للمهنِّئ وببركةِ دُعائه ، وتوقعه لما يَرِدُ

Marfat.com

من حاجاته وتَبِعاته لينفِّـذَها ، نازلا على أخلص مخالصته ، وعاملا بشُروط مَوَدّته ، ونحو هـذا مما يضارعه . فإن كان المجيبُ رئيسا أو مرءُوسا ، وجب أن يرتِّب الخطاب على ماتقتضيه رتبةُ كلِّ واحد منهما .

وهذا مثال من ذلك :

زهر الربيع :

وردَت المُشرِّفة الكريمـةُ ، أتمَّ الله على مُرْسِلها نعمتَه ، وأعلى قدْرَه ومنزلتَـه ، وجعل جَناحَ العِـدا مخفوضا ، وعَيْشَـه في دَعَةٍ وخَفْض ، وقدْرَه للتمييز مرفوعا ، وعدُوَّه للتقصير في انحطاط وخَفْض ، فتلقَّاها باليمين ، وظنّها الريحَ الجنوب لما تحمَّلته من رِقَّة حَنين ، وعلم ما أبداه فيها من تفصُّلاته ، واعترف بالتقصير عن مُجاراته ، وشنَّف سمعَه بألفاظ كأنّهنّ اللُّؤلؤ والمَرْجان ، وبيَّنت البَوْنَ الذي بينه وبين غيره تلكَ الفصاحةُ والبيان ، وقابل أياديَهُ بشُكْر لسانه ، وجازاه بحُسْن الدُّعاء عن إحْسانه ، ولا يقومُ بشُكْر فضلِه اللسانُ ولا الجَنَان ، وهلْ جَزاءُ الإحْسانِ إلّا الإحْسان ؟ .

وأمّا ما أشرتَ إليه من هَناء المكان الذي تولّاه ، وأبدَه من المحبَّة التي أوجبَتْ له أن يتولّاه ، فالله تعالى يعينه على ما هو بصَدَده ، ويجعلُ الحقَّ وخيرَ الدارين على لسانه ويَده ، ويرزقه اتّباعَ محكم كتابه وسُنّة رسوله ، ويُحصِّل له من رُشْد غايةَ سَعْيه ومقصوده ، فإن هذه ولايةُ صَعْبةُ المِرَاس ، وجوادُها كثيرُ الشِّماس ، لكن بركاتُ الله تحصُل من الله بالقُرْب ، ويُسْهِّل لأوليائه القصدَ والإسعادُ والطَّلَب ، فالله تعالى يمدُّه بتسديده ، ويُوضح لديه طريقَ السعادة ومَهَّده ، ومنَحَه من العطف على الرعيّة أفضلَ ما عوّده ، منّه وكرَمه .

Marfat.com

الضـــرب الثـانى

(التهنئـــةُ بكرامة السلطان وأجوبتُهـا)

وفيـــه ثلاثة أصـــناف :

الصنف الاوّل ــ التهنئةُ بالإنعام والمَزِيد ولُبْس الخِلعَ وغير ذلك .

من كلام الأقدمين :

ويُنْهِى أنه آتَّصـلَ بالمملوك ماأهَّل مولانا السلطانُ مَوْلانا لَهُ : من المحلِّ السَّنِىّ ، والمكانِ العَلِىّ ، الذى لم يَزَلْ موقُوفًا عليه ، متشَوِّفا إليه ، نافِرًا عن كلِّ خاطبٍ سِواه ، جامِحًا على كلِّ راكبٍ إلَّا إيَّاه ، فأقَرَّ اللهُ عينَ المملوك بذلك لِصِدْق ظنه ، وعلم أنَّ ماأصاره اللهُ تعالى إليـه من هذه المنْزِلة المُنِيفه ، والرُّتبة الشريفـه ، مَدْرَجةٌ تُفْضِى إلى مَدَارج ، ومَعْرَجة تنْتهِى إلى مَعَارِج ، والله تعالى يَزِيدُ مَعالِيَه عُلُوًّا ، ويُضاعف محلَّه سُمُوًّا ، بمنِّه وكرمه ، إن شاء الله تعالى .

ومنه ــ ويُنْهِى أنه آتَّصـل بالمملوك نَبَأ المَوْهِبَة المتجَدِّدة لديه ، والنعمة المُسْبَغة عليه ، وما آختَصَّه به مولانا السلطانُ من الاِصْطِفاء والإيثار ، والاجتِبَاء والاِخْتِيار ، وتقديمِه للرُّتْبة الأثِيره ، والإنافةِ إلى المَنْزِلة الخَطِيره ، فسُرَّ المملوكُ للرِّياسة إنْ أبقاها الله تعالى فى محلِّها ، وأنزَلَها على أهْلِها ، ووصَلَها بكُفْئِها وكافِيها ، وسَلَّم عَوْسَها إلى رامِيها ، والله تعالى يجعلُ هذه الرتبةَ أوّلَ مِرْقاة من مَرَاقِى الآمال ، ومكينِ الرُّتَب التى يَفْرَعُها من رُتَب الجَلال ، إن شاء الله تعالى .

Marfat.com

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

أدامَ اللهُ أنصارَه، وجعل التَّقوى شِعارَه، وألْبَسه من المَحامِد أكرمَ حُلَّه، ونقَلَه من المَكارم أحمدَ خَلَّه، ولا زالت الخِلَع تتشرَّف إذا أُفيضتْ عليه، والمدائحُ تُستطاب بذكره لاسيَّما إذا أُنْشِدتْ بين يَدَيْه .

الخادمُ يُنْهِي إلى عِلْمِ المَوْلى أنه آتَّصل به خَبَرٌ أهْدَى إليه سُرورا، ومَنَحه بَهْجةً وحُبورا : وهو ما أنعم به المولى السلطانُ خلَّد اللهُ سلطانَه، وضاعفَ إحسانَه : من تشريفه بخِلْعته . وما أسْبَغَه عليه من وَارِف ظِلِّه وغامِرِ نِعْمته، وأبداه من عِنايَتِه بالمولى ومحبَّتِه، وقد حصَّل له من المَسَرَّة ما أجْذَله . وبَسَط في مُضاعفة سَعْدِ المولى أمَلَه ؛ فإنه بلَغه أنَّ هذه الخِلْعة كالرِّياض في نَضارتها، وحُسْنِ بَهْجتها، وأنها لمَّا بَرَقَتْ بَرِقَ لها البصرُ، وظَنَّها لحُسْنها حديقةً وقد حَدَقَ بها النظرُ ؛ وقد جمعَتْ ألوانَ الأزهار، وأرْبَى ناعمُها على اللُّطف على نَسَمة الأسحار، وأسكنَتْ حُبًّا حبَّاتِ القلوب التي في الصُّدور، ومَتَّعَتْ من المَتاع بالنَّظَر وفائق المَنْظور ؛ فإن آبنَ سُلَيْمٍ لو رآها لاعترف بأنها أبْهَى ما تَسْمو إليه النفوس، وأشْرَفُ ما تَقِرُّ به العيون، وأنَّ مَنْ نظَر نَضْرةَ نَضارتها لما جعل لها في الحُسْن نَظيرا، ولو رآها على وَجْنَة الأيَّام وَقْتَه لَبَيَّض [illegible]

---

(١) مراده أبو الطيب [illegible]

Marfat.com

الصنف الثانى ــ التهنئةُ برِضا السلطان بعد غَضَبه ،

فمن ذلك :

وتُنْهِى أنه آتَّصل بى ماجَدّده اللهُ تعالىٰ لمولاى ــ أطال الله بقاءه ــ من حُسْن عاطفة مولانا أميرِ المؤمنين ــ خلَّد الله ملكه ــ وآنعطافه عليه بعْدَ آنْصرافه ؛ وإعادته إلىٰ رُتْبته التى نَشَزَتْ عنه دَلَالًا لا مَلَالا ، وهجَرْته هَجْر المستصْلِح المستَعْتِب ، لا هَجْرَ القالِى المتجَنِّب ؛ وكيْفَ تَقْلاه ، وهى لا تجِدُ لها كُفُؤًا سِواه ؛ ولتوقُّع المملوك بما وقع من هذه الحال ، وعلْمِه أنَّ عَوْدها إليه كعودة المُودَع [إلىٰ مُودِعه ،] لاعَوْدةِ المنتَجِع إلىٰ مَرْبَعه ؛ وأنَّ الذى وقَع من الآنْحراف إصلاحٌ باديه تهذيبٌ وتَقْويم ، وخافِيه توقيرٌ وتعظيم : لِمَا فى عِتَاب أمير المؤمنين من شَرَف الرُّتْبه ، والدِّلالةِ علىٰ آستِقْرار الأُثْرة والقُرْبه ؛ وحُلُوله مَحَلَّ الصَّقال ، من أبْيض النِّصال ، والشَّهْد من العَسَّال ؛ ولا سيمَا ورِياسَتُهُ محفُوظه ، وسيادتُهُ ملْحُوظه ؛ وهيبتُهُ فى النُّفُوس مائِثه ، وجَلَالته فى القلوب حاصِلَهْ ؛ ولم يرِ المملوكُ أجلَّ مَوْهِبَةً من الله سبحانه من شكر يستَرْهِنُ هذه النعمةَ ويخلِّدها ، وحمدٍ يرتبِطُها ويقيِّدها ؛ ورغبتُه إلى الله سبحانَه أنْ يجعلَ هذا العِزَّ الحادثَ لابِثًا لايتحوّل ، والسعدَ الطارِقَ ماكثًا لايرتحِل ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

ومن ذلك :

وتُنْهِى أنّ من عادة الزمان أن يكُفَّ سَحابَه ثم يكُفّ [ ] ثم يَزِنّ ؛ ويدِرّ حَلَبه ثم ينقطع ، ويُقْبِل خيره ثم يُدْبِر ، وأن الله إذا سلَب النعمةَ ممن يَسْتَوجِب إمرارَها سلبه ، وآنتزع المنّ ممن يستحق [ ] ربها لديه ،

(١) لعل الواو زائدة ويكون متعلق اللام فى قوله «ولتوقع» الخ تأمل .

Marfat.com

كانَ كالغالِطِ الذى يُراجِع نفْسَه فيندَمُ علىٰ مافَرَط ، ولا يلبَثُ أن يســتَدْرِك الغَلَط ، مُعْقِبا نَبْوته بإنابَته ، متعَقِّبا هَفْوته باستِقالَته ، ماحِيًا إساءته بأدب مانَلَم ، وأَسْوِ ماكَلَم ، وإصــلاحِ ما أفْسد ، وتأليفِ ماشَرَد . فلا جَرمَ أنَّ النفُوسَ بإقبالِه علىٰ مَنْ هــذه صفتُه واثقه . والآمالَ لانصرافه إلىٰ مَنْ هذه صورتُه متحقِّقه ، وإذا سَلَبها هَرْولَ فى إيداعها لديْه ، وأخذ [فى] إفاضَتها عليه . وما زال الملوكُ ــ مُذْ عامَلَ الزمانُ مِلانا بسوء أدَبِه ، ونأىٰ عنه بجانِبه ، وقبَضَ بنانَه ، وغيَّر عليه سُلطانَه ــ عارفاً أنَّ هذه الفَعْلة فَلْتة من فَلَتاته التى يوفِّى شَرَّها ، ولا يرجِعُ إلىٰ مثلها ، وأنَّ الاستِبْصار يقودُه إلىٰ الاعْتِبار ، والاضطِرار يَحْدُوه علىٰ ردِّ ما انتزعه بالإجْبار : لأنه لا يجِدُ من يَحُلُّ محلَّ مولانا فى ارتباطه بإيناسه ، وتعهُّده بسَقْى أغْراسه ، وقيامِه بشُكْره ، وتزكيته بِبِرِّه ، متوقِّعا لأن تيقِظَ عينُه ، ويَنكشِف رَيْنُه ، فيرىٰ ماصنعَتْ يَداه ، ويبادِرُ لاستقالة ماجناه ، حتى طرق البشيرُ بما سَمِعْتُه الله تعالىٰ من انحسار الكُرْبه ، وعَوْد مولانا إلىٰ شَرَف رُتْبه ، وصلاح ماأفسده ، وعَوْد السلطان أعزَّ الله نصره إلىٰ ماعَهِد ، وركوبه إلىٰ حضرته ، وانقلابه عنه راقِلاً فى تشريفه ومكْرُمته ، فكان معتقَدُ المملوك فيه جميلا فى الشرور عادَل ، وبجميلِ صُنْعه فاستهلّ ، فاستَوْفىٰ علىٰ المماوِك من السُّرور ماعمّ بِشْرَه ، وغمر خواطِرَه ، وأطار بجناح نَجْح . وألبس حُلَّة الفَرَح ، إذ ما جدَّده الله تعالىٰ له من السعادة يُحْفَظُ به فى الغَيْبة ، ويُحمَد به فى الحُضور ، لأنه حرِيٌّ بأن لايستأثِر بمعروف الله عنده ، ولا يكْرَه علىٰ عطاياه يَدَه ، بل يمنَحُ ثم مُنْح ، ويُولِى ثم تَوَلَّى ، ولا يَضِنُّ بمال ولا جاه ، ولا يقْعُد عمن أمّله ورجَاه ، والله تعالىٰ يجعل ذلك من أقرب السبيل ، ويصدِّق فيه الظُّنون ، لاتُخْلِقُه الأيام ولا تُبْلِيه ، ولا تَرْوِيه الحوادثُ ولا تؤثِّر فيه ، إن شاء الله تعالىٰ .

Marfat.com

الصنف الثالث ــ التهنئةُ بالخَلَاص من الاعتقال .

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

جدّد اللهُ سعدَه، وضاعفَ جَدّه، وأنْجَح قَصْدَه، وأعذَبَ مَنْهَلَه ووِرْدَه، ولا انفكّت الأيّامُ زاهيةً ببقائِه، والأنْفُس مسرورةً بِارتقائِه إلىٰ رُتَب عَلْيائه . أصدرها تُفْصِح عن شَوْقٍ يَعْجِز عن سَوْقِه الجَنَان، ويقْصُر عن طُوله اللّسان، وسُرورٍ تزايدَ حتّىٰ أبكاه، ولاعج بمشاهَدةِ طَلْعتِه السعيدةِ أغْراه، وتُهنِّيه بما جدّد الله له بعدَ الاعتقالِ من الفَرَج والفَرَح ، ومَنَّ به بعدَ ضيقِ الخَواطِر من الابتهاج والمَرَح، فهذه المسرّةُ ماءٌ زُلالٌ بَرَد بها الأوَام ، وإنعامٌ عامّ، حمِد اللهَ عليها الخاصُّ والعامّ ، فالحمدُلله الذى عوّضه عن مَأْتَم الحُزْن بما تَمّ من السرور، و[عن] الهَمِّ المانِع عن الوُرُود والصُّدور بانْشِراح الصُّدُور ، فإنَّ القلوبَ شَعَفَها حبُّه وشغَفَها ، وضاعَفَ لتعويقه أسَاهَا وأسَفَها ، بحيث اعترىٰ المَناطِقَ قلقٌ وعلاها اصْفِرار، وعُطِّلت يدُ كل غانية من الحُلِيّ فما ضمّها قُلْبٌ ولاسِوَار ، ولبِس الخُطباء حزنا وأُلْبِسته المحابِر، وكادت لغَيْبته وفَقْد اسمِه تندُبُه الجوامعُ وتَبْكيه المَنَابر، خلّد الله سعادتَه، وسهّل له من خيْرَى الدنيا والآخرة قَصْده وإرادتَه ، بمنّه وكرمه .

الأجوبة عن التهنئة بكرامة السلطان و رضاه بعد غضبه

قال فى " مواد البيان " : يجب أن تكون أجوبةُ هذه الرِّقاع مُودَعةً من الثناء علىٰ المهنّىٰ ــ لمحافظته علىٰ رُسوم المَودّة وقيامه بشُروط الخُلّة ــ ما تقتضيه رتبته ورُتبة المُجيب ، وأنّه مشاركٌ له فى متجدّدِ النعمة ، مُفاوِضٌ فى حديث المَسَرّة ، والتيمّن بالدعاء، ونحو هذا مما يحسُن موقِعُه عند المبتدئ بالمناء، ويضَعُه بحيثُ وضَع نفسَه من الاختصاص بمَنْ كاتَبه .

Marfat.com

وهذا مثال من ذلك :

زهر الربيع : [جواب] هناء بخِلْعة :

أدام اللهُ عَلاَءه ، وشَكَر آلاَءه ، وضاعفَ سَنَاءه ؛ وحمِد مِنَنَه التى أثقلَتْ لكلِّ مُعْتفٍ ظَهْرا وخفَّفتْ هَمّا ، وأنالتْ لكلِّ ولىٍّ نصيباً من عَوَارفها وقِسْما . المملوكُ يُنْهِى إلىٰ العلم الكريم وُرودَ المكاتبة التى كَسَتْها يدُه حُلَّةَ جَمَال ، وألبسَتْها ثوبَ إفْضال ؛ وأعَدَّتْها بكَرَمها ، وحسَّنتْ وجْهَها بلِسان قلمِها ؛ فأمطرَتْه سَحابَ جُودٍ أرْبىٰ علىٰ السَّحاب الهَتُون ، وأوقفَتْه منها علىٰ ألفاظٍ كأمثالِ اللُّؤْلؤ المَكْنُون ؛ فٱجتنىٰ ثِمارَ الفضائلِ من أغصانِها ، وٱجتلىٰ عَرُوسَ مَحَاسنها وإحْسانِها ؛ وفهِمَ ماأشار إليه من التهنئةِ بالخِلْعة التى أنعم المولىٰ بها علىٰ خادمه وتَصَدّق (١) ، وحقَّق الأمَلَ فى مكارمه وصَدَّق ، وإنعامُه خلَّد الله دولتَه ، وأعزَّ نُصْرته ، قد كَثُر حتّى أخجله ، وميَّزه علىٰ كثيرٍ من مماليكِ بيتِه العالى وفَضَّله ؛ وأنالَهُ من المنْزِلة ماسَمَا بها علىٰ أمثالِه ، ورَقِىَ بها بعدَ رِقَّةِ حاله ؛ فاللهُ يخلِّد سلطانَه ، ويثبِّت بالسعادة أركانَه ؛ وهذا بسعادةِ مولانا ومُساعدتِه ، ومعاونتِه ومعاضَدتِه ؛ فإنه كان السببَ فى الاتِّصال ببابه أوّلاً وآخِرا ، ومَنْ أغاثَهُ بذلك وأعانَه عليه باطِنًا وظاهِرا .

وكلُّ خيرٍ تَوَخَّانِى الزَّمانُ به ... فأنتَ باعثُهُ لِى أو مسبِّبُهُ

---

(١) فى [illegible] ولا [illegible] تأمل .

Marfat.com

الضـــرب الثـالث

(من التهانى التهنئـــة بالعَوْد من الحَجِّ)

وهذه نسخ من ذلك يُنْسَج على مِنْوالها .

فمن ذلك :

ويُنْهِى أنه طرقَ المملوكَ البشـيرُ بِعَوْد مولانا ـ أطال الله بقاءه ـ من مَقَـام الطائفين ، إلى مَقَام المعتَفِين ؛ وأوْبتِـه من كَعْبة الإحرام ، إلى كَعْبـة الإكرام ؛ وتنقُّلِه من مَوْقِف الحُجَّـاج ، إلى مَوْقِف المحتاج ؛ وحُلُوله بمنزله الذى هو قبلةُ ذَوِى الآمال ، ومحطُّ الرِّحال ؛ بالسَّـــعْى المشكور ، والحجِّ المبرُور ؛ والنُّسُـك المقبُول ، والأجْرِ المكتُوب ؛ فحمِدتُ الله تعالى على مَوْهبتِه ، وسألتُه زيادتَه من مَكْرُمتـه ، واستنجَحْت هـذه المكاتبةَ أمامَ ما أرومُه من مشاهَدتِه ، وأرجوه من الاستِسْعاد بملاحَظَتِه ؛ وبَرْد أوَار الشوق بمحاضَرته ، ومجدِّدًا عُهودَ التيمُّن بابتسَمته . إن اقتضى رأيُه العـالى أن يُعرِّف المملوكَ جملةً من خبره فى بَدْئه وعَوْده ؛ ومسلَكِه ومنهَجِه ؛ وما تفضَّل اللهُ تعـالى به من أمانِ سبيله ، وهدايةِ دليله ؛ وتخفيفِ وَطْئه سفَره ، وتسْهيل وَطَرِه : لِأسْكُنَ إلى ذلك إلى عِينِ التمثُّل بنظَره ، فله الفضـل فى ذلك ، والله تعالى يبلِّغه سُوله ، ويوصِّله مرادَه وأمُولَه ؛ بمنه وكرمه .

ومن ذلك :

ويُنْهِى أنَّ مولانا لايزال حاجًّا إلى كعبة المكرم [illegible] الوُفُود ، أو بشعائر الجود ، وواقفًا بموقف الأسخياء ، أو موقف السماح ، وناشرَ البُدْن بِمِنَى ، أوناثِرَ البِدَر للمُنَى ؛ فلا يرتفع فى حاجٍ من الأحوال يرفع ولا يتقطع من الله

تعالىٰ ذكْرُه ؛ ومَنْ كان بهذه المَثَابه ، فى إحراز الأجْرِ والإنَابه ، فهو حقيقٌ أن تُعْمَر بالتهنئـةِ أوقاتُه وأزمانُه ، كما عَمَرها سـعيُه و إحسانُه ؛ وقد عرَف المملوكُ ٱنْكِفاءَه ـ أدام الله علُوَّه ـ عن مَقام الطائفين والعاكفين ، إلىٰ مَقام القاصدين والمعتَفين ، وعوْدَه إلىٰ منْزِله المعمُور ، بعد قَضائه فريضةَ السَّعْيِ المشكُور ؛ فعدَلْتُ فى مخاطَبته عن الهناء إلىٰ الدعاء بأن يتقبَّل الله تعـالىٰ نُسُكَه ويثقِّلَ ميزانَه ، ويُطْلِقَ فى حَلْبـةِ الخيرات عِنانَه ، ويُحْيِيَه لأجر يُحْرِزه ، وثواب يَكْنِزُه ؛ والله تعـالىٰ يُجيبُ ذٰلك فيه ، ويُريه فى نَفْسه وأحِبَّته ما يرتَضيه .

ومن ذلك :

وتُنْهِى أنَّه قد طرَقَنِى البشير بٱنكفَاء مولانا إلىٰ مَقَرّ عَلَائه ، وٱنْفِصاله عن مَلَاذِ النُّسَّاك والعُبَّاد ، إلىٰ مَعَاذِ الزُّوَّار والقُصَّاد ؛ فعرفْتُ أنَّ ذلك النسيمَ العليلَ من تِلْقائه ، وذلك النُّورَ الصادِعَ من آلائه ؛ وذلك الٱفْترارَ من أسِرَّته ومَخَايِله ، وتِلكَ العُذُوبةَ من شِيَمِه وشمائله ؛ فكاد المملوكُ يطير ـ لو طار قَبْلِى غيرُ ذِى مَطَار ـ فرَحا ، وأخْرِقُ الأرض وأبلُغُ الجبالَ لو أمكن ذلك مَرَحا ؛ وٱنفتَحَ قلبى حتَّى كادت مهجَتُه تَفيضُ سُرُورا ، وطاشَ حِلْمِى حتَّى تفرّق مجموعُه بَهْجَةً وحُبورا ؛ والله تعالىٰ يجعل نِعمَـه موصولةَ الحبل ، مجموعةَ الشَّمْل ؛ بمنّه وكرمه .

أبو الفرج البَبَّغاء :

جعل اللهُ سَعْيك مشكورا ، وحَجَّك مَبْرورا ؛ ونُسُكَك مقْبُولا ، وأجْرك مكتُوبا ؛ وأجزلَ من المَثُوبة جزاءَك ، ومِنْ عاجلِ الأجْر وآجلِه عطاءَك ؛ وقَرَن بالطاعاتِ عَزَماتِك ، وبالسَّعْيِ إلىٰ الخير نَهَضاتِك ؛ ووَفَّقك من صالحِ الأعمال ، وزَكىّ الأفْعال ، لما يجمَعُ كلَّ خيرِ الدارين . ولمَّا طرقَتْنى البشارةُ بقُدومك ، بدأتُ بإهداء الدعاء ، وتجديدِ

Marfat.com

الشكر لله تعالىٰ والثَّناء، وٱستنبْتُ فى ذلك المكاتَبَه، أمامَ ما أنا [عازم] عليـه : من المُشافَهَة والمُخاطَبه ؛ ولن أتأخَّرعن حظِّى من المسير إليْك للتيمُّن بالنظر إلىٰ غُرَّتك، ومداواة ماعانيتُه من ألَم الشوقِ بمُشاهدَتِك .

الضـــرب الرابع

(من التهانى ، التهنئةُ بالقُـــدُوم من السَّفَر)

من كلام المتقدّمين :

علىّ بن خلف :

ويُنْهِى أنَّه ٱتَّصـل بالمملوك خبَرُ توَجُّهه[1] إلىٰ الناحية الفلانيـة، فعرَفَ المملوكُ أنه قصَـدَها لِيخُصَّ قاطِنِيها ، بنصيبٍ من مَوَاهِبـه ؛ ويُفِيضَ علىٰ ساكنِيها، سِجالًا من رَغَائبه ؛ ويسَوِّىَ بينهم وبين مَنْ راشَه بجَبائه ، وجَبَره بنوافله وآلائه ؛ فسألتُ الله تعـالىٰ أن يُطِيلَ عُمُر المَكارِمِ بإطالة بَقائِه ، ويجمَعَ شَمْل السُّؤْدَد بدَوَام عَلَائه ؛ ثم ٱتَّصل بى عودُه إلىٰ مَقَرّه ، خَفيفَ الحقائِب من وَفْره ، ثقيلَها من ثَنائِه وشُكْره ؛ فحمِد المملوكُ اللهَ تعالىٰ علىٰ إسْفارِ سَفَرِه عن بُلُوغ الأوْطار، وٱنحسارِ أُمنِيَّته عن أذْيال المَسَارّ؛ وما خصَّه به من السَّـيْر الشَّجِيح، والسَّعْى النَّجِيح ؛ والسَّلامةِ المفرَّقة علىٰ الوِجْهة والمنقَلَب، والمفتَتَح والمعتَقَب ؛ ولَمَّـا عرض للمَلوك ماقطَعه عن مُشافَهتِه بالدعاء ، رفعَ يدَه إلىٰ الله تعالىٰ ضارعا لدَيْه فى أن يتولّاه فى هـذا المَقْدَم الميمون ، بالسعْد المَضْمُون ؛ وإنالة الأمانِىّ المُقِرّة للعُيُون ؛ وأن يمنَحَه فى الحِـلِّ والتَّرْحال ، والقَطْن[2] والٱنتِقال، توفيقًا يقارِنُ ويُصاحِبُ ، ويُسايِرُ ويُوا كِب ؛ وأنْ يجعلَ ماخوَّله من نعمه راهنًا خالدا ، وما أوْلاه من مَوَاهِبه بادِئًا عائِدا ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) فى الأصل وجهته وهو تصحيف إذ الوجهة الناحية والجهة وهو غير مراد كما لا يخفى .

(٢) مصدر قطن فى كتب اللغة التى بأيدينا علىٰ فعول لا علىٰ فعل .

Marfat.com

وله ايضـــا :

ويُنْهِى أنه طَلَع عليه البَشِير، طُلوعَ القمَر المُنِير؛ مُؤْذِنا بمَقْدَم حضرتِه ، ومُعْلما بظُهُور طَلْعتــه ؛ وحُلُوله فى مَعَانه[1] الذى هو مَعَان الإقبــال ، وعَوْن الرجال؛ وقرارةُ الأقْيال، ومَحَطُّ الرِّحال ؛ وقبلةُ الجُود، ومُعرَّس الوُفُود ؛ فسألتُ الله تعالىٰ أن يُبقِيَه جمالًا للأيَّام ، وثِمَــالًا للأنام ؛ وعِمادًا للقُصَّاد، ومَرَادا للرُّوَّاد؛ والله تعالىٰ لا يُخْلِيه فى تصرُّفاته، وجميع حركاته وسكَنَاته؛ من سَعْى سعيد، وعيشٍ رَغِيد؛ بمنِّه وكرمه .

أبو الفرج الببَّغاء :

مَن كانتْ غَيبــةُ المكارم مقرونةً بغَيْبتِه ، وأَوْبَةُ النِّعم موصولةً بأَوْبته ؛ سافرتِ الأنفُسُ حيثُ كانَ إليــه ، وقَدِمتِ الآمالُ عند قُدُومه عليــه ؛ وما زالتِ الأنفُسُ إلىٰ الأُمْنِيَّة بقُرْبه متطلِّعــه ، ولوُرُود السُّرور بوُرُوده متوقِّعه ؛ إلىٰ أنْ أنِسَتْ بعد الوحشة بلِقائه، وتنسَّمَتْ أرَجَ مَنِّه ونَعْمائه ؛ فوصلَ اللهُ قُدومَه من الكَرامه ، بأضعاف ما قَرَن به مَسِيرَه من السَّلامه ؛ محروسًا من طَوارِقِ الغِيَر ، مبلَّغا أبعَدَ العُمُر .

وله فى مثـــله :

مَن كانت مادَّةُ سُرُوره بغَيبته وحُضُوره ؛ لم يجِدْ مع بُعْدِك مُؤنِسا يسْكُن إليه ، ولا عِوَضا يعوِّل فى السَّلْوة عليه ؛ وما زلتُ أيامَ غَيْبتك ــ لا أوحشَ اللهُ منــك ــ بالوَحْدة مستأْنِسا ، وبالشَّوق إليكَ مجالِسا ؛ أُلاقِيك بالفِكْر، وأشاهِدُك باتِّصال الذِّكْر؛ إلىٰ أنْ منَّ الله مِنْ أَوْبتك بما عَظُمت به النعمه ، وجَلَّت لدَىَّ معه المَوْهِبَه ؛ فوصــلَ اللهُ بالسلامة نَهَضاتِك ، وبالسعادة حَركاتِك ، وبالتوفيق آراءَك وعَزَماتِك ؛ ... بقائك وبقاءِ النعمة عِندك ، وهَنَأنى النعمةَ الجليلةَ بقُرْبك .

---

(١) فى القاموس واللسان «المعان المباءة والمنزل» وأورداه فى مادة م ع ن .

Marfat.com

وله فى مثـــله :

مَنْ كنتَ نِهـايةَ أمنِيَّته، وقُطْبَ مَسَرَّته؛ كان من نَفْسه مستوحِشا مع بُعْدِك، وبدَهْرِه مستَأْنِسا مع قُرْبك؛ وما زِلْتُ معـك بالنِّيَّة مُسافِرا، وبالشَّوق سائِرا؛ وبالفِكْرِ ملاقِيـا، وبالأمانِيِّ مُناجِيا؛ إلىٰ أن جمعَ اللهُ شملَ سُرورِى بأَوْبتِـك، وسَكَّن نافِرَ قلَقِى بعَوْدتِك؛ علىٰ الحـال السارّة من كمال السَّـلامه، ووُفُور الكُلْفه؛ فأسـعدكَ اللهُ بمَقْدَمكَ سـعادةً تكونُ بها من الزمان محرُوسا، وللإقبال مُقابِلا، وبالأمانِيِّ ظافرا؛ ولا أوحش اللهُ منـك أوطانَ الفضل، وعَضَّد إخوانَك ببقائِك وبقاء النعمة عندك .

وله فى مثـــله :

لو كان القلبُ يجِدُ عنـك مُنْصَرَفا، أو يرىٰ منـك فى اكتسابِ المسَرَّة خَلَفا؛ لاستراحَ إليه من ألَمِ بُعْدك، واستنْجدَه علىٰ مَرارة فِراقك؛ لٰكِنَّك أيَّدك الله جملةُ مسَرَّته، ونِهايةُ أُمنِيَّته، فليس تتوجَّه أمانِيُّه إلَّا إليك، ولا تَقِفُ آمالُه إلَّا عليك؛ فالحمدُ لله الذى أقرّ بفَيْئَتك أعيُنَ إخوانك وأوِدَّائك؛ وإنَالَكَ اللهُ من السَّعادة فى أَوْبتك أضْعاف ما اكتنَفَك من الكِفَاية فى ظَعْنك .

ابن أبى الخِصال :

سَرّ اللهُ مولاى ورَئِيسى، ورَبَّ تشريفى وأَنِيسى؛ بلِقاء الأحْباب، واتِّصال الأسْـباب، وأوْبةِ الغُيَّاب؛ ولا زالتِ الأيامُ تتصَنَّع لإقباله، وتُقَبِّـله أوجُهَ المسَرَّة فى اقتباله؛ وتُوفيه علىٰ رغم الحاسد حَقَّ جَلَاله .

البُشْرىٰ ـ أدام الله اعتزازه ـ بمَقْدَم الوزير فلان قد أوضعَتْ ركابُها، واتَّصل بالنفوس أعْلاقُها وأسبابُها؛ فهنيئًا مَعْشَرَ الأولياء بسُبُوغ هذه النعمة الجليله، والمِنْحة

الجزيله، ولا أستوفى شكرَ مابه أتىٰ مُعَظَّمَ قَدْره، وملتَزِمُ بِرِّه؛ من ثناءٍ كعَرْفِ الطيب يُهْدىٰ ، ومَذْهَب فى الإنهاض لا يُقْضىٰ واجبُه ولا يؤدّى ؛ ولا زالتْ حياةُ مولاىَ تُفَدىٰ ، وأفعالُ برِّه تتعَدّى ؛ وقد لثَمْتُ مواقِعَ أنامِله وُدًّا ، ووردْتُ من مَحَاسن بَيانِه مَنْهَلا عَذْبا [ووِردا] فأمتعنِى اللهُ بحياته العزيزةِ الأيّام ، الطيّبة الإلمـام ، الموصولةِ العهدِ والذِّمام ؛ وأقرأُ علىٰ سيدى من سَلَامى مايلثِمُ يدَه ، ويقضى حقَّ اليراع [الذى] أنشأ به البر وولَّده ، والسلامُ المعادُ عليه وعلىٰ جملته ورحمة الله وبركاته .

الشيخ جمال الدين بن نُبَاتةَ عن نائب الشام إلىٰ القاضى عَلاءِ الدين بن فضل الله كاتب السرّ الشريف ، بالأبواب الشريفـة بالديار المصرية ، عند عَوْده من الكَرَك إلىٰ الديار المصرية ، فى سـنةِ ثلاثٍ وأربعين وسـبْعمائة ، مهنّئا له بعوده إلىٰ مَنْزِله بالديار المصرية ، وآسـتِقْراره وعوْدِه إلىٰ كتابة السرّ الشريف بالأبواب الشريفـة السلطانية ، وهى :

تُقَبِّل الباسطةَ الشريفةَ ـ إلىٰ آخر الألقاب ـ لازالَتْ خناصِرُ الحمد علىٰ فَضْل بَنانِها معْقُوده ، ومآثرُ الباس والكرم لهـا ومنها شاهدةً ومشْهُوده ، وبَواتِر السُّيوف مَسَـيَّرةَ القصد إلىٰ مُناظرةِ أقلامها المقْصُوده ، تقبيلاً يودُّ لو شافَهَ بثِغاهه مَوْرِدَ الجُود من الأنامل ، وكاثر بثَغْره عند المُثُول للتقبيل ثُغورَ الأَمَاثِل ، فكان يُشافِهُ بشَوْقه مَوْرِدا كثيرَ الزِّحام ، وكان يُكاثِرُ بعِقْد قُبَله علىٰ يد الفضـل عُقُودا جزِيلةَ الآنتظام ، وكان يحاكم جَوْرَ الضَّيْم إلىٰ مَنْ أبىٰ اللهُ لجار مشاهدته أنْ يُضَام . ويُنْهِى ماوصـل إليه وإلىٰ الأولياء من السُّرور ، وما رُفِـع بينهم وبين الآبِتْهاج من الشُّرُور ، وما طُولِـع فى أخبار المَسَرّة من السُّطور ، بوُصُول مولانا ومَنْ معه إلىٰ مَساكِن العزّ ساكِنين ، ودُخولهم كدُخُول يوسُفَ عليه السـلام ومَنْ معَه إلىٰ مِصْرَ آمنين ؛ وآستقْراره

Marfat.com

فى أشرف مكانٍ ومَكانَه ، واستِنصار مصرَ بأقلامه علىٰ العادة فإنَّ هـذه سِهامٌ وهذه كِنَانه ؛ وإسفارِ غَمَام السَّفْرة عن كَوْكبِ عُلًا طالمَـا حَرَس بِيَمِينه أُفُقَ المُلْك وهداه وزانَه ؛ وما كانتْ إلا غيبةً أحمدَ اللهُ عُقْباها ، وغَيابةَ بُعْدٍ مَنَّ الله عزَّ وجلَّ وجلاها ؛ وفترةً ثنىٰ الله فتْرَتَها فتنفَّس خِناقُ المَنْصِب المشتاقِ لوجهه الكريم ، وهِجْرةً صرَفَ الله هَجِيرَها فسَـقىٰ طِرْسَ الإنشاء الذى آبيضَّتْ عَيْناه من الحُزْن فهُو كَظِيم ؛ وما محَاسِن مولانا إلَّا زينةٌ من زِينَ الدنيا فعليها يتَشاكَسُ المتشاكِسُون ، وما مزاجُ كَلِماتِه إلَّا من تسنيم ﴿ وفى ذٰلِك فَلْيَتَنَافَسِ المُتنافسُون ﴾ .

فالحمدُ لله علىٰ أنْ أقَرَّ العُيونَ بمُعاودة ظِلِّه الوَرِيف ، وعلىٰ أنْ شَـفىٰ الصُّدُورَ بقُرْبه وأوْلَهـا وأوْلاها صَدْرُ السرِّ الشريف ؛ وعلىٰ أنْ أجزَلَ الهَناء وقد شَمِلَ ظِلُّه ، وقد كَمُلَ بابْن الفضل فَضْـلُه ؛ وقد بَهَرَ سَنَاؤه وسَنَاه ، وقد تسعَّب القريبُ والبعيدُ فإنْ أجدىٰ علىٰ مِصْرَ مَوْرِدُه فقد جادَتْ علىٰ الشام سَمَاه . وقد أخذ المملوكُ حظَّه من هذه البُشْرىٰ ، ووالىٰ السُّجود لله شُكْرا ؛ وجَهَّز خِدْمَته هذه نائبةً عنه فى تقْبِيل بَنَان إنْ سَمَـاه مَوْلىٰ الكَرَم بحرا ، فقد سَمَّاه مَرَبِّى الملك بَرًّا ؛ لازالتِ المَمـالكُ متْحَفَة بيُمْنِ مولانا ظاعِنًا ومُقِيما ، متَّصفةً بحمده وحمدِ سَلَفِه الكريم حديثًا وقَدِيما ؛ تاليةً علىٰ مُهِمَّات المُلكِ بصُحْبة بيتِه الشريف ﴿ وكان فَضْلُ اللهِ علَيْكَ عَظِيما ﴾ .

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى فى تهنئة بقدوم من سفر :

أدام اللهُ ظِلَّه ، ورفَعَ محَـلَّه ، وشكَرَ إنعامَهُ وفضْـلَه ؛ وأ ن أنصارَه ، وضاعفَ آقْتِدارَه ؛ ولا زال مؤيَّدا فى حَرَكاته ، مسَدَّدا فى سائرِ فَعَلاتِه ؛ مصحُوبًا بالسـلامة فى المَهَامِه والقِفَار ، مخصوصًا من الله تعالىٰ بالأعوان والأنْصار .

Marfat.com

المملوكُ يُنهِى بعد تقبيلِ الأرض ، والقيام بمـا يَجِب من سُنَنِه والفَرْض ؛ عِلْمَه بحلُول ركابِه العالى بمَغْناه ، واستقرارِ خاطرِه الشريف فى مَحَلِّه ومَثْواه ؛ وجمْعِ الشَّمْل بالأهل بعد طُول الغَيْبه ، وبَعْد القُفُول والأَوْبه ؛ فتضاعف لذٰلكَ فرَحُه وسُروره ، وزال عن قَلْبِه قليلُ الهمِّ وكثيرُه ؛ فاللهُ يمنَحُ المولىٰ أطيبَ المنَازِل ، وأَسَرّ الرَّواحِل ؛ ويجعلُ تجارةَ مَجْدِه رابحه ، وأوامِرَ دوامِ عزِّه لائحَـه ، حتّٰى تُنْشِد نفسُه الكريمـةُ قولَ أبى الطيِّب :

أنَا من جَميع النَّاسِ أطْيبُ مَنْزِلًا * وأَسَرُّ راحِـلةً وأرْبَحُ مَتْجَـرَا !

لازالتِ الأعيُنُ قريرةً برُؤيتِه ، وقلوبُ الإخوان قارّةً بمشاهدَته ؛ والأوجهُ وسِيمَه ، والنِّعم الظاعِنةُ مُقِيمه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة التهنئة بالقدوم من السفر

قال فى "مواد البيان" : أجوبةُ هذه الرِّقاع ينبغى أن تُبْنىٰ علىٰ الاعتراف للمهَنِّئ بحقِّ تعهُّده ، وكرمِ تفَقُّده ، وإطْلاعه علىٰ الحالِ فى السَّـفَر ، وما أفضتْ إليـه من السـلامة ، والتأسُّفِ علىٰ ماتقضّىٰ من الأيَّام فى مُباعدَتِه ، والتخلُّف عن مُباسَمتِـه ؛ وأنه لم يزَلْ يدَّرِع الإدْلاج ، ويَقْطَع الفِجاج ؛ رغبةً فى القُدوم إليه ، والوفادةِ عليه ؛ وبلِّ الغُلَّة برُؤْيته ، وترويح النفس بمحاضرته ؛ وما يليقُ بهذا النَّمَط من الكلام .

Marfat.com

الضـــرب الخامس

(من التهانئ التهنئةُ بالشهور والمواسِم والأعياد)

وهى علىٰ ثمـانية أصـــناف :

الصنف الأوّل ــ التهنئـــةُ بأوّل العامِ وذُرِّيَّة السَّنة .

من كلام المتقدّمين :

تهنئة من ذلك : من إنشاء أبى مسلم محمد بن بحر :

أسـعدَ اللهُ سـيِّدى بِعامِه ، والفضل منه وما حَوىٰ من الأعياد والأيَّام الخَطِيرة وسائر شُهوره وأيَّامه ، ومتصَرِّف أحواله ، وبمـا يأتى ويَكُرُّ عليه من زمَانه ؛ سعادةً تسُوقُ إليه حظُوظَ الدِّين والدنيا كامله ، وتجمَعُ له فوائدَ الأمَدَيْن تامَّة وافِيَـه ؛ وترتَهِنُ إليـه النِّعَم فلا تزالُ لَدَيْه زائدةً نامِيَه ؛ وبلَّغه بهـا الأمَلْ ، ومدّ له فى البقاء إلىٰ أنْفَس المُهَل .

ولأبى الحسين بن سعد :

عظَّم اللهُ علىٰ مَوْلاىَ بركةَ الشهر والسنةِ المتجدِّدَيْن ، ووهَبَ له فيهما وفيما يتلُوهُما من أيام عُمُره ، وأزمان دَهْره ، سعادةً تجمع له أشْتاتَ الحُظُوظ ، وتصل لَدَيْه مَوادَّ المَزِيد ؛ وتُيَسِّر له بُلوغَ الأمـل فى كلِّ مايُطالع ويُنـازِع ، والأَمْن من كلِّ مايُراقِبُ ويُحـاذر .

وله فى مثـــله :

عَظَّم اللهُ علىٰ سيِّدِى بركة الشهر والسَّنة ، وأعاشَهُ لأمثالهما مُدَّةَ اختلافِ الجديدَيْن ، وتَجاوُر الفَرْقَدَيْن ؛ ممتَّعا بالنِّعم السابِغـه ؛ والمَواهب المتَرادفه ؛ والسَّـعادة والغِبْطه ، والعزِّ والمَسَرَّه .

Marfat.com

وله فى معناه :

جدّد اللهُ لسيِّدى فى الأيّام الحاضرة[1] والمستَقْبَله ، والأحوال الراهِنَة والمُتَنَقِّـلَه ؛ حظُوظًا من السَّـعادات ، وأقسامًا من الخَيْرات ؛ لايُحْصَىٰ عدَدُها ، ولا يَنقَضِى مَدَدُها .

وله فى مثـــله :

عَظَّم الله [علىٰ مولاى] بركَةَ الشهر والسـنة المَتجدّدين علَيْـه ، وعَرَّفه فيهما وفى الأيّامِ بعدَهما من حادث صُنْعه ، ولطيف كِفَايته ؛ ماتَدُوم فيه السعاده ، وتَعْظُم به المِنّه ، وتحسُن فيه العاقِبَه .

وله فى مثـــله :

عظّم الله علىٰ مَوْلاىَ بركةَ هـذا الشهر : المـاضِى [من] أيّامه وباقيها ، وهـذه السنَةَ ، وجعلها أيمَنَ سنةٍ حالَتْ عليه وأسعَدها .

ومنه : ويُنْهِى أنّ المملوكَ يُهَنِّئُ غُرّة الأيّام ، بغُرّة الأنَام ؛ وصـدْرَ العام ، بصَدْر الكِرام ؛ بل يُهَنِّئُ الزمن كلَّه نعَمْ وأهلَه بالحَضْرة التى واسَتِ المَعَالِى .

الصنف الثـانى ــ التهنئـةُ بشهر رمضانَ .

من كلام المتقدّمين :

لأبى الحُسَيْن بن سعد :

جمع اللهُ لمولاىَ فى هذا الشهر الشريف شُروطَ آماله وأحكامَ أماليه ، فى حاضِر أمرِه وعاقِبتِه ، وعاجِلِ دُنيـاه وآخرتِه ؛ وأبْقاه لأمثاله بقاءً لايتناهىٰ أمَدُه ، فى ظِلِّ عيش يرضاه ويحمَدُه .

---

(١) فى الاصول الماضية تأمل .

Marfat.com

وله فى مثـــله :

عرَّف الله سيدى بركةَ هذا الشهر الشريف وأعاشَهُ لأمثاله ، ما كرَّ الجَديدان، وآختلف العَصْران ؛ ممتَّعًا بسَوابغ النِّعم، محروسًا من حَوادِث الغِيَر، ومُوَفَّقا فى شَهْره، وأزمان دَهْره ؛ لأزْكىٰ الأعمال، وأرْضىٰ الأحوال ؛ ومقبُولًا منه مايُؤدِّيه من فَرْضه، ويتنفَّل به قُربة إلىٰ رَبِّه .

وله فى مثـــله :

عرَّفه الله بركةَ إهْلالِه ، وأبقاه طويلًا لأمثالِه ؛ موفَّقا فيه من عمل الخـير، ومُراعاةِ الحقِّ، وتأديةِ الفَرْض ؛ والتنَفُّل بالبِرِّ، لمـا يُرْضِيه، ويستحِقُّ جزيلَ المَثُوبة عليه ؛ ممتَّعا بعده بسَنِيّ المَواهِب، وجَسِيم الفوائد ؛ مع آتصالِ مُدّة العُمُر، وآجتماع أُمْنِيَّات الأمل .

وله فى مثـــله :

عَرَّف اللهُ مولانا بركةَ هذا الشهر الشريف وأيَّامِه، وأعانَك علىٰ صيامِه وقِيَامه ؛ ووصـل لك مايزيدُ من فَضْله وإنعامه ؛ وتابع لك المزيدَ من مَنَائحه وأنْعامه ؛ وختَمَ لك بالسعادة العُظْمىٰ بعد الآنتقال [فى الجاه والرياسة إلىٰ] أبعد المدىٰ ؛ وفى العزِّ والثَّروة إلىٰ أقْصىٰ المُنىٰ .

أبو الفرج الببغاء :

جعلَ اللهُ ماأظلَّه من هذا الصيامِ مقرُونًا بأفْضل قَبُول، مُؤْذِنا بإدراك البُغْيةِ ونُجْح المأمُول ؛ ووفَّقه فيه وفى سائرِ أيَّامه، ومستأْنِف شُهوره وأعوامِه ؛ لِأشْرَف الأعمال وفضَلِها، وأزْكىٰ الأفعال وأكمَلِها ؛ ولا أخْلاه من بِرٍّ مَرْفُوع، ودعاءٍ مسمُوع ؛ وسَعْى مشْكُور، وأمرٍ مَبْرور ؛ إلىٰ أن يَقْطَع فى أجملِ غِبْطةٍ وأتَمِّ مسرَّةٍ أمثالَه .

وله فى مثله :

صرّفكَ اللهُ بركةَ هذا الشهر المعظّم قَدْره ، المشرّف ذِكْره ، ووفّقكَ فيه لصالح الأعمال ، وزكّى الأفعال ، وقابلَ بالقَبول صيامَك ، وبتعظيم المَثُوبة تهجُّدَك وقيامَك ، ولا أخلاكَ فى سائر ما يَتْبعه من الشُّهور ، ويَليه من الأزمنة والدُّهور ، من أجْرٍ تدّخره ، وأثرٍ تشكره .

قلت : ومما كتبتُ به تهنئةً بالصوم للصّدر الأشرف الناصرىّ محمد بن البارزىّ كاتب السرّ الشريف المؤيّدىّ بالممالك الإسلامية ، فى سنة ستّ عشرة وثمانمائة نظْما :

أيا كاتبَ السِّرِّ الشَّريفِ ومَنْ بِه * تَميسُ نَواحِى مِصْرَتيها مَع الشَّامِ !
ومَنْ جَلَتِ الجُلَّى كَتائبُ كُتْبِه ، * ومَنْ نابَ عن وَقْع السُّيُوفِ بأقْلامِ !
تَهَنَّ بهذا الصَّوْمِ والعِيدِ بَعْدَه ، * ومِنْ بَعْدِه بِالعِيد والْعامِ فالْعامِ !
وتَرْقَى رُقِيَّ الشَّمس فى أوْجِ سَعْدِها * وتَبْقَى بَقاءَ الدَّهْر فى فَيْض إنْعامِ !

الصنف الثالث — ما يصلُح تهنئةً لكلّ شهرٍ من سائر الشُّهور .

لأبى الحسين بن سعيد :

عظّم الله بركةَ إهلاله ، وأعاشه لأمْثاله ، أطْولَ المُدّة ، ممتّعا بأدْوم النِّعمة ، ومشفّعا (؟) بأفضل الأمل والأُمْنيّه .

وله : أسعد اللهُ سيّدى بانْصرامِه وإهْلالِ ما بعده ، وأبقاه مابَقِىَ الزمان ممتّعا بالعِزّ والنِّعمه ، محروسًا من الآفات المَخُوفة ، والحوادث المحْذُوره .

وله : عَظّم اللهُ على سيدى بركةَ الماضى والمستقْبَلِ من الأيام والشُّهور [والأعوامِ] والدُّهُور ، ووصلَ له السعادةَ باتّصالها ، وجدّدَ له النِّعمةَ بتجدُّدِها .

Marfat.com

وله : عظَّم الله بركةَ آنسلاخه ، وإهلال مايستأنفه ، مُجدِّدا لك بتجدُّده فوائدَ الخيرات ، وأقسامَ البركات ، تَدُوم فيها المُدَّه ، وتطُولُ بها النِّعمه .

وله : أسعَدَك اللهُ بإهلاله ، وأعاشك أبدًا لأمثاله ، ممتَّعا بدَوامِ العِزِّ والنعمه ، واجتماعِ أسبابِ الرَّخاء وشُروط المحبَّه ، إنَّه جَوَادٌ كريم .

[وله : عَظَّم اللهُ على مولَاىَ بركاتِ هذا الشَّهْر ومايتلُوه ، وبلَّغه مايُحاوِله ويَنْشُوه ، فى مستأنَفِ الشُّهور ، ومؤتنَفِ الدُّهور ، مُضاعَفًا له العِزُّ والتأْييد ، وموْصولًا له أصلُ النعمةِ بحُسْنِ المَزِيد (١)] .

وله : عَظَّم اللهُ على مولاىَ بركةَ الشَّهر ، وأدامَ له سَلامةَ الدَّهْر ، موفُورا من العِزِّ والسلطان ، غيْرَ مذْعُور بنَوائِبِ الزَّمان .

وله : عظَّم الله على سيدى بركةَ الأيَّامِ والشُّهور ، والسِّنِينَ والأحْقَاب ، وجمع له المواهِبَ كامِلَه ، والفَوائد فاضِلَه ، دِينًا ودُنْيا ، وحاضِرةً وعُقْبىٰ .

وله : عظَّم اللهُ عليكَ بركَتَه ، وعرَّفَك يُمْنَه وسَعادتَه ، وجدَّدَ لك الخَيْرات ، بتَجْديد الأوقاتِ والسَّاعات ، حتَّى تحُوزَ منها أسْنىٰ الحُظُوظ وتبلُغَ بما تمَنَّاه أقصىٰ الغايات .

الصنف الرابع — التهنئة بعيد الفطر .

من كلام المتقدّمين :

لأبى الحسين بن سعد :

عظَّم اللهُ على سيِّدى بركةَ هذا العِيد ، واعاشَه لأمْثاله ، من الأعْيادِ المَشْهُوده ، والأيَّام الحَدِيده ، [فى] أهنإ عيشٍ وأرْغَدِه ، وأطْوَلِ مدًى وأبْعَدِه .

---

(١) الزيادة فى بعض النسخ .

Marfat.com

أبو الفرج الببغاء :

أسعدكَ الله بهـذا الفِطْرِ الجَدِيد ، والعِيدِ السَّعِيد ، ووَصَـل أيَّامَك بعدَهُ بأكمَلِ السَّـعادات ، وأجْمَل البَرَكات ، وجعل ما أسلَفْتَه من الدُّعاء مقْبُولا مسْمُوعا ، ومن التَّهجُّد زاكِيًا مَرْفوعا ؛ ولا أخلاكَ من نِعمةٍ يحرُسُ الشكْرُ مُدَّتَهـا ، ولا يُخْلِقُ الدَّهْرُ جِدَّتَها .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

المولىٰ أدامَ الله نِعمَه ، وحرَسَ شِيَمَـه ، هو سيِّدُ الأفاضل ، ورئيسُ الأَماثِل وحسَنَةُ الزَّمان ، ولَيْث الأقْران ، وهو فى الأَنام ، كالأعيادِ فى الأيَّام ، فإنَّ الأنامَ ليلٌ والمولىٰ المِصْباح بل الصَّبَاح ، وسائرَ الأيَّام أجسادٌ وسائرَ الأعيادِ هى الأرْواح ؛ فإذا كان المولىٰ قد زُهِىَ علىٰ أبناءِ جِنْسِه ، ويومُ العِيـد علىٰ غَدِه وأمسه ، فقد صار كلٌّ منكما إلىٰ صاحبه يتقَرَّب ، ويلْزَم ويلْزَب ، وهو أحقُّ الناسِ بأن يُبْهِجَه مَقْدَمُه ، وأن يُهَنَّىٰ بيَوْمِه الذى هو مَجْمَعُ السُّرور ومَوْسِمُه .

والخادم يُهَنِّئُ المولىٰ بهذا العيد ، واليومِ السَّعِيد ، فإنه وافىٰ فى أوانِ الرَّبيع وزمانِه ، ليُبَاهِىَ بغُصْن قَدِّه أغصانَ بَانِه ، ويَسْتَنْشِقَ فى صَدْرِه وورْدِه ، رائحةَ رَيْحانه ووَرْدِه ، ويختالَ فى رِياضه وحَدائقه ، ويُلاحِظَ بَهْجةَ أزْهارِه وشَقائقه ، والعيدُ والرَّبيعُ ضَيفانِ ومكارِمُ المولىٰ جَدِيرةٌ بإكرام الضيف ، والتمتُّع بالمَلاذِّ فيهما قبلَ رَحيلهما وقُدُوم جَرِّ الصَّيْف ، وأن يُحَسِّنَ وجْهَ عيـده ، بحُلْوِه فى مَغْناه ومَوْجُوده ، بمـا يُولِيه لعُفَاته من إنعامه وجُوده ، لازالت الأعيادُ تُهَنَّىٰ ببقائِه ، والسـنةُ الأيام تَشْكُر سوابِـغَ نَعْمائه ، وتحمَدُ جزِيلَ عطائِه ، وتَنْطِق بوَلائه وثنائه ، أبدًا ، إن شاء الله تعالىٰ .

Marfat.com

قلت : ومما كتبتُ به مهنّئا للمقر الأشرف الناصِرىّ محمد بن البارزى صاحب دَواوِين الإنشاء الشريف بالممالك الإسلامية فى الدولة المؤيَّدية «شيخ» بعيد الفِطْر نظما، بعد أن سألتُه حاجةً فقضاها، وأسنىٰ لى الجائزةَ علىٰ نَثْرِ كتبتُه له .

سأَلْتُ نِظامَ المُلْكِ كاتِبَ سِرِّه * إزالَةَ ضَنْك أرهَفَ الدَّهْرُ حَدَّه!
فمنَّ بجاهٍ زَعْزَعَ الأرْضَ وَقْعُه، * وجادَ بمالٍ لايُرىٰ الفَقْرُ بَعْدَه.
وبالبارِزِىِّ آزدانَ وصْفُ مَكارِمٍ * فأشْبَهَ فى فَضْلٍ أباه وجَدَّه!
فيَهْنَاهُ صَوْمٌ ثُمَّ عِيدُ مَسَرَّةٍ * وطالِعُ إقْبالٍ يُقارِنُ سَعْدَه!
ورَفْعُ دُعاءٍ لايُغِبُّ تَتابُعًا، * وطِيبُ ثَناءٍ خامَرَ المِسْكُ نَدَّه!

الصنف الخامس — التهنئة بعيد الأضحى .

من كلام المتقدّمين :

أبو الحسين بن سعد :

كتابى والنحر — نحرَ اللهُ أعداءَ مَوْلاىَ وحُسّادَ نعمتِه ، وأمْتَعه بمَواهِبه عنْده، و بارك لَهُ فى أعيادِهِ ومتجَدَّد أيّامه ، بركةً تَنْتَظِم السَّعادات ، وتتضمَّن الخَيْرات ؛ متصلةً غير مُنْقَطعه، وراهنةً غير فانِيَه .

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى :

تَهَنَّ فأيّامُ السُّرورِ أواهِلُ * وكُلُّ مَخُوفٍ عن جَنابِك راحِلُ!
ونَجْمُك من فَوْقِ الكواكب طالِعٌ، * ونَجْمُ آمرئٍ يَشْنَا سُمُوَّك آفِلُ!

أَلَا أَيُّهَا المَوْلَى الَّذِى عَمَّ جُودُهُ : * فَدَتْكَ العَوالِى والجِيادُ الصَّواهِلُ !
تَمَتَّعْ بِعِيدِ النَّحْرِ ، وافاكَ خاضِعًا * يُحَقِّقُ مِنْ دُنْيَاكَ ما أَنْتَ آمِلُ !
ودُمْ كابِتَ الأَعْداءِ رَأْبَقَ مُخَلَّدًا * على المالِ عالٍ بالرَّعِيَّةِ عادِلُ !
لَقَدْ راقَ مَدْحِى فى مَعالِيكَ مِثْلَ ما * صَفَتْ منكَ أَوْصافٌ ورَقَّتْ شَمائِلُ !

جعلَه اللهُ أَيَّامَ الأعياد وأَسْعَدَها ، وأَيْمَنَ الأَيَّام وأَمْجَدَها ، وأَجْمَلَ الأوقاتِ وأَلَذَّها وأَرْغَدَها ، ولا بَرِحَ مَسْرُورًا مُسْتَبْشِرًا ، مَنْصُورًا على الأعداء مُقْتَدِرًا ، مَسْعُودًا مَحْمُودًا ، مُصَانًا بملائكة السماء مَعْضُودًا ، مُهَنًّا بالسُّعود الجَديده ، والجُدُود السَّعِيده ، والقُوَّةِ والنَّاصِر ، والعُمُر الطويل الوافِر .

ولا زالَتِ الأَعْيادُ لِبْسَكَ بَعْدَه * [فَتَخْلَعُ] (١) مَخْرُوقًا وتُعْطِى مُجَدَّدا
فَذَا اليومُ فى الأَيَّامِ مِثْلُكَ فى الوَرَى * كما كُنْتَ فِيهِمْ أَوْحَدًا كانَ أَوْحَدَا !

وأعاده على المولى فى صحَّةٍ دائمة ، وسلامةٍ مُلازِمه ، وأَعْصارٍ بِهِ مُطِيعَةِ الأَوامِر والنَّواهِى ، وعَيْشٍ فى كلِّ يومٍ من المَسَرَّة بِبَقائِهِ لَهُمْ كالعِيد ، والأيَّام بِهِ صالِحَةِ المَبادِى والأعوامِ بِهِ لَيْلَةِ المَواسِم ، وهِمَّتُهُ بِدَوامِ عَيْشِهِ [illegible] وأَسْتِعْلاءِ مَدائِحِهِ بإنشادِ نَغَماتِهِ ، وأَرادَ [illegible] أعادِيهِ ، بين يَدَيْهِ كأَضاحِيهِ ، [illegible] إلى بابِهِ ظافِرًا بِبَقِيَّاتِ الإقْلاعِ ، والإِعْدامِ ، [illegible] من المَكارِمِ [illegible]

الموضوع السادس — التهنئة بعيد الغدير من أعياد الشيعة .

وكان لهم به اهتمامٌ فى الدولة الفاطميَّة بالديار المصريَّة . والطريقُ فى التهنئة به على نحو غيره من الأعياد .

---

(١) بياض بالأصل والتصحيح من المقام .

Marfat.com

مايصلُح تهنئةً لكلِّ عِيد .

أبو الفرج الببغاء :

لولا العادةُ المَشْهوره، والسُّـنَّةُ المأثُوره ، بالإفاضةِ فى الدُّعاء ، والمشافهةِ بالتهنئةِ والثَّناء، فى مثلِ هذا اليومِ الشريف قَدْرُه، الرفيع ذِكْرُه، لكان أيَّده الله دُونَ رُؤَساء الدَّهْر ، ومُلُوكِ العَصْر يَجِلُّ عن التهنئةِ : إذ كانتْ سائرُ أيَّامه بما يُودِعُها من أفعال الخير مُعَظَّمه ، وبما يَبُثُّها من المَحَاسن مُكَرَّمه ، فبلَّغه الله أمثالَه محرُوسًا فى نَفْسه ونِعْمته ، محفُوظا فى سُلْطانه ودَوْلته ، مُوفِيًا على أبْعد أمَانيه ، مُدْرِكا غايتَها فيما يؤمِّلُه ويَرْتجيه .

وله فى مثله :

عرَّفكَ الله يُمْنَ هذا العيدِ وبركتَه ، وضاعفَ لك إقبالَه وسعادتَه ، وأحْياكَ لأمثاله فى أسبَغ النِّعم وأكملِها ، وأفسح المُدَد وأطْوَلِها ، وأشرف الرُّتَب وأرفعِها ، وأعزّ المَنازل وأيْفَعِها ، وحرَسَ مِنْكَ من المحذُور ، ووَقَى نفسَكَ من عثَرات الدُّهور .

الصنف السابع — التهنئة بالنَّيْرُوز .

وهو من أجلِّ أعيادِ الفُرس ، على ما تقدّم ذكره فى الكلام على أعياد الأمم ، فى المقالة الأولى . وكان للكُتَّاب به اهتمامٌ فى أوائل الدَّوْلة العبَّاسية بالعراق ، تعرُّبا على ما كان عليه الفُرْس من قَدِيم الزمان .

وفيه لأبى الحسين بن سعد :

هذا يومٌ شَرَّفَتْه العجم ، ورَعَى ذِمَامَه الكَرَم ؛ وهو من أسلافِ سيِّدى ذَوِى النَّباهة ، وأخلافه ذَوِى الطَّهارة ؛ بين مُنْشِئٍ رَسْمه ، ومؤدٍّ حقَّه ؛ وكاسٍ له بقَبُول

Marfat.com

آنتسابه إليه جمالًا يبقىٰ علىٰ الأيام، وحالًا يَنْفَق بهـا لدىٰ الأنام ؛ فليس أحدٌ أحق بالتهنئة [به] ممن سَنَّه آباؤه ، وشـيَّدته آلاؤه ؛ فصارتْ إلىٰ أوَّلِيَّتـه نِسبَتُه ، وبكرم سَجِيَّته عِصْمَتُه .

وفـه له : هٰـذا ـ أيد الله سيِّدى ـ يومٌ عظَّمه السَّلَف من العَجَم ، وسيِّدى وارِثُ سُـنَّة الكَرَم ؛ وللسادةِ علىٰ العَبِيد فى هذا اليوم رَسْم فى الإلطاف ، وعليها لهم حقٌّ فى القَبُول والإسعاف ؛ وقد بعثْتُ بمـا حضَر جارِياً علىٰ سُنَّة الخِدْمه ، وعادِلاً عن طريق الحِشْمه ؛ ومقتَصِرا علىٰ ما آتَّسعتْ له الحال ، وما يُوجِبُـه قَدْرُ سيِّدى من المبالَغةِ فى الآحتفال ، فإنْ رأىٰ أن يُشَرِّف عبده بالآحتمال إليه ، وإجرائه مُجْرىٰ الأُنْس عنده ، فعل ، إن شاء الله تعالىٰ .

وفيه للكرجى :

هـذا يومٌ تسْمُو له العَجَم ، ويُسْتَعجَم[1] فى العَرَب ؛ تشريفًا له وآعترافًا بفضـله ، وآقتِداءً بأهله ؛ وأخْذا بسُنَّتهم فيه ، فليهن[2] لإحْراز الدولة فى العِزِّ [منزلا] بحيثُ لا يُرام ، ولا يُضَام ؛ ولا تَرْقىٰ إليه الأمانِى ، ولا يطْمَع فى مساواته المُساوِى ؛ وإنَّهم بعد تَصَرُّم الدولةِ علىٰ حَمِيـد آثارها ، وجميلِ الذِّكر فيها ؛ أعلامٌ تُضْرَب بهم الأمثـال ، وتَزْهُو بأيَّامهم الأيَّام ؛ وآثارُهم تُقْتفىٰ ، وأعيادُهم تُنْتَظر ؛ يُتَأهَّب لها قبْلَ الأوان ، ويُعْرَفُ فيها أثَرُ الزمان ؛ وإنَّك منهم فى الذِّرْوة السامِيَه ، والرُّتْبة العالِيه ؛ وبمحلٍّ لا عارَ معـه علىٰ حُرَّة فى الخُشُوع لك ، والتعلُّقِ بحبلك . وقد وجَدتُ الأتباعَ عندَ ساداتِها فى مثل هـذا اليومِ علىٰ عادةٍ فى الإلطاف جسَّمتْها ، وسيَّرتْ بهـا علىٰ أقوام منحَتْهم ظُهورَ الدَّعْوىٰ فيها . فأقبـل قائلهم يقول : « لو كان بابُ الإهداء مفْتُوحا غيرَ مسْدُود ،

---

(١) مراده أن العرب آتبعت العجم فى تعظيمه تأمل .

(٢) قد بلغ التحريف من هذا مبلغه حتى لا يكاد يفهم والمراد أن دولة الفرس أحرزت من العز منزلا بحيث الخ تأمل .

Marfat.com

ومُباحًا غير ممنُوع ؛ لأتحفتُ بالغُرَاب الأعْصَم ، والكِبْريت الأحمر ، والأبْلَقِ العَقُوق ، وبَيْض الأُنُوق» . وقد بعثتُ بهدِيَّة لا تُرَدُّ (يعنى الدعاء) .

وفيه : من كان مَحَلُّك من العِزّ ، ونَبَاهةِ الذِّكْر ، وآرتفاعِ الدَّرَجه ، وعُلُوّ المَنْزِله ، وسَعة البَلَد ، وبُعْد الأمَد ؛ لم يتقرّبْ متحلٍّ بالسلم والأدَبِ إليه فى يومٍ جديدٍ إلّا بصالح الدُّعاء ، وحُسْن الثناء .

وفيه : لو أخّرنا هذا آنتظارًا لوجُود ماتستَحِقُّه ، لآنقضَتْ أيّامُنا ، بل أعمارُنا ، قبل أنْ نقضِىَ لك حَقًا ، أو نُؤَدِّىَ عن أنفُسِنا فرضا : لآرتفاعِ قَدْرك عمّا تحويه أيدينا ، وعُلُوّ حالِك عما تبْلُغه آمالُنا ؛ وقد آقتديتُ بسُنّة الخَدَم والأوْلياءِ فى الأعياد ، وأوضَحْتُ العُذْر فى ترك الآجتهاد ؛ وبعثْتُ فى هذا اليوم ، الذى أسألُ الله أن يُعِيده عليك ألْفَ عام ، فى نَمَاء من العِز ، وعُلُوّ من القَدْر ، وتمامٍ من السُّرور ، ومزيدٍ من النِّعمة ... ...

الصنف الثامن ــ التهنئة بالمِهْرِجان .

وهو أحدُ أعيادِ الفُرْس ، علىٰ ماتقدّم ذكره فى المقالة الأُولىٰ ، فى الكلام علىٰ أعياد الأُمم . وكان للكُتّاب من الآحتفالِ بالتهنئةِ به فى أوائل الدولة العبّاسيّة مالهم بالنَّيْروز .

فيه ــ لأبى الحسين بن سعد :

لسيِّدى علىٍّ فى الأعياد المشْهورة ، والأيّام الجَديدةِ ، عادةٌ آختزَلَنِى عن بَعْضها فى هذا الفصل ، كَلالُ الطَّبْع عن البَعْض ، ووقُوعُ الخطر (؟) بعرضه من الثناء نَظْمًا ونَثْرا ، ومن الإهداء عرضا وبرا ؛ دعاءٌ تزيد قيمتُه علىٰ الأعلاقِ الثَّمينه ، وموقِعُهُ علىٰ الذخائر النَّفيسه ، ولُطْفُه علىٰ التُّحَف البديعه ؛ فأسعدَ الله سيدى بهذا اليوم سعادةً تُقِيم ، ولا تَرِيم ؛ وتَزِيد ، ولا تَبِيد ؛ وتتوطّن ، ولا تَظْعَن ؛ وتجمع حظُوظًا من

الخيرات ، وفوائدَ من البركات ؛ يتَّصلُ سنَدُها ، ولا ينْتهى أمَدُها ؛ وأبقاه فى أسبغ عِزٍّ وأرفع رُتبـة وأرغَدِ عيشة ، مكنوفًا بحراسةٍ تَقِيه [وآلَه] عَوادِىَ الزمان ، وتصرِفُ عنهما طوارِقَ الحَدَثان ؛ ما طَرد الليلُ النَّهارَ ، وطلَع نَجْم وغَار ؛ وعلىٰ ذلك ـ أيد الله سيدى ـ فإنَّ الحِرْص علىٰ إقامة الرَّسم والتَطَيُّر من إضاعةِ الحقِّ بعثانِى علىٰ مُراجعة القَرِيحه ، وآستِكْداد الرَّوِيّه ؛ فأسعفا بمـا قِبلتْه الضرورة ؛ ولم أُطِعْ فى إهدائه سُلطانَ الحِشْمه ؛ وفضلُ سيدى يتَّسِع لقَبُول الميْسُور ، وتحسينِ القَبِيح ؛ والله المعينُ علىٰ تأدية حقِّه ، والقيامِ بواجب فرْضه .

وله فيه أيضا ، إلىٰ مَن منع أن تُهْدىٰ إليه فيه هدية .

لو كنتَ فتحْتَ باب الإلطاف ، ونَهجْتَ إليـه سَبِيلا ؛ لتنازعَ أوْلياؤُك قصَبَ السَّبْق وتنافَسُوا فى السَّرَف ؛ فبان للجتَهِد فضْلُه ، وآلتمس العذْرَ فى التقصير ملتَمِسُه ؛ وعمَّت المنحةُ كافَّتهم بمـا يظْهَر من مَوَاقعهم ، وينكَشِف من أحوالهم ؛ لكِنَّك حظَرْت ذلك حَظْرا آستوىٰ فيـه الفريقان فى الحُكْم ، وآمتـدّ فيه علىٰ ذَوِى الخَلَل السِّـتْر ؛ ولم تحظُر الدُّعاء ، إذ حظَرْتَ الإهداء ؛ فأنا أُهْـدِيه ضَرورةً وآختِيارا ، وإعلانًا وإسْرارا ؛ فأسعَدَك الله بهذا العيد الجديد ، الذى زادَ بك فى قَدْره ، وشَرَّفه أن جعلك من أرْبابه ووُلاة أَمْره .

أبو الفَرج الببغاء :

هذا اليوم من غُرَر الدُّهور المشهورة ، وفضائِل الأزمِنـة المذْكورة ؛ معظَّم فى الشرائع الكِسْرَوِيّة ، مستظْرَف فى العَصْر العَرَبِيّة ؛ باعثٌ علىٰ عِمـارة المَوَدّات ، محمود فى التأسيس فى المكرُمات ، ولست أستزِيدُه ـ أيَّده الله ـ من بُرُوله ، ولا أتمنَّى إلا ليُسـدِيه ، ولا أسأل فى أمْله من بَسْطته الأنْـس ، ونَفْثه نَجْدة ؛

وقَرَّبتُ منه بوكيد الخِدْمه، فى قَبُول ما إن شَرَّفنى بقَبُوله، كان كثيراً مع قِلَّته، جَليلاً مع نَزارته؛ فإنْ رأى أنْ يقَوِّىَ منه ثِقتى، ويُقابِلَ بقَبُولِ ما أنفَذتْه رَغْبتى، فعل، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله :

قد أطعْتُ فى الأنْبساط إليـك دَواعِىَ الثِّقـه، وسلَكْتُ فى التحَرُّم بك سُـبُل الأُنَسه، وتوصَّلْت بملاطَفتك إلىٰ حَسْم مَوادِّ الحِشْمه؛ فاستشْهَدْتُ علىٰ ثِقتى بك فيما أنفَذْته بمُفارقَة الحَفْله[1]، وكُلَف المكاثره؛ فإنْ رأيتَ أن تَكِلَنى فى تَقَبُّله إلىٰ سَعَة أخْلاقك، وتَسْلُكَ فى ذٰلك أخصَرَ طريقٍ إلىٰ ما أخطُبُـه من مَوَدّتك، وأزاحِمُ عليه فى إخائك؛ فعلتَ، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله :

هذا اليومُ ـ أيَّد اللهُ سيدى ـ من أعياد المُرُوه، ومَوَاسِم الفُتُوَّه، وأوطانِ السرور، ومَحاسِن الأزْمِنة والدُّهُور؛ بَلَّغه [اللهُ] أمثالَهُ فى أنْضَر عيشٍ وأسبغ سَلامه، وأبْسَط قُدْره، وأكمل مَسَرَّه؛ وقد توثَّبْت إلىٰ الاقتداءِ فيه بأدَبِه، والأخْذِ بمعرفة فُروضِـه بمَذْهبه؛ وأطعْتُ فى الانبساطِ إليـه دَواعِىَ الثِّقة، وأنفَذْت ما اعتمَدْتُ فى قَبُوله علىٰ مكانى منه، عائذًا بالتقليل من كُلَف المُكاثَره، ومستثقل الكُلفه؛ فإن رأىٰ أن يأتِىَ فيما التمسته مايُناسِبُ شَرَفَ طبعه، وسَعَةَ أخلاقه؛ فعل، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله :

لمّا كانت المُلاطَفات بحسَب الرُّتَب وقَدْر المَنازل، لمـا التمَسْتُ قَبُولَ [ما] أنفَذْتُه كان لمـا يستحقُّه نُبْلُ سيدى، وإجابةُ رِياسته؛ ولكنّى من بين خدَمه خصَصْتُه المِنَّة عن خِدْمته فى هذا اليوم السعيد، بلَّغه اللهُ آمالَه فى كل ما أحَبَّ، وأجْمَل أمَلَ،

(١) كذا فى الأصل ولعله «الكلفه» .

بما يَخْدُمُهُ به ذَوُو الخِدْمات الوكيدةِ عنده، المَكِينةِ لدَيْهِ؛ غير أنّى أثِقُ منه ـ أيده الله ـ بحَمْل قليلى علىٰ عِلمْه بإخلاصِى فى وَلَائه، وآنتسابِى إلىٰ جُمْلته، وآختِلاطِى بأنسابه؛ فإنْ رأىٰ أن يُجرِيَنى فى قَبُول ذلك علىٰ سُـنَّة أمثاله من ذَوِى الجَلَالة، عند أمثالى من الأولياءِ والحاشيةِ، فعل.

وله فى مثـــله :

لو كانَتِ الهَدايَا لا تُتَقَبَّل مالم تُناسِبْ فى نَفَاسة القَدْر، وجَلَالة الذكر، مَحَلَّ من يُتَقَرَّبُ بها إليه، ومنزلةَ من أهداها إليه علَيْه، لَمَـا سَمَتْ هِمَّة، ولا آتَّسعتْ قُدْرة، لِمَـا يستَحِقُّه ـ أيده الله ـ بأيْسَر واجِباته، وأصغَرِ مفْتَرَضاته، غير أنّ الأَنَسةَ بتَفَضُّـله، والآعتدادَ بسالف تَطَوُّله؛ والتحقُّق بخِدْمته، والآنتسابَ إلىٰ جُمْلتـه، بسَطَنى إلىٰ إنفاذ ما إن شرَّفنى بقَبُوله كان مع قِلَّتـه كثيرا، ومع نزَارتِه جليلًا؛ فإنْ رأىٰ أن يقوِّى بذلك منه ثِقَتِى، ويحسِمَ مادَّة آحتشامى، فعل.

أجوبة التهنئة بالمواسم والأعياد

قال فى "مواد البيان" : هذه الكتُبُ والرِّقاع مضمُونُها الهَناءُ بالمَوَسِم الجديد، والدعاء للهنإ فيه بتَمَلِّيه. قال : وهذا المعنىٰ مُفَاوَض بين المهنِّى والمهنَّى، وينبغى أن تكون أجوبَتُها مشتقَّةً منها. ثم قال : وقد يتصَرَّف الكُتَّاب فيها إذا كاتبوا الرُّؤساء تصَرُّفا يخرج عن هذا الحكم.

وهـــذه أمثلة من ذلك :

أبو الفرج الببغاء :

سَمِـع الله دُعاءَك، وبَدَأ فى تقبُّل المسألةِ بِك، وأجْزل من أقْسامِه حظَّك، وبلَّغك أمثـالَه فى أفسح مُدَد البقاء، وزاد فيما خوَّلكَ من المواهب والنَّعْماء؛ ولا أخْلانِى من بِرِّك، وأنهضَنِي بواجِباتِك.

وله فى مثـــله :

كُلُّ يوم أسعَدُ فيه بمشاهَدَتِك، وأقطَعُه فى ظلِّ مودّتِك، حقيقٌ بالإحْماد، مُوف علىٰ مَحاسِن الأعياد؛ فسمِعَ اللهُ دُعاءَك، وأطال ماشئْتَ البَقاء بَقاءَك؛ وجعل سائرَ أيّامِك مقرونةً بالسّعادات، موصولَةً بتنَاصُر البَرَكات .

من زهر الربيع :

يخدُم المجلِسَ العالىَ جعـل الله قَدْره علىٰ الأقدار سامِيَا ، وجزِيلَ نَوَاله علىٰ مَنْ هامَ به من العُفَاة هامِيَا ؛ ونصَره نَصْرا عزِيزا ، وأسـكنه من حِراسَتِه حِصْنا حَصِينا وحِرْزا حرِيزا ؛ ولا زالتِ الأيّام حاليـةَ الجِيدِ بوُجُوده ، والأيْدى تَهَشُّ إلىٰ تَنـاوُل أياديه وَجُودِه ؛ وأخبارُ المَكارِم عنه مَرْوِيَّة وإليـه مَعْزوّه ؛ وآياتُ فضله وفضائله بكلِّ لسانٍ متْلُوَه .

ويُنْهِى إلىٰ علمه وُرُودَ مشرَّفته التى حلَّتِ الأسمـاعَ عند ماحَلَّت ، وسَمَتْ عن الرِّياض لَمَّـا جُلِّيَتْ عَروسُ فضلها وجَلَّتْ ؛ وزهَتْ علىٰ زُهورِها ، برَقْم سُطُورها ؛ وطِيب عَرْفها ونَشْرها ، بمـا فاحَ من طَيِّها عِنْد نَشْرها ؛ وفائِق حُسْنها وبَهْجَتها ، برائق بَراعةِ عبارَتِها ؛ ومعامَلَتها بمـا يجِبُ من فُروض إكرامها والسُّنَن ، والمشْيِ فى تبجِيلها علىٰ الطرِيقِ المألُوفِ من مُوالاته والسَّنَن ، وعِلْمَه بمـا أشار إليه من الهَنَاء بالعيد ، واليوْمِ السعِيد ؛ وقد تحقّق بذٰلك إحسانَه الذى ما بَرِح متحقّقا بجميـله وجزِيله ، وشاكِرًا لكثيرِه وقلِيله ؛ وحصلَتْ له البُشْرىٰ ، والمسَرّةُ الكُبْرىٰ ؛ ليس للعِيد بمُفْرَدِه ، ولا لهذا الهناءِ بمجرّدِه ؛ بل لبقاءِ المَوْلىٰ ودَوامِ سـعادَتِه ، وتخليدِ سيادَتِه ؛ فإنّه لكلِّ إنسان عينٌ ولكلِّ عين إنْسان ، وهو رُوحٌ والأيّام والأنَامُ جُثْمان ، فالمملوكُ ببقائه كلَّ

Marfat.com

[illegible] تجدد له [illegible] جديدا [illegible] حرس الله شرفه الرفيع من [illegible] الأقذاء وأراه في [illegible] الثقات و [illegible] كلها [illegible] سعادة [illegible] .

الضرب السادس

([illegible] بالزواج [illegible])

من كلام المتأخرين [illegible] :

أبو الفرج الببغاء :

[illegible] والعقد [illegible] المراتب [illegible] وقرن [illegible] ما [illegible] فيه من التهاني نجباء الأولاد ، وكثّر [illegible] بإخائك ، وعضدني [illegible] إخوانك [illegible] .

وله في مثـــله :

قرن الله بالخيرة ما عقدتَ ، وبالســعادة ماجدّدت ، وبجميل العاقبة ما أفدتَ . وعرّفك بركات هذا الاتّصال ، ولا أخلاك فيه من موادّ السعادة والإقبال ، وعضدك بالبَرَرة من عقبك ، والسادة من ذرّيّاتك .

وله في مثـــله :

إنّي وإن كنتُ ملتحفا بلُحف مودّتك ، ومتمسّكا بعصم أخوّتك ، أَولى بالتهنئــة بمـا يحدُث لك من ورود نعمه ، واتصالِ موهبــه ؛ فإنّي ما أجِدُ فرضَ الدعاءِ لك

Marfat.com

ساقِطا ، ولا واجِبَ الشكر لله تعالىٰ علىٰ ما أوْلانِى فيك زائِلا ؛ فعرَّفك اللهُ بركةَ هذا الاتِّصالِ الحميد ، والاقترانِ السَّعيد ، وجعله للسُّرور مُكَثِّرا ، وباليمن مبشِّرا ، وأحياك للتهانى بمثلِه فى السادةِ من وَلَدك ، والنُّجَباء من ذرِّيَّتك .

وله فى مثـــله :

وصل اللهُ هذا الاتِّصالَ الميْمُون بأرْجَح البركات وأفضَلِها ، وأنجح الطَّلِبات وأكمَلِها ؛ وأحمدَ بدْأَه وعُقْباه ، وبلَّغك الآمالَ فى سائرِ ما تَهْواه ؛ وأحياكَ للتهانى بأمثاله فى البَرَرة من وَلَدك ، والنُّجباء من عَقِبك .

من كلام المتأخرين :

للشيخ شهاب الدين محمود الحلبى :

جعلَ الله الخيرَةَ له فيما يَذَرُه ويأتِيه ؛ والنجاحَ مقرونًا بما يُعِيده من الأوامر ويُبْديه ، والألسنةَ شاكرةً ما يُولِيه من الإنعامِ ويُسْدِيه ، صدرَتْ هـذه الخدمةُ معْرِبةً عن ثناءٍ تأرَّج عَرْفُه ، وولاءٍ أعجزَ الألسِنةَ شرْحُه ووَصْفُه ؛ وتهنئةٍ بهذه الوُصْلة المباركة جعلهـا الله للاتِّصال بالسـعادةِ سَبَبا ، ومحصِّـلةً من الخيراتِ مَرَاما وافِرًا وأرَبا ؛ وعَرَّفه بركةَ هـذا العُرْس الذى أصبحَ الخيْرُ بفِنَائِه مُعَرِّسا ، ونُورُ الشمسِ من ضياء بهجَتِه مقتَبِسا ؛ فنحمدُ اللهَ علىٰ هذه الوُصْلة سِرًّا وجَهْرا ، ونشكُره أنْ جعـلَ بينه وبينَ السَّعْد نَسَـبا وصِهْرا ؛ منحَ اللهُ المولىٰ الرِّفاءَ والبَنِين ، والعمرَ الذى يُفْنِى الأيامَ والسِّـنين ، ورَزَقه إسعافًا دائمًـا وإسْعادا ، وأراه أولادَ أولاده آباءً بل أجْدادًا ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

Marfat.com

أجوبة التهنئة بالزَّواج والتسَرِّى

قال فى "مواد البيان" : أجوبةُ هـذه الرِّقاع يجب أن تكون شكرا للمهـنِّى علىٰ العِناية والاِهتمام، و[مشتملة علىٰ] الإبانة عن موْقِع دعائه من التبرُّك والتيمُّن به ، إلا أن تكون البِدايةُ بمعنًى يخرُج عما هذا جوابُه، فينبغى أن يُجابَ عنه بمـا يقتضى الإجابةَ عن ذٰلك .

الضـــــرب السابع

(من التَّهانِى التهنئةُ بالأولاد، وهو علىٰ ثلاثة أصناف)

الصنف الأوّل ــ التهنئـــةُ بالبنين .

مما أورده أبو الحسين بن سعد فى ترسُّله .

إنّه ليس من نِعَم الله وفَرائِدِ قِسَـــمه وإن حسُنَ موقِعُها، ولَطُف محَلُّها؛ نعمـــةٌ تَعْدِل النعمةَ فى الوَلَد، لنَمائِها فى العَدَد ، وزيادَتِها فى قُوَّة العَضُـد ؛ وما يُتعَجَّل من عظيم بَهْجتِها ، ويُرْجىٰ من باقِى ذِكْرها فى الخُلُوف والأعقـاب، ولا حق بركتِها فى الدعاء والاستِغْفار .

ومنـــه : إنّه ليس من النِّعَم نعمةٌ تُشْبِه النعمةَ فى الولد، لزيادَتِها فى قُوَّة العَضُد، وحُسْن موقعها فى الخَلَف والعَقِب ؛ واتصلَ بى خبَرُ مولودٍ فسَرَّنى ماوصـلَ اللهُ به من العارِفة إليك، وشَرِكْتُك فى جميل المَوْهِبَة فيه شَرِكَةَ مَنْ له مالَكَ وعليه ماعلَيْك؛ وسألتُ اللهَ أن يُوزِعَك شُكْرَ النِّعمة ويُؤْنِسَ بهذا المولُود رَبْعك، ويُكَثِّر به عدَدَك؛ ويعَظِّم بركتَه ويُمْنَ طائره علَيْـك، ويَزِيدَ به فى النعمـــة كذلك، ويفْعَل اللهُ ذٰلك، بمنّه وطَوْله .

Marfat.com

وفيه لابى الحسين بن سعد إلىٰ أبى مُسْلِم بن بحر يهنِّئه بابنٍ حدَث له :

فأمَّا ماجدّد اللهُ من النعمة فى القادم والموهوبِ لك وَلَدا وأُنْسا، ولنا سنَدًا وذُخْرا، فقد جلَّ قدرُ هذه المَوْهِبَة عن أن يُحاط لها بوَصْف، أو يُوفىٰ لها بشُكْر.

وفيه لعلى بن خلف :

ويُنْهِى أنه آتَّصل بالمملوك بُزُوغُ نَجْم سعدٍ فى مَشارِق إقباله، مُؤْذِنٍ باتِّساق سُمُوّه وجَلَاله ؛ فاحدَثَ من الجَلَال والآستبشار بمَقْدَمِه، والتبرُّك والتيمُّن بقَدمه، ماتلألأتْ علىٰ المملوك أنوارُه، وحسُنَتْ عنده آثارُه ؛ وسألتُ اللهَ تعالىٰ راغباً إليه فى أنْ يُعرِّفَه سعادةَ مَوْلِده، ويُمْنَ مَوْفِده ؛ ويجعلَه شادّا لعَضُده، ومُورِيا لزَنْده ؛ ويَشْفَعه والسادةَ السابقين، بنُجباءَ مُتلاحِقين ؛ يتبلَّجُون فى نِطَاق سعادته، ويُتوسَّمُون فى آفاق سِيادته ؛ ويَصُونَ سِلْكَهم من الآنفصام، وشَمْلَهم من الآنْهدام ؛ ويُبقِيَهم غُرَرا فى وُجُوه الأيَّام، وأقمارا فى صَفَحات الظَّلام ؛ بمنِّه وفَضْله، إن شاء الله تعالىٰ.

وفيه له : ويُنْهِى أنَّ المملوكَ يشكُر الله تعالىٰ علىٰ ما أنزلَهُ عِنْد مَوْلانا من عَوارِفه، وآختصَّه به من لطائِفه ؛ شُكْرَ مَنْ شارَكَه فى النعمة المُسْبَغَة عليه، وآنتهىٰ إلىَّ خبرُ السَّنَد المتجدّد لمَوْلانا، فطار المملوكَ بخَوافِى السُّرور ومَقادِمه، وأخذَ من الآبتهاج بأوْفىٰ قسَمه ؛ وسأل اللهَ تعالىٰ أنْ يُبارِكَ له فى عطيَّته، ويُرْدِفَه بزيادته ؛ ويُوفِّر عدَدَه، ويشُدَّ بصالح الوَلَد عَضُده ؛ ويُجْنِيَه من هذا القادِم ثِمارَ المَسرّة، ويُرِىَ عينَه منه اقَرَّ قُرَّه ؛ ويَشْفَع المِنْحة فى مَوْهِبَته بإطالة مُدّته.

وفيه : ويُنْهِى أنَّ أفضلَ النِّعم مَوْقِعا، وأشرفَها خَطَرا ومَوْقِعا ؛ نِعمةُ الله تعالىٰ فى الولد : لزيادتها فى العَدَد وقُوّة العَضُد ؛ وما يتعجَّل من عِظَم جَمالها وزينَتِها، ويُرْجىٰ من حُسْن مآلها وعاقِبَتها ؛ فى حفْظ النَّسب والأصْل، وحُسْن الخِلَافة علىٰ

[illegible]

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

هُنِّئْتَ بالإسعافِ والإسعادِ ... وقَضَيْتَ أمرًا في الهَنَاءِ بِنَفَادِ!

وبَقِيتَ ما بَقِيَ الزمانُ مُهَنَّأً ... ووَقِيتَ شَرَّ شَمَاتَةِ الحُسَّادِ!

يا مالكَ الرِّقِّ الذي أضحى لنا ... من جُودِهِ الأطْوَاقُ في الأجْيادِ!

خُلِّدْتَ في عَيْشٍ هَنِيٍّ أخْضَرٍ ... يَسْطُو بِبِيضٍ ظُبًا وسُمْرِ صِعَادِ،

حَتَّى يُخاطِبَكَ الزمانُ مُبَشِّرًا : ... مُتِّعْتَ بالإخْوانِ والأوْلادِ!

Marfat.com

جدّد الله في كلّ يوم له مسرّة وبُشرى ، وأطاب لعرفه عرفا وأسرا ، وشدّ له بولده السعيد الطلعة أزرا وأسرا ، وسرى به الهموم عن القلوب وأصارها لديه أسرى ، ورفع درجته إلى سماء المعالي ليقال : سبحان الذي بعبده أسرى .

الملوك يخدم المولى ويهنّيه ويشكره ، ويطلعه على ما حصل له من الابتهاج للسبب الذي ينهيه ويذكره ، وهو أنه اتّصل به قدوم المسافر بل إسفار البدر ، وظهور جبين الغرّة الذي [illegible] من صروف الدهر ، وهو الولد العزيز الموفّق النجيب ، فلان ، أبقاه الله تعالى ليعصاه شكورا محمودا ، مشكورا بسيف نجده ومسان سعده مسعودا ، [illegible] وعلاه [illegible] وخلّد شرفه [illegible] وضاعف سناه وسناه ، وأرانا منه [illegible] من السعادة في أبيه ، فسرّ وابتهج بهذه النعمة غاية السرور والابتهاج ، واتّضح له في [illegible] ولده كل طريق ومنهج ، وسأل الله تعالى أن يطوّل له عمره ، وجعله لإسعاد والده وإسعافه بخير ، ليرتعا في رياض السنة في صحّة وسلامة ، ويجعلا في فناء العلا لهما دار إقامة ، ويبلغا من السعادة درجة لا تريم عالية ولا ترام ، وتخضع لهما الليالي والأيام ، ويرشقاهما بسهام الصروف ويطعناهما بأسنّتها ، ويفهما دعاء الأيام لهما من صدورها ويسمعاه من ألسنتها ، مخاطبة لأبيه ، ومنشدة لسائر أهله ومحبّيه :

مَدَّ لكَ اللهُ الحياةَ مَدّا ، * حتّى ترى نَجْلكَ هذا جَدّا

الصنف الثاني — التهنئةُ بالبَنَات .

من كلام المتقدّمين :

أبو الحسين بن سعد :

النِّعمةُ نِعْمتان : إحداهُما تُعجِّل الأُنْس ، والأُخْرى تدّخِر الأجر ، وعلى حَسَب

ماتُتَلَقَّى به من الشُّـكر علىٰ ظاهر المحبوب، والتَّسليم فيما يَجْرِى مَجْرىٰ بعض المكْرُوه؛ يكون المتاعُ عاجِلا ، والثوابُ آجِلا ؛ وما قَدَّمتُ القولَ [إلَّا] لِمَـا ظننته يَعْرض لك من الوُجُوم فى هذه المَوْهِبَة، فى المولُودةِ التى أرجُو أن يعَظِّم اللهُ بركتها، ويجعلها أيْمَنَ مولُودٍ فى عصرها، ودالَّةً علىٰ سعادةِ أبيها وجَدِّها؛ و[لَئِنْ] كان فى الطبع حُبُّ الذُّكور والشَّغفُ بالبَنِين، فإنَّ البنينَ من البَنَات، وهُنَّ باليُمْن معْرُوفات؛ وبالبَرَكات مَوْصُوفات. وبالذُّكور فى أثَرِهنَّ مُبَشَّرات ؛ فهَنالك اللهُ النعمةَ فيها تهْنِئَـةً لاتنْقضِى سعادتُها، ولا يعتَرِضُ النقصُ والتقدير[1] شيئًا منها؛ وأبقىٰ هذه الصبِيَّةَ ممتَّعا أبُوها بها. ومُنْشأً له الحظَّ من حَدَاثتها؛ وبلَّغها أفضلَ مَبالِـغ الصالحاتِ القانِتات من أُمَّهاتها، وجعلَ فى مولِدها أصدقَ دليل علىٰ طُول عُمُر أبيها وسَعادة جَدِّه، وتضَاعُف نِعَم الله عِنْده؛ إنه لطيفٌ جَوَاد .

ابو مسلم محمد بن بحر :

مَرْحبًا بِبِكْر النِّساء، وبِكْر الأوْلاد، وعَقِيلة الحِباء، والمأمُولةِ للبركة، والمشْهورةِ باليُمْن ؛ وقد جَرَّبنـاه فوجدْناه معْهُودًا مسْعودا ؛ والله يعرِّفُك أضعافَ ماعَرَّف مَنْ قَبْلك ، ويُبـارِكُ لك فيما رزَقَك ؛ ويُثَـنِّى لك بأخٍ للمولودةِ ويجعَـلْه رديفَها . وفى الخير قرينَها وشريكَها .

علىّ بن خلف .

ويُنْهِى أنَّ المملوكَ آتَّصل به آرْتِمـاضُ[2] مولانا بمَقْدَم الكريمـةِ الوافِده، بطـالع السـعادةِ المتجدِّدَه ؛ فعجِبَ المملوكُ من وُقُوع ذلك من مثل مَولانا مع كمال نُبْله ،

(١) المراد به التضييق انظر القاموس .

(٢) يريد قلقه وعدم آنبساطه .

Marfat.com

وشَرَف عَقْله وعلمه ؛ فإنَّ الله تعالىٰ جلَّ آسمُه يقول : ﴿ يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إناثاً ويَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ ﴾ وإن ما جدّده اللهُ تعالىٰ من مَواهبه جديرٌ أن يُتلقّىٰ بالسُّرور والفَرَح، لا بالآستياء والتَّرَح ؛ لاسيَّما والذَّكَرُ إنما يتفضَّل علىٰ الأنثىٰ بنَجابته، لا بحِليَته وصُورته ؛ وقد يَقَع فى الإناثِ مَنْ هو أشرَفُ من الذكور طَبْعا ، وأجزَلُ عائدةً ونَفْعا ؛ وقد رُوِى أنَّ رسولَ الله صلىٰ الله عليه وسلم قال : " إذَا رُزِقَ العَبْدُ الأُنْثىٰ نادىٰ مُنادٍ من السماء : ياأهْلَ الدار أبْشِرُوا بالرِّزْق ؛ وإذا رُزِقَ ذكَرًا نادىٰ منادٍ من السماء : ياأهل الدار أبْشِرُوا بالعِزِّ" فليستقبل مولانا الرِّزْقَ بالشُّكْر فإنَّ العِزَّ يَتْبَعه، ولا يعارِضُ اللهَ تعالىٰ فى إرادتِه ؛ ولا يستَقِلُّ شيئا من هِبَته ؛ والله تعالىٰ يُعرِّفه يُمْنَ عُهودها، وسعادةَ قُدُومها ؛ وأن يُيَسِّره بعدها بإخْوةٍ متَتَابعين متَلاحقين ؛ يؤَيِّدُون أمْرَه، ويُحيُون بعد العُمُر الأطولِ ذِكْرَه .

أبو الفرج البيغاء :

لو كان الإنسانُ متَصرِّفًا فى أمره بإرادته ، قادِرًا علىٰ إدراك مَشيئته ؛ لبطَلتْ دلائلُ القُدْره، وآستحالَتْ حقائقُ الصَّنْعه ؛ ودَرَسَتْ معالِمُ الآمال، وتساوىٰ الناسُ ببلُوغ الأحوال ؛ غيْرَ أنَّ الأمر لَمَّا كان بغير مشيئتِه مَصْنُوعا، وعلىٰ ماعَنْه ظهَر فى الآبتداء مَطْبوعا ؛ كان المُخْرِجُ له إلىٰ الوُجود من العدم، فيما آرتَضَاه له غيْرَ متَّهَم ؛ ومولانا ـ أيده الله ـ مع كمالِ فضْلِه ، وتناهِى عَقْله ؛ وحِدَّة فِطْنته، وثاقِب معْرفته ؛ أجلُّ من أن يجهَلَ مواقِعَ النِّعم الواردةِ من الله تعالىٰ عليه ، أو يتسَخَّط مَواهبَه الصادِرةَ إليه ؛ فيرمُقَها بنواظِر الكُفْر ، ويسْلُكَ بها غيْرَ مذاهِبِ الشكر .

وقد آتَّصلَ بالمملوك خبَرُ المولودة كَرَّم الله غُرَّتها ، وأطال مُدَّتَها ؛ وعَرَّفَ مولانا البركةَ بها، وبلَّغه أملَهُ فيها ؛ وما كان من تغَيُّره عند آتِّضاح الخبَر، وإنكارِ ما آختارَه

له سابقُ القَدَر، فعجِبَ الملوكُ من ذلك واستنكره من مولانا وأنكره، لضيق العُذر في مثله عليه. وقد علِم مولانا أنهنّ أقربُ إلى القُلوب، وأنّ الله تعالى بدأ بهنّ في الترتيب، فقال جلّ من قائل: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ﴾ وما سمّاه الله هبةً فهو بالشُّكر أولى، وبحُسْن التقبُّل أحرى، ولكم نسبٍ أفدن، وشرفٍ استحدثن، من طُرُق الأصهار، والاتّصال بالأخيار، والملتمس من الذكر نجابته، لا صورته وولادته، ولكم ذكرٍ الأنثى أكرم منه طبعا، وأظهرُ منه نفعا؛ فمولانا يُصوِّر الحالَ بصورتها، ويجدِّدُ الشُّكر على ما وُهِبَ منها، ويستأنف الاعتراف له تعالى بما هو الأشبه ببصيرته، والأولى بمثله، إن شاء الله تعالى.

الصنف الثالث — التهنئةُ بالتَّوْءم.

أحسنُ ما رأيتُ من ذلك قولُ بعض الشُّعراء مما كتب به إلى بعض أصحابه، وقد وُلِد له ذكرٌ وأُنثى من جاريةٍ سوداء، وهو قوله:

وخصَّكَ ربُّ العرشِ منها بتوْءَم * ومِنْ ظُلُماتِ البحرِ تُستخرجُ الدُّرَر!
وأبرَكَ أضحى وارثًا عِلْمَ جابرٍ * فأعطاكَ من ألقابه الشَّمْسَ والقمر!

الأجوبة عن التهنئةِ بالأولاد

قال في "موادّ البيان": أجوبةُ هذه الرِّقاع يجبُ أن تُبنى على شُكر اهتمام المُهنِّئ ورعايته، والاعتداد بعنايته، وأنّ الزيادة في تجدّد المهنّئ [به] زيادةٌ في عدده، وأن تصيبه من تحرّك السرور فيما يخلُص إليه من المواهب كتصيبه لتناسبهما في الإخاء، وتوافقهما في الصفاء، وأن تراعي مع ذلك مرتبة المهنّئ والمهنّأ، ويبني الخطاب على ما يقتضيه كلٌّ منهما.

وهـــذا مثالٌ من ذلك :

زهر الربيـــع :

ويُنْهِى ورودَ الكتابِ الذى تَشرَّف المملوكُ بورُوده ، وأشرقت الأيام بمثال سُعُوده ، وأرغَمَ ببلاغته مَعْطِسَ مُناوِيه وحَسُودِه ، فشكَرَ أيادِىَ من أنعم بإرساله ، وآكتسىٰ بالوقوف عليه حُلَّةً من سُلَال خَفْره وجَمَاله ، وبالثناء إكماله ، حتى وقف إجلالًا له بين يَدَيْه ، ثم تلا آياتِ حُسنه على أُذنَيْه ، فوجده مشتملًا على إحسان لم يَسْبِقْه إلىٰ مثلِه أحَد ، ومِنَنٍ أوْدَعها فيه فلا يُحصيها حَصْر ولا عَدَد ، فنهج بوروده رَسِيسَ الأشْواق ، وتقلَّد بإنعام مُرْسِله كما قُلِّدت الحمائمُ بالأطْواق ، ووجد لَوْعةً لا يُحْسِن وصفَها لسانُ اليَراع فى الأوْراق ، وعلم ما أشار إليه المَوْلىٰ من التهنئة بالوَلَد الجديد ، بل بأصْغَر الخَدَم والعَبِيد ، وما أبداه من الابتهاج لميلاده ، وأظهره من التفضـــل المعروف من آبائه الكرام وأجْداده ؛ ولِمَ لا يكونُ الأمرُ كذلك والوالدُ مملوكُه ، وهو مملوكُ السادة الأجِلَّاء أولادِه ؛ حَرَس الله مَجْدَه ومتَّعه بثَوْب مكارِمه ، وخَفَض قدْرَ مُحارِبه ورفَع كلمةَ مُسالِمه ؛ ولا زال مَمالِيكُه تزيد تزيُّد الأيَّام ، وسـعادتُه باقيةً ببقاء الأعوام ، وعينُ العنايةِ تحرُسه فى حالَتَى السفرِ والمُقام ، إن شاء الله تعالىٰ .

الضـــرب الثامن

(من التهانى التهنئةُ بالإبْلال من المَرَض والعافية من السَّقَم)

فمن ذلك :

ويُنْهِى أنه مازالَتْ أجسامُ أهل النِّفاق تتقلَّب فى أسقام الحَسَد والشِّقاق ، كما أنفُسهم فى التخالُص والتَّوافى ، ولمَّا ألَمَّ بمولانا هـذا الألَمُ الذى [illegible]

Marfat.com

بإماطتِه، ومَنَّ فيه علىٰ السُّؤدَد بحِراسةِ مولانا وحياطَتِه؛ فَرأيْتُه حالًّا فى جَوارِحى، مُحْرِقًا لجوانِحى؛ ممازِجا لأعْضائِى، متَمَلِّكا لأنْوائِى(١)؛ ولئن كنتُ قد تحمَّلْت من ذٰلك عِبًا، وٱرتَقَيْت من تحمُّله مُرْتَقًى صَعْبا؛ فلقد فَخَرْتُ بمَماسَّتِه، وأحمَدْتُ طبْعى على مُشَاكلته؛ وشكَرْت الله تعالى إذْ جعَلَنى شُعْبة من سَرْحتِه، وجبِلَّة من طينَتِه؛ وعلىٰ ماسَرَّ به من إقالتِه وإنعاشِه، ومُصافاتِه وإبْشاشِه؛ وسألتُ الله تعالى أنْ يبقِيَه نُورا يُوضِّح مَغْرِبَ الدَّهر ومَشْرِقه، ودُرًّا يُرصِّع فَوْد المجْدِ ومَفْرقه؛ ويُحْسِن الدِّفاعَ عن حَوْبائه، وهو سبحانهُ يُجِيب ذلك ويتَقَبَّله، ويرفَعُه ويسْمَعُه؛ إن شاء الله تعالىٰ.

وله فى مثـــله :

المملوكُ يُهَنِّئُ مولاه خاصَّةً إذ جعله الله تعالىٰ من صَفْوةِ أوليائِه، وخالِصة أحبَّائه؛ الذين يبتليهم ٱخْتبارا، ويَنْتَابُهـم ٱخْتيارا: ليجمع لهم بين تمحِيص وِزْرهم، ومضاعَفَة أجْرِهم؛ والحضِّ علىٰ طاعته، والاِنصراف عن معْصيته؛ ويُهَنِّئُ الكافَّة عامَّة بالمَوْهِبة فى نُوره المُطلِعـةِ لأمَلِ الإقبال، المُرْوِيَة لِمَـاحِل الآمال؛ ثم أعطفُ علىٰ حَمْدِ الله علىٰ مامَنَّ به من إبْلالِه، ويَسَّره من ٱستِقْلاله؛ والرَّغبةِ إليه فى أن يمنَحَه صحةً تُخَلَّد وتُقِيم، وعافية تَرْهَن ولا تَرِيم؛ وأن يحمِيَه من عَوارض الأسْقام، ويصُونه من حوادثِ الأيَّام؛ بفَضْله وجُوده، إن شاء الله تعالىٰ.

أبو الفرج الببغاء :

أفضلُ مايَفْزَع إليه العبدُ المخْلِص، والمَوْلىٰ المتخَصِّص؛ فيما يَنوبُ سيِّدَه ويُهِمُّ وَلِىَّ نِعمتِه، الدعاءُ المقتَرِن بصدْق النيه، وصَفَاء الطوِيَّه [فالحمد لله الذى منَّ بالصحَّة وتصدَّق بالإقالة، وتدارك بجميل المُدافَعة؛ وعَمَّ سائرَ خدَمِه أيَّده الله بالنِّعمه، وأعادَه

(١) كذا فى الأصل ولعله لأحشائى أو نحو ذلك.

Marfat.com

إلى أجمل عاداته من السلامة والصِّحَّه، فائزا بمُدَّخَر الأجْر، متعبِّدا بمستأنَف الشُّكْر؛ فلا أخلاه الله من زيادةٍ فيما يُولِيه، ولا قصَدَنا بسَمَاع سُوءٍ فيه؛ وحَرَس من الغِيَر مُهْجته، ومن المحذُور نِعْمَتَه.

وله في مثله:

ما كنتُ أعلم أنَّ عافيتي مقرونةٌ بعافيتك، ولا سَلامتي مضافةٌ لسَلامتك؛ إلى أن تحقَّقْت ذلك من مُشاركتي إيَّاك في حالتَي الألَم والصِّحه، والمرض والمِحْنه؛ فالحمدُ لله الذي شَرَّف طبْعي بمناسَبَتك، وجَمَّل خُلُقي بملاءمتك؛ فيما ساءَ وسَرَّ؛ وإيَّاه تعالى أشكُر على ما خصَّني به من كمال عافيتك، وسُبُوغ سلامتك وسُرْعة إقالتك؛ وبه ـ جلَّ اسمه ـ أثِقُ في مَزيدك من تظاهُر النِّعم، وتوفُّر القِسَم.

وله في مثله:

ولولا أنَّ متضمَّن كتابك قرَن ذكرَ المرض الهاجِم عليك، بذكْر ما وهَبه اللهُ لك من عَوْد السلامةِ إليك؛ لما اقتصَر بي القلَقُ على [ما] دُون المَسير نحْوَك، والمبادرة لمشاهدَتك؛ غير أنَّ السُّكون إلى ما أدَّاه كتابُك سابقَ الجَزَع، والطُّمأنينةَ إلى ما وهبه اللهُ من كِفَايتك حالتْ دُون الهَلَع؛ فالحمدُ لله الذي منَّ بالإقالة، وتصدَّق بالسَّلامة وعَمَّ بالكِفَايه؛ وهو وليُّ حِراسَتِك وحراستي فيك.

وله في مثله:

سيِّدُنا في سائر ما يذكِّره اللهُ من هُجُوم ألَمٍ مُؤْذِن بصحَّه، [illegible] منحَه؛ مَرْمُوقٌ بالعافيه، محروسٌ من الله جلَّ اسمه بالحفظ [illegible] فائزٌ بذخائر الأجْر، ومع العافيةِ موفَّقٌ لاستزادة الشُّكْر [illegible] الذي عقَد الكَرَم ببقائه، وشفى [illegible] بشفائه، وكفاه اعتراض المَخُوف [illegible] الصُّروف.

وله فى مثـــله :

ما آنفردَ جِسْمُك بالعِـلَّة دُونَ قَلْبِي، ولا آختصَّت نفْسك ـ حرسها الله تعالىٰ ـ بمُعاناةِ المرَض دُون نَفْسى؛ ولم أزلْ بالقَلْب تالِيا، وفى سائر ماشكوتَهُ بالنِّية مُساوِيا؛ إلىٰ أنْ كشفَ الله الغُمَّه ، وأقال العَثْره، ونَفَّس الكُرْبه ؛ ومَنَّ بالسلامه، وتصَدَّقَ بالكِفايه؛ وأوجبَ بالعـافيةِ علينا جميعًا فُروضَ الشكر، بعد ما ادَّخَره لك بالألَمِ من كثْرة الأجر؛ فالحمـد لله علىٰ ذٰلك حمدًا يؤدّى إلىٰ حِراسة ماخَوَّلك، ويُؤْذِن بالمَزِيد فيما منحك .

ومن كلام المتأخرين :

أعْلىٰ الله قدرَ الجناب الفُلَانِى، ولا زالتْ شُموسُ أيامه لاتخَافُ كُسُوفا ولا أُفُولا، وأقمارُ لياليه تَغْرِس فى قلُوب أوليائه ومحبِّيه فُروعًا وأصُولا .

المملوكُ يَخْدُم خدمةَ مَنْ تحمَّل جميلا، ونال من تَفَضُّل الجناب الكريم جزِيلا .

ويُنْهِى ما حصل له من السُّرور بعافيـةِ مولَانا، فالشكْرُ لله علىٰ ماجَدّد من النِّعمة التامَّه، وسَمح به من الكرامة العامَّه ؛ حين أعاد البَـدْر إلىٰ كَمَاله، والسُّرورَ إلىٰ أتَمِّ أحواله ؛ وما كانتْ إلا غَلْطةٌ من الدَّهْر فاستَدْركها، وصَفْقةٌ خارجةٌ عن يده فُلِّكها ؛ فقرَّتْ بذٰلك العُيون ، وتحقَّقت فى بُلوغ الأمل الظُّنون ؛ وآنجبَرَ قلْبُـه بعدما وهَن ، وعاد جَفْنُه بعد الأرَق إلىٰ الوَسَن ؛ وقال : ﴿ الحمدُ لله الَّذِى أذْهَبَ عَنَّا الحَزَن ﴾ . ولقد كان يتمنّىٰ المملوك لو فازَ من الرُّؤْية الشريفةِ بحظِّ السمع والبَصَر، وتملّىٰ بمشاهدة وجْهه الكريم فإنَّ فيه البُغْيةَ والوَطَر .

والمملوك فمـا يُعَدّ نفْسَه إلا من المحبين الذين بذَلُوا نُفوسَهم لمحبته وأعَدُّوها ؛ والله تعالىٰ يسُرّ الأولياء بتضاعُف سُعُوده ، ويُديم بهجةَ الأيَّام بميمُون وُجُوده ؛ ويُطيل

Marfat.com

فى مدّته ويحرُسُها من الغِيَر، ويحرُس أحوالَ مِزَاجه الكريم علىٰ القـانُون المعتَبَر؛ ويَكْفِى أولياءَه ومحبِّيه فيه كلّ مكروهٍ وحَذَر؛ إن شاء الله تعالىٰ .

من زهر الربيع :

ولَمَّـا شَكَوْتَ، آشْتكىٰ كُلُّ ما * علىٰ الأرضِ وآهتَزَّ شَرْقٌ وغَرْبُ !
لِأنَّك قَلْبٌ لِجسْم الزَّمان * وماصَحَّ جِسْمٌ إذا آعتَـلَّ قَلْبُ !

حرَسَ الله جَنابَه، وأسبَلَ عليه رِداءَ السعد وأثْوابَه؛ ومتَّعه بِبُرود العافية وجِلْبابِها، وفتح له إلىٰ نَيْل السـعادة سائرَ أبوابِها؛ ومنَحه الكِفايَة والأمْنَ فى سِرْبه، والعافيةَ فى جِسْمه من قَلَق كلِّ مرَضٍ وكَرْبه؛ وجمع له بين الثَّواب والأجْر، وجازاه بجزيل الغُفْران عن جميلِ الصَّبر .

المملوك يبَشِّر نفْسَه ومولاه بمـا مَنّ الله به من صِحَّة مِزَاجه الكَرِيم، والإبلالِ من مرضٍ كاد يُدِير كُئُوس الحِمَـام علىٰ كلِّ صـديقٍ حَمِيم؛ ويحمدُ الله علىٰ عافيته حمدًا جزيلا، ويشْكُره عليها بُكْرةً وأصيلا؛ فإنّه قد عُوفِى لعافيتِه المجدُ والكَرم، وزالَ عنه إلىٰ أعدائه الأَلَمَ؛ فالمولىٰ حفِظ الله[1] صِحَّته من السَّقَم، وحَماهُ من ألَمَ ألَمّ؛ وجعل سعادَتَه تتزايَدُ علىٰ مَمَرّ الأنفاس، وجسَدَه سالمـا من الأذىٰ كسلامةِ عِرْضه من الأدْناس؛ إن شاء الله تعالىٰ .

لشيخ جمال الدين بن نباتة :

وقىٰ اللهُ من الأسواء شَخْصَه الكريم، وشَمْلَه النَّظِيم؛ وقلْبَ محبِّه الذى هو فى كلِّ وادٍ من أوديةِ الإشفاقِ يَهِيم .

---

(١) لعله حفظ الله على المولىٰ صحته الخ .

Marfat.com

ولا زالتِ الصحةُ قرينَه حتّى لايعتَلَّ فى منازله غيرُ مُرور النَّسيم . ويصفُ شوقا يَزِيد بالأنفاسِ وَقْدا، ويجَدد للأحشاءِ وَجْدا ، ويبـاشِرُ القلبَ المُغْرَم فيَمُدّ له من عذاب الآنتظارِ مَدّا .

وينهى أنه جهَّز هذه الخدمةَ نائبةً عنه فى آستِجْلاءِ وجه أكرمِ الأحِبَّه ، وتَصافِحِ اليَد التى أقلامُ كُتُبها فى شكوىٰ البِعادِ أطيَبَ ؛ مبديةً إلىٰ العـلم الكريم أنَّه مَع ما كان يكابِدُه من الأشواق، ويعالِجُه من خَوَاطر الإشْفاق، بلَغـه ضَعْفُ الجسد الموَقّىٰ، وعارِضُ الألم الذى آستطار من جَوانح المحبِّين بَرْقا؛ فلا يَسْأَلُ الجنابُ الكريمُ عن قلْبٍ تألَّم، وصدْرٍ صامتٍ بالهُموم ولكنَّه بجراح الأشْجان تكَلَّم، ولسانٍ أنشد :

ألَا لَيْتَنِي حُمِّلْتُ ما بِكَ من ضَنًى * علىٰ أنَّ لى منه الأذىٰ ولكَ الأجْرُ!

ثم لَطَف اللهُ تعالىٰ وعجَّل خَبَرَ العافية المأمُوله، والصحةِ المُقْبِلة عَقِيبَ الدَّعَوات المقبوله ؛ فيالها مسَرَّة شَمَلتْ ، ومبرَّة كَمُلت ؛ وتهنئـة جمعتْ قلوبَ الأوِدّاء وجَمَلتْ ، وأعضاء فَدَتْها عُيونُ المَها فنقَلتْ عنها صِـفاتِ السَّقام وحَمَلَتْ ؛ وعافيةَ حوَّلتْ إلىٰ قلوب الأعداء المَرَض ، وجوهَر جسدٍ ظاهرٍ زال [عنه] بأسُ العَرَض ؛ فهنيئاً له بهذه الصحة المتوافِرة الوافيه ، والحمد لله ثم الحمدُ لله علىٰ أنْ جمع بين حُصُول الأجْرِ ووُصُول العافيه ، وعلىٰ أن حفِظ ذاتَه الكريمة وحفْظُها هو المقدمةُ الكافيةُ الشافيه :

وقَسَّمَ الناسَ المسرَّةَ بينهم * قِسَمًا فكانَ أجلَّهم قِسْما أنا!

ولله تعالىٰ يُسْبِغ عليه ظِلال نِعَمه ، ويحفَظُه حيثُ كان فى نَفْسه وأهله وخَدَمه ، ويكبِتُ الأحبابَ بقَهْر عدوِّه كذلك إنشاء بيانُ مقدمه .

---

(١) فى ... ما جمعها وفد من ...

Marfat.com

أجوبة التهنئة بالإبلال من المرض والعافية

قال فى "مواد البيان" : أجوبةُ هـذه الرِّقاع يجبُ أن تكونَ مبنيَّةً علىٰ وصف الألَم وصُورته وما تفضَّـل الله تعالىٰ به من إمَاطتِه ، وشكر المهنِّى باهتمامه وعِنَايَتِه ، وهذه أمثلة من ذٰلك :

من زهر الربيع :

أدام اللهُ نعمتَه ، وشكر مِنَّته ، وأدالَ دَوْلَتَـه ؛ وأعلىٰ قدْرَه وكلمتَـه ، وحتَّم علىٰ الألسنة شُكْرَه والقلوبِ محبَّتَه . ولا زالتِ التهانِى من جِهته وافِده ، والبشائرُ وارِدَه ، ويُنْهِى وُرودَ الكتاب الذى أعدتْه يدُ المَعالى فعادَ كَرِيمـا ، وشاهدَ حُسْنَ منْظَرِه فصار وجْهُه وَسيما ؛ وأنه وقَفَ عليه ، وأحاط عِلْما بكلِّ ماأشار المَوْلىٰ إليه ؛ فذكَّره أنْسا كان بخِدْمتِه لم يَنْسَه ، وجدَّد له وَجْدا ما زال يَجِدُ فى قلبه ونَصْبِ عينه ونفسه ؛ ونَشَر من مآثِره المأثوره ، وفضائله المرقومةِ فى صَـفَائح الصَّحائف المسطُوره ؛ ماشنَّف به وشَّرف ، وشوَّق إلىٰ لِقـائه وشَوَّف ؛ وأقامَ البُرهانَ علىٰ ذَكِىّ فِطْنته ، وزَكِى فِطْرته ؛ وعلَم ماأنعَم به وتفضَّل ، وأحسَنَ وتَطَوَّل : من تهنئة المملوك بالإبْلال من مَرَضه ، والبُرء من سَقَمه ، والتخلُّص من يدَىْ وجَعه وأَلَمه ؛ وسُرَّ بوُرودِ كريم مُشَرِّفته ، أعظَمَ من سُروره بلِباس ثَوبِ عافيَتِه ؛ وبدَوامِ مَجْده وسعادته ، أكثَرَ من صِحَّة مِزاجه واستِقامته : فإنَّ مكارمَ المَوْلىٰ كالحدائقِ النَّاضره ، ومثْلَتُه أعز فى القلوبِ من الأحداقِ الناظِره .

فالحمدُ لله الذى مَنّ بالعافية من ذلك المَرَض ، والداء الذى ألَمّ بعرَضَيْه فاحتوىٰ منهما علىٰ الجوْهَر والعَرَض ؛ وطالَ حتّٰى أسأمَهُ من نَفْسه وعُوّاده ، وآيَسَه من الحياة

Marfat.com

اولا لطفُ اللهِ واللهُ لَطِيفٌ بعِبَاده ؛ وهـذا ببركةِ المولىٰ ودعائِه الذى كان يرْفَعُـه والخواطِرُ والأسمـاعُ مع بُعْد الشُّقَّة تشْهَد به وتسْمَعُه ؛ جعل الله التهانِىَ مع الأبد واردةً منه وإليه ، وشكَرَ إنعامَه وأتَمَّ نعمتَه عليه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

قلت : وكتبتُ للمقَرّ العلائىّ علاءِ الدين الكَرَكىّ وهو يومَئِذ كاتبُ السِّرِّ الشريف فى الدولة الظاهريَّة «برقوق» فى سلْطنته الثانية ، وقد بَرَأ من مرض نظما :

أَفْدِيه مِنْ جَسَـدٍ قدْ صَحَّ مِن سَقَم * فبَاتَ جَوْهَرُه خالٍ من العَرَض !
فاستَبْشَرتْ بعَـلىّ القَوْمِ شِـيعَتُه * وماتَ حاسِـدُه بالسُّقْم والمَرَض !

الضرب التـاسع
(التهنئـةُ بقُرْب المَـزَار)

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبى :

قَرَّب اللهُ مَزَاره ، وأدْنىٰ جِوَارَه ، وأعانَ أعوانَه ونَصَر أنصارَه . ولا زالتِ الأنفُسُ لقُرْبه مَسْروره ، ورايَاتُ مجْدِه فى الملإ الأعْلىٰ وأحزاب الإسلام بهيبَتِه علىٰ أعداء الدِّين مَنْصُوره .

المملوكُ يقبِّل الباسطةَ العاليةَ بسَطَ اللهُ ظِلَّها ، وشكَرَ علىٰ الأولياء فَضْلَها . ويُنْهِى أنه آتَصل به طَيِّب أخباره ؛ وقُرْبُ مَزَاره ؛ فتَضاعفَ شَوْقه ، وتَزايد تَوْقُه ؛ وهيَّجتْ صَبَابتُه لاعِجَه ، وسَهَّلتْ إلىٰ نَيْل المَسرَّة طُرُقَه ومَنَاهِجَه :

وأَبْرَحُ مايَكُونُ الشَّوقُ يَوْمًا * إذا دَنَتِ الدِّيارُ مِنَ الدِّيَار !

فاللهُ يقرِّبُ من أمَدِ التَّلاقِى بَعِيدا ، ويجعَلُ رِداءَ الاِجتماع بخِدْمته قَشِيبا جَدِيدا .

Marfat.com

الضـــرب العـاشر

(التهنئـــةُ بنزول المَنـازل المستَجِدّة)

فمن ذلك [من إنشاء] علىّ بن خلف :

أشرَفُ المَنازل رُقْعه ، وأتْرَفُها بُقْعه ، وأرفَعُها رفعــه ؛ ما آتَّخذه مَوْلانا لنفســه مَوْطِنَا ، وجَعله بنُزوله فيه حرمًا آمِنا ؛ وصيَّره بمُخْصِب مكارمه للعُفَاة مَرَادًا ومَقْصدا ، وبمُعْذِبِ نوافِـله للظُّماة مَشْرَعا ومَوْرِدا ؛ وللسُّؤدَد بمجده مَعْقِلا ، وللرِّياســة بشَرَفه مَنْزِلا ؛ والله تعالىٰ يجعلُ هذه الدارَ التى تدَيَّرها وحَلَّها ، وحَطَّ بها رحْلَه ونزلها ؛ مأهولةً ببقائه ، آنسةً بسُبُوغ نَعْمائه ؛ عامرةً بسعادته ، مَشِيدةً بتناصُرِ عِزّه وزيادتِه ؛ لاتُخْطِئُها حوائمُ الآمال ، ولا تتَخَطّاها دِيَمُ الإقبال ؛ ويُعرِّفُه من بركتها ، ويُمْنِ عَتَبتِها ، مايقضِى بامتدادِ الأجل ، وآنفِساح الأَمل ؛ وبلوغِ الأمانِى ، وآتِّصال التَّهانى ؛ بمنِّــه وكرمه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

ومن ذلك :

ويُنْهِى أنه قد آتَّصل بالمملوك تحوُّلُ مولانا إلىٰ المنْزِل المنْشَإ الجَديد ، ذى الطالع الســعِيد ، والطائر الحميد ؛ فسألتُ اللهَ تعالىٰ أن يُبَوِّئَه منه المُبَوَّأَ الكَرِيم ، ويمتِّعه فيــه بالدَّعَة والنَّعيم ؛ والنَّمــاء والمَزِيد ، والعَيْش الرَّغِيــد ؛ ويجعَلَه واصــلًا لحبْله ، مأهولًا بأهله ؛ ويعَرِّفَه بركةَ عَتَبتِه ، ويُمَلِّيه بَبهائِه ونَضَارته ؛ وحصل للمملوك السُّرورُ بأن بلَّغه الله الوَطَر ، فى سُكْنىٰ ماعَمَر ؛ وأنالَه الأمَل والآلتذاذ بخِدْمته ، والسُّرورَ بافتِضاض عُذْرته ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

ومن ذٰلك .

مولانا ـ أمتع الله بوجوده ـ غنىّ عن الهَنَاءِ بمنْزِلٍ يَنْزِله ومحَلٍّ يحُلُّه ، إذِ الله ســبحانَه وتعالىٰ قد كثَّر أوطانَه وآدُرَه ، وبلَّغه فى تمــامِ عِمارَتها وآنفِساحها وطَرَه ؛

Marfat.com

وخصّه بأفضلها معانا ، وأشرفها مكانا ؛ والمستوجبُ فى الحقيقـة للهَنَاء هو الموضع الذى اختاره دارا ، وارتضاه مستقرا ؛ وعرف المملوك انتقاله ـ لازال يتنقّلُ فى بُروج السّعْد ، ويأوى إلى ظلّ الليل من المجدْ ـ إلى الدار الفلانية لازالتْ جامعةً لشَمْله ، مأنوسةً بأهْله ؛ فعدل عن خِدْمته بالهناء ، إلى إخْلاص الدُّعاء ، بأن يعرِّفَه الله تعالى يُمْنَها وبركتَها ، ويَرِيه إقبالَها وسعادتَها ؛ ويَقْرُنَ تحوُّله إليها بأيْمن طائر ، وأبرك طالع ؛ فإنَّ للحركات أوقاتاً محمودةً ومذمومة : فإذا اعْتنى اللهُ تعالى بعَبْد من عَبيده ، وفَرَضَ له نصيباً من تأييده ؛ وفّقه للحركة فى الزَّمَن السعيد ، والوقتِ الحميد ؛ لتكُونَ مَصَايِرُه مُشاكلةً لمَبادِيه ، وأعجازُه مشابهةً لهَوَادِيه ، واللهُ تعالى يجعَل بابَها محطًّا للقُصّاد ، ومناخًا للوُفّاد ، ومَزارا للعُفَاه ، وملاذا [للعُنَاه](١) ويصلُ بها حَبْله ، ويُنْشِى بها طِفْله ؛ ويضاعِفُ باستيطانها أُنْسه ، ويسر بتبوُّئها نَفْسَه ؛ إن شاء الله تعالى .

أبو الفرج الببغاء :

أسعدُ المنازل وأشرفُ المواطن ما استَوْطنه أيّده الله وتبوّاه ، وتخيّره لنَفْسه وارتضاه ؛ فغدا بشَخْصه وطَنَ الإقْبال ، وبفائض كَرَمه حَرَمَ الآمال ؛ وبشَرَفه السُّؤدَد مَعْقِلا ، وبنُبْله للرِّياسة مَنْزِلا ؛ فعرّفه الله يُمنَ هـذه الدارِ المعمورةِ بحُلُول البركات ، المحفوفةِ بتَناصُر السَّعادات ؛ وجعلها وكلَّ رَبْع يقْطُنُه ، ومحلٍّ يسكُنه ؛ مبَشِّرا بامتدادِ بقائِه ، وآهِلاً بالزِّيادة فى نَعْمائه .

وله فى مثـله :

كلُّ وطن يحُلُّه ـ أيده الله ـ ويقْطُنه ، ومحـلٍّ يتخيّره ويسْكُنه ؛ مقصودٌ بالشُّكر والثناء ، آهِلٌ بالحمدِ والدُّعاء ؛ لا يتخطاه مُتوارِدُ الآمال ، ولا تنْقطِع عنه موادُّ الإقبال ؛

(١) بياض بالاصل والتصحيح من المقام .

Marfat.com

ولذلك صار هذا المنزلُ السعيدُ من فضائلِ الأرض ومحاسِنِها، ونُجَع الآمال ومَعادِنها؛ فعرَّفه الله يُمْنَه وبركتَه، وإقبالَه وسعادتَه؛ وقرن انتقالَه إليه بأسبغ نِعَمه، وأكمل سَلامة وأبسط قُدرةٍ وأعلى رُتْبه.

وله في مثله:

عرَّفه الله [من] بركةِ هذا المنزِل المَوْرود، والفِناء المقصُود، ما يُوفِي على سالف ما أولاه من تكامُل البركات، وتناصُر السَّعادات؛ وجعل مستقَرَّه فيه مقرونًا بنُمُوّ الحال، وتتابُع الإقبال؛ في أفسَح المُدَد وأطولها، وأنجَح المطالِب وأفضَلِها؛ وعمَر أوطانَ المكارم بإقباله(١)، وعضَّد الأمانيَّ باتِّساع نَعْمائه.

أجوبة التهنئة بقُرْب المَزار، ونُزول المنازل المستجدّة

قال في "مواد البيان": أجوبةُ هذه الرِّقاع يجب أن تُبْنَى على الاعتداد للهنيّ بتعهُّده، والشكر له على تَوَدُّده؛ والابتهاج بهنائه، والتبرُّك بدعائه؛ وأن المستجِدّ غير مباينٍ لمنزِله، ولا خارجٍ عن أحكام محله؛ وأنَّ تمامَ بركته، أن يُؤْنِس فيه بزيارته؛ وما يشابه هذا.

الضرب الحادي عشر

(نَوادِر التَّهانِي، وهي خمسةُ أصناف)

الصنفُ الأوّل — تهنئةُ الذِّميّ بإسلامه.

فمن ذلك ما أورده أبو الحُسَين بن سعد في ترسُّله، وهو:

وما زالتْ حالُك ممثِّلةً لنا جميلَ ما وهبَ اللهُ فيك حتَّى كأنَّك لم تَزَل بالإسلام مَوْسُوما، وإن كنتَ على غيره مُقِيما؛ وقد كُنَّا مؤمِّلين لِمَا صِرْتَ اليه، ومُشْفِقين لك

---

(١) لعله ببقائه ليناسب السجع الذي بعده.

Marfat.com

مما كُنْتَ عليه ؛ حتّى إذا كادَ إشفاقُنا يستَعْلى علىٰ رجَائِنا ، أتتِ السعادةُ فِيكَ بما لم تَزَلِ الأنفُسُ تَعِدُ منك ، ونسأَلُ اللهَ الذى نوّرَ لكَ فى رأْيِك ، وأضاءَ لك سبيلَ رُشْدِك ، أنْ يَوَهِّلك لصالحِ الأعمال ، وأنْ يؤتِيَك فى الدنيا حسنَةً ويَقِيَكَ عذابَ النار .

ومن ذٰلك ، من كلام أبى العَيْناء :

ولتَهْنِئْكَ نِعمةُ الله عليك فى أُخُوَّة المهاجِرِين والأنصـارِ والتابعين بإحْسان[1] ؛ والحمدُ لله الذى فَوَّزَ قِدْحَك [وأ] علىٰ كَعْبك ، وأنقَذَ من النار شِلْوَك ؛ وخلَّصَك من لَبْس الشّك ، وحَيْرة الشِّرْك ؛ فأصبحت قد آستبدلت بالأدْيارِ المساجد ، وبالآحادِ الجُمَع ؛ وبقِبْـلة الشام ، البيتَ الحَرَام ؛ وبتَحْرِيف الإنْجيـل ، صِحَّةَ التـنزيل ؛ وبأوْثانِ المشركين ، قِبْلَةَ الموحِّدين ؛ وبحُكْمِ الأُسْقُفِّ رأسِ المُلْحدين [حكم] أميرِ المؤمنين وسيِّدِ المرسلين ؛ فهَنَاك الله ماأنعَم به عليـك ، وأحسَنَ فيه إليك ؛ وذكَّرك شُكْرَه ، وزادك بالشُّكْر من فَضْله .

أجوبة التهنئة بإسلام ذمىّ

قال فى "موادِّ البيان" : أجوبةُ هذه الرِّقاع ينبغى أن تكونَ مبنِيَّةً علىٰ شكر المهَنِّئ ، وآعترافِه بنعمةِ الله تعالىٰ عنده ، وآبتهاجِه بمازَجتِه فى الدِّين ، الذى جعل اللهُ أهـلَهُ إخوانًا متَصافِين ، وخُلَّانًا متوافِين ، ومَنَّ عليهم به ، وبإماطةِ الحسائِف[1] من قلوبهم ، ونحو هذا .

الصنف الثـانى — التهنئة بالختَان وخروج اللِّحية .

فمن ذلك تهنئةٌ لأميرٍ بختَان ولَدَيْن له :

فمن خَصائِص ما حَبَاه اللهُ بعدَ الذى قدّم له فى نَفْسه — نفَّس الله مُدَّتَها ؛ ووسَّع له مُهْلتها — أنْنى الأعدادَ دُونَ فنائِها ، والأعمارَ دُونَ نصرُمِها وآنتهائِها : [من] الفَضائل

(١) الحسائف جمع حسيفة وهى الضغينة والسخيمة أنظر اللسان فى ج ١٠ مادة ح س ف .

Marfat.com

المشهوره، والمَحاسِن المذكُوره ؛ والمَناقِب المأثُوره ، وأقسامِ الفضـل الذى يَنْقِضى دُونَ تصرُّم(؟) منازِله وصْفُ الواصف إذا أفرطْ ، ويتهِى دون أيْسرها أملُ الآملِ إذا آشتَطّ ـ ما وهبَ اللهُ له من أولادٍ سادةٍ فضَّلهم فى الأخلاق والصُّوَر، وأكملهم فى الأجْسام والمِرَر؛ وقدّمهم فى العُقُول والأفهام؛ والقَرائح والألبـاب، ولم يجعـل للعَيب فيهـم سميه ، ولا للإناثِ بينهم شركه ؛ حتّى يكون مسَلِّمـا لهم قصَبَ العُلا والفَاخر، وصـدُورَ الأسِرّة والمَنـابر؛ من غير منازِع ، ولا مُقَارع ، ولا مُساهم، ولا مُقاسِم، وزادهم من النَّماء فى النَّشْء والبركة واليمن بما يُؤذِن الحاضرُ منه بالغابر، ويدلُّ البادِى علىٰ الآخِر؛ وعْدًا من الله تعـالىٰ ذكره لهم بأوْفىٰ السعادات، وأكمل الخيراتِ وأعْلىٰ الدَّرَجات ؛ أرجو أن يجعل اللهُ النُّجْحَ قرينـه ، والنجاةَ ذَرِيعتَـه؛ وما أوْلاه فيهم فى هـذه الحال الحـادثةِ التى يَعْدِق الله بهـا أداءَ الفريضـة، وكمالَ الشريعـه؛ ويقع التطيُّر بالحتَـان، الذى جعله الله من شُروط الإيمان، وفرَضَه علىٰ جميع الأدْيان : من السَّلامة علىٰ عِظَم الخَطَر، وشِـدّة الغَرَر؛ فى إمضاءِ الحديد علىٰ أعضاءٍ ناعمه، وإيصـال الألَمِ إلىٰ قلُوبٍ وادِعة ، لم تُقَارِعْ نَصَبا، ولم تُعانِ وَصَبا؛ وآجتمع فيه إلىٰ رقَّة الصِّبا ، وضَعْف الأَسْر والقُوىٰ ؛ آعتيادُ الرحمه، ومخالفةُ الترفُّه والتنقُّل بين الشهوات؛ علىٰ أن كلَّ واحد من الأميرين شَهِد المعْرَكة أعزَلَ حاسِرا، وباشر الحرْبَ مغرّرا مُخـاطرا؛ فثبت لوَقْع السِّـلاح. وصَبَر علىٰ ألَمِ الجراح؛ وأبلىٰ بَلاءَ الفارس المُدَجَّج، والكَمِىّ المقَنَّع؛ ثم خرجَ خُروجَ شِبْل اللَّيْث، وفرخ العُقاب، كالقِدْح المُعَلّىٰ والشِّهاب الساطع، والنَّجْم الثاقب؛ وكان فلان أكثرَهما تغيُّرا فى وجْه قرْنه، وسـطْوةً علىٰ مُنازِله؛ وكلٌّ قد حصَّل فوق الحَصْل، وحوىٰ فضيلةَ السَّبْق؛ وآستحقَّ آسمَ البَأْس والشِّدّه، وحلْيةَ البَسالة والنَّجْده .

Marfat.com

ومن ذلك ماأورده ابن الحسين بن سعد في كتابه :

الحمدُ لله الذي كَساك باللَّحية سُنَّةَ الوَقار ، وبذَّلك رِداءَ ذي السَّمْت من الإزار والأخيار ، وسألك عن تيسير الطَّريق لطالع أنس الهوى ما سألك من الهيبة المهيبة ، وألبسك من لباس ذوي النُّهى والألبَّاء ما ألحقك في سمت آلائه بمن يستقلُّ بعمله ساعيا ، ويستغني عمن شبه حافظا ، وجعلك معتذرا عن صورتك ، وكلٌّ من أدواتك وآلاتك ، قرنا لمن ناقشه ، وخصما لمن نازعك ، ونفى عنك بالاختبار من أهل المراتب والأخطار ، تستوي [بهم] في المجالس المائلة ، ويجري بحلومهم في المشاهد الحافلة ، مسموعا قولك إذا قلت ، ومُصغًى ليلك إذا نطقت ، آمنا من أن تصرف الأبصار عنك لقُرب بلادتك ، ومن [علم] الناس بمكانك لقلة الثقة بمدادك ، وعجائبيا تجري كتلة الرجال عن الجناب ، من أن تكشف لهم حقائق المتابعة ، لتلاعب العابث ، ومر السمع الخارق ، فلو كانا عاريا من هذه الخَسَرة الشريفة ، لظلية الملحوظة ، ولسبقت إلى الإزدراء بالأعين ، والاستصغار بالقلوب والأنفس ، أصناف الحيوان من البهيمة والإنسان ، ثم لا يُبقي من نفسه قوةً على الدفع عنها ، لا من سرعته ثباتا على رجليه ، وتلك نعمة من الله جل وعز حباك بمزيتها في جمال غشاك (١) ، وكمال آتاك ، فليُصدق بها اعترافك وشكرك ، وليحسُن ثناؤك وتأويلك ، قضاءً لحق الله عليك ، واستزادة في المزيد من إحسانه إليك .

المصنف الثالث ـ التهنئة بالمرض

أبو الفرج البغدادي :

في ذكر الله مبتدى بهذا العارض ـ أماضه الله وصرفه ، وجعل صحة الأبد خلفه ـ ما دلَّ على ملاحظته إياه بالعناية ، وإيقاظًا له من سِنَة الغفلة ، إذ كان تعالى لا يُذكِّر

(١) غشى فلان فلانا أتاه كغشاه يغشاه . قاموس .

Marfat.com

بطُرُوق الآلام، وتَنْبِيه العِظَات ، غَيْرَ الصَّفْوة من عِبَاده، الخِيرَةِ من أولِيائه ؛ فهَنَاه الله الفوزَ بأجرِ ما يُعانيه ، وحَمَلَ عنه بألطافه ثِقْلَ ما هُو فيه ؛ وأعقَبَ ما آختَصَّه من ذَخَائر المُثوبةِ والأجْرِ بعافيةٍ تقْتَضِيه ؛ ولا سلَبَ الدنْيا جمالَ بَقائه، ولا نقَلَ ظِلَّه عن كافَّة خَدَمِه وأوْليائه .

الصنف الرابع — التهنئة بالصَّرْف عن الوِلَاية .

أبو الفرج البيجاء :

مَنْ حَلَّ مَحَلَّه — أيده الله تعالى — من رُتَب الرِّياسة والنُّبْل ، كان معظَّمًا في حالَتِي الولاية والعَزْل ؛ لا يقْدَح في قَدْره تغيُّر الأحوال، ولا ينقُله عن موضِعه من الفضل تنَقُّل الأعمال ؛ إذ كان آستيحاشها للفائت من بَرَكات نَظَره، بحسَب أنْسها كان بما أفادَتْه من محُمود أثَرِه . فهَنَأه الله نعمةَ الكِفاية ، وأوزَعَه شكْرَ ما آختازه من النَّزاهة والصِّيانه ؛ ولا أخْلاه من التوفيق في سائر متصرَّفاته ، وأجيرة الضامنة لعَوَاقب إراداته .

وله في مثله :

لَو كان لمستحْدَث الأعمال ومستجِدِّ الولايات زيادةٌ على ما آختصَّك به من كمال الفَضْل ، ومأثُور النُّبْل ، لحاذرنا آنتقالَ ذلك بآنتقال ما كنْتَ [illegible] كِفايَتِك ، وتحوُطُه بنواظر نَزاهتِك وصِيانَتِك ؛ غير أنَّ الله تعالى [illegible] متقَمِّصا، وبالمحامِد متخَصِّصا ؛ فالأسَفُ [illegible] عليك [illegible] تنقَلَّده بك لا لك ؛ ولذلك كنْتَ بالصَّرف [illegible] مشكورا ؛ فلا أخْلاك اللهُ من تواصُل آلائه ، وتظاهر نعمائه ؛ في [illegible] وتمْضيه، وتعتَمده وترتَئيه .

Marfat.com

أبو الحسين بن سعد ـ عمَّن تولَّى عمَلًا إلىٰ من صُرف عنه :

قدقُلِّدتُ العمَلَ بناحِيَتِك، فهَنَاك الله تجديدَ وِلَايَتِك، وأنفذْتُ خليفَتِي لِخلافَتِك، فلا تُخْلِه من تبصيرك وهدايتك، إلىٰ أن يمُنَّ اللهُ بزيارَتِك .

تهنئة بصرف عن ولاية :

لو كانتْ رِياسةُ سيِّدى مجنِيَّةً من عُرُوش الوِلَايات، وسيادَتُه خارجةً عن سانح التصَرُّفات، لأشفَقَ أولياؤُه من زوالها بمزايلَتِهما، وحَذِرُوا من آنتقالها بنَقْلهما؛ لكن ماوُسِم به من الكمال، وعَلَا به من رُتَب الجلَال ؛ موجُودٌ فى غريزته وُجودَ الفِرِنْد فى السيف المأثُور، واللَّأْلاء فى النور؛ وإذا تَصرَّف، أورد الله الرعيَّةَ من مَشارِعها نِطَافا ، وأسبغ عليهم من ظِلِّها عِطَافا ؛ وإذا آنصرف خَيْرٌ مُسْبَلٌ تقلَّص، وعيشٌ رائقٌ تنغَّص؛ والأسفُ علىٰ العمل السَّلِيبِ من حُلَل سياستِه الفاضله ، العاطِلِ من حِلىٰ سِيرتِه العادِله ؛ ولهذا أصبح ـ أيَّده الله ـ بالعَزْل مبتَهِجا مسْرُورا ، كما كان فى الولاية محمُودًا مشْكُورا ؛ وآنطلقَتْ ألسِنةُ أوليائه ، فى هنَائه ، بما وَهَبه الله من الرَّفاهيَة والدَّعه ، وحَطَّه عنه من الأثْقال المُقْلقه ؛ ولا سِيَّما وقدْ علمَ الخاصُّ والعامُّ أنَّ الأعمال إذا رُدَّت إليه ، وعُوِّل فيها علَيْه ، تَسلَّم المودِع وديعتَه ، والناشدُ ضالَّتَه ؛ وإذا عُدِل فيها إلىٰ غيره تناولها تناوُلَ الغاصب ، وآستولىٰ عليها آستِيلاءَ السَّالِب ؛ فلا تزال نازعةً إلىٰ رَبِّها ، متطلِّعَة إلىٰ خِطْبها ؛ حتَّىٰ تعودَ إلىٰ محلِّها ، وترجِعَ إلىٰ نَصْلِها ؛ والله تعالىٰ أسأل أن يقْضِىَ لمولانا ببُلُوغ الأوطار، إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة التهنئة بالصرف عن الولايةِ والخِدْمة

قال فى "موادِّ البيان" : يجب أن تكون أجوبتُها مبنيَّة علىٰ شُكر الاهتمام والاعتِداد بالمشاركة فى الأحوال، مع وُقُوع ما وَرَد من الخطاب المَوْقِعَ اللطيف ، وما ينتظم فى هذا السلك .

Marfat.com

جواب مَنْ ورد عليه كتابُ من وَلِي مكانه فى معنىٰ ذلك .

فمن ذٰلك :

ما آنصرفَتْ عنِّى نعمةٌ أُهْدِيتْ إليك، ولا خلَوْتُ من كرامةٍ آشتملتْ عليك؛ وإنِّى لأجدُ صَرْفِى بكَ ولايةً ثانيـه، وحُلَّةً من الوِزْر واقِيه؛ لمـا آمُلُه بمكانك من حميـد العاقِبة وحُسْن الخاتمه .

الصنف الخامس — تهنئـةُ من تزوّجتْ أمُّه بزواجها .

قد تقدّم فى أوّل المقالة الأُولىٰ فى حكاية حائِك الكلام مع عمرو بن مَسْعدةَ وزير المأمون[1]، أنه قال يُكْتَب إليه :

أما بعدُ، فإنَّ الأمور تجرِى علىٰ خلافِ مَحابِّ المخلوقين [والله يختار لعباده][2]، فخارَ الله لك فى قَبْضِها [إليه، فإن القبور أكرم الأكفاء][2] والسلام .

أبوالفرج الببغاء: وقد أمره سيفُ الدولة آبنُ حَمْدانَ بالكتابة فى معنىٰ ذلك آمتحاناً له :

مَنْ سلَك إليـك ـ أعزَّك الله ـ سبيلَ الآنبِسـاط، لم يسـتَوْعِرْ مَسْلَكا من المحاطَبة فيما يحسُنُ الآنقباضُ عن ذِكْر مثله . وآتّصل بى ما كانَ من خبَرِ الواجبةِ احقِّ عليك، المنْسُوبة بعد نِسْبتِك إليها إلَيْك ـ وَفَّر الله صيانَتَها ـ فى آختِيارِها مالَوْلا أنَّ الأنفُسَ تتناكَرُه، وشرْعَ المُروءة يَحْظُره؛ لكنتَ فى مثله بالرضا أوْلىٰ، وبالآعتداد بمـا جدّده الله فى صِيانتِها أحْرىٰ؛ فلا يُسْخِطَنَّك من ذٰلك مارضِيَه وجوبُ الشَّرْع، وحسَّـنه أدبُ الدِّيانة؛ ومُباحُ الله أحقُّ أن يتّبع، وإيّاك أن تكونَ ممن لَمَّا عدِم آختياره تسَخَّط آختيار القَدَر له، والسلام .

---

(١) تقدم فى ج ١ ص ١٤٢ "وزير المعتصم" .

(٢) الزيادة مما تقدم فى ج ١ ص ١٤٥ .

Marfat.com

النـــوع الثـانى

(من مقاصـــد المكاتبات التَّعازِى)

قال فى " موادّ البيان " : المكاتبةُ فى التعزيَة بالأحداث العارضةِ فى هذه الدنيا واسعةُ المَجَال : لما تتضمَّنهُ من الإرشاد إلى الصَّبْر، والتسليم إلى الله جلَّت قدرتهُ، وتسلِيَة المعزَّى عما يُسْلَبه بمشاركة السابقين فيه، ووعده بحُسْن العِوَض فى الجزاء عنه، إلى غير ذلك مما ينتظم فى هذا المعنى . قال : والكاتبُ إذا كان جيِّدَ الغَريزة حسن التأتِّى فيها، بلغ المراد . ثم قال : وحكمها حكم التَّهانِى من الرئيس إلى المرءُوس ومن المرءوس إلى الرئيس ومن النظير إلى النظير .

ثم التعـــزيةُ على أضْرُب :

الضـــــرب الأوّل

(التعـــزِيَةُ بالابن)

أبلغ ما كُتِب به فى ذلك ما كتب به النبىُّ صلَّى الله عليه وسلم ، إلى معاذ بن جَبَل ، معزِّيًا له بابنٍ له مات ، فيما ذكره أبو الحسين بن سعد فى ترسُّله ، وأبو جعفر النحَّاس فى صناعة الكُتَّاب ، وهو :

« من محمدٍ رسولِ الله إلى مُعاذ بْنِ جَبَـــل :

سلامٌ عليك ، فإنِّى أحمَـــدُ إليك اللهَ الذى لا إلهَ إلَّا هو ، أما بعـــد ، فعظَّم اللهُ لكَ الأجر ، وألهمَكَ الصَّبر ، ورزقَنا وإيَّاكَ الشُّكْر ، ثم إنَّ أنفسَنا وأهلِينا ومَوَالِيَنا من مَوَاهِبِ الله السنيَّة ، وعَوارِيه(١) »

(١) فى أصولنا بالهاء ورواية المستطرف وعواريه ، أى بالياء جمع عارية .

Marfat.com

«المســـتَوْدَعة، تمتّـع بها إلى أجلٍ معدود، وتُقْبَضُ لوقْتٍ معلوم؛»
«ثم افترَض علينا الشُّكْرَ إذا أعْطى، والصبرَ إذا ابتَلى؛ وكان ابنُك من»
«مَواهِبِ اللهِ الهنيَّة، وعَوارِفِه(١) المستَوْدَعة؛ متّعكَ به في غبطة وسرور،»
«وقبَضَه منكَ بأجرٍ كبير: الصـــلاةِ والرحمةِ والهُدى إن صبرتَ»
«واحتسَبْتَ؛ فلا تجْمَعَنَّ عليكَ يا مُعـــانُ خَصْلتين(٢) إن ثُبِيءَ وجَهْلُ»
«صَبْرِكَ فتندَمَ على ما فاتَك؛ ولو قدِمتَ على ثواب مُصيبتِك قبل المصيبة»
«ربَّك وتنجّزتَ موعُودَه، عرفتَ أنّ المصيبةَ قد قصرتْ عنك، وأعظَمَ»
«أنَّ الجزَعَ لا يَرُدُّ ميتًا، ولا يدفَعُ حزنًا؛ فأحسِنِ العزاءَ وتنجّزِ الموعودَ»
«ولْيُذْهِبْ أسَفَكَ ما هو نازلٌ بك فكأنْ قد.»

من كلام المتأخرين:

تعزيةُ ولد، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتة، وهي بعد الافتتاح

وأحسَنَ عزاءه بأحرّ قصيد وأعذب مورد، وهو على ذلك الحين

التي سُئِلت عن الأسى فقالت: ثابتُ وزيدٌ، صدرتْ عنه الموارد

سلاما يَعِزُّ عليه أن يُتْبَع بالتعزيه، وثناءً يشُقُّ عليه أن يطارِحَ حمائمَ تجْبَه المَطَ

بحمائم الشَّجْو المبكية المُنكيه، وتوضّح لعلمه ورُودَ مكاتبته المؤلمة، فيرفع

الدَّمْعة ما وقفتْ، وخواطرَ الإشفاق عليه وبطل

---

(١) في أصولنا بالفاء، ورواية المستطرف (وعواريه) أي بالياء جمع عاريه.

(٢) أي فقد الثواب وفقد المولد. وإليه يشير من عزى عمر بن عبد العزيز بابنه فقال:

وعوّضت أجرا من هنيد فلا يكن * فقيدك لا يأتي وأجرك يذهب

Marfat.com

وعلمنا ماشرحه ولم يَشْرح الصَّدْر علىٰ العادة ـ مِنْ وفاة الولد فلان، سقىٰ اللهُ عهدَه وجَدَّه، ونَضَّر وجهـه وتغمَّد بالرِّضوان خالَه وخَدَّه؛ ومابقى إلاَّ التمسُّكُ بأسـباب الصبر، والتفويضُ إلىٰ مَنْ له الأمر؛ والدُّنْيا طريقٌ والآخرةُ دارٌ ودِهْليزها القَبْر؛ والمرءُ من تثبُّته وازع، والاجتماعُ بالأحِبَّـة الراحلِينَ واقِع؛ إن لم يَصِيرُوا إلينا صِرْنا إليهم، وإن لم يَقْدَمُوا فى الدار الفانيـة علينا قدِمْنا فى الدار الباقيةِ عليهم؛ نسألُ اللهَ تعالىٰ أن يجمعَنا فى مستقَرِّ رحمتِه، ويُحْضِرَنا مع الأطفال أو مع المتطفِّلين ولائِمَ جَنَّته؛ والله تعالىٰ يُدارِكُ بالصبر الجميل قلْبَه، ولا يجمعُ عليه فقْدَ الثواب وفقْدَ الأحِبَّه.

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي:

رزقه الله تعالىٰ ثَبَاتا علىٰ رَزِيَّته وصَـبْرا، وجعلَ له مع كلِّ عُسْرٍ يُسْرا؛ وأبقاه مُفَدًّى بالأنفُس والنَّفائس، وكان له أعظَمَ حافظٍ من نُوَبِ الدهر وأجلَّ حارس.

المملوك يُنْهِى علْمَه بهـذه النازلة التى فتَّتتِ القلوبَ والأكباد، وكادَتْ أن تُفَرِّقَ بين الأرواح والأجْساد؛ وأذالَتْ ذخائِرَ العُيون، وٱبتَذَلَتْ من المَدامِع كلَّ مَصُون؛ وأذابتِ المُهَج تحرُّقًا وتلَهُّبا، وجعلت كلَّ قلْب فى نارَيِ الأسىٰ والأسفِ متقلِّبـا؛ وهى وفاةُ ولده الذى صَغُر سِنُّه، وتزايَدَ لفَقْده هَمُّ المملوك وحُزْنُه:

ونجلُك لا يُبْكىٰ علىٰ قَدْرِ سِـنِّه * ولٰكنْ علىٰ قَدْرِ المَخِيلة والأَصل!

وكان الأمَلُ يحدّث بأنه يَشُدّ للمولىٰ أزْرَه، ويشرَح ببِرِّه صـدْرَه؛ ويؤثِّل مجدَه، ويُبقِى الذكْرَ الجميل بعـدَه؛ ففُقِد من بين أترابه، وذَوىٰ عند ما أينَعَ غُصْنُ شَبابه؛ وغُيِّب مَنْظَرُه الوسيمُ فى لحده وتُرابه؛ وسيِّدُنا يعلم أنَّ الموتَ مَنْهَل لابدّ من وَرْده، وابن آدم زَرع لابدّ من حَصْده؛ وأنَّ المنية تشمَلُ الصغيرَ والكبير، والجليلَ والحقير،

(١) هو مصدر كالورود عن ابن سيده أنظر اللسان (ج ٤ ص ٤٧١).

Marfat.com

والغنيِّ والفقير ؛ فينبغى له آستعمالُ صَبْره ، والآستِبْشار بمضاعَفةِ أجْره ؛ والله يمتِّعه بأهلِه وطُول عُمُره .

وله :

لَهْفِي وما لَهْفِي عليكَ بنـافِع ! * كَلَّا ولا وَجْـدِى ولا حُرُقاتِى !
يامَنْ قَضىٰ فقَضىٰ سُرورِىَ بعْدَه * وتحَـدّرَتْ أسَـفاً له عبَرَاتِى !
عُقَدُ التجلُّدِ حَلَّهـا فَرْطُ الأسىٰ * والقلْبُ موقوفٌ علىٰ الحَسَرات !
لو كُنْتَ ممَّن يُشْترىٰ أو يُفْتَدىٰ * لفُـدِيتَ بالأرواح والمُهجاتِ !
كُنْتَ المُعَدَّ لنُصْرتِى فى شِدَّتى * فقَضىٰ الحِمـامُ بفُرقةٍ وشَتَاتِ !
واللهِ لا أُنْسِيتُ نَدْبَك والبُكَا * أبَدًا مَدىٰ الأنفاس واللَّحَظاتِ !
ويَسُوءنى أنعِشْتُ بعْدَك ساعة * أَسَـفا لفَقْدِك ميِّتًا وحَيَاتِى .

أعظم اللهُ أجْرَ مولانا ومَنَحه صَبْرا جميـلا ، وأجرا جزِيلا ، وثنـاءً عريضَ الشُّقَّة لثَبَاته علىٰ هـذه الفادِحة طَوِيلا ؛ وجعل هذه الرزِيَّةَ خاتمةَ الرَّزَايَا ، وممحِّصةً جميعَ الذنوب والخَطَايا ؛ ولاجفَعَه بعدها فى قُرَّة عين ، ولاأورد محْبُوبًا شُعِف به قلْبُه الكريمُ مَنْهَلَ الحِمَام ولاسقاه كأسَ الحَيْن .

المملوك يقَبِّل البِساطَ الذى مافَتِئَ لنَشْر المَعْدِلة مبْسُوطا ، وكلُّ أمل ببِرِّه مَنُوطا ، ويُنْهِى إلىٰ العلم الشريف علْمَه بهذه المُصيبة التى أصابتْ فُؤادَكلِّ محبٍّ فأصْمَتْه ، وطرقَتْ سمعَ كلِّ ولىّ فأصَمَّته ، ووبلَتْ كلَّ قلبٍ فأحرَقَتْـه صَبابةً وحُزْنا ، علىٰ الصِّلْد فصَدَّعته ولو كان حَزْنا ؛ وهى وفاةُ فلان سقىٰ الله عهْدَه ، وأسكنَ الرحمة ثَراه ولحَدْه ؛ فشَقَّ أسفًا علىٰ المفقُود جيبَ كلِّ جَنَان وطوىٰ الأكبادَ علىٰ جِراحها ، وحَسَّر الأجساد علىٰ أرواحها :

Marfat.com

وما هِيَ إلَّا نَكْبَةٌ أيُّ نَكْبةٍ * أهاجَتْ سَعِيراً فى الحَشَا يتلَهَّب !
فَلا جِسْمَ إلَّا بالتحَرُّق ذائبٌ * ولا قَلْبَ إلَّا فى الأسَى يتقَلَّب !
بَكَى كُلُّ جَفْنٍ مَصْرَعَ السيف فاغتدَتْ * عيونٌ عَلَيْه فى الأباطِح تَسْكُب !
لقَدْ هال عُذَّالى بُكائى تعَجُّبا * وإنَّ بُكائى بَعْد فَقْدِيه أعْجَب !
فلَوْ رَامَ قُسٌّ وَصْفَ حُزْنى ولَوْعتى * لقَصَّرَ فى أوصافِه حِينَ يُسْهِب !
فَوَاللهِ لا جَفَّتْ جُفُونى من البُكَا * وإنْ زادَ عُذَّالى العِتابَ وأطْنَبُوا !

ولهذا أصدر المملوك هذه المطالعة يدعُو لمولانا فيها ويعزيه ويناسبه فقيده بألسنة الأقلام ويبكيه ، ويُبشّره بما وعدَ الله الصابرين على مثل هذه الرزيّة ويسلّيه ، فيالها نازلةٌ فجعَتْ بغُصْنٍ رَطيب ، وقمرٍ يَرْفَل من التَّنْبيه فى ثوب القشيب ، وصدعت القلُوبَ بفَقْدِ حبيبٍ وأىّ حَبيب :

والمـــوتُ نَقَّادٌ على كَفِّه * جَواهِرٌ يَخْتارُ مِنْها الجِياد !

وبعدُ ، فللمملوك فى هـذه الرزيَّة مشاركة كادَتْ تُباين بين رُوحه والجَسَد ، وهو المُصيب لهذه المصيبة ما تجِدُه الوالِهةُ على فَقْد الوَلَد ، لا يَستقرُّ به قَرار ، ولا يُنْجيه من يَدِ الحُزْن فِرار ، دأبُه البُكاء والعَويل ، وحُزْنه العريضُ الطَّويل ، فوا أسَفاه عن حمل هذا المُصاب ، ووا أسَفاه على مُسافرٍ لا يُنْتظَر له قُدُومٌ ولا إياب ، وواعَجَباه لِضدّين اجتمعا لوالده الكريم الجَنَاب !

تَحُونُ المَنَايا عَهْدَه فى سَبِيلِه * وتَنْصُره بين الفَوارِس والرَّجْل !

وكلّ مَنال فهو أجْدَر من استعانَ على [illegible] وشرح لما قد قُدّر فَسيحَ صَدْره ، وشكر اللهَ على حُلْو القضاء ومُرّه ، فما كان إلا أحَدَ الحُمَرين فُقِد خلفه عُمَر ، وثانى القَمَرين أفَلَ فقام مقامه هلالٌ تَدم من سَفَر ، وفى بقاء المولى

مايُوجب التسليم للقَدَر والقَضَاء، والشكْرَ لله تعالىٰ فى حالتى الشِّدّة والرَّخاء؛ جعله الله فى حِرْز لايزالُ حَرِيزا مَكِينا، وحِصْن علىٰ مَمَرّ الأيامِ حَصِينا.

وله: أعظَمَ اللهُ أجره، وأطال عُمُره، وشرح صَدْره، وأجزل صَبْره، وسَخَّر له دَهْره.

المملوك يُنْهِى أنه آتَّصل به خَبَرٌ صدَع قَلْبه، وسَرَقَ رُقادَه ولُبَّه، وضاعف أسَفَه وكَرْبه؛ وهو [موت] فلان تعمَّده الله برحمته، وأهمىٰ عليه سحائبَ مَغْفرته؛ وعامله بلُطْفه، وجعل الخِيرةَ له فى حَتْفه؛ فشَقَّ ذٰلك قَلْبَه وعَظُم عليه، وقارب لشديد حُزْنه أنْ يَصِل إلىٰ ماوصَل المرحومُ إليه؛ لٰكنَّه ثبَّت نفْسَه وثَبَّطها، ورفع يَدَه بالدعاء للمولىٰ وبَسَطها؛ وسأل الله أن يُطِيلَ بقاءه، ويُحْسِن عَزَاءَه، ويَحْرُسه من أزَمَات الزمان؛ فإنه إذا سلِمَ كان الناسُ فى السَّلامة والأمان؛ ويجعَلَه عن كل فائتٍ عِوَضا، كما أصاره جَوْهرا وجعل غيرَه من الأنام عَرَضا؛ ولقد جلَّت هـذه الرزيَّةُ علىٰ كلِّ جَنَاب، ودخَل حُزْنُها إلىٰ كلِّ قلبٍ من كلِّ باب؛ جعل اللهُ أجره للمولىٰ من أعظَم الذَّخائر، ومنَحه الحياةَ الأبديَّةَ التى لا تَنْتهِى إلىٰ أمدٍ ولا آخِر، إن شاء الله تعالىٰ.

الضـــــرب الثـانى

(التعـزية بالبنت)

من كلام المتقدّمين:

ابن أبى الخصال المغربى:

الشيخ فلان عَزَّاه الله علىٰ آحتِسابه، وجعـل الثوابَ المرتقَبَ أفضـلَ آقتنائه وآكْتِسابه. مُعزِّيه عن فِلْذةِ كَبِده، ومساهِمُه فى أرَقِه وسُهْده، والفاتُّ فى عَضُـد صـبره الجميـلِ وجَلَده؛ فلان. فإنِّى كتبتُه ـ كتب اللهُ لكم خَيْرا يُذْهِب جَزَعكم،

Marfat.com

وحَسَّن مَنْجاكم بالتفدّى الجميلِ ومَنْزَعكم ـ عند ماوصَلَنِي وفاةُ ٱبنتِكم المرحومةِ نفعها الله بإيمـانها، وتَلَقَّاها بَرَوْح الجنَّـةِ ورَيْحانها؛ وهى ـ أعزَّك الله ـ وإن آلَمَكَ فقْدُها، وأوجعَكَ أن ٱستأثَرَ بها لَحْدُها؛ فليُعَزِّك عنها مُصابُنا بنبينا عليه السلام، وعلمُك بأنَّا جميعًا بمَدْرَجة الحِمَام؛ أفتَجِد علىٰ الأرض خالِدا، وقديمًا ثَكِلْنا وليدًا نَجِيبا ووالِدا، فمَنْ خُلِق للفَناء، وٱختُلِس بمَرِّ الساعاتِ والآناء، جدِيرٌ أن يتَّعِظ بنَفْسه، ولا يَحْزَنَ لَذَهاب من ذهب من ذَوِى أُنْسه؛ فاحمدِ اللهَ عزَّ وجلَّ إذ رَجَّحتْ مِيزانَك، وضَمِنت لك يومَ المَعَاد جِنانَك؛ والله عز وجل يرزُقنا ٱحْتِسابا جميلًا وصبْرا، ويُؤنِسك وقد ٱختار لك الصِّهْر قَبْرا، ويعظِّم لك ثوابا جزيلًا علىٰ مُصابك وأجرا؛ ويعُمُّ فقيـدَتَك بالرُّحمىٰ، ويسْكُب علىٰ جَدَثها مُزْنَها الأوْكفَ الأهْمىٰ، ويُؤْوِيك إلىٰ كَنَفه الأعظم الأحْمىٰ، بمِنّه ورحمته، لا رَبَّ غيره؛ والسلام عليك ورحمةُ الله وبركاته.

الضـــــرب الثـالث

(التعـــزية بالأب)

من كلام المتقدّمين :

ابن أبِي الخصال معَزِّيا بوزير :

ياسيِّدى وواحدى، ومَحَلّ الٱبن المبْرور، والأخِ المشْكُور، عندى؛ أعزَّك الله بالتقْوىٰ، ورَضَّاك بما قَضىٰ، وأمَدَّك بالنُّعمىٰ، وشَمِلك بالحُسْنىٰ؛ كتبته ـ أعزك الله ـ وقد وصلَ كتابُك الكريم بما نفذ به القَدَر الذى هو فى العِباد حَتْم، وله فى كلِّ عُنُق خَتْم؛ فى الوزير الفقيهِ الشهيد أبيك كان، رحمه الله وأكرم مَثْواه، وجعل الحُسنىٰ التى أعدّها لأوليائه مَقَرّه ومَأْواه؛ فأسِفْتُ كلَّ الأسَف لِفِقْدانه، وقد كان عيْنَ زمانه،

وعُمدةَ إخْوانه ؛ تغمّده الله بغُفْرانه ، ونقله إلىٰ رِضْوانه ؛ وتلك ـ أعزك الله ـ غايةُ الأحْياء، وسبيلُ الأعداء والأحِبّاء؛ كان علىٰ ربِّنا ـ جلّ وعلا ـ حَتْما مقْضيّا، ووَعْدا مَأْتِيّا؛ والأسوةُ ـ أعزّك الله ـ فى غَمْره الفَضْفاض، وبِرّه الفَيّاض، وأنه خُتِم له بالخير والاِنْقباض؛ وكان آخِرَ ذٰلك [الحسب] القَديم، والجيلِ الكريم؛ وقد أمرَكَ الخير فافعَلْ ما أُمِرْت به وكنْ كما ظَنّك وقَدّرك وتَركك؛ وإنك بفضل الله تَسُدّ مَسَدّه، وتبلُغ فى كل فضيلةٍ حُضْرَه السابقَ وشَدّه، وتُعِدُّ للأيام من الجِدّ والاِعتزام ما أعدّه؛ وإخْوتُك ـ أعزك الله ـ لك أظْهارٌ وأعْضاد، وفيهم غَزْوٌ مُضادّ؛ فاشتمِلْ عليهم، وارْفُق بهم؛ فإنهم يُنْزِلُونك منزلةَ أبيهم، وتَجِدُ أخلاقَه وعَوْنَه فيهم؛ وأما ما أعتقِدُه من تكريمك، وأراه من تفضيلك وتقديمك؛ فشىء تشهَدُ به نفْسُك، ويُدْرِكه يقينك وحَدْسُك؛ أشدّ به اعتناء، وأجملُ له استواء، وأوفى عنك ردءا وغَناء؛ جعلنا الله من المتحابّين فى خلاله، والمتقلّبين فى ظِلاله، وأمّننا من الزمان واختلافِ أحوالِه؛ بمنّه والسلام .

الضـــــرب الرابع

(التعـــزيةُ بالأم)

أبو محمد بن عبد البر المغربى :

مَا ماتَ مَنْ أنْتَ بعْـدَه خَلَفٌ * والكُلُّ فى البعضِ غيْرُ ممتنِع !

كتب عبدُه القِنّ، من الأسىٰ لأجله بعضَ ما يُجِنّ؛ المُنْطوِى علىٰ قلبٍ تطمئن القلوبُ سَلَوًا ولا يطْمَئِن؛ فلان : بعدَ وصول كتابِه الكريم بصَدَعٍ يُصْمِى القلوب ويَقُدُّ أقوياء الجُيُوب، ويتركُ الأحبابَ مصَرّعين علىٰ الجُنُوب، فوقَفَ العبدُ عليه مترقْرِقَ المَدامع، منحَرَق الأضالِع، رائيًا سامِعًا سَجَا الأبصارِ واسىٰ المسامع؛ فيا أسفى

Marfat.com

الخطب ضعضع ركن الجلد وكان وثيقا ، وصوّح روض الفضل وكان وريقا ، ونقص [illegible] الصبر ولم يزل صديقا ، وترك العدّ خليقا بهذا القول ومثله معه حقيقا ، [illegible] الدين [illegible] فقدا في قرن ، وعلى صون وعفاف أدرجا في كفن ، وحصان رزان لا تعرف بوصمة ولا تزن ، لقد أسمّ بها الشاعي وإن كان أسمع ، وأرّق ما شاء الفؤاد وإن كان المدمع ، ولم يبق قلبا للصبر إلا صدعه ، ولا أنفا للسلو إلا جدعه ، ولا بابا للتعزّي إلا أرتجه ، ولا عقبا للتأسّي إلا أنتجه ، ولو تحمل في الموت فدا وصحّ أن يؤخذ [illegible] خلص إليكم ولا ألم ، ولا عداكم في ضروب المنايا المخيفة مسلم ، [illegible] وتستولي على الرتب الفرقة .

الضـــرب الخامس

(التعزية بالأخ)

أبو محمد بن عبد البر :

وكنت والأنفس مرتمضة ، والعين غير معرضة ، والأنفاس تتصعّد ، والأحزان [illegible] الذي عمّ وغمّ ، وأسمع نعيه فأسمّ ، وقال للفرح : كُفّ من [illegible] الترح ، [illegible] لأوانك ، بوفاة [الفرد] الذي في رأسه نور ، وسداد الآراء المختلفة [illegible] الفذّ الذي شهد الرجال بفضله ، وعقم النساء فما تجيء بمثله ، [illegible] السابق الذي لا يجارى ، والشارق الذي لا يسارى ، والغيث الذي عم النيل والمستنيل ، والليث الذي ورد الفرات زئيره والنيل ، فإنا لله وإنا إليه راجعون ، تسليما للقدر وإن ساء ، وشمل المرءوسين والرؤساء ، فيا له مصابا ترك كل رأس أسيما ، وأودع صميم كل فؤاد ثكلا صميما ، لقد أنصل السمر اللهاذم ، وأغمد البيض الصوارم ، وعطّل الكتائب والمقانب ، وأوحش المفاوز والسباسب ، ولم يبق مشيد

Marfat.com

عُلًا إلا هَدَّه، ولا مَدِيدَ ثناءٍ إلا صَدَّه؛ ولِمَ لا وهو الشخص يموت بموته بشر كثير، ويَبكيه قلمٌ وحُسام ومِنْبَر وسَرِير؛ وعندَ الله نحتَسِبه جميعا، ونُوسِعُه بمحْض الصَّفاءِ وصَفْو الثناء تَوْرِيعا وتشْيِيعا؛ ونُفارِقُه فِراقَ الصَّدْر خَلَدُه، والمُصابِ جَلَده؛ فَوَاأسفىٰ لرُزْئه ما أفْظعَه مَوْقعا! وواحَرَبا ليومه ما أظلمَه مَطْلَعا! وواحَزَنا لنَعْيه ما أشْنَعَه مَرْأًى ومسْمَعا!!! فلئن جَرَتِ الدموعُ له دِما، وأضْمرت الضلُوعُ به مُضْطَرما؛ لما أدَّت حقَّه ولا كَرَبَتْ، ولا دانتْ بعضَ الواجب فيه ولا آقتَرَبَتْ؛ ولولا أنَّ المنيَّةَ مَنْهَلٌ لا يُحَلَّأُ وارِدُه، ومَعْلَمَ يُهْدىٰ إليه علىٰ أهدىٰ سَمْتٍ مُباعِدُه؛ لم يبقَ في أُنْسٍ مَطْمَع، ولا لحُزْن مستَدْفَع، ولكان الثاكلُ غيرما تَرىٰ وتَسْمَع؛ وما أنتم أيُّها الشيخ المكَرَّم ممن يُنَبَّه علىٰ ذُخْر من العمل الصالح، يكْتَسِبُه، وصبْرٍ في الرُّزْء الفادح، يحتَسِبُه، فصبْرًا فالمَنُون غايةُ المُمْسِين والمُصبِحين، والنبأ الذى يُعْلَمَ ذَوْقًا ولو بعد حين؛ وهو تعالىٰ المسئول أن يرْقَع بمكانِكم هذا الخَرْق المتَّسِع، ويصل بجَنابِكم ذلك الشَّمْل المنْصَدِع.

ابن ابى الخصال:

الشيخ فلانٌ أبقاه الله يتَلقَّى الأرزاء بحُسْن الصبر، وجميلِ الاحْتِساب، ويتقاضىٰ بالتعزى مرتَقَب الأجر، ومُنْتَظَر الثواب، مُعزِّيه فى أخيه الكريم علينا، العظيم مُصابُهُ الفادحُ لدَيْنا، فلان: فإنى كتبْته ـ كتبَ الله لكم صَبْرا تجِدُون ذُخْره، وأوجب لكم عَزَاء تَحْمَدُون يوم القيامةِ شأنَه وأمْرَه ـ عنْدَ ما وصل من وفاة الشيخ أبى فلان أخيكم رحمه الله تعالىٰ ما كَدَّر العيشَ ونغَّصه، وجَشَّم جُرَعَ الحِمَام المَقْطُوعةَ وغُصَصَه، فإنَّا لله وإنَّا إليه راجِعُون!! آستِسْلامًا لقَدَره وقضائه، وأخْذًا فيما يُدْنِى ويقَرِّب من إرْضائه؛ وما نحنُ إلا بَنُو الأمواتِ الذين دَرَجُوا، وسنَخْرُج من الدُّنيا كما قبْلَنا خَرَجُوا؛ جعلنا اللهُ جميعًا ممن ينْظُر لمَعَاده، ويجعَلُ التقوىٰ خيرَ ماأوْعاه بجداده؛

Marfat.com

وسلَكَ بنا نَهْجَ هِدايتِه وطريقَ رَشادِه . وهو جلَّ وعلَا يُجْزِل لكم على مُصابِكم ثَوابا عَمِيما موْفُورا، ويجعلُ فقيدَكم بين أيديكم فى يومِ القيامةِ نُورا، ويُلَقِّيه فى دار الفِرْدَوْس مُلْكا كبيرا وحُبُورا ؛ ولولا كذا اسِرْت إليكم لأُعَزِّيَكم شِفاها ، وأَحَدِّثَكم عن ضُلوع أحرقَ هذا المصابُ حَشَاها ؛ لٰكن آمتثالُ أمرِه المُطَاع ، حمَلَ على البِدَار إلىٰ ماأَمَرَ به والإسْراع ؛ والله عزَّ وجل يُدِيم لنا بكم الإمْتاع ، بمَنِّه وكرمه ، والسلام .

الضـــــرب الســادس

(التعــزية بالزوجة)

من كلام المتقدّمين :

أبو محمد بن عبد البر :

وقد قُرِّرَ عِنْد ذَوِى الألباب ، وثبَتَ ثُبوتا لا يعَلَّل بالارتياب ، أنَّ الدنيا قنطَرةٌ دائِرة ، ومَعْبَرة إلىٰ الآخِرة ، وأنَّ ساكنَهَا وإن طال عُمْره ، وطار فى الخافقَيْن أمْرُه ، لَدِيغ سَمِّها ، وصريع سَهْمِها ، فما تُضْحِك إلَّا لتُبْكِى ، ولا تُؤنِس إلا لتُنْكِى ؛ وقد نَفَذَ القدَرُ الذى ماله رَدّ ، ولا منه بُدّ ، بوفاةِ فلانةَ ألحقها الله رضوانَه ، وأسكنها بفَضْله المرجوِّ جِنَانَه ؛ فإنَّا لله وإنا إليه راجعون ! ! تأسِّيًا بالسَّلَف الصالح ، وتسَلِّيًا عن ماء الدَّمع السَّافح ، وزَنْد القلب القادِح . وعِندَ الله نحتَسِبها عقيلَةً معدُومةَ المَثِيل ، مفقُودةَ الدِّين والعِفَّة فى هذا الجِيل ؛ متحلِّيةً من دُعاء الفُقَراء ، وثَناء الصُّلَحاء ، بالغُرَّة الشادخةِ والتحْجِيل ؛ لقد ذهَبَ لذَهَابها الرِّفْق والحَنَان ، وعُدِم لعَدَمها الشِّيَمَ البَرَّة والأخلاقُ الحِسَان ؛ وإنَّ فقْدَها لخَرق لايُرْفَع ، وغُلَّة لاتُنْقَع ؛ وخَطْبٌ لايَزَال الدهْرَ يُتذَكَّر فيَصْدَع ، ولولا العِلمُ بأن اللَّحاقَ بها أمرٌ كائِن ، وأن المخلَّف فى الدُّنيا لا محالةَ عنها

Marfat.com

بائِن ؛ وأن التنقُّلَ للآخرة مالانفَكَّ نسمعُه ونُعاين، لمَا بقِيتْ صُبابةُ دمْع إلا ٱرفضَّتْ، ولا دِعامةُ صَبْر إلا ٱنقَضَّت ؛ ولكانَ الحُزْن غير ماتَسْمَع وترىٰ، والوجدُ فوقَ مايَجْرِى وجَرىٰ، لٰكنْ لامعنىٰ لحُزْن لما يقَعُ فيه الٱشتراك، ولا وجْهَ لأسَف علىٰ مالايصحُّ فيه الٱستِدْراك . وما أنتمْ بحمدِ الله ممن يُذَكَّر بما هو فيه أذْكَر، ولا ممن يُنَبَّه علىٰ ما هو بالتنبيه عليه أخلَقُ وأجْدَر ؛ ولولا أنَّ التَّعازِىَ مما اطَّرد به العمَل ، وسَنَّه الصالحُونَ الأوَل ، لما سُلِك سبيلُه معكم وأنتم ممن قَدَر الأُمورَ قَدْرَها، وعلم أنَّ الحياةَ ولو طالت فالموتُ أثَرَها وإذا لم يكُنْ من الموت بُدّ، ولم يَمْنَع منه صَدٌّ ولا سَدّ ؛ فالصبر خيرٌ من الجَزَع، وأدلُّ علىٰ كرم المَنْحىٰ والمَنْزَع، وأحْرىٰ أن يكون الثوابُ جَزِيلا، والجزاء حَسَنا جميلا ؛ والله يبقيكم أتَمَّ البقاء، ويرَقِّيكم أتم الٱرتقاء .

ابن أبى الخصال :

الشيخ الأجلُّ فلان ـ آنسَ اللهُ وَحْشَتَه، وجدّد علىٰ فَقِيدته رحمتَه . معَزِّيه عن أهله الهالكةِ وسَكَنه ؛ ومساهِمُه بأوجَبِ حُزْنٍ فى القلوب وأسْكَنِه . فلان : فإنا كتبْناه عن دُمُوع تَصُوب وتَنْسَرِب ، وضُلوع تخْفق من وَجِيبِها وتضْطَرب ، وأُنْس يشْرُدُ منا ويحتَجِب ، بموت فلانة رحمها الله التى أودعَتْ فى جَوَانِحنا من الثُّكْل ماأودَعَتْ ، ورضَّتْ أكبادَنا بمُصابِها وصدَعت ، عَزَّانا الله جميعًا فيها ، وأوْلاها نعيمًا فى الفِرْدوسِ الأعلىٰ وتَرْفِيها ، وأعقَبَنا من الوَحْشة أُنْسا ، وعَمَر بالرُّحْمىٰ جَدَثًا مباركا ورَمْسا ؛ وجعلَنا كُلًّا ممن يَرْدَع عن الٱنحطاط إلىٰ الدنيا نَفْسا ، بمنِّه وكرمه .

Marfat.com

من كلام المتأخرين :

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

لَمَّا علم مملوك المجلِس السامى أطال اللهُ بقاءَه، وأعظَم أجْرَه وأحسن عَزَاءه، وفاةَ السيدة المرحومةِ سَقىٰ الله عَهْدَها عَهْدا يبُلُّ الثَّرىٰ ، وجعل الرحمـةَ لمن نزلَتْ به لها القِرىٰ، تألَّم لفَقْدها غايةَ الألَمْ، ووجد حُرْقةً كَسَتْه ثوبَىْ ضَنًى وسَقَم، وحُزْنا لا يعبِّر عنه بعبارةِ بَيانِه، ولا يستوعِبُ وصفَه بلسانِ قلمِه وبَنانِه :

ولَوْ كانَ النِّساءُ كَمَنْ فقَدْنا * لفُضِّلتِ النِّساءُ علىٰ الرِّجال!

والمَوْلىٰ أوْلىٰ من عَزّىٰ نَفْسـه، وٱستَحَسَن رِداءَ الصبر ولبُسْه ؛ وعلمَ أنَّ الموت غريم لا يُنْجِى منه كثْرةُ المِطَال ، ولا يُدَافَع بالأطلاب والأبْطـال؛ وأنه إذا طالب بِذِمَّة كان ألدَّ الخِصام، وإذا حارب فعلَ بيدِه مالا تَفْعَلُه الكُماةُ بحدّ الحُسَام .

الضـــرب السـابع

(التّعازِى المطلَقةُ ممـا يصلُح إيرادُه فى كلِّ صِنْف)

من ذلك، من ترسُّل أبى الحسين بن سعد :

مَن صَحِب الأيامَ وتقلَّب فى آنائها، ٱعتَوَرتْه أحداثُها، وٱختلَفتْ عليه أحكامُها، بين مَسَرَّة ومَسَاءة يعتَقِبان، وفَرْحةٍ وتَرْحة يَتَناوبانِ [وكان] فيما تأتيه من محبُوبها علىٰ غير ثِقَةٍ من دوامه وٱتِّصاله، ولا أمْنٍ من تغيره وٱنتقالِه ؛ حتّى تعْقُب السلامةَ حَسْرة، وتستحيلَ النعمةُ مِحْنـة ؛ والسعيدُ مَنْ وُفِّق فى كلِّ حال لحظِّـه ، وأُعِينَ علىٰ مافيه سَلامةُ دِينه : من الشُّكْر علىٰ المَوْهِبة، والصبرِ علىٰ النازِلة ، وتقديم حقِّ الله تعـالىٰ

Marfat.com

فى حال الغِبْطــة والرَّزِيَّة . ولم تكن بالفَجِيعةَ به مُفْرَدا غنًى وإن كان النَّسَبُ يقرِّبه منك، والرَّحِم تَصِلُهُ بك : لمــا كنتُ أُوجِبه من حقّه، وأرعاه من مَوَدّته، وأختَصُّه بالاعتداد فيه دُون أدانِى أهْلِى والثِّقَــة من إخْوانى ؛ فمضىٰ رحمهُ الله أقوىٰ ما كان الأملُ فيه، وأكملَ ما كان عليه فى لُبِّه وأدَبِه، واجتماع فَهْمِه وكمال هَدْيه، وانتظامِ أسبابِ الخير وأدَوَات الفضْل فيه .

ومنــــه : لايُنْكَر للعبد أن يتناوَلَ مولاه عند وُقُوع المِحنة فى أهل خاصّته، وتَحَوُّن رَيْب المَنُون من حاشيته، بالتَّعْزِية عن مُصيبته، والإخبار عما يخُصُّه من ألَمِ فَجيعته وعُظْم رَزِيَّته، لاسِيَّما إذا كانَ بحيثُ لايُرىٰ شخصُه فى الباكين، ولا تُسمَع صَرْخَتُه بين المتفَجِّعين، ولو سعَيت علىٰ حَدَقتِي .

ومن ذلك :

إنَّ الله تعالىٰ أمرَ أهلَ طاعته، بتنزيل هذه الدنيا بمنْزِلتها من إهانته، وسوّىٰ بين البَرِّ والفاجر فى رغائبها ومَصَائبها، ولم يجعل العطيَّةَ دليلًا علىٰ رِضاه، ولا الرزِيَّةَ دليلًا علىٰ سُخْطه ، ولكنّه ألزَمَ كلّ واحد من أهــلِ الرِّضا والسُّخْط من نِعَمِها بنَصِيب ، وسقاهم من حوادِثها بذُنُوب : ليبتلَىَ أهلَ رِضاه فى أهْوَن الدارَيْن عليــه، ويُحْسن لهم الجَزاءَ فى أكْرمِهما لدَيْه ، ولذلك حبَّب إليهم الزَّهادةَ فى زَهِيد فائدَتِها، وممْنُوح زَهْرتها ، وسمَّاها لَعِبا ولَهْوا : لئلَّا يَعْلَقُوا بحُطَامِها ، وينغَمِسُوا فى آثامها ، وختَمها بالموت الذى كَتَبه علىٰ خَلِيقته ، وسوّى بينهم فى سَكْرته : ﴿ لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَىٰ ﴾ . ويُقَرِّبهُم بدار يَفْنَىٰ الموتُ ويبقَوْنَ فيها بعْده ، كما فَنُوا فى هــذه الدار وبقِىَ الموتُ بعدَهم ؛ فإن تأخَّر الأجل فإلىٰ غايه ، وإن تطاوَلَ الأمَدُ فإلىٰ نِهَايه ؛ ولابُدَّ أن يَلْحَق التالِى المــاضِى، والآنفُ بالسالِف، وهذه حالُ نُصْبَ الأفكار، وتِلقاءَ الأبصار، لاتحتاج أن يرتاض الصبرُ علىٰ آلامها،

Marfat.com

والتحمل لمُعْضِلات سِهامِها، والجزَعُ عند وقُوعها قادحٌ فى البصائروالأفهام، دالٌّ على الجهـل باللياليِ والأيّام؛ وقد طرق المملوكَ ناعِى فلان فهَدَّ جَلَدى، وفتَّتَ كَبِدى، لا آرتياعا للحادثةِ : لأنّها لولم تكُن فيه لكانتْ فى المملوك، ولو لم تتطرَّقْ إليه لتطرّقت إلى المدرك(؟) ولكن الأسفُ على عَطَل الزمان من حِلْية فضلِه؛ وتعرّيه من حُلّة نُبْله، وخلُوِّ عِراصه من الأُنْس بمثله، ومانالَ سيِّدى لفقْده، وتحمّلَه من بُعْده؛ وإلى الله تعالى يرغَبُ المملوك أن يَرْبِطَ على قلبـه بالصبر، ويوفّقه لتنجُّز ماوعد به الصابرين من الأجْر؛ إن شاء الله تعالى .

على بن خلف :

رقعـــة : ليس عند المُصيبةِ ـ أطال اللهُ بقاء سيدى ـ خيرٌ من التسليم إلى الله والرِّضا بقضائه، والصبرِ على بَلائه؛ فإنه تعـالى مَدَح الصابرين فى كتابه، ووعدَهُم بصَلَواته. فقال جل قائلا : ﴿ الَّذِينَ إذا أصابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قالُوا إنَّا للهِ وإنَّا إلَيْهِ راجِعُون أُولٰئِكَ عليهِمْ صَلَواتٌ من رَبِّهِمْ ورَحْمَةٌ وأُولٰئِكَ هُمُ المُهْتَدُونَ ﴾ . وقال جل فائلا : ﴿ وبَشِّرِ المُخْبِتِينَ الَّذِينَ إذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهـم والصَّابِرِينَ على مَاأصابَهُـمْ ﴾ . ولم تزل الأولياءُ من القُدَماء يَحُضُّون على الصبْر وهم لايَرْجُون عليه ثوابا؛ ويَنْهَوْن عن الجَزَع ولا يَخافُون عليه عِقَابا؛ ومَنْ عرفَ الأيّام وتداوُلَها، والأحوالَ وتحوُّلَها، وسَّع صدْرَه للنوائب، وصبَر على تجرُّع المصائب، ومن آغترَّ[1] بطول السّلامه، وطَمِع فى الاستمرار والإقامه .

رُقعـــة : وقد آتّصـلَ بالمملوكِ خبرُ الفَجيعـة بفلان ، فأُفِيضتِ المَدَامع ، وتضَعْضَعت الأضَالِـع ؛ وزَفَرت الأنفـاس، وهَمَدت الحَواسّ ؛ وأذابَ الطرفُ

(١) لم يذكر فى الاصل لهذا الشرط جوابا ويمكن أخذه من المقام أى «فقد حاول محالا، وضل فى سعيه ضلالا» أو نحو ذلك .

سَوادهُ علىٰ الوَجَنَات بدَلًا من الأنقاس، وخلعَتِ القلوبُ سُوَيداءَها علىٰ الأجساد، عِوضًا عن جلابِيبِ الحِدَاد ؛ وعُضَّت الأنامِلُ جَزَعا ، ومُزِّقت الثيابُ تفَجُّعا واوجُّعا ؛ وكل هذا وإنْ فارقَ حميدَ التَّماسُك، ووافق ذَمِيم التَّهالُك، غيرُ مُوفٍ بحقّ ذٰلك الدارج الذى بلغ المَعالِيَ وهو فى مَهْـده ، وشدّ دَعائم الفضـل ولم يبلغ أوانَ رُشْده؛ وعلِمَ سـيدى أنَّ غايةَ الجازِع وإن صدَعتِ المصيبةُ قلْبَه ، وأطاشَتِ الفجيعةُ لُبَّه، الصبرُ والسُّلُوّ؛ وأنَّ نِهايةَ القَلِقِ وإن هجمَتْ عليه الحُرْقة بما لاتتوفَّر عليه الأضالِـع، ولا تتمـاسَكُ معه المَدامِع، القَرَارُ والهُدُوّ، واللهُ تعالىٰ لايُرِيه بعـدَ هذا الرُّزْء رُزْءا بفِنائه، وينقل ذٰلك عنه إلىٰ حاسِديه وأعدائه .

رقعـــة : مَنْ علِمَ أنَّ الأقضِيَةَ لاتُخْطِئ سِهامُها ، والأقدارَ لاتُرَدُّ أحكامُها، سلَّم الأمرَ فى السَّرّاء والضَّرّاء، ورَضِى بمـا مَناه فى البَلَاء والابتِلاء؛ ولا سيَّما فى مُصيبةِ الموت التى سوّى بين الخليقة فى تجْرِيع صَابِها ، واقتِحامِ عِقَابها؛ وقد اتَّصل بالمملوك خبرُ الحادثِ الفاصِم لعُرىٰ الجَلَد ، البـارح (١) فى الجلد . فاسـتحالَتْ فى عين المملُوكِ الأحوال ، ومالَتْ عنه الآمال ، ورأىٰ السماءَ وقد تكدَّر جوّها ، والشمسَ وقد تعكَّر ضَوْؤها ، والسَّحائبَ وقد أخلف نوْؤها ، والنَّهارَ وقد أظلم ، والليلَ وقد ادْلَهَمّ ، والنسيمَ وقد ركَد ، والمَعِـينَ وقد جَمَد ، والزمانَ وقد سُهِمَتْ وجنته ، وسُـلِبَتْ حِلْيَتُه ، وأفْرَجت قبضَتُه عن التمـاسُك ، وقبَضَتْ علىٰ التهالُك ، وعدلَتْ عن التجلُّد إلىٰ التبلُّد ؛ ثم أفاقَ من غَمْرة فَجِيعتِه ، وهَبِيب سِـنَة رويَّته ، فسلَّم لله راضيا بأقضيَتِه ، راغِبًا فى مَثُوبته .

---

(١) لعله البادح والبذح والبدح بالاهمال والاعجام الشق والمراد ظاهر .

Marfat.com

أبو الفرج الببغاء :

إذا كان أيّده الله أهْدىٰ فى النِّعم إلىٰ سُبُل الشكر، وأعرفَ فى المِحَن بطُرُق الصبر، فكيف نُحاذِرُ عليــه من المَصائِب ، ونذَكِّره التسليمَ لمحتوم النَّوائِب ؛ والمصيبةُ بفلان أعظمُ من أن نهتدى فيها إلىٰ سَلْوةٍ غيرِ مستفادةٍ منه ، أو نقتدِىَ فى العَزَاء بغير ماناُخذُه عنــه ؛ إذ كانتْ قلوبنا تَبَع قلبــه ـ سَرّه الله ـ فى طُرُوق السَّراء والضَّرَّاء ، وحالَتِي الشِّــدّة والرَّخاء . وأحسن [الله] عن الفَجِيعة عَزَاءه ، وأجزلَ من المثُوبة عطَاءَه ؛ ولا شغَلَه عن حَلاوة شكر النِّعم بمَرَارة الصبْرِ علىٰ وُرُود المِحَن ، وجعل مانقَلَ المــاضِى إليه ، أنفَعَ له ولسيِّدى من الجَزَع عليه .

وله فى مثــله :

آتصل بى خبَرُ المصيبة بجدّدَ الحَسْره ، وسكّبَ العَبْره ، وأضرَمَ الحُرْقة ، وضاعفَ اللَّوْعة ، وكان الأســفُ عليه ، بقَدْر تشوُّف الآمالِ كانتْ إليه : فإنَّا لله و إنَّا إليــه راجعُون ! ! أخْذًا بأمْره ، وتسليمًا لحُكْمه ، ورِضًا بمَواقِع أقضيَتِه ، وأحسَنَ الله فى العَزَاء هِدَايته ، وحرَسَ من فِتَن المَصائب بَصيرته ، وحَمَل عن قَلْبه ماأظلّه من ثِقَل المصيبة وعِظَم الرزِيَّة .

ولا أزالُ علىٰ جمــلةٍ من القَلَق إلىٰ أن يَرِدَ علىّ كتابُه ـ أيده الله ـ بما أكونُ فيه بأدَبِه مقْتدِيا ، وبهدايَتــه إلىٰ سَبِيل العَزاء والصــبْرِ مُهْتدِيا ؛ فإن رأىٰ إجرائى من تشريفه بذٰلك علىٰ مشكُور العادة ، فعل ، إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثــله :

آشتراكُ القلوبِ فيما ألَمَّ بقلْب سيِّدى بحسَبِ تَساوِيها فى المَسرّة بما سَرّه ، إذ كان لايختصُّ دُونَ أوليائِه بِنِعْمه ، ولا ينفَرِدُ دُونَ مؤمِّليه بحلُول مَوْهبه ، والمصيبةُ بفلان

وإن جَلَّ موقِعُها وعظُمت الفَجيعة [بها] ـ جَلَّ[1] مع سُقُوط الأقدارِ دُونَه ، وتجاوُزِها عنه ، ومُسامَحتِها به ، فلا شغَلَ الله قلبه بعْدَها بمَرَارة الصبْر عمَّا تُوجبه النِّعم من حَلاوةِ الشُّكر، ولا جاوره برزِيَّة فى حميم ولا نعمه .

وله فى مثـــله :

بصيرتُك إلىٰ العَزَاء تَهْدِيك ، وٱغتباطُك بثَواب الله يُسلِّيك ، وعلمُك بقِلَّة الغَنَـاء عن الجَزَع يَثْنِيك ، وجمعُنا بك فى الصبْر مقتَدُون ، ولرأيِك فى الرِّضا بمـا ٱختاره الله تعالىٰ متَّبِعُون ؛ فحَمَلَ الله عن قلبك ثِقْلَ المُصيبة ، وحرسَ يَقِينَـك من ٱعتراض الشبهة ، وأحسن إلىٰ جميل الصبر هِدايَتَك ، وتولَّىٰ من فِتَنِ المِحَن رِعايَتَك ، وجعل مانَقَل المـاضى إليه ، أنفَعَ لك وله من الأسَف عليه .

وله فى مثـــله :

ٱتَّصل بى خبَرُ المصيبةِ فأضْرمَ الحَسْرة ، وسكَبَ العَبْرة ، وقدَحَ اللَّوْعة ، وٱمترىٰ لِدَّمْعه ، وكانتْ مُشارَكتِي إيَّاك فى المُصيبة به ، والفَجيعةِ لفَقْده ، بحَسَب ٱختصاصِى بمواهِب الله عِنْدك ، وٱغتباطِى بمَنِحه لدَيْك ؛ فإنَّا لله وإنَّا إليـه راجِعُون ! ! تسليمًا لأمْره ، وٱنقيـادًا لحُكْمه ، ورضًا بمَواقع أقْداره ، وأحسن اللهُ علىٰ العَزَاء توفيقَك ، وإلىٰ السَّلْوة إرشادَك ، ولا أخْلاك فيما تطْرُقك به مصيبةٌ من مصاحَبة الصبر ، وفيما تَفِد به عليك نعمةٌ من الٱستزادة بالشكر ، وحَرسك فى نفْسك وأحبَّتك ، وذَوِى عنايَتِك ونِعمَتِك .

---

(١) أى يسير هين على حدّ قول امرئ القيس لما قتل أبوه :

بقتل بنى أسـد ربهم * ألا كل شىء سواه جلل

(٢) فى القاموس « ومرىٰ الشىء ٱستخرجه كامترأه » .

Marfat.com

وله فى مثـــله :

قدرُك أكبَرْ ، وبصيرتُكَ أنْوَر ، وثقتُك بالله تعـالىٰ أعظَمُ من آعتراض الشُّكوك عليك فيما يَطْرُقُك من عِظَاته بالحوادث ، إن عظُمتْ ، والمِحَنِ وإن جَلَّتْ ، آختِبارا بالمَصائب لصَبْرك ، وبما يُظاهِرُه عليك من النِّعم لشُكْرك ، ومثلُك أيَّدك الله مَنْ قابَلَ الفجيعةَ بفلان - إذ كانتْ من الواجب المحتُوم - بأحسَنِ عَزاءٍ وأفضل تسليم ، غيْرَ مرتابٍ بمـا آختاره اللهُ له ولَكَ فيه ، فعَظَّم الله به أجْرَك وحَرَسك وحَرَس فيك .

الأجوبةُ عن التَّعازِى

قال فى "مواد البيـان" : أجوبة التَّعازى يجبُ أن تُبْنىٰ علىٰ وُقُوف المُعزّىٰ علىٰ كتاب المعزّى ، وأنَّ إرشاده نفع عُلَّته ، ووعْظه نفَع عِلَّته ، وتبصـيره سكَّن أُواره ، وتذكيره أخمدَ نارَه ، وتنبيهه أيقظَ منه بُحْسن العَزاء غافلا ، وهدىٰ إلىٰ الصبر ذاهِلا ، وحسَّن عنده الرزيَّةَ بعد جَهامتها ، ودمَّث نفْسه للمصيبة بعد فدَامتها ، فسلَّم لله تعالىٰ متأدِّبا بأدَبه ، وعَمِل بالحُكْم مقتَدِيا بمذْهَبه ، وغالَبَ الرُّزْء بالعَزْم ، وأخذَ فيه بالحَزْم ، وسأل اللهَ تعالىٰ أن يُحْسِن له العِوضَ فى رَدّه ، ويجعلَه له خَلَفا ممن أُصيب بفَقْده ، ونحو هذا ممـا يخرط فى سِلْكه .

جواب عن تعزية : من زهر الربيع :

أعزَّ الله سيدَنا وأسعَدَه ، وسهَّلَ له طريقَ المَسَرَّة ومهَّدَه ، وصانَ عن حوادث الأيّام جنابَه ، وعن طوارِق الحَدَثان جَنـابَه ، وجعـله فى حِمىً عن عوارض الغِيَر والغَرر ، وأصار أيّامه محَسَّنةً لوجُوه الأيّام كالغُرَر .

Marfat.com

ورد الكتابُ الذى أنعَمَ بإرساله ، بل المَشرَّف الذى كَسَتْه اليدُ العاليةُ حُلَّةً من حُلَل جَمَاله ، فوقَفَ عليه وفهِمَه وتذكَّر به إحسانَهَ الذى لايَنْساه ، وتفضُّلَه الذى لايَعرف سِواه ؛ فأما التعزِيَةُ بفلان ، فإنه ردّ بعَذْبِ لفظها قُوَتَه ، وبَلَّ بماء حُسْنِها غُلَّته ؛ وصبَّره علىٰ حادثته بفلان بعد أنْ عزَّ عليه العَزَاءُ وأعْوزَه ، وطلَبَ وعْدَه من صَبْره فما أنْجَزه : لأنه كان وَجَد لِمَوْتِ المذكور حُزْنًا ما آستطاعَ له تَرْكا ، وفقَدَ لموته خلًّا مثلُه يُناح عليه ويُبْكىٰ ؛ وفى بقاءِ مولانا مسرَّةٌ تطْرُد كلَّ حَزَن ، وفى بهاء طَلْعته عوضٌ عن كل منْظَر حَسَن ، جعله اللهُ ساميًا علىٰ أتْرابه ، مقدَّما علىٰ أضْرابه ، ماسَمَتِ الأسماءُ علىٰ الأفعال ، وتقدم الحالُ علىٰ الاِسْتِقْبال .

آخر : ضاعَفَ اللهُ بقاءه وأطال عُمُره ، وشَرَحَ لإسْداء المَكارِم صَدْرَه ، وأنفَذ نَهْيَه وأمْرَه ، ولازالَ إلىٰ أوليائه مُحْسِنا ، وفضلُه يحصِّل لمحبِّيه غايةَ السُّول والمُنىٰ ؛ ورد مشَرِّفُه المعزِّى بوفاة فلان سقىٰ الله عهدَه عِهادَ رِضْوانه ، وأسكنه فى غُرَف غُفْرانه ، بخبَرِ مُصابا ، وفَتَح إلىٰ الصَّبْر أبْوابا ، وهدىٰ إلىٰ طريقِ الخير وقال صَوَابا ، وسكَّن نَفْسَه ، وذكَّره إحسانَهُ الذى لم يَنْسَه ، وأزال الوَحْشَةَ وزاد أُنْسَه ، بعد أنْ كان فَقْدُ المذكور قد هدّ رُكْنَه وفَتَّ عَضُدَه ، وأوصله إلىٰ أمَدِ الحَزْن وضاعف علىٰ الأيام أمَدَه ، وألبسه رِداءَ الاكتئاب ، علىٰ تِرْبه الذى أصبح تحتَ التُّراب ، وصديقِه الموصوفِ بالصدق ، الذى فاق سناه ذُلك الأُفْق ، جعله الله أصْلا فى تحصيل المسَرَّة إذا ذوَتِ الفُرُوع ، وسيْفًا يقْهَر به وليُّه الحوادثَ التى تَرُوع ، إن شاء الله تعالىٰ .

آخر : جعل الله أجْره عظيما كقَدْره ، والقلوبَ مجمعةً علىٰ حبِّه كإجماع الألْسنة علىٰ شُكْره .

Marfat.com

المملوك يُعْلِمه بوُرُود كتابه الكريم المعزِّى بفلان ـ قدَّس الله رُوحَه، وأمطر سحائبَ الرحمة ضَرِيحه ـ عليه، وعِنْده من شديد الحَزَن، ماأعدمه لَذِيذَ الوَسَن؛ ومن زائدِ الاكتئاب، ما كاد يَحْرِمُه التقمُّصَ بثوب الثَّواب؛ بحيث إنَّه عُوِّض بالزَّمَن الأسودِ عن العيشِ الأخْضَر، وذاق من موجب لُبْس الأبيضِ طَعْمَ الموتِ الأحْمَر، وأنه ضَمه إليــه ضَمَّ المحبُوب، وآبتَهَج به آبْتِهـاجَ من ظَفِر بغَايةِ السُّول والمطْلُوب؛ فأعمدَتِ الكآبةُ خوْفًا من قَلَمه سَـيْفَها، وأزالتِ الدنيا الدنِيَّةُ عنه حَيْفَها؛ وعزَّى نَفْسَـه وسَلَّاها، وشغله إحسانُه عن محاسِنَ محا الموتُ سَنَاها؛ فرفَضَ من توجُّعه مافرضَتْه حادِثتُه، وسلَكَ مَنْهَجا غيرَ المَنْهج الذى فُتِّنت فيه حَشَاه ومُهْجَته؛ فالله تعالىٰ يَكْفينا مانحاذِرُه فى المجلس ويحْرُس سَنَاه، ويُديم سعْدَه وعُلَاه.

النـــوع الثـالث

(من مَقَاصد المكاتَبات التَّهادِى والمُلاطَفة)

قال فى "مواد البيان": رِقاعُ التَّهادى يجب أن تُودَع من الألفاظ المستحْسَنةِ مايُمَهِّد لقَبُول الملاطَفة والمَبَرَّة التى تُميز فى المودّة. قال: وينبغى أن يُطْرِف الكاتبُ إذا كان مُهْدِيا أو مستَهْدِيا؛ وقد جرتِ العـادةُ أن تُودَع هـذه الرقاعُ من أوصاف الشىء المُهْدىٰ مايحسِّنه فى نَفْس المُهْدىٰ إليه. قال: وينبغى لمن ذَهَب هـذا المذهَبَ أن لايعتمِدَ تفخِيمَ هدِيَّته، ولا الإشارةَ إلىٰ جَلَالة خَطَرها، فإنَّ ذلك يُخِلُّ بشروط المُرُوءة ويتحاماه الكُرَماء.

ثم هى علىٰ ثلاثة أضـــرب:

Marfat.com

الضـــــرب الأوّل

(مايُكْتَب مع التَّقادم إلىٰ المُلُوك من أهل مملكَتهم إلىٰ القائمين بإيصال التَّقْـــدِمة إلىٰ المَلِك وكاتبِ السِّرّ ونحوهما)

الشيخ جمال الدين بن نباتة : إلىٰ كاتبِ السرِّ بالأبواب السـلطانية صحبَةَ تَقْدِمة من نائب الشام إلىٰ السلطان :

لازالتْ أقلامُها لنَتائج الفَضْل مُقدِّمه ، ولمَرَاكض الكَرَم والبَأْس جيادًا مُسوَّمه ؛ ولكَتائب المَلِك من كُتُبه أعلامًا بشِعارها العبَّاسيِّ مُعْلَمه ، وفى يد صاحِبها من أصحاب المَيْمَنة ، والذين كَفَروا بآياتِ الله ونِعَمِها من أصحاب المَشْأمه ؛ تقبيلَ مُحِبٍّ لاتُفْسَخ عقُودُ وَلَائه المُحْكَمه ، ولا تُنْسَخ إلَّا فى الكُتُب عقودُ ثَنـائه المنظَّمه ، ولا تطوفُ الأشواقُ ببَيْتِ قلبه إلَّا وهى من مَلَابس السُّلْوان المحرَّم مُحْرِمه .

ويُنْهِى أنه قد آختارَ من عِنَاية مَوْلانا بمَقَاصِده أحسَنَ الخِـيَر ، وبُورِك له فى قَصْدها (ومَنْ بُورِكَ لَهُ فى شَىْء فَلْيَلْزَمْه) كما جاء الخبَر ؛ وقد جَهَّز فلانا إلىٰ الأبواب الشريفةِ خَلَّد اللهُ سلطانَها بتَقْدِمته علىٰ العادةِ فى كلِّ سنة ، وآتَّبع سِـفَارةَ مَوْلانا بين يدَىِ المواقِف الشريفة فاتَّبَع من القَوْل أحْسَنه ؛ وسأل حُسْنَ نظر مولانا الذى إذا لاحظَ قَصْدا أعْلَنَه وسَعْدا عيَّنه ، وقد جهَّز المملوكُ برَسْم مولانا ماهو بمقتضىٰ الوَرَقة المجهِّزة عطْفها ، المؤمِّلةِ وإن كانتْ ورَقةً قَطْفَها ، وسأل مقابلتَها بالخَبَر الذى يَحْسُب الأملُ حِسَابَه ، ويستفْتِحُ ببنانِ القَلَم بابَه ، والإصـغاءَ لمـا يُملىٰ من رَسائل الشَّوْق فإنَّها من رسائل إخْوان الصَّـفا المستطابَه ، لابَرِح القاصدُون مَرِحِينَ بأيَّام مولانا وحَقَّ لهم أن يَمْرَحُوا ، تالينَ نسبة بيته ورُحْمىٰ الله علىٰ يَدِه : ﴿ قُلْ بفَضْل الله وبرَحْمتِه فَبذٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا ﴾ .

وله إليه أيضا مع الجَهَاز الشريف السلطانى :

أمتعَهَا اللهُ من خيْرِى الدنيا والآخرة بكَرَم الأَمْرِيْن ، وبشَرَف الذِّكْرين . وسرَّها بما يجهَّز فى الثَّناء والثَّواب من الوَفْرَيْن ، وأعلىٰ مَنـارَها المحلَّقَ إلىٰ السماء علىٰ وكْر النَّسرين . ولا زالَتِ الآمالُ لاتَبْرح حتَّى تبلُغَ من تلك اليدَيْنِ مجْمَعَ البحْرَيْنِ ؛ تقبيلَ مخالِص فى الوَلاَء والدُّعاء ، مستشهِد بالخَواطِر الكريمةِ علىٰ ثُبُوت الأدِّعاء ، وارِدٍ لموارد النِّعم قبل صُدُور بل قبل وُرُود الرِّعاء .

ويعنى أنه ليس للمملوك فيما يؤمِّله ويتأمَّله ، ويفَصِّله من عُقُود المَطالب ويُجْمِله ، غيرُ إحسانِ مولانا الذى لا يُمَلُّ علىٰ طُول الإينـاس والإلباس ، وعوارِف بيتـه المستجدة تالية : ﴿ إنَّ اللهَ لَذُو فَضْـلٍ علىٰ النَّاسِ ﴾ . وقد جهَّز المملوكُ الولدَ فلانا فى هذا الجَهاز المبارَك إلىٰ الأبواب الشريفة خلَّد الله سلطانَها ، وملَأ به جَواهِرَ حبَّات قلوب خُدَّامها ، وهو على قَدْر المملوك وبقَدْره ، لا علىٰ قَدْر مُرادِه واختياره ؛ ولو أن ما يحمِله العبدُ إلىٰ سيِّده ، ويقدِّمه من بَيْن يدَىْ نعَمه ، علىٰ قدر المحمُول لضعُفَتْ قوىٰ أكثر العبيد عن ذلك ، ويئِس من الرِّضْوان أكثر المماليك ، وإنما على العبيد أن يَجْتَهِدوا على قَدْر الحال ، وعلىٰ السادات أن يعامِلوا الخبر مستقبَلَ الأفعال . وعلىٰ مولانا الكريم يحيط بتنقُّل المملوك من بلَد إلىٰ بلَد ، ومن أمَد كذا إلىٰ أمَد كذا ، ما يحتمِل فى ذلك من مشقَّات كاد أن يخفَى عليها الذى يخفَى على بنى آدم ، وكان مملوك يودُّ لو كان يحمِل من الجَهاز من جوهر النُّجوم المنثورة ، والحُلِيّ السُّعُود المأثورة ، ما يُزَيِّن للناس من الشَّهوات المذكورة ، أضعاف أضعافه الآن ، بل أضعاف أضعاف ما يحمِل الأقلُّون من فُلان وفلان ، كالذى يرسِل مع الجهة المأمونيَّة التى تكرمه ، وابن طولون مع المعتضديَّة التى كاثرهـا الفيْضَ قطْرُها ، والسَّمانِيّ

Marfat.com

وما أدراك، والسَّلْجُوقِىّ وما أسْراك، وجميع ماتضمَّنته التواريخُ التى لو عاينَتْ تاريخَ هذه الدولةِ الشريفةِ عنَتْ فى الحال لمَجْدِه، وكان كلُّ مجلَّد منها يموتُ للهَيْبة فى جِلْده : لما خلَّدته أيامُها الشريفةُ من أخبار حُكْمها وخَيْرها، وكَرَمها وبِرِّها، وعَطْفها علىٰ مماليك بيتِها الشريف : تتقبَّلُ ميْسُورَهم، وتُكَمِّل سُرورَهم؛ ويملأ بجُيُوش الانشراح صُدورَهم، وتبلِّغُهم من هِمَم مطْلُوبهم؛ وتُقْبِل علىٰ زاهرات نَجَايَاهم ورياحِينِ قلوبِهم :

ولو لم تُطِعْه نِيَاتُ القلُوب * لَمَا قَبِل اللهُ أعمالَهَا.

والمملوك يسأل من إحسانِ مولانا الذى أَلِفَه، ومعروفِه الذى عَرَفه، ملاحظةَ الولد فلان بين يدَىِ المواقِفِ الشريفة خلَّد الله سلطانها، وإقامةَ عُذْر المملوك بعبارتِهِ التى أحلَّ اللهُ سِحْرَها وبيانَها؛ فما للمملوك فى مَقاصِده مثلُ مودّةِ مولانا الوافيةِ المُتَوافِيه، ومقدّمةِ عبارتِهِ الكافيةِ الشافِيَه؛ والله تعالىٰ يُعِين علىٰ شُكْرِ مِنَنه، والقيامِ بفرائض حمْده وسُنَنه، والنهوضِ بأوصاف أياديه التى يُغرِّد بها قلَمُ الكُتَّاب كما يُغرِّد القُمْرِىُّ علىٰ فَنَنِه.

الضرب الثانى

(ما يكتب مع الهديَّة عند بَعْثها)

وهو علىٰ عَشَرة أصناف :

الصنفِ الأوّل — مايكتَبُ مع إهداء الخيل.

على بن خَلَف : فى إهداء جَوَادٍ أدْهَمَ أغرَّ محجَّل.

وقد خدم المملوكُ رِكابَه الأكْرَم، بجوادٍ أدْهَمَ مُطَهَّم، قد سَلَبَ الليلَ غَياهِبَه وكَواكبَه، فاشْتَمَلَ بأديمه، وتحلَّىٰ بنُجُومه، وأطْلع من غُرَّته السَّاذَجَة قمرًا متَّصِلا

Marfat.com

بالمَجرّه ، وتحلّى من رُثْمَتِه[1] بالثُّرَيّا أو النَّثْره ، صافِي القَميص ، ممحُوض الفُصُوص ، حديد الناظِر ، صليبِ الحافِر ، وَثِيق القَصَب ، نقِيّ العَصَب ، قَصِير المَطَا ، جَمْد النَّسا ، كأنما آنتعلَتْ بالرِّيَاح الأرْبَع أرْبَعُه ، وأصْغىٰ لآستراق السَّمْع مَسْمَعُه ، إنْ تُرِك سارْ ، وإن عُمز طَارْ ، وإن ثُنِيَ آنْحَرَف ، وإن آسْتُوقِفَ وقَفْ ، أديب نَجِيب ، مَتِينٍ صَلِيب ، صَبُورٍ شَكُور ، والله تعالىٰ يجعلُ السعادةَ مطلعَ غُرَّته ، والإقبالَ مَعْقِدَ ناصيتِه .

من كلام المتأخرين :

كتاب عن نائب الشام إلىٰ الملِك الصالح : شمس الدين صاحِب ماردِينَ قرِينَ خيل مُنْعَم بها إليه ، عن السلطانِ الملِك الصالح : عمادِ الدين إسماعيل بن الناصر محمد آبن قلاوُون ـ من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتةَ ، وهو بعد الألقاب .

وأجْرى بالنَّصْر جِيَادَه ، وبالظَّفَر مُرادَه ، وعلىٰ عوائِدِ السَّعْد مَطالِعَ شمسِه التى يُسَمِّيها عُرْفُ المملكةِ بلادَه ؛ ولا زالتْ مُنيرةً بسعادةِ شمسِه الأحْلاك ، نَظِيمةً بدُرَر مَحامِده الأسْلاك ، مائلةً خيولُ سعدِه حتّىٰ حُمْر السَّوابق من البُروق والشُّهُب السَّوانح فى الأفلاك .

المملوكُ يقَبِّل اليدَ التى إذا بُسِطتْ فلِأن تجُودَ وتُسْتَلَم ؛ وإذا قُبِضت فعلىٰ سَيْف أو قَلَم .

ويُنْهِى بعدَ ولاءٍ وثناءٍ للإخلاص شارحَيْن ، وفى الضمائرِ والآفاقِ سانِحَيْن ، وآشتياقٍ وعهدٍ كانا أحقَّ بالآنتماءِ لآسمه ونَعْتِه وكان أبواهما صالحَيْن ؛ أنّ المرسومَ الشريفَ زاده الله تعالىٰ شَرَفا ، وردَ يتضَمَّن تشريفَ مولانا علىٰ العادةِ وإعظَامَه ، وآستقْرارَ مكانته من الخواطرِ الشريفةِ فى دار مُقَامه ؛ وآستمرارَ كرامتِه من الآراء المعظَّمة

(١) هى بالضم بياض فى طرف أنف الفرس . قاموس .

ولا يُنْكَر بين الصالح والصَّالح استمرارُ الكَرامه ، وأنَّ الصَّدَقاتِ الشريفةَ أنعمَتْ علىٰ مَوْلانا بثلاثةِ أرْؤُس من الخيل كثلاثة الراح ، إلا أنَّ حَبَابها عرَقُ سبْقها ، وثلاثة الشجر(؟)[1] كما قال الطائى تساوى شَرَف ثَمَرها وزَهَرها وعَرْفها ؛ مامنها إلا من تقْصُر الرِّياح أن تَسْلُك جَدَّه ، والبرُوقُ أن تَتْبَع نَهْجَه . ومَنْ تودُّ الثُّرَيَّا أن تكونَ لِجامَه والهلالُ أن يكونَ سَرْجَه . ومَنْ يَمَطَّر[2] كالغَمَام ويركُضُ كالسَّيل . ومَنْ كُلِّت حِلاَه ولبِس حُلَّة الفَخَار فمشىٰ علىٰ الحالتين فى الحُلَّتين مُسْبِلَ الذَّيْل . ومَنْ عُقِد بناصيَته كلُّ الخير وعُقِد له لواءُ الفَخَار علىٰ كلِّ الخَيْل : من كلِّ خَضراءَ مُعْجِبة فهى علىٰ المجَاز حَدِيقه ، وكل أحمرَ سابقٍ فهو البَرْقُ علىٰ الحَقِيقه ، وكلِّ أصفرَ شَفَقٌ إلا أنَّ الرياحَ من مُجاراته علىٰ نَفْسِها شفِيقه . وكيف لا يُشَبَّه بالشَّفَق وهو من الأصائِل ، وكيف لايفتَخِر العسكرىُّ بهذه الخيلِ وخَناصِرُ عَدَدها فى الحُسْن أوائِل ، قد صُرِفَتْ وجوهُها المقبَّله ، لبابِ مولانا أحسنَ المَصَارف ، وكُتِبتْ عوارفُ الفضل فى مَعَارفه المُسْبَله ، فناهيك منها بكتاب عَوَارف المَعَارف ؛ ووصل لمولانا بذٰلك مثالٌ شريف ؛ ورسم للمملوك بتجهيزها مع مَنْ يراه ؛ وقد جهَّز المملوك لخدمةِ مولانا الخيلَ المذكورةَ مع المثال الشريف صحبةَ فلان ، ومولانا أدْرىٰ بنفَحات رياض الحمدِ بهذه الدِّيَم المُطلّه ؛ وبالتقبيل فى الأرض التى هى سَماءُ حوافِرِ هذه الخيل التى هى أهلَّه ؛ وأولىٰ أن يَشَّرف المملوكَ بمُهِمَّاته ، ويؤنِسَ لحظَه بطيف اليَقَظة من مشَرَّفاته ، والله تعالىٰ يجدّد لمعاليه فى كل قصد نُجْحا ، ويعلى لمجده[3] فى كل حال قِدْحا ؛ ويُروِّع الأعداءَ

---

(١) كذا فى الأصل باستعمال من فى غير العاقل .

(٢) فى الأصل يخطر كالغمام ولعله مصحف عما أثبتناه يقال تمطرت الخيل إذا جاءت مسرعة يسبق بعضها بعضا تأمل .

(٣) فى الاصل وجاد مجده تأمل .

من خَطَوات خيْله فى بلادهم بالمُغيرات صُبْحا ، ومن خَطَرات ذكْره فى قلوبهم بالمُورِياتِ قَدْحا .

وفى معنـاه :

يقَبِّل الباسطةَ الشريفة أعلىٰ اللهُ شانَها ، وجمَّـل ببقائها زَمانَهـا ، وضاعفَ علىٰ الأولياء بِرَّها وإحسانها .

وينهى : أنه ٱبتاع جَوَادًا أعجبه ، وطِرْفا ٱنتخبَه ، وقدْ قدّمه لوَلِىِّ نِعْمتِه ، ومالك عُبُودته : لأنَّ الكِرامَ لا تكونُ إلا عند سيِّد الكِرام ، والذى يصلُحُ للمولىٰ علىٰ العبـد حَرَام . فالله تعالىٰ يجعَلُ التوفيقَ ضِياءَ غُرَّته ، واليُمْنَ مَعْقِدَ ناصيَته . والإقبالَ تحجيل أُرْطُفَته ، والسعادةَ موضِعَ الجلوس من صَهْوته ، والمملوكُ يسأل الإنعامَ بقَبُوله . و[أن] يبلّغه من ذلك [غاية] مأمُوله ، مضافًا إلىٰ ماسبَق به سابقُ إحسانه العميم ، وفضله الجسيم ، والله تعالىٰ يحرُسه بعينه التى لا تَنام ، آمين .

الأجوبة بوصول الخيـــل

جوابٌ عن نائب الشام إلىٰ أميراخور بالأبواب الشريفـة ، عن وصُول خيـل إليـه من الإنعـام الشريف — من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، وهو بعـد [الألقاب] :

لا زالت مبشّرة بأعظم سَير وكرام الخيل ، ميسّرة النعماء بسوابق السَّيْر كدوافق السيل ، مخبرة عن إمجاد سوابقه إلا أنها فى الخبر والشَّبَه ضافيةُ الذَّيْل ، سفيرة [بين] كل جوادٍ تتسم غُرَّته أبسامَ الثغر ويدرك طَلَبه إدْراكَ الليل ، تخيلا [أن] سوابق الخيل ، ويأمل [أن] تُشرح [له] من العقود تلك الأجياد .

---

(١) [أن] الجمعة والعمل بالمعروف ، فمن صوابه الإنصاف .

ويُنْهِى بعد ثناءٍ وولاءٍ : هذا يَهِيمُ فى كل واد، وهـذا يَهِيم بمثله كلُّ وادّ؛ وُرُودَ مشرِّفةِ مولانا الكريمةِ بما ملأ القلْب مَسَرَّه، والعينَ قُرَّه، ودرَجَ عامَ الفيل من نُجُب الخيل السيارة مستَهَلّ وغُرَّه؛ فقابلها المملوكُ بتقبيله ، وقام لهـا علىٰ قَدَم تبْجِيله ؛ ثم قام إلىٰ الخيل الشريفة المنعَم بهـا عليه فقبَّـل من حوافِرها أهِلَّةً ثم من غُرَرها نُجُوما، وتأمَّل شِياتِها البرقيَّةَ وٱستمطر من السُّعود غُيُوما ؛ فأدْنَتْ له من الإقبال أمَدَ قاصيها، وظلَّ بمنزله الخيرُ المعقُودُ بنواصيها ؛ وتضاعفتْ أدعيتُه الصالحةُ لهذه الدولة القاهرة الصالحيَّة زادها اللهُ من فضـله ، والوقتِ الذى ملأَ الدنيا بسَحَاب جُوده ورياحِ جِيَـاده ورِياضِ عَدْله ؛ والملكِ الذى لاينبَغِى لأحدٍ من بعدِه، ولولا شُهودُ العهد الشهيدىِّ لقال ولا لأحدٍ من قَبْله ؛ وأعدَّ المملوكُ هذه الثلاثةَ من الخيل ليُفْنِى عليهـا بالقتال أهلَ التعطيلِ والتَّثْليث ، ويستَخفَّ بهـا آجالَ الأعداء بين يدَىْ مالكه : فإنها من ذَواتِ العِزِّ والعزم الحَثِيث ؛ وما هى إلَّا كواكِبُ سَعْد تمددها أسِنَّتها الوَقَّاده ، وزَهَراتُ حسن حيَّتْ بها علىٰ البُعْد سِفارتُه المعتاده ؛ لابَرِح مولانا يقلِّد بعِنايتـه وإعانتِه المِنَنَ الجِسام، وينصُر بعزائمِه القاطعة ؛ وكيف لاينصُر ويقْطَع وهو الحُسَام ؟ .

وله فى جواب وصُول أكديش وبازٍ [وكوهية] :

لا زالَ جزيلاً سَمَـاحُه ، جميلاً من الحمد رَبَاحُه ، جليلاً [illegible] الذى يشْهد به [illegible] الخير ويمنُه وطائلُ الخيل ونَجاحُه . هذه المفاوضة تُهدى إليه [illegible] وثناءً تُشْرِق غُرَره وأوضاحُه ؛ وتوضِّح لعلمه الكريم وُرودَ [illegible] سريعةَ الاحتثاث ؛ طائرةً بيُمْن طِرْسها وهـديَّتها بأجنحةٍ مَثْنَى وثُلاث ؛ فحصَل الوقوفُ عليها ، وتجدَّد عهدُ الارتياح لديْها ؛ وفهمْنا ما لم نَزَلْ نفهَمُه من وُدّ الجناب العالى ، وبِرِّه المُتعالِى ؛

Marfat.com

ووفاءِ عَهْده الذى تتلَقَّاه المحامِدُ بأمالِ المحبِّ لا بأَمَالِى القَالِى ؛ ووصل الأكديش الايكر ظاهِرًا حُسْنُه ، سافِرا عن وَفْق المُراد يُمْنُه ؛ تتجمَّل به المَوَاكِب ، وتُماشيه الرِّياحُ وبعضُها من خَلْفــه جَنائِب ؛ وكذٰلك وصــل البازِى والكُوهِيَّة ، وكلاهمــا بِديعُ الأوصاف ، سريعُ الاِقْتِطاف لأزَاهِرِ الطيرِ والاِخْتِطاف ، يَسْبِقُ الطَّرْفَ بجناحِه اللَّمُوح ، ويستَعْجِل من الأُفُق وارِدَ الرِّزْق الممنُوح ؛ ويُواصِلُ الخيرَ والمَيْرَ إلىٰ المَطْبَخ ، فكأنَّ حوائج كاش تغْدُو إليه وتروح ؛ لا بَرِحَ إحسانُ الجناب العالى واصِلا ، وذِكْرُه فى ضمير الاِعتداد حاصِلا ؛ وحكْمُ سماحتِه وشجاعتِه باستِحْقاق الثناءِ فاصِلا .

جواب بوصول جَوَارح :

كُتِب به عن نائب الشام ، جوابًا لمطالَعَةٍ وردَتْ علىٰ نائب الشام من الصالح صاحبِ ماردِينَ من بَقَايا بنى أُرْتُق ، صحبةَ سَناقِرَ ، هديَّةٍ للصالح إسماعيل بن الناصر محمد بن قلاوون : صاحب الديار المصرية ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُبَاتة :

وأيَّد هِمَمه السَّــوابِح ، ونِعمَه السوابغ ، وشِيَمه التى تنتظم منها عليــه دُرَرُ المحامد والمَمَــادِح ؛ وشكَرَ هَــدَاياه التى منها جَوارِحُ طير تخْفُقُ لفَرْط آستِحسانها الجَوارِح ولا زال من أجْنحة نَصْره حتَّى السِّماك الرامح ؛ ومن جُنُود ســعدِه للأولياء ســعْدُ السُّعود ، وفى الأعداء سَعْدُ الذابح ؛ ومن جِياد رِكابه الشُّهبُ إلا أنها شُهبُ الأفلاك السَّوابِح ؛ ولا بَرِح سلطانُ البسيطةِ مكافِئًا عملَ قلْبِه الوفِىِّ ، ولا يُنْكَر العملُ بالقلُوب بينَ الصالح والصَّالح .

المملوك يقبِّل الأرضَ التى تستمِدُّ السُّحُبُ من سَمائها ، وتستعِدُّ منازِلُ الأنجُم للتعلُّم من أنوائها ؛ تقبيلًا يَودِع ورَقَ الرسائل أزاهِرَه ، ويُطْلِع فى ليالى السُّطُور زَواهِرَه ، ويدَّخِرَ فى أيدى الحُروف إلىٰ أن تَصِلَ إلىٰ أجياد المَنَابر جَواهِرَهْ .

ويُنْهِى ـ بعد دعاءٍ صالح، إذا جُدِّد تجدَّد، وولاءٍ ناجح، إذا آنعطف تأكَّد، وثناءٍ سانح، إذا سرىٰ لا يتوقَّف إلا أنَّ نَسِيمه فى الآفاقِ يتردَّد، وآرتياحٍ لما يَرِدُ من أخبار دياره السارّة إذا شافَهَ سرورُه سَمْعَ الولِىِّ شهِد وسَمْعَ الحاسدِ تشَهَّد، حيثُ يتَلَقَّىٰ ببلادهالنُّجْح والمَقاصِد، وصِلاتِ البِرِّ والعوائِد، ووُفُودَ الآمال من كل أَوْب: فديارُ بكر ديارُ زيْد وعَمْرو وخالد ـ وُرودَ المشرَّف الكريم، بل الغيثِ السائِرِ بخِصْب المُقِيم، علىٰ يَدِ فلان ونِعْمَ اليدُ العائلةُ لأيَادِى البِرِّ العَمِيم، ونِعم المشرَّفُ الوارد عن مقرٍّ: هذا للأمَل كَهْف وهذا للتأميل رَقِيم؛ ففَضَّه المملوك عن علامةِ آسم لُحْسْنها رسُوم، ولها رُسُوم، وآستجلىٰ مواقِعَ تلك الأنامِلِ المُضِيَّةِ وأقسمَ علىٰ فَضْلها بمَواقِعِ النُّجوم؛ وآنتهىٰ إلىٰ الإشاراتِ العاليه، وعلِمَ ما كان القلبُ يعْلَمُهُ من ضمائر الوُدِّ الحالِيَّة لا الخالية، وقابل كلَّ أمْرٍ حسنٍ بما يجِب من مَذَاهب الوُدِّ المُتواليه، ووصلت السَّناقِرُ المُنيرُ سَنَا فضلها، المُبِير فى مَعارك الصيد شَبَا نَصْلها، القائمةُ فى كَواسِر الطير مقامَ الملوك الأكاسرةِ إلَّا فى حُكْمها وعَدْلها؛ لا جرمَ أنها إذا دخَلَتْ آفاقَ طيرٍ أفسدَتْها وجعلت أعِزَّة أهلِها أذلَّه؛ وإذا آنقضَّتْ علىٰ سِرْبِ وحْشٍ جذَبَتْها من دَمِ الأوْرِدة بأرسانٍ حيثُ كسَتْها من قَوادِم الأجْنِحة أجلَّه؛ لايُسْأَلُ كاسِرُها فى الطُّيور بأىِّ ذَنْب قُتِلتْ، ولا يحمِلُها جانب الطير والوَحْش إذا عاندَتْه فياعَجَبا لها علىٰ أيْدِى البَشَر كيف حُمِلَتْ؛ تُظِلُّ الصيدَ فلا عَجَبَ أن يَفْزَع بها من ظِلِّه، وتكتُبُ علائِمَ اليُمْن والظَّفَر بما فى لَوْنها من شَبَه الخَطِّ وشَكْله، نِعْمَ الجالبةُ للخَيْر والمَيْر، والسائرةُ بما يُخِيف المتصَيِّداتِ وكيفَ لا؟ وعلىٰ رُءُوسها الطير، أزاهِرُ حُسْنٍ لابِدْعَ أن يكون لها كمائِم، وبَوارِقُ العزم لاجَرَم أنَّ أجنِحتَها عمائِم؛ ونواقِلُ البأس والكَرَم عن مُرْسِلها فهما جمَعتْه الشَّجاعةُ فرَّقتْه المَكارم.

آستَجْلاها المملوكُ بعد ألفاظ المشرَّف الكريم فقال: (تِلكَ الرياضُ وهذه السُّحُب،

وتلكَ الأنوارُ الهادِيَةُ وهذه فى أُفُقِ مَطَارِها الشُّهُب) ، وجهَّز المملوك المطالعةَ المُحضَرة للأبواب الشريفة أعلاها اللهُ وشرَّفها على يد فلان المذكور فقُوبِل بالإكْرام والكَرَم . ومَثَل بالمَواقف الشريفـة مُثُولا رقَى بهمَّتـه إلى الكَواكب لا جَرَم ، وذَكَّر بصالح بيتِ الارتقاء صالحَ بيتٍ أُرْتُقِى حتَّى أنشد :

فَهَلْ دَرَى البيتُ أنِّى بعْدَ فُرْقته ... ما سِرْتُ من حَرَمٍ إلَّا إلَى حَرَم!

وقد عاد مُعْلَمًا من البِشْر بما يَزِيد مولانا عليه ، مُعْلِمًا بما تقدَّمَ من نجوى الإنعام بين يدَيْه ، حاملًا من كَرَمٍ وجاهٍ يُعَدَّان للأولياء فى يومِ نُزُل وللأعداء فى يَوْمِ نَزَال ، قائلا برجاء سَعْيه المؤمَّن : (يَاصَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا) ولن تَزَال ، والله تعالى يُجرِى كَرَم مولانا على عوائدِ إسعاده ، ويَحْرُس بعَيْنِه وملائكته نَفَاسة نَفْسه وبِلاده ، ويُدْخِله بأَسْمِه ومُسَمَّاه لدى الدُّنيا والآخرة فى الصَّالحين من عِبَاده .

وله جوابٌ بوصول بازِيَيْن :

ولا زالَتْ بُزاةُ كرمه على الحمد مُطِلَّه ، وسحائبُه مُسْتهِلَّه ، وهِمَمُه مستقِلَّةً بأعباء المكارم وإن كانتْ لكثيرِ مايُبْدِيه مستقِلَّه . هذه المناوضة تُهدِى إليه من السلام أجَلَّه ، وتُوضِّح لعلمه الكريم وُصولَ مكاتبته العالية فوقَفْنا عليها ، وعوَّذناها بكلمات الثناء التـامَّة من خَلْفها ومن بين يدَيْهـا ، وعلمنا مالم نزل نَعْلَمُه من مُوالاته وآلائه المُسْنَدَ فى الشكر عنها والمستندَ فى الوَلَاء إليها ، ووصل كِلَا البازِيَيْنِ الحسَنَيْن المُحسِنَيْن كأنَّهما فرقَدَا سماءٍ قد آجتمعا ، وقمرَا حُسْنٍ طلَعا ، وعلى محاسن الصيد آطَّلَعا ، يَسُرَّان القلوبَ والأبصار ، ويُحْمَلُ كلٌّ منهما على اليمين فيحْصُـل به اليَسَار ، وما هما بأول إحسانِه الأسْنَى ، ويَدِه الأهْنَى ، وأياديه التى أبَى الكرمُ إلا أن تَرِد مَثْنَى مَثْنَى . وعلِم آعتذارُه عن الكُوهِيَّة التى كان آدَّخرها فنفَقَتْ ، ولو أُقيمتْ بها أسواقُ الصيد

نَفَقَت، وأرسل بروايتها تحقيقًا لدَعْوىٰ المكارم التى من زمانٍ تحقَّقتْ ؛ واللهُ تعالىٰ بشكُرِ برَّه، و يملأ بذِكْره بحرَ الثناء و برَّه .

وله جوابٌ بوُصُول كُوهِيَّتين علىٰ يدِ شخصٍ آسمُه باشَق :

لازالتِ المحامدُ من مَصَايدِ إنعامه، وفوائدِ أيَّامه ؛ وثمراتُ البأسِ والكَرَم من قُضُب سُيوفه وأقلامه ؛ تقبيلَ معترِفٍ بإحْسانها، مغترِفٍ من مَوَارد آمْتِنانها ؛ متحَفٍ منها بعالِي تُحَفٍ تدُلُّ علىٰ مكانِها فى الفضل وإمْكانِها .

ويُنْهى ورُودَ مشرَّف مولانا الكريم علىٰ يدِ الولد « باشَـق » فياله باشَـقٌ جاء بكُوهِيَّتين جميلتيْن، وطار للسُّرْعة وهو حاملٌ مِنَّتيْن جليلتَيْن ؛ وقد وصلَتَا و [كِلْتا] هما حسنةُ الخُبْر والخَبَر، حميدةُ الوِرْد والصَّدَر، يحْسُن مَسْرىٰ كلٍّ منهما وسَيْرُه ؛ و يَتجمَّلُ بهما بابُ الشَّكَرْ خاناه وصدْرُها و يكْثُر خيرُ المَطْبَخ ومَيْرُه، فمدّ المملوكُ إليهما اليَدَ المتحمِّلة الحـامِلَه، و إلىٰ المشرَّف الكريم اليدَ المتولِّيَـةَ المُتناوِله ؛ وعلم ماتضمنه من الحُسْن والإحسان، وذِكْرِ الموالاة التى يحكُم بها القلب العالِمُ قبـل شَهادةِ اللِّسان ؛ وآعتذارِ مَوْلانا عن تعـذُّر وُجُودِ الشاهين ؛ وكلُّ إحسـانِ مولانا شهِيّ كافٍ، وكلُّ مَوَارد نِعَمه هَنِيّ صافٍ ؛ ومافات مَقْصَدٌ و إنعامُ مولانا وراءَ طَلَبه و إنْ طال الأمَد، ولافَرَّ مطلوبٌ حتّٰى يأتِيَ به سعْدُ مولانا مقْرُونا فى صَفَد ؛ والله تعالىٰ يشكُر عوائدَ فضـله، ولا يُضْحِى[1] الآمال الملتجئة [إليه] من ظِلِّه .

جواب بوصول طيور، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة :

وشكَرَ هَداياه المتقبَّله، وسَجاياه التى هى بأفْواه المحامد مُقَبَّله، ولا زال بدرُ سعادته المأمولةِ وطائرُ هدِيَّته المتأمَّله .

(١) مراده لا يحرمها ولا يخليها .

Marfat.com

صدرتْ هذه المكاتبةُ إلىٰ الجناب العالى تُهدِى إليه من السلام أتَمَّه، ومن الثناء أنَمَّه؛ وتوضِّح لعلمه الكريم وُرودَ مكاتَبَته الكريمه، ومكارمِهِ النَميمه؛ وطُيورِ هدئيته التى كلٌّ منها فى الحُسْن بدرُ تِمّ، وظهرَتْ ظُهورَ البدْرِ لِتَمَامه فأبتْ محاسِنُها أنْ تنْكتِم، فحُسُنَ ورُودُها، ورُعِى بفضـل التلطُّف والتودُّد مقصودُها؛ وأقبلت تلكَ الطيورُ أتَمِّيَّة تامَّة الإنعام، دالَّةً بيُمْن طائِرها علىٰ بَركة عامَّة وكيف لا؟ وقد جاءتْ ببضاءَ عدَدَ شهور العام؛ واللهُ تعالىٰ يزيده من فضله، ويُجْرِى الأقدار بالسُّعود الشاملة لجمعه الجامعةِ لشَمْله؛ إن شاء الله تعالىٰ .

جواب فى المعنىٰ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتةَ أيضا :

لازالتِ الجَوارحُ شاهدةً ببِرِّه، والجوانحُ حائمةَ الجَناح علىٰ شَريفِ ذِكْره؛ والمحامد من مَصايدِ أقلامِه ورِماحه فى السَّـلْم والحَرب : فإمَّا بقَوادم سُمْره، وإما بمَنَـاسِر حُمْره؛ تقبيلًا يبعَثُه علىٰ أجنحةِ أوراقِ الرَّسائل، ويتصـيَّدُ به علىٰ البُعْـد مشافهةَ تلك الأنامل الجَلَائل .

ويُنْهِى بعـد دعاءٍ، تُحَلِّق إلىٰ السماء كلماتُه الحَسَنه، وولاءٍ وثنـاء : هذا تَخْفِق بتشوّقه أجنحةُ القلوب، وهذا تخفِقُ بذِكْره أجنحةُ الألْسِنه ـ أنَّ كتابَ مولانا وردَ علىٰ المملوك فأوردَ عليه المَسارّ؛ و[ملأ] يده بالمَبَار، ومصايدَه بالمَيْر، ومنازِلَه بالخَيْر؛ وآماله بأمالِى الكَرَم لذى السرحات المنشرح بآية ﴿وعُلِّمْنا مَنْطِقَ الطَّيْرِ﴾ فقابله المملوك بتقبيله؛ وواصلَ فضْلَ الآيتاد بتفْضيله، وحصل من هَدَاياها وهُدَاها علىٰ جملة الإحسانِ وتفصِـيله؛ وآنتهىٰ إلىٰ الإشارات العاليـة التى زكَتْ علىٰ العِيَان وتأمُّله وأربتْ علىٰ الجَنَان وتأمُّيله .

Marfat.com

فأمَّا الإنعـام بالكُوهِيَّتين اللتين ماقَذَف البحرُ إلىٰ الساحِلِ أبهىٰ من دُرَرهما المكْنُونه ، وأزْهَرَ من وجُوهِهما المباركةِ الميمُونه، فقد وصل كلا الطائرَيْنِ بيُمْنه، والسابقين بمَنِّه؛ والغائبين فى جَوّ السماء الآتيَيْنِ من الصُّيُود بأوْفىٰ من قَطَرات مَوْنِه، وٱستقبل المملوكُ منهـما وُجوهَ المَساءِ ، وحملَتْ يمينُـه الثَّروةَ وحملَتْ علىٰ اليَسَار ؛ وتناولتْ يدُه يدَىْ إحسانٍ يَسُرُّ الناظرين والسامعين ؛ وٱستُخْدِمَا للشُّكْر خاناه ولحِفْظ مَطْبَخ يملأ عُيونَ المُشْبِعين والجائِعين ؛ وقال صنْعُ الله لِصناعتهما : ائْتِيَا بصُيُود السَّماء طَوْعا أو كَرْها ﴿قالَتَا أتَيْنا طائِعين﴾. قد كتبَتْ باليُمْن فى مَطَاوِى رِيشِها أشباهَ الحُروف ؛ وقضىٰ الجُودُ لِتلكَ الأحْرُف أن تَقْرِىَ ماتقتَرِى عَوَاصى الطـير له بطاقةِ تقَيِّد السانِحَ فى طَلَقه ، ويعودُ مُطْلِقُها وقد ألزَمَ نَجـاحَ الطير طائرَه فى عُنُقه ؛ فشكر الله إحسانَ مولانا الذى ألْحَفَ الأملَ جَنَاحه ، والقصـدَ نَجَاحه ؛ وبِرَّه الذى أحمدَ فى سوانح الطيرِ وبَوَارِحه مَسَاءه وصَبَاحه ؛ وعلمَ ما أشارَ مولانا إليـه فى أمر فلان وأمْرُهُ علم الله تعـالىٰ فى الخاطِرِ حاضِر ، وما يؤَخِّرُ شُـغْلَه عن إهمالٍ وعائِبُ الإمْهال غادِر ؛ وما أشار إليـه فى أمْر فلان أمير شكَاره وأمير شكر المملوك ، وتقدَّمَ بخَلَاص حقِّه ، وٱستنزل بهدِيَّته قضاءَ الشُّغُل من أُفُقه ؛ لاَبرِح مولانا ممتَثَلَ الأوامِر ، هامِىَ سُحُب البِرِّ الهَوَامر ، مجدِّدا فى كل وقْتٍ نُعْمىٰ ، مالئاً بهداياه قلُوبَ[1] محبِّيه وبيُوتَهم شَحْما ولَحْما ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وله جواب فى وُصُول طُيُور العَقْعَق :

لا زالتْ متَّصـلةً مِنَنُ إرفادِها وإرْفاقِهـا ، نازلةً علىٰ حُكْمها [الأشـياءُ] حتّى الطَّيْرُ العاقَّة من آفاقِها ؛ خافقةً أعلامُ نصرها بالأجنحة مؤمِّنةً لظُنُون القاصدين من

(١) لعل المناسب « بطون » .

Marfat.com

إخْفاقِها، تقبيلَ مُطْلِقٍ لسانَ الحمدِ علىٰ عوائِدِ إطْلاقِها ، مُجْتَنٍ لثمَرات الإحسان من غُصُون أقلامِها وغُضُون أوْراقِها .

ويُنْهِي وُرُودَ مشرَّف مولانا العالى علىٰ يَدِ الولد فلانٍ فوقَفَ المملوك عليــه، وعلم من جميل الآحتفالِ ماأشار إليه ، وأنه موقّع علىٰ المقْصود من طُيور العقْمق فأوقعها من مَطَارها ، وآستنزلهــا من أوكار أُفُقها وأُفُق أوْكارِها ، وأرسلَها قرِينَ مشرَّفه الكريم، وقلد عُنُقَ الأمل بعِقْدها النَّظِيم ؛ ووصلتْ سبعةً كعدَد أيام الجُمُعة الكامله ، والكواكِبِ المــاثله ؛ والسَّــمٰواتِ لاجرَم أن سُحُبَ يُمْنِها هامله ، حســنةَ الشَّكْل الموصوف والوَصْــف وإن كان مع عُقُوقه المألُوف، طائعةً لأوامر توقيعه فــاعَقَّ منها شيءٌ غير تضَعُّف آسمِها المَعْروف، لابرِحَ إحسانُ مولانا متنوّعا، وبِرُّه الجزيلُ متبَرِّعا، وغُصنُ قلمه بأنواع المكارمِ متفرِّعا .

وله جواب بوصول تِمْــاتٍ، وأوزٍّ صِينىٍّ، وطلبِ إمرةِ عشرة :

حمىٰ اللهُ تلك النِّعمةَ من الغِــيَر، وأطلَعها عليه بأَيْمن الغُرَر، ولا بَرِح طائرُ مَنِّــه كوصفه أبيضَ الخُبْر والخَبَر . هذه المفاوضةُ إلىٰ الجناب الكريم تُهْدِى إليه ســلامًا يَشُوق الصَّــبَاح، وثناءً خَفَّاق الجَنَاح، وتُوضِّح لعلمه الكريم ورُودَ مكاتبتــه الكريمة جميلةَ الفَوائد، جليلةَ المَصَايد، تِمِّيّةَ البُدُور المتناوَلةِ من مَنَال الفَراقِد، فوقفْنا بالآشواق عليها، وعطَفْنا علىٰ العادة بتأكيد الوَلَاءِ إليها ؛ ووصلتْ تلك التِّمّاتُ واضحةَ الأنوار، لائحةً كبياض النُّوّار، تامّة تمــامَ ميقاتِ مُوسىٰ عليه السلام إلا أنّها لبياضِها كأربعينَ نهارا، وكذلك البَطُّ الصِّينىّ كأيّام الحجّ عشرةٌ كامله، مفتَرَضا علىٰ عَشَرتها ولاءُ القلوب المتأمِّلة الآمِلَه ؛ صــينيَّةٌ مملوءةٌ بمَحَاسن الألوان التى هى بغير مَثَــل ماثله ؛ وحصل الآعتدادُ ببِرّه، والآزدياد لحمده وشُكْره، وفهِمْنا ماذكره من إمرة العَشَرة التى آنحلّت

Marfat.com

عن فلان، وقد طالَعْنا بأمرها، وعجّلنا بذِكرِها، ونرجُو أن يعَجّل بأمانيِّها المنتظَره، وأن يقابلَ بخَوافِق أعلامها خَوافِقُ بَطْـه فتقابلَ عشَرةٌ بعَشَره، والله تعـالىٰ يعجّل لمَعاليه الصُّعود، ويؤكّد لمَساعيه السُّعُود؛ إن شاء الله تعالىٰ .

الأجوبة عن وصول الصُّيود ولحومها

جوابٌ عن نائب الشام إلىٰ نائب حلَبَ بوصول [لحم] طير صـيد قَديد وصحبته بِطّيخ أخضَرُ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتةَ . وهو بعد الألقاب :

لا زالتْ تُقتَنَصُ المحامدُ بعَطَاياه المكرَّره، وأوابِدُ الصـيْد برَمايَاه المُقَرّرة، ورِقابُ الإنس والوَحش : إمّا بسهام نِعَمه المتواتِرة، وإمّا بسِهام قِسيِّه المُوتِّره؛ ولا بَرِحتْ نَفَحَات مكارمه، تشهَدُ أنّ المِسْكَ بعضُ دَمِ الغزال، وسَرَحات عزائِمه، تمتدّ فى صَيْد الوَحْش لقِرىٰ نَزِيل أو فى صيد الأعداء لتقرِير نِزَال؛ تقبيلًا تنعطِف أجيادُ الظِّباء لمحاولةِ عُقُوده، وتزدَحِمُ أفواهُ الأولياء علىٰ مشافهة وُرُوده .

ويُنْهِى بعد وَلَاءٍ تقومُ الخواطرُ الكريمةُ فى دَعْواه مَقامَ شُهوده، وشوقٍ لا تزال النَّسَماتُ الشَّماليَّة قاضـيةً باستمرارِ وُفُوده ـ أنّ مشَرَّف مولانا الكريمَ وردَ علىٰ المملوك علىٰ يد فلان وصُحبَتَه الإنعامُ المتجدّد، وإن كان قديمـا فى المعنىٰ، واللحم القـديد، وإن كان أطرىٰ من الروض النَّضير حُسْنا، والسَّمين المحبوب وإن كان كمال عِداه الذين تُقدَّد جسومهـم فى الحياة قبل الممـات حُزْنا، فقابل المملوكُ المشَرَّفَ الكريمَ، بتقبيل أعْرُفه، والإنعامَ العميم، بقَبُول مُسْعده ومُسْعِفه؛ وعانقَهما بجَوانح آماله، وأخذ الكتابَ والبِرَّ كما يقال بيمينِـه وشِمـاله، فيالهَـا من ظباءٍ تُعْشَـق وإن بانَتْ محاسنُها، وغِزْلانٍ تُغازَل وإن بادَتْ عيونُها إلا أنه ماباد حُبُّ من يعايِنُها، وصُيودٍ تُوصَف وإن قصدَتْها قِصَـدُ السِّهام بطَعْن، ويُتَّقى بقُرونها القتالُ والقسىُّ تاليـة :

Marfat.com

﴿كَمْ أهلَكْنَا من قَبْلِهِم مِنْ قَرْن﴾ . سلكَتْ خيولُ مولانا لقَنْصها المَصَـ[illegible]ـبَ وٱتَّخَـذها الآكِلُون سَهْلا ، وتَصَـيَّدها من الفَلاة وٱصطادَها القاعدُون من المِقْلىٰ ؛ ووصل معه البِطِّيخ الأخضرُ فشبهه بثِمار الجنة المشَبِّهُون ؛ وقيل : هكذا ترتيبُ مآكل الجنةِ لهم فيهـا فاكهةٌ ولحمُ طيْرٍ ممـا يَشْتَهُون ؛ لا زالتْ مِنَنُ مولانا مشرُوحةً مشْرُوعه ، وثمراتُ نِعَمِه من الدنيا كثَمَرات أهلِ الجنـة غيْرَ مقْطوعة ولا ممنُوعه ؛ بمنِّه وكَرَمه .

أجوبة هَدَايا الفَوَاكه وما فى معناها

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

جوابُ وُصُول مشْمِش لُؤْلؤىّ ودَغْمِيشىّ من حَمـاة .

بَسطَ الله ظِلَّها ونَدَاها ، وأطلع باليُمْن نُجومَ هديَّتها وهُـدَاها ؛ ولا زالتْ مواهِبُ بحرِها لُؤْلُؤِيَّه ، وشواهد يُمْنِها كَوْكبِيّه ، وثمراتُ جُودها فِضِّيةَ الأعيان ذَهبِيّه ، تقبيلًا حلَتْ مواقعه ، وجلَّت مَطالِعُه .

وينهى بعـد ولاءٍ وحمدٍ : هذا قد ثَبَتَتْ فى القلب شريعتُـه وهـذا قد عذُبَتْ فى السمع مشارعه ، أنَّ مشرِّفـة مولانا الكريمةَ وردَتْ علىٰ المملوك تتضمَّن الحُسن والإحْسان ، ويَمِينَ الْبِرِّ الشامِل لكلِّ إنسـان ؛ وعَهْدَ المحبَّةِ التى حكمتْ فيـه بعِلْمها القلوب فما تحتاج إلىٰ بَيِّنةِ لِسان ؛ فقابلها المملوكُ مقَبِّلا ، وٱستجْلىٰ وجهَ الوُدّ والإحسان مُقْبِلا ؛ ووصل المشْمِشُ الذى شفىٰ لُؤْلؤيُّه نظَرَ الناظرين ، ونوعُه الآخَرُ الدغميشى الذى هو الشهد بحسنه ولا يُدَغْمَش باسمه علىٰ الحـاضِرين ، فتناوَلَ المملوك عوارِفَ بِرِّه المعروفِ والمبتَكَر ، وٱستضاء نُجومَه المتردِّدةَ مُنْشِدا قولَ المَعَرّىّ : (كَمْ دُرْنْ ، وكَمْ يُدْرَنَ هٰذه الأُكَر) ، وقال : شكَرَ اللهُ هـذه المِنَنَ الحُلْوةَ الثمرات ، المتّصـلةَ

Marfat.com

الخضرات ؛ وهذه المجانى التى طابت أصولها وفروعها فلا أبعدهن الله من شجرات ، وحيا حماة وما جلبت ، وجنبات ذلك الوادى وما أنجبت ؛ وحدائق ذلك العاصى لذى أطاع ببركة مولانا فأنبت أحلى وأحل ما نبت ؛ وقد جهز المملوك هذه الخدمة منطوية على وظائف الحمد المستجاد ، ولطائف الحب المستفاده ؛ وحمد المنن التى لا تزال من مولانا عادة ومن المحبين شهاده . لا برحت يد مولانا الكريمة إن بسطت فبعوائد إنعامها ، وإن قبضت فعلى سيوفها لصالح الدول وأقلامها ، وإن زهت فروع المكارم ، تساقطت ثمرات برها من زهرات أكمامها .

جواب بوصول مشمش وبطيخ حلبى ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة .

ويهنى بعد ولاء وثناء : لهذا فى الأسماع أزهى وأزهر ثمره ، ولهذا فى القلوب أرسى وأرسخ شجره ـ ورود المشرف الكريم على يد فلان بما ملأ السمع من أخبار مولانا المرتقبه سرورا ، والعين من آثار يده الكريمة نورا ، والفم من هدايا المشمش لحموى كئوس لذة كان مزاجها كافورا . فقبل المملوك أسطره مستحليا مواقع رشفاته ، وقابله بعوائد المحامد مستجليا عوائد انتقاداته وصلاته ، ومد يده وفكره فالتقط النجوم المشرقة من هداياه وكلماته ، وتقلد جواهر المبرات الحسنة المحسنه ، والثمرات التى جاءت بدرية القدوم وإن كانت نجومية الهيئات المكونه ، واستصوب نتائج الغيث فقال : لعل هذه بنادق قوس السماء الملونة . وصفا وطاب ظاهرها وقلبها وكذا تكون صفات ذوى القلوب المؤمنه ، والمؤمن حلوى لا جرم ، والحموى على عجمه الخراسانى أولى بفصاحة الفخار والكرم ، لا زالت فعلات منن مولانا مستجاده ، ونعمه لاسيما المشمشية مستزاده ، وافتقاداته المشهورة لدى مماليكه

(١) لعل الصواب وان هزت ، كما لا يخفى .

Marfat.com

ومحبِّيه منه عادةً ومنهم شَهاده، وجاءتْ فاكهةُ البِطِّيخ الحلبيِّ وقد رَضَع حَلَب الغَمام فأنْجَب، وٱستوى باطنُه وظاهرُه فى الحُسْن فأَعْجَبَ من حينَ أعْشَب، وٱستطابَ الذوقُ والشمُّ مَطْعَمه وأنْفاسه، ووُصِف بالرُّءوس فضَمَّه كلُّ مَلِقٍّ وقَبَّل رأسَه، ويقال: نِعْمَ الهديَّة السريَّة، والفاكهةُ التى طَلَعَتْ مُزَرْ[ها] هلاليَّة وثَمَرتها بدريَّة،

جوابٌ عن وصول بِطِّيخ حلبيٍّ، من إنشائه أيضا، [وهو] بعد الألقاب:

وشكرَ تَجَارِبَ التى بَلَتْ، وعهودَه التى تكرَّرتْ ذَلَتْ، وآفضالَه التى طابَ ظاهرُها وباطنُها فكانتْ من أخلاقه الجميلة نَقَلَتْ، أصدرناها يُهدى اليه سلامًا يَضَعُه كهديته نَسِيمُ الدَّطر، ويقال يُنتج أطايبَ الثمر مستهلَّاتٌ غيثه الماطر، وتَوَضَّح لعلمه الكريم أنَّ محبَّته الكريمة وردتْ فحَسُنَتْ بالوُدِّ مشاربُها، وأثمرتْ فى الإخلاص فاكهتُها، وشَكَرَتْ إحسانَه الجزيل البطيخ فلله دَرُّ حَلَبِه ودَرُّ جَلَبِه، لقد حَسُنَتْ فى مَلَاذِّ المَطْعَم طريقتُه المرضيَّه، ولقد أشبه القناديلَ بتكوينه وفَسَلَة عِرْقِه فلا جرمَ أنَّ قناديلَه [ب]ه النُّكْرُ مُشَبَّهَا [ب]ه [ف]ـاقَ خَبَرُه وخُبْرُه عينَ البصر وأُذُنَ المُصيخ، ولقد خُلِقَ دواءً لرُمْدِ جسام مَنْ جَرَّ قِبَالَ الحاجبين للأرمَد: دَواؤُك البِطِّيخ، فشكرَ اللهُ إحسانَ الجناب العالى، ويَرُدُّ المتوالى [ب]ـالزلال والولد ومن عِنْدِهما سلامُ المحبِّ المتفانى، والله تعالى يحفظ عليهم من الفضل ما وَهَب، ويرزُقُهم بغير حساب ويُرْزُقُ الظنَّ فيهم ما حَسَب، إن شاء الله تعالى.

وله أيضا جوابٌ بوصول بِطِّيخ حلبيٍّ، وهو بعد الألقاب:

وشكرَ إحسانه الذى حلا مَذَاقُه، وزكتْ أعراقُه، وحيَّا على البُعْد تحيَّةً طيِّبةً نَضَتْ بها أزهارُ الكِتاب وأثمرتْ أوراقُه، هذه المفاوضة تُهدى إليه سلامًا طيِّبا كهديَّته، وثناءً زاكيًا كطَوِيَّته، وتوضِّح لعلمه الكريم ورُودَ مكاتبته الجامعة حَسَن

الأقوال والأفعال، المطلِعة بوارِدِ غَمَامها أطيبَ الثمر فى الحال؛ فأحيَتْ وَلاءً حاشىٰ لوجوده من العَدَم، وجدَّدت عهد البِشْر ـ وما بالعَهْد من قِدَم ـ ووصل البِطِّيخ الحَلَبىُّ أصلُه، الحموىّ فصْلُه، الدِّمَشْقىُّ ضُمُّه وشُمُّه وأكلُه، الفلَكىُّ ولا سِيَّما من الأهلَّة المجتمعة شَكْلُه؛ فكَرُم مَطْلَعا، وحَسُنَ من الأفواهِ مَوْقِعا؛ وعَمَّ الحاضرين نَوَالا، واشتملهم بعَطْف الإحسان اشْتِمالا، وأخذ الغلامُ السِّكِّين:

فقطَّع بالبَرْق شَمْسَ الضُّحىٰ ✽ وناول كُلَّ هلالٍ هلالا

لا بَلْ أهلَّة كثَّر تَعْدادَها، وكَرَّر تَرْدادَها، ورَصَد قُرْبَها ولا نقول كما يقول أصحابُ الهيئة أبْعادَها؛ فشكَر اللهُ إحسانَ الجناب العالى حاضرًا وغائبًا، وبِرَّه الذى يُطْلِع كلَّ وقت من هَدَاياه وكُتُبه أهِلَّةً وكَواكِبا، ومَرْباه الذى نقل عن ملوكٍ كانت منازلُهم للمحامد رَوْضا وكانت أيديهم للكَرَم سَحائبا؛ إن شاء الله تعالىٰ.

وله جوابٌ بوصول قَصَب سُكَّر وأُتْرُجٍّ وقُلْقاس:

لازالَتْ أوصافُ شِيَمِها تُطْرِب كما يطرب القَصَب، وألطافُ كَرَمِها مما يغذّى الجسدَ ويُنْعِش الرُّوحَ ويَشْفِى الوَصَب، وأصنافُ نِعَمِها من الحُلْو إلى الحامض مما يُعْدِى الأيدىَ المتناولة فهى على الأعداء تَنْتَصِب؛ تقبيلَ مُحِبٍّ حلَّتْ له المِنَنُ فتناوَلَها، ومواقِعُ اللَّثْم فعاجَ إليها وعاجَلَها.

ويُنْهِى ورُودَ مشرِّف مولانا الكريم، على يَدِ فلانٍ يتضمَّن الحُسْن والإحسان، والبِرَّ المأثُورَ بكلِّ فَمٍ المشكُورَ بكلِّ لسان، فقابله المملوكُ بما يجب من الحمد لله، ولاقاه بعوائدَ تحمَدُ عوائدَ فضْلِه، ووصل قرينَه الإنعامُ الذى سرَّ عيونا وأفنانا، وملأ فَمَ الشراب خاناه سُكَّرا ويدَ المَطْبَخ إحسانا؛ وذكَّر بأنه طرابُلُسىُّ عُهُودَ الديار المصْريه، وأوقاتَ الأُنس بخِدْمة مولانا السنيّه؛ سَقْيًا لها من أوقاتٍ وعُهُود، وشُكْرا

لُجود مولانا الذى هو فى كلِّ وادٍ موجُود ؛ ولتدبيره الشمسىِّ الذى احْيا اللهُ به علىٰ عباده عناصرَ هذا الوُجُود، ولا برِحتْ مكارِمُه متنوِّعه، ونِعَم أياديه متفرِّعه : فمنها ماحَلَا فرعُه فأصبح لكلِّ حُلْو أصلا ؛ ومنها ماطاب رِيحه وطَعْمُه فكان للمؤمن مِثْلا ؛ ومنها مالَذَّ طعامُه الشهىُّ فما هو مما يُهْجَر وإن كان مما يُقْلىٰ .

وله جواب بوصول باكُورة خِيَار ومُلُوخِيَّة :

لازالتْ تشْرَح بمكارمها الصُّدور، وتفْتَح بركاتِ الأعوامِ والشُّهور، وتمنَحُ من لَطائِف مِنَنِها كلَّ جماعةٍ السُّرور، وتلْمَح فى هَدَاياها المستبقةِ إلىٰ الأولياء خيارَ الأمور ؛ تقبيلَ مُحِبٍّ لاتُغيِّر ولاءَه الدُّهور، ماشٍ من طريقِ المُصافاة والمُوافاة فى نُورٍ علىٰ نُور .

ويُنْهِي وُرودَ مشرِّفةِ مولانا علىٰ يدِ فلانٍ تتضمَّن المَعْهُودَ من وَلَائِه وآلائِه والمشهودَ المشهورَ من إحسانِ نَدَاه قبْلَ نِدَائه ؛ فقابلها المملوكُ مقابَلةَ الشَّيِّق إلىٰ قُرْب الديار، المُمْضِى فى المحبَّة قَلْبَه لمولاه قَبْل شَرْط الخيار، ووصلَتْ لطائفُ هديَّته الخَضِرة النَّضِره، وطَوائفُ الفضل الباكرةُ كمَعَانِى اللفظ المبتَكَره ؛ فتنجَّز المملوكُ الفاكهةَ قبلَ أوانِها البَديع، ورصَدَ من أفلاك العُلَب فى ذى الحِجَّة غُرَّةَ رَبِيع، وتفاءَلَ بالهديَّة المجمِّعة الأحباب فى أن يَعُودَ الشَّمْلُ وهو جَمِيع ؛ وقد عاد فلانٌ حاملًا من رسائِل الشوق والشُّكر مايُؤدِّيه بينْ أيْدِى مولانا الكريمه، ويجدِّدُ بذِكْراه عُهودَ الأُنْس القديمه ؛ لابَرِحَ مولانا سابقَ الكَرَم، مُخْضَرَّ المَرَابع بِبِيض النِّعم .

قلت : وكتبت جواباً لبعض الأصحاب وقد أهْدىٰ لِى سَمَكا :

أهْدىٰ لَنَا سَمَكًا قَدْ طابَ مَطْعَمُه * أكْرِمْ به سَمَكًا لم يَسْكُنِ البِرَكا !
لا شَكَّ أنَّ له بالبَحْر شاكلةً * والبَحْرُ عادتُه أنْ يُهْدِىَ السَّمَكا !

الضرب الثانى

(من كُتُب التهادى الاستهداء)

واعلم أنَّ كلَّ ما يُكْتَب مع إهدائه قد يُكْتَب مع استهدائه، إلا أنَّ الغالب مما جَرَتْ به عادةُ الكُتَّاب فى الاستهداء طلبُ الأشياء المستظرفة الخفيفة المِنَّة دُونَ ما يعظُمُ خَطَرُه، اللهم إلا أنْ يكونَ الاستهداءُ من الملوك ونحوهم فيُطْلَب فيه ما جلَّ وعظُم.

والذى جرت عادة الكُتَّاب بالكتابة فى استهدائه على أصناف:

الصنف الأوّل — آلاتُ الكتابة: من الأدوية[1] والمِدَاد والأقلام:

مما تقدّم ذكره فى الإهداء.

أبو الفرج الببغاء فى استهداء دواة:

أنفسُ الذخائر وأشرفُ الآمال ما كان للفضل نَسَبًا، وللصناعة والحُظْوة سببًا، وبالدُّوِىِّ تجتنى ثمرةُ الصناعة، ويحتلبُ دَرُّ الكتابة، وقد وحَشَ الملوكَ الدهرُ مما كنتُ أقتنيه من نفائسها، وضايقه فى وجود الرضىّ على الحقيقة منها، فإنْ رأى مولاى أن يُميطَ ببعض ما يستخدمه من حاليها أو عاطلها سِنَةَ عُطْلة المملوك، ويَسْمَعَ بإهدائه إلى أهل تصريفه ويقابلَ بالنُّجح والتقبُّل رغبتَه، فعل، إن شاء الله تعالى.

وله فى استهداء مِدَاد:

التنافُسُ — أيدك الله — فى أدوات الكتابة وآلات الصناعة بحسب التفاخر فى ظهور النعمة، والتخيُّر لبيان الإمكان والقُدْرة، وإلا فسائر الدُّوِىّ سواءٌ فيما تُصْدِره

(١) من الصواب من الدوىّ انظر القاموس.

Marfat.com

وله فى مثـــله :

ألطَف المَن موضعا، وأجلُّها من الأنفس مَوْقعا، ماعَمر أوطان المَسرَّه، وطَرد عوارضَ الهمِّ والفِكْره، وجمع شَمْل المَودَّة والأُلْفــة، وأدَّى إلى آجتناء ثمرة اللَّذة، وبذخائره من المشروب مع تعدد الأوصاف [ما] يسترق حر الشكر، ويحرز قصب السبق إلى الثناء وجميل الذكر، فإن رأيت أن تجود بما يمكن منه مرتقيا على قضاء حقّ من أوجب المنّة عليّ بزيارته، فعلت.

وله فى مثـــله :

من كان المتفضل [illegible] الغيث المنوه فقد [illegible] التقريب من [illegible] وتحويل [illegible] فى [illegible] [illegible] وقد طرقنى من إخوانى من [illegible] [illegible] ومصادفتى من المشروب [illegible] الا [illegible] فى [illegible] من [illegible] متعذرا [illegible] مروءتك فى الإسعاف [illegible] الأنفس [illegible] شملى [illegible] ويجعلها لك فى رق الاعتداد بالمنة، ويقضى على بتشكك [illegible] الوفاء.

علىّ بن خلف :

قد آنتظم لنا ـ أطال الله بقاء سيدى ـ مجلس واقف بين النشاط والأنس [illegible] والسرور : لغُروب نُجوم الخمر عن سَمائه، وتعطله من حلي نوره [illegible] عولنا فى إطلاقه إلى إحدى الجهتين عليه، وجعلنا زمامه بيديه، فإن رأى أن [illegible] أفكارنا بشيء من راحه المُشابهة عَبقا وعِتقا لأخلاقه وأعراقه، فعل، إن شاء الله تعالى.

(١) فى "القاموس" مادة ن ف س « ونفس به كفرح ضن وعليه بخير حسد ».

Marfat.com

وله فى مثـــله :

أفضلُ ما أهْدى سيدى ما أهدى السرورَ إلى أحِبَّته ، ونظَمَ شَمْلَ المتحقِّقين بخدمته ؛ وحَسَمَ عنهم هواجسَ الفِكْر ، وأعْداهم على الدَّهْر ، وقد جمَعَنا مجلسٌ وهَبْناه للثناء عليه ، وزُفَّتْ عرائسُ الخمر إليه ، فإنْ رأى إيثارَنا بما يُكَمِّل نَشاطَنا ، ويَتِمُّ انْبساطَنا ، فليُعْقِرْ هُمومَنا بشىءٍ من عُقَاره ، ويَنْظِمْ [جمعنا] فى سِلْك أياديه ومَبَاره ، إن شاء الله تعالى .

النـــوع الرابع

(الشَّـــفاعات والعِنَـــايات)

قال فى "مواد البيان" : وهذه الكتُب إنما تَصْدُر عن ذَوِى الرُّتَب والأخْطار ، والمنازل والأقْدار ، الذين يتوسَّل بجاههم إلى نَيْل المطْلُوب ودَرْك الرغائب .

قال : والملتمَس فيها ممن تُنَفَّذُ إليه أحدُ ثلاثة أنواع : إمَّا بَذْل ماله ولا يَبْذُل مالَه إلا ذو مُروءة يَفْرِض على نَفْسه حقًّا فيه لقاصديه ، وإما بذْل جاهه وفى بذْل الجاه إراقةُ ماء الوجه والتعرُّض لموقف الرَّدّ ، وإمَّا الاستنزالُ عن سَخيمةٍ وموجدة فى النزول منهما كانت حدَّ الغضب وغَضَّ طَرْف الحَنَق ، وهما صَعْبان إلا على من تطاول حِلْمُه ولطُف فهمُه .

ثم قال : والكاتبُ يَحتاج إلى التلطُّف فيهما وإيداعِهما من الخطاب ما يَخْرُج به النافعُ عن صورة المثقَّل على المشفوع إليه بما كلَّفه إيَّاه ، ويؤدِّى إلى بلوغ غَرَض المشفوع له ونجاح مطلَبه ، ثم أتبع ذلك أن قال : وسبيلُ ما كان فى استماحة المال أن يُلْقى على الإبانة عن موقع الإفضال ، وفضيلة النَّوال ، واغتنام فُرَص الإقدار ،

فى مَعُونة الأحْرار ، وما يجارىٰ هذا ـ وسبيلُ ما كان منهما فى طلبِ الأنتفاعِ بالجاه أن يُبْنىٰ علىٰ هَزِّ الأرْيحيَّة لاصطِناع الصَّنائع ، وتحمُّل المَشاقِّ فى تقليدِ المِنَن ، وادّخارِ الفعل الحَسَن ، واغتنامِ الأجر والشُّكْر ـ وسبيل ما كان منهما فى الاستِنْزال عن السَّخائِم أن يُبْنىٰ علىٰ الملاطَفَة ، والإشارةِ إلىٰ فضيلة الحِلْم والصَّفْح عن الخاطِئ ، وما فى ذٰلك من حُسْن السُّمْعة فى العاجله ، ومتوفّر المَثُوبة فى الآجله ، ونحو ذٰلك .

وذكر أنَّ أحسن ماقُصِد فى هذا الفَنِّ مَسْلَك الإيجاز والاختصار ، وأن يُسْلَك به مَسلَكَ الرِّقاع القِصَار المجمَله ، لاالكُتبِ الطِّوال المفَصَّله ؛ وأنْ يُرْجَعَ فيما يُودَعه إلىٰ قَدر الشافع والمشفُوع فيه ، والكاتبُ إذا كان مُرتاضا ماهِرا لم يضِلَّ عن تَنْزيلِ كلِّ شىء [فى] منزلته ، وترتيبه فى مرتبته .

قلتُ : ومن أحسن مايطابِقُ هذا النوعَ مارأيتُه فى بعض المصنَّفات : أنَّ عمرو ابنَ مَسْعدةَ وزيرَ المأمون كتب إلىٰ المأمُون فى رُقْعة :

أما بعدُ ، فإنَّ فلانا سألَنِى أنْ أشَفَع له إلىٰ أميرِ المؤمنين ، فأخبَرْته أنِّى لم أبْلُغ عند أمير المؤمنين مَبْلَغَ الشَّفاعة ـ فلمَّا وصلَتِ الرُّقعة إلىٰ المأمونِ وَقَّع عليها بخطِّه : قد فَهِمْنا تصريحَك به وتعْريضَك بنَفْسِك ، وأجَبْناك إليهما وأتحَفْناك بهما .

من كلام المتقدّمين :

الحسن بن سهل :

كتابى إليْكَ كتابُ معتَنٍ بمن كَتَب له واثقٍ بمَنْ كتَبَ إليه ، ولن يَضيعَ حامله بين عنَاية وثِقَة ، والسلام .

Marfat.com

أبو الحَسَين بن سَعْد :

وقد توجَّه إليك فلانٌ بقَصْدٍ فيهِ مستَجْمع ، وأملٍ فيما قِبَلَك مُنْبَسِط ، وليس بعدَ إصابتك عنده مَوْضِعا وعندَنا متحمَّلا لليَدِ الحسَنَة إلا آفتراضُ ذلك مِنه ومِنَّا فى أمره علىٰ يُسْر فى حاجتِه ، وتخفيف من مَئُونتِه ؛ فإنْ رأيتَ أنْ تأتِيَ فى ذلك بما يشبه أملَه وظَنَّه ، وتُوجِب عليه الحقَّ به ، ونشكرلك منه مايبقىٰ عندنا ، بأنك بحيثُ تأتى الفضل ونتوخّى الصِّلَة ؛ [فعلت] إن شاء الله تعالىٰ .

آخـــر : معْرفتى بأنك لا تتجاوَزُ فى العُقُوبة سبيلَها من مَواقع الأدب ، تَحْمِلنى علىٰ مُساءَلتِك ماأنت مُوجِبٌ له والذِّكْرىٰ تنفَعُ المؤمنين ، ولولا ذٰلك لأستغنىٰ صاحبُ كتابى عنه ؛ فإن كان ذَنْبُه صغيرا فالصغيرُ يُخْرِجه من حَبْسه ، وإنْ كان كبيرا فالعفو يسَعُه . وكتابى متقاضٍ لك تقديمَ العَفْو علىٰ العُقُوبة ، والحسنةِ علىٰ السيِّئة ، والاِستصلاح علىٰ القُوّة فى التأديب .

طِفَال بن شَـــبَّة :

وأحقُّ من يَعْطِف علىٰ أهلِ البُيوتات ، ويجُودُ لهم بما يَبْقىٰ ذكْره ، ويَحْسُن به ذُخْره ، مثلُك ؛ وقد وجَّهت إليكَ فلانا ، وهو من ذَوِى ، قَراباتى ، وذَوِى الهيئة من أُسْرتى ، وعَرَّضْته لمعْروفك ، وأحببْتُ أن تُلْبِسه نعمتَك وتَصْرِفَه إلىّ وقد أودعْتَنى وإيّاه ماتجدُه باقيًا علىٰ البشر الجميل (١) فى الغَيْب والحَضَر .

ولغـــيره :

وقدجعلكَ اللهُ غِياثًا ، وجعل عِنْدكَ لمؤمِّليك ورَاجى رِفْدِك ، أبلغَ ذَرِيعةٍ من كرمك وفَضْلك ، وقد أصبحْتَ مَفْزَع كلِّ ذى هَمٍّ ، ومَلْجأَ كلِّ ذِى أرَبٍ ، وموضِعَ كلِّ أمل ، وأصبحتَ ملتقىٰ السُّبُل ، ومجمعَ الأصناف المختلِفة ، والطوائف المتصرِّفة .

(١) لعله على نشر الجميل الخ .

Marfat.com

أبو مسلم محمد بن بحر :

قد شَهَّرتَنِي باصطناعك [حتّى] تكافَأَ فى معرفة خبرها أهلُ بُلْدان المَشْرِق والمَغْرِب . والذين عرفُونى فصديق منهم مُغتبِط بذٰلك لِى ، وشرِيكٌ فى النعمةِ به عَلَىّ ، وقوىُّ الظهر بما مَنَحَنِيه اللهُ من رَأْيك ؛ وإذا نابتْ بعضَهم نائبةٌ يرجُوك لكَشْفها ولم يَكُنْ له إليك طريقٌ يُدْنِيه ولا حرمةٌ تقربه وتَعْطِفك عليه ، سألنى الشفاعَةَ له إليك ؛ ففعلْتُ ذٰلك مُدِلًّا بما أعتقده من الشُّكْر علىٰ نعمتك عِنْدى ، والإخلاص فى طاعتِك المفروضةِ علىّ ؛ واثقًا بتَسْويغك إياىَّ مارُقِّيتُ إليه من درجة الشافع لغيره ، والسائل (؟) فى طريقه وذَوِى الحقِّ عليه : لتكونَ قد أكملْتَ على النِّعمةَ ، ووكَّدت لدَىّ العارِفة ، وآستمَمْت عندى الصَّنِيعة .

أبو الخَطَّاب بن الصابى :

أبْسطُ الشفاعة وَجْها ، وأقربُها نُجْحا ، وأوْقعُها فى القلوب ، وأسرَعُها إلىٰ القَبُول ، ماوقَعَ من أقسام ثلاثة : من إدلال السائِل بحُسْن الظنّ ، وآرتياح المسئول إلىٰ فعل الخَيْر ، وآستحقاقِ المسئول فيه لقَضاء الحقّ ؛ فإذا آجتمع لها ذٰلك كانت الثِّقةُ بها زائده ، والفُتُوّة لها رائده ، والفضلُ عليها قائما ، والنُّجْح بها فادِما ؛ وكان الشُّكْر من أقلّ موجُوداتها ، والمِنَّةُ من أجَلّ مَذْخُوراتها .

وله : إنْ دَلَّ المملوك فبِصِدْق المودّة ، أو عَوَّل فعلى حُسْن النيَّة ، أو آستظهر فبقديم الحُرْمة ، أو آستنصَر فبكريم الرِّعاية ، ووراءَ ذٰلك همَّةٌ من مولانا بعيدةُ [illegible] طويلةُ المساعى ، شامخةُ الأَنْف ، سابقةُ الطَّرْف ، تُوجد الآمال سِراعا ، وتُوسِعُها نَجاحا ، وتأخُذُها خِماصا ، وتَرُدُّها بِطانا ، وتُورِدُها هِزالا (١) وتُصْدِرها سِمانا ؛ وثِقَةٌ منّى

(١) لم يرد هذا الجمع فى كتب اللغة التى بأيدينا والقياس على بطان وسمان لا بأباه .

قد أحكم عَقْدَها الزَّمان، وأوثقَ شَدَّها الإمتحان، فصارتْ لأعراض المملوك رائده، وفى قُوَّة نَفْســه زائده؛ فالمملوكُ من آجتماع هذه الأقْسام، ووُجُوب ماتقتضيه من الأحكام، بين ظَنٍّ جميلٍ لامجالَ الشكِّ عليه، ويقينٍ صحيح لاوُصولَ للآرتياب إليه .

آخـــر : ولئن كانَ المملوكُ أسْرف فى مَجارى التثقيل علىٰ مولانا ، فإنَّ المملوك لم يرِدْ بعضا من دواعى الأمل فيه، فإنَّ المظنونَ من فُتُوَّة مولانا رائدُ الثِّقة بجميلِ نيَّته، ولن يعدَمَ النجاحَ من آعتمدَ علىٰ الفُتوّة والثِّقة .

آخـــر : ويُنْهِى أنَّ المملوكَ إن أدَلَّ، فبحقٍّ لدىٰ مولانا أكَّده، أو آسترْسَل، فبفضْلٍ منه عَوَّده،وبين الدالَّة من المملوك والعادة من مولانا موضعٌ لنَجَاح الحاجة، وبلوغ الإفادة، وقد فعــل المملوكُ ما تعلَّق به واثقًا بالكرم من مولانا؛ فليَفْعَل مولانا مايتعلَّق به محقِّقا للأمَل فيه .

اخـــر : وينهِى أنَّ المملوكَ إن آنبَســط، فُ الحرمة الوكيدة ، ومعوَّل علىٰ النية الكريمة، أو آنقبض، فلهيبة الإقدام علىٰ مولانا ومُراعاة التخفيف عنه، ولفضله فيما بين ذلك مَسْلَك وغلبة تسلُّط يَدْعُوان إلىٰ حُسْن الظن بمولانا، ويُوثِّقان من وُجُود النجاح لدَيْه .

آخـــر : بذْلُ الجـاه فى إعانةِ الضـعيف ، وإغاثة الملْهُوف ، والترويح عن المضْغُوط، والتفريج عن المكْروب المكْدود؛ كبَذْل المـال فى إسعاف المُعْسِر. وإسعاد المُقْتر، ومُواساة المحروم، والتعطُّف علىٰ المَزْحوم،وما فى الحالتين إلَّا ماالدِّيانةُ له ضامِنه، والمُروءة له قائمة؛ والحقُّ به مستَوْجَب، والأجرُ به مكتَسَب، والصنيعةُ به معتَقَده، والمَثُوبة به مُدَّخَره .

Marfat.com

آخـــر : وينهى أنَّ حُرْمة الجِوار مِن أوْجب الحُرُمات حقّا، وأحكمِها عَقْدا، وأخَصِّها بالعِنايه ، وأحَقِّها بالرِّعايه ، وما رَعَاها إلا ذُو قَـدْرٍ عظيم ، وخُلُقٍ كريم ، وأصلٍ عِريق ، وعَهْدٍ وَثِيق . وفلان ممن يَضْرِب بدَالَّتها، ويَمُتُّ بوسِيلتِها، ويَتَخَفَّر بذمّتها، ويتعلَّق بعِصْمتِها، ويعتدّها وَزَرا مانعا، وذُخْرا نافِعا ، وعُدّةً موجودةً عند الحاجة؛ وله أمْرٌ يذكره مشافَهَة، فإن رأىٰ مولانا أن يحقِّق من ظَنِّه ما كان جميلا ، ويصـدّقَ من أمله ما كان فَضْلُ مولانا إليـه سَبِيلا ، فهو المعهُود من إحسانه ، والمؤمَّل من فَضْله .

آخـــر : مَنْ سافَر إلىٰ سـيِّدى بأمله ورَغْبتـه ، ومَتَّ إلىٰ حضرته بوِفَادتِه وهِجْرته ، فقد ٱستغنىٰ عن الشافع ، وكُفِيَ أمْرَ الوسائِل والذَّرائع؛ وحامِلُ كتابِي هذا قد تجشَّم القُدُومَ إليه، وتمسَّك بذِمام[1] الوِفَادةِ عليه؛ مع ما يتَحَقَّقُ به من حَقِّ المشاركة فى الصِّناعة، ويستوجبُه بفضيلة الكِفَاية والأمانة؛ وإنَّما أصدر المملوكُ هذه الخدمة عن يده ممهِّدة لأنْسه ، ومقوِّيةً لنفسـه ؛ وإذا مَثَل بحضرته ، ونظَره بعين نباهته؛ فقد غَنِيَ عن الشفاعة وبَلَغ الإرادة .

آخـــر : ويُنْهِى أنَّ مايَفْرِضه مولانا لمن أمَّه بالرجاء، ومَتَّ له بإخلاص الحمد والثناء : من إدْرار أَخْلاف الإفضال ، وتحقيق الرَّغَبات والآمال ، يُغْنِي قاصـديه عن الشَّفاعات والوسائل، ويكفى آمليه تحمُّلَ الذَّرائع والمَسائِل؛ والواصلُ إليه بهذه الرقْعـة فلان ؛ ومولانا يَعْرِف حقَّه علىٰ المملوك وماله من المَواتِّ لديه ؛ وقد توجَّه إلىٰ حضرته، راجيًا أن يُلْحِفه من ظلِّ سـعادتِه مايتكفَّل بمصلحته، ويقضى [illegible] الزمن بإعْدائه ومَعُونته ؛ ومولانا أحقُّ من تولَّاه بحسن خلافته فيه ، والتفضُّل علىٰ المملوك بتحقيق ما يُرجِّيه .

---

(١) الذمام بالذال المعجمة الحق والحرمة .

Marfat.com

آخر فى معتقل : علْمُ المماوكِ بأنَّ مولانا لا يتعدّى فى العِقاب موضعَ الإصلاح والتأديب ، ولا يتجاوَزُ فى الغَضَب موقعَ التقْويم والتهذيب ؛ عملًا بالعَدْل ، وتمسُّكا بالفضـل ؛ يبعَثُـه علىٰ تنبيهِه لمـا أغْفَله ، وآنقيادِه لمـا أَمَّـاه ؛ وفلانٌ قد تطاوَلَ آعتقالُه : فإن كان جُرْمه صغيرًا فقد ظُلِم فى القِصاص ، وإن كان كبيرًا فقد آستحقَّ الخَلَاص ؛ والمسئُول من إحسانه أنْ يُعاوِدَ جميـل عادتِه ، ويُراجِعَ كريمَ شيمتِـه ؛ فيَعْمَلَ فى أمره بالعَدْل ، إذا لم يَرَه أهْلا للفضْـل ؛ وإنْ كانت حقوقُه متأكِّده ، وحرمته مؤكده ؛ فلا يحسن أن يُضاعَ ويُخْفَر ، ولا ينبغى أن يُجْحَد ويُنْكَر ؛ وهو حَرِيٌّ أن يحقِّق الظنَّ فيه ، ويقابل هذا السُّؤال بمـا يقْتضيه .

آخـــر : علىٰ حَسَب أخطار الودائع يكونُ الإشفاقُ عليها ، والشكر ممن صرف رعايتَـه إليها ؛ وقد كان المملوكُ أودَعَ كَنَفَ حُرْمَتِه ، وفِناءَ همَّته ، فلان ؛ وهو دُرَّة المَحَاسن الفريده ، ونادِرةُ الدَّهْر الشريده ؛ والجامعُ لأسبابِ المَحامِد بفضائله ومَناقِبه ، والناظمُ لِنثَار المآثر بخُلُقه وأَدَبه ؛ مع ماخُصَّ به من المعرفة بقَدْر الصنيعة ، والتعويض بالشُّكرِ عن قليـل العارفة ؛ والمملوك يرجُو أن يكونَ مولانا قد أحسَن خِلافَتَه فيه ، ونَزَّله من حياطتِه وتولِّيه ، بما يُوجبه مكانُه من المملوك ويقتضيه ؛ متعوّضا من شكر المملوك وشُكْرِه بمـا هو خليقٌ أن يَطوَقَ أجيادَ مَعاليه ، وينتظِمَ فى سِلْك مَساعيه .

رقعـــة — وينْهِى أن الأيَّام ، إذا قعدَتْ بالكِرام ، فأنزلتْهم بعد السَّعة ضيقا ، أوجَدَتْهم إلىٰ التثقيل علىٰ من يُمتُّون إليه بسالف الخِدْمة طَرِيقا ؛ وممن تحدَّاه الزمن بنَكَده ، وعوَّضه ببُؤسـه من رَغَده ، فلان ؛ وكان قد فَزِع إلىٰ جماعة من الخُلَّان ، واثقًا منهم بالآمتنان والإحسان ، فألفىٰ وَعْدا جميـلا ، ومَطْلا طويلا ؛ فعدَلَ عنهم

Marfat.com

إلىٰ سيدى وعزل عَنْهم إليـه، وتوجه إليه معتمدًا بعـد الله فى مَقْصده عليه، ثقةً بفَضْـل غَيْره[1]، وحُسْن أثَرِه، وتحمَّلَ عبودِيَّةَ المملوك هذه ذريعةً تبْسُط له من مولانا مُحَيَّاه، وتوَصِّـله إلىٰ مايرجُوه من معروفِـه ونَدَاه. وما أوْلىٰ مولانا بأن يحقِّق ظنَّ المملوك وظَنَّه، ويحوز شُكْره وشُكْره، إن شاء الله تعالىٰ.

رقعـــة — وينْهِى أنَّ رَغْبة سـيدى فى إسْداء المعروف، وغَرْت المَلْهوف، تبعَثُ علىٰ السَّـفَر إليه، والتقدُّمِ بالرَّغَبَات عليـه، والله تعالىٰ يواصل [illegible] كما وصَـلَها من يدَيْه، وقد سـبقتْ له عَوَارِفُ لاينْساها المملوك، ولا يزمل [illegible] إلا بمرفُوع الدعاء، وكريم الثَّناء، حتَّى تقتضى ضَرائِرَها، وتستدْعى نظائرها، [illegible] عبوديَّتى هـذه، فلان، والمملوك يَرْضىٰ لمولانا لسانَ شُكْره، كما يَرْضاه لتحمُّل [illegible] وقد رَكَض ظهْرَ الأمَلِ إلىٰ حَضْرته، ووَثِق ببُلُوغ الوَطَر من جهته، [illegible] فى سِلْكِ من أُسْبِغتْ عليه عَوارِفُه، وعَمَّتْه لطائفُه، وعزَّز [illegible] المملوكِ إلىٰ بابِه، وتقديمِه ذريعةً فى التزامِ حقِّه وإيجابِه.

رُقْعـــة — مَنْ كان سيدى شافِعَه ٱلْبَسط فى المُنىٰ، ولم يَرْضَ بغير العُلا، وقد علم مولانا أنَّ للشَّـفاعة أحوالًا ثلاثا، حالًا تخُصُّ الشافعَ، وحالًا تخُصُّ المستشفِع، وحالًا تخص [المشفُوع إليه][2] ولكلٍّ حدٌّ يجب الانتهاءُ إليه، ولا يجوز التقصير فيه، فعلىٰ المستَشْفِع ٱرتيادُ أخصَبِ جَنَاب، وأسْكَبِ سَحَاب، وقَصْدُ الجهة التى لا تصُدُّ عن البُغْية سائلا، ولا تردُّ عن الأمَلِ آمِلا، وأن ينْهض بالشُّكر على العارفة، [illegible] بالنِّعم عنـه فى الأحوالِ الطارِفه، وعلىٰ الشافعِ أن يُهَرِيق [illegible]

(١) غار الرجل يغوره ويغيره نفعه فالمراد بفضل نفعه تأمل.

(٢) فى الاصل الشفيع وهو غير مناسب.

Marfat.com

ويجرِّدَ رَغْبَتَه فى تسهيل المَنَال ، ويعتقدَ أنَّ ذلك من الدَّين المقترَض ، والدِّين المفترَض ، ويتكفَّلَ بالقيام بما يستَدْعى منه من المكافاه ، ويُلْتَمَس من العوض والمجازاه . وعلى المشفُوع إليه أن يعلم أنَّ الشافعَ والمستَشْفِع ما قصَداه إلَّا بعدَ الثِّقة بأحَديَّته ، ولا اعتمَداه إلَّا بعد السُّكون إلى أرْيَحيَّته ، وأنه لا ينبَغى أن يُخْسِر متَجرهما ، ولا يُضيع سَفَرهما . وقد اجتمعتْ هذه الأحوالُ الثلاثُ للرئيس المشفُوع إليه ، ولسيِّدى الشافع ، ولخادمه المستَشْفِع به ، ولم يبقَ إلا عَزْمةٌ منه تَهُزُّ أمانَ الإقبال فتُساقِطُ أثمارُها ، وتُنْشِئُ عَوارِضَ الآمالِ فيَتَهافتُ قِطارُها .

أبو الفرج البيغاء :

وموصِّل كتابى هذا غَنِىٌّ عن شفاعتى له بما يَمُتُّ من حُرُمات الرَّغْبة إليك ، والوقوف دُونَ كلِّ مَقْصِدٍ عليك ، وبما يشْفَع ذلك من التقدُّم فى الصِّناعة ، والتوصُّل بوجيه الكفاية ، وإنما زوَّدْتُه هذه الأحْرُفَ لأفْتَح له باب الأَنَسة ، وأُسَهِّل السُّبُل إلى التعلُّق بالخُلَّة ، وأدُلَّ بها على ما تكشِف منه المطاوَلة والخِيرة ، وأنتَ أيَّدك الله ولىُّ التطوُّل بالتقدُّم فى إيناسه وبَسْطه فى الخِدْمة بما يستَزِيد له محمودَ الأثَر فيها من حُسْن النظر وجميل الرأى .

وله فى مثله :

وموصِّل كتابى فيما يؤمِّله منك ويبلُغه بك متَمسِّكٌ من رجائك بأوكَد ذمَّه ، ومن شفاعتى بأوجَب حُرْمه ، ومهما مَتَّ به بعدَ ذلك من ظهُور كِفَاية أو تقدُّم فى صناعةٍ كان غيرَ ضائع عند رِعايتك ، ولا مجهولٍ مع تيقُّظ عِنايتك ، وأرجو أن يُحَلَّ من قَبُولك ، حيث أحلَّه حُسْنُ النظر بتطوُّلك .

Marfat.com

وله فى مثـــله :

وفى عِلْمِك ما آخُذ به نفْسى ، وأَرُوض به أخلاقِى : من الآنقباضِ عن النَّسْرِح إلى مسألةٍ ، والآحتشام من الآنبساط فى حاجةٍ ، مادَلَّك على موضع فلانٍ ومكانه من إيثارى بواجباتِ حُقُوقه ، وسالِف مَوَاتِّه ، ولذلك سمحْتُ بالكتاب له إليك ، وفارقْتُ رَسْمى بالتثقيل فى قَضاء حقِّه عليك ، وقد قصد نَحْوَك بأمله ، وآختارك لرَجائه ، وقدّر بك بلُوغَ البُغْية ، وآختصر بشفاعَتِى إلى تفضُّلك السبيلَ إلى إدراك المحبَّة[1] ، فإنْ رأيت أن تأتِىَ فى بابه مايُشْبِه فضلَكَ ، ويُناسِب وكيدَ ثِقَتِه بك ، وأنى أشْرَكُه فى الشكر وأساهِمُه فى الآعتداد ، فعلتَ .

آخـــر :

رأيْتُ المَساكِينَ قد أجْمَعُوا * على أنَّكَ الوَزَرُ المعتَمَد !

فأنْتَ لِطِفْلِهِمُ والِـــدٌ * وأنْتَ لشَيْخِهِمُ كالوَلَد !

السلامُ العَميمُ ورحمةُ الله وبركاتُه على مَنْ جعله الله للمساكين ظلًّا يقيهم ، وغَيْثًا يَسْقِيهم ، ونِعمةً تَعُمُّهم ، ورحمةً تضُمُّهم ، أبوفلان ، أبقاه الله فى عِزَّةٍ تالِدة طارِفه ، وسعادةٍ لاتَزال طارِقةً بكلِّ عارِفه .

مَنْ أقامه الله مُقامَك أيُّها الشيخ المبرور بالترفُّق بالفُقَراء والإحسان إلى المُعْدِم لم يَعْدَم مَرِيضا يتفقّده فى النَّعْماء ، ولا يَعْدَم فَيْضا يتسقّط الكسا[illegible] توسُّل وحْده ، وتَشَفٍّ بمن لايَضيع عمل عامِل عنده ، و[illegible] جَناحَه ، وأخنى عليه الدَّهْرُ وآجْتاحَه ، ولما رأى الفُقَراء برحتكم مرتبين ، وعلى

(١) لعله الطلبـــة .

شكركم متفقين ؛ أمّكم حَسَنَ الظنّ بالمَنّ ، ولم يُقَدِّم شفيعًا دُنْيَوِيًّا ، ولا طريقًا واضحا سَوِيًّا ؛ وأنتم أيُّها الشيخُ الموقَّر تُنْزِلونه مَنْزِلة سِـواه ، ممَّن ثوَى مَثْواه ؛ ونَوَى فيكم من الأجْرِ والشُّكْرِ مانَواه ؛ إنْ شاء الله تعالى ، والسلام الكريمُ العميمُ ، يخصُّ جنابكم ورحمةُ الله وبركاتُه :

فاللهُ سُبْحانَه يُبْقِيـكَ فى دَعَةٍ ... وحُسْنِ حالٍ وتَيْسيرٍ وإقْبالِ !

مُقَـدَّم المجـد فى عِزٍّ وفى كَرَم * مؤمَّل النَّفْع من جاهٍ ومن مالِ !

الشفاعات من كلام المتأخرين .

الشيخ شهاب الدين محمود الحلبي :

[illegible] شفاعة فى استخدام كاتب درج :

جعل الله تعالى دورَه رَحْبَة العِراص ، وسعادَتَه فى الازدياد وأعادِيَه فى الانْتِقاص ، [illegible] لإحسانه مقرونًا بصِدْق النيَّة والإخْلاص :

[illegible] سَكَتُّ كُتْبُه ... فإنِّى سألْتُ اللهَ فيكَ وقَدْ فَعَل !

[illegible] هذه الخِدْمةُ تستمطر سحابَ كَرَمه ، وهامِىَ دِيَمِه ، وتسألُ جميلَ شِيَمِه ، [illegible] والشاكرِ لأيَادِيه ، والمُلازِم على رِوايةِ أخبارِ فضائله [illegible] ونَشْر تفضُّلاته ونَثِّها ؛ فإنَّه من بيتٍ كريم النِّجَار ، زائد الفَخَار ؛ وله على مولانا حقُّ خِدْمة ؛ وهو يُمتُّ بسالف مَعْرفة ، ومحبةُ المملوك له شَديده ، والصُّحبةُ [illegible] ولولا ذلك ما ثَقَّل على خِدْمته ، وتهجَّم على المولى [illegible] إلى بابه العالى مُهاجِرًا ، وناداه لسانُ جُوده فلَبَّاه وأجابه مبادرًا ؛ [illegible] ومملوكًا تقع عينُ العناية عليـه ؛ وهو من الكِرَام

الكاتبين، والراغِبين فى الآنتظام فى سِلْك خَدَمِه والمُؤْثَرين، وصِفاتُه بالجميل موصُوفه، وفَصاحتُه معرُوفه، وقلَمُه الذى يَقْلِمُ ظُفُر المهمَّات ويكُفُّ كَفَّ الحَدَثان، ولسانُه الذى يُغْنِي بشَبَاتِه عن حَدِّ السِّنان، ورأيُهُ المقــدَّمُ فى الهَيْجاء علىٰ شجاعة الشُّجْعان؛ فإذا أنعَمَ المولىٰ باستِخْدامه، وتحقيقِ مَرَامه، كانَ قد وضع الشيءَ فى محلِّه، وصنَع المعروفَ مع أهْــلِه؛ وبيَّض وجهَ المملوك وشــفاعتِه، وصــدَّقَ الأملَ فى إحسانه ومُرُوءته، ورأيه العالى؛ إنْ شاء الله تعالىٰ.

وله شفاعة فى آستِخْدام جُنْدىّ:

لازالَ بِرُّه مطْلُوبا، وجُوده مخْطُوبا؛ وذِكْر إحسانه فى الملإ الأعلىٰ مكْتُوبا؛ ولا بَرِحتْ رياضُ جُوده أزْهَر وأنْضَر من رَوْض الرُّبا، ويَدُه البيضاءُ ترقُم له فى سَوَاد القلوب سُطورَ حَمْدٍ أحسنَ من نَوْر تفتّحه الصَّبا. هذه الخدمةُ صدَرتْ علىٰ يدِ فلان نُهدِى إلىٰ المولىٰ سلامَ المملوك وتحيَّتَه، ودُعاءَه الصالح الذى أخلص فيه نيَّتَه؛ وتشْفَع إليــه فى تنزيله فى الحَلْقة المنصورةِ وآستِخدامِه، وترتيبِــه فى سلْك جيشــه المؤيَّد وآنْتظامِه؛ فإنه من الأجْناد الجِيَاد، وذَوِى الجَلَد علىٰ الجِلَاد؛ وهو الغشَمْشَم الذى لايُرَدّ، والشَّهْم الذى لايُصَــدّ؛ والباسلُ الذى لاتُحْصَر بَسالتُــه بوصف ولا تُحَدّ، والنقيبُ الميمونُ الغُرَّة والنقيبــه، الموصوفُ فى الهيجاء بحَزْم الكُهُول وجهْل الشَّبيبه. والمولىٰ وإن كان بحمدِ الله غيرَ محتاج إلىٰ مُساعد، ولا مفتقِر إلىٰ [illegible] فإنَّ أسِنَّته لاتحتجِب عن رُوح محتجِب، ونفْسَه الشريفةَ تقوم وسيفُها يوم الكِفاح مَقامَ عسْكَرٍ لجَب؛ وقلْبَه يُغْنِيه عن الأطْلَاب والأبْطال، وجيوشُ سطوته لاتكتفِه المُقَامَ فى مَنازِل النِّزال؛ فإنَّ المملوكَ يعْلَم أنَّ نفْسَه الشريفةَ تهْوىٰ تزيُّدَ عسكرِه وجُنْدِه، وتَرْعىٰ حرمةَ قاصِده وقَصْده، فلهذا توَسَّل بشَفْع وَتْر الشَّفاعه؛ وتوصَّل إلىٰ إزالة

Marfat.com

ضَرَعَ حالِه بكَثْرة الضَّرَاعه ، فإذا أنعَمَ المولىٰ بقَبُول شفاعة المملوكِ فيه ، وحقَّق له من العِنَاية ما يؤمِّله ويَرْتَجِيه ، كان قد شَـدّ للمشار إليه ما أضعَفَتْه العُطْلة من مُنَّته ، وقلَّد المملوكَ للمولىٰ جميلَ مِنَّته .

شفاعة فى ردّ معزول إلىٰ وِلَايته :

يَقَبِّل اليدَ العالية لازالتْ مقَبَّله ، ولإسداءِ الخـير إلىٰ أهله مؤَهَّله ، وبأياديها علىٰ الكافَّة متفضِّله .

وينهى ملازمتَه علىٰ شُكْر مَواهِبِه ، ونشرِ فضائله الجسيمة ومَناقِبِه ، وحمْدِه كريمَ شِيَمِه ، والاعتذارِ من تثْقِيله علىٰ خِدْمة المولى بخِدَمِه ، وسؤالِ إنعامِه بوجُوه مكاتَبتِه ولِسانِ قلَمِه ، وما ذاكَ إلا لِمَـا يتحقَّقُه من كريم نِجَاره ، وشدّة تطَلُّبه لإسداء العَوارِف وإيثارِه ، والموجبُ لهذه الوسيلةِ وسُؤالِ مَكارِمه ، واستمطارِ سحائبِ مَراحِمه ، مابلَغه من عَزْل مملوكِ المولىٰ وعبْده ، وواصِفِ جميلٍ أوصافه بلسانِ شُكْرِه وحمْدِه ، فلان ؛ أفاض الله عليـه إحسانَ المولىٰ وإنعامَه ، وخلَّد لنا وله دَوْلته وأيَّامَه ، فإنه صاحبُ المملوكِ وصـديقُه ، وشريكُه فى الدُّعاء لمولانا ورَفِيقُه ، وهو من العُـدُول الأُمَناء ، والثِّقات الأتقياء ، وهو قليلُ الجِدَة كثيرُ العِيال ، لايَجِد حِيلةً إذا بَطَلَ بخلاف مايُحْكىٰ عن البَطَّال ، وقد تشفَّع بالمملوكِ ومكاتبتِه فى ملاحظةِ المولىٰ له بعيْنِ عِنَايته ، والتقدُّم بردِّه إلىٰ جِهـةِ وِلَايته ، فلهذا كَتَبَ إليه وأكَّد فى معناه السُّؤال ، وعَلَّق بتحصـيل أمله الآمال ، يعلم ذلك موفَّقا .

شفاعة فى خلاص مسجون :

فسَّح الله فى مُدّته ، وسهَّل أداء مايجِبُ من شُكْرِ نِعْمتـه ، وألزم الألْسِـنةَ بحمْدِه والقلوبَ بمحبَّته ، وجعله مفرِّجا كلَّ كرب ، ومسهِّلا من المقاصد كُلَّ صَعْب .

Marfat.com

وبعـد، فإنَّ كافَّة الأُمَّة قد تحقَّقت رحمةَ قلبِ المولىٰ ورأفتَه، وتيقَّنتْ إحسانه ومُروءتَه، وأنه يُؤْثِر إعانةَ كلِّ عانٍ وإغاثَةَ كلِّ ملْهُوف، وأنه لايُمْسِك إلَّا بالإحسانِ ولا يُسَرِّح إلَّا بالمعْرُوف، بحيثُ سارتْ بحُسْن سِـيرتِه الرِّكَاب عوضًا عن الرُّكْبان، ودرأتْ مكارِمُه(١) عن الأولياءِ نُوَبَ الزَّمان؛ وعَلَا علىٰ حاتِم فلو تَشَبَّه بكَرَمه لقُلْنا له : (مَرْعًى ولا كالسَّعْدان) . وللمملوكِ من إحسانِه أوفَرُ نَصيب، وهو يَرْفُـل من جُودِه فى ثَوْبٍ قَشِيب؛ وقد آشتَهَرَ مايُعامَلُ به من الإكْرام، وأنَّ قِسْمه من العِنَاية أوفَرُ الأقسامِ؛ وكان يُعدُّ من جملة العَبِيد فأصبَحَ مُضَافا إلىٰ الألْزام؛ وهذا ممـا يُوجِب علىٰ المملوك أنْ يبتَهِل إلىٰ الله فى تخليدِ دَوْلتِه ويتضَرَّع، وعلىٰ حِلْم مولانا أنه إذا شَفَع إليه فى مُذْنِب أن يُشَفِّع؛ وهو يَشْفَع إليه فى مملوكه وعَبْدِه، والملازِمِ علىٰ رفْع رايات مجده وتِلَاوةِ آيات حَمْده، فلان؛ رزقَه اللهُ رضا الخواطِرِ الشريفه، وأسبلَ عليـه حُلَّةَ عفوِه المنيفة علىٰ الحُلَل بِظِلَالها الكَثِيفه؛ فإنه قد طالَتْ مدَّةُ حَبْسه، وآعترف بأنه الجانِى علىٰ نَفْسه؛ والمعترِفُ بذَنْبه كمن لاذَنْب، والمغْترِفُ من بحر جُودِه يَرْوىٰ دُونَ أن يَشْرَب؛ والطالبُ لبِرِّه ينال سُؤْله والمَطْلَب؛ فإنْ حَسُن فى رأْيه العالى زاده اللهُ عَلاء، وضاعَفَ له سَناء، المشىُ علىٰ مَنارِ جُوده ومِنْهاجه، وبُروزُ أمرِه المُطَاع بإطْلاقه وإخْراجه، آغتَنَمَ أجرَه، وجَبَرَ كَسْره، ورَبِح فى هـذا الشهر المبارَك دُعاءه الصالِحَ وشُكْره؛ وكان قد أنعَمَ علىٰ المملوك بقَبُول شفاعتِه إليـه، وفعلَ مايُوجِب علىٰ كلِّ مسلم الثناءَ عليه؛ واللهُ الموفِّق .

شفاعة بسبب خلاصِ حق :

يخْدُمُ المجلسَ السامِىَ لافَتِىَّ بالتحيات مَخْدُوما، وحبلُ سَعده مَبْروما، ودُرّ المَدائح لِجِيـد جُودِه منظُوما، وعدلُه بين الأخصام قاضِـيًا فما يَتْرُك ظالِمًـا ولا مظْلُوما .

(١) فى الأصلين «ودارت مكارمه على الأولياء» ويظهر أنه تصحيف من الناسخ .

Marfat.com

ولا زالتِ الآمالُ متعلِّقةً بهِمَّته ، مَنُوطةً بسعيد عَزْمَتِه ؛ راجيةً خَلاصَ كلِّ حقّ ممن هو فى جِهَتِه . وتُوضِّح لعلمه أنَّ فلانا أدام اللهُ سعادتَه ، وخلَّد سِيادتَه ، ذكر أنَّ له دَيْنًا فى جهةِ غريم مُمـاطِلٍ مُدافِع ، وخَصْم مُمانِـع ؛ وقد جعل هذه الخدمةَ ذريعةً إلىٰ خَلاص حقِّه ، وخالَهَـا إلىٰ الوصُول إلىٰ عِنَايةِ المولىٰ أقْربَ طُرُقه ؛ وهو جديرٌ بالتقـدُّم بإحضار غَرِيمه ومحاقَقتِـه ، وأخْذِ مالِلمملوك فى ذِمَّتـه ، وأن لا يُفْسَح له فى تأخِيره ؛ ولا يُسْمَح بقليلِ الصـبْرِ ولا كثيرِه ؛ فإنه يعـلم أنَّ المولىٰ المشارَ إليـه واجِبُ الخِدْمه ، وافِرُ الحُرْمه ؛ وقد تعلَّق أملُه فى خَلاص حقِّه بالمولىٰ ، ولا يُجاوِبُ عن هذه الخِدْمة بلَوْ ولَوْلا ، بل يَبْـذُل جُهْدَه ، ويُطلِقُ فى تحصـيل الغَرَض لسانَ الاجتهاد ويَدَه ؛ ويعتَمد من الاهتمام مايليقُ بأمثاله ، ويبيِّض وجْهَ الشافع وسُؤاله ، موقفا ، شعر :

ولَوْ كانَ [لى] فى حاجَتِى ألْفُ شافِع * لَمَـا كانَ فِيهِمْ مِثْلُ جُودكَ شافِـعُ

شفاعة فيمن اسمه سراجُ الدِّين إلىٰ من اسمه جمالُ الدين :

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

ويَنِى بعدَ ولاءٍ يحْكُم علىٰ القُلوب شافِعُ جَمَالِه ، وثناءٍ يجُرُّ علىٰ أكمامِ الزَّهْر فضْلَ أذْيالِه : أنَّ العلومَ الكريمةَ مُحيطةٌ بإيجابِ حقِّ منْ هاجرَ إلىٰ بابها ، وشكَا غُلَّةَ الفاقةِ إلىٰ مَنْهَلٍ مُنْهَلِّ سَحابِها ؛ وأنَّ المـائِلَ بهذه الخدمة ، فلان ؛ ذكر احتِياجَه إلىٰ عاطفةٍ من عَواطِف مولانا التى شَمِلَتْ ، وعارفةٍ من عَوارفه التى لو استمدَّتْ من غُرَرِها الليالى لما أظلمَتْ ولا ظلَمَتْ ؛ وأنَّ بيده وظيفةَ شَهادةِ بيتِ لَحْم بتواقيعَ شريفةٍ نظرَتْ فى حاله ، ونشرَتْ حالَ عيالِه وأطفاله ، وأنَّ ثَمَّ من يُنازعه فى جِهَته المعتاده ،

Marfat.com

ويَقْصِد نَزْعَه والنَّزْع عن[1] تلك الشهادةِ المسطَّرةِ أخَفُّ من نَزْع الشَّهاده ، ومولانا أوْلىٰ مَنْ رَحِم منه ضَعْفا ، وآشتَمَلَ عليه عَطْفا ؛ ودارَكَ بكرمه هذا السِّراجَ قبل أن يُطْفىٰ ؛ ورعىٰ سيرةَ مباشرتِه الحسنةِ الآثار ، وآغتَنَمَ أدْعيتَه وأدعيةَ أولادِه الذين هم كقِطَع الشِّطْرَنْج صِغارٌ وكِبار ؛ وكَفَّ يدَ التعرُّض إليه فى أيام عَدْله فإنها أيامٌ لاضَرَرَ فيها ولا ضرَار ؛ وعلىٰ الجملة فقد تركَتْه الأيَّامُ قِطعةَ لحم ، فمباشرةُ بيتِ لحم أوْلىٰ به ، ورجالُه فِرْجانية وأخواتُها أحقُّ أن يتعَلَّق سببُها بأسبابه ، واللهُ تعالىٰ يُنِير بِمَنَن مولانا أحوالَ المَضْرورين فإنَّها ظَلَام ، وينصُرُهم علىٰ حَرْب الأيَّام بسُيُوفه التى هى أقْلام ، ويمتِّع بأيامِ عدْله وإحسانِه التى تتنافَسُ فيها أعمارُ الرعايا فإنهم يُتْبِعُون أيَّامًا بأعوام .

وله إلىٰ شخص اسمه شمس الدين :

ويُنْهِى بعدَ قيامٍ بوظائِف ثناءٍ يتَمَسَّك بنَفَحاته [المتواليه] ، وولاءٍ يتمسَّك بحباله المتينةِ وما كلُّ شمسٍ حبالُها واهيه : أنه يرتادُ الأوقاتَ لخطاب مولانا بالأقْلام ؛ حيثُ حبَس البعدُ خِطابَ الكلام ، ويتخيَّر حَمَلةَ رسائل الشَّوْق ، وإنْ أضعفَ عَطْفُ النَّسيم رسائلَ السَّلام . ولما حضر من مكان كذا ، عارض هذه الخدْمة فلان ، وذكر توجُّهَه إلىٰ حِمىٰ حماةَ المحروسه ، وقصد كتاباً يكون فى وَحْشة الآغتراب أنِيسه ، فوافق ذٰلك غرضَ المملوك ، وسَلَك طريقَ مُرادِه ولا يُنْكَر من جهةِ هذا الرجُل الصالحِ السُّلوك ، فأعلمته أنّ المَكَارمَ الحمادية لاتحتاجُ غير الحمد والأجْر [illegible] إليها ، والمنازِلَ الشمسيَّةَ لاتفتقر إلىٰ دليلٍ ينبِّه عليها ، وطالَمَا جمعتْ لقاصدِها الفعلَ والقولَ السخِى ، وطالما قال يوسف رحمه الله أخو مولانا أبقاه الله للقاصدِ :

أنا يُوسفُ وهذا أخِى ، ولكنِ المملوكُ يذَكِّر الخاطرَ الكريمَ بهذا القادمِ فإنه من

---

(١) فى الاصل عند وهو تحريف من الناسخ .

Marfat.com

أهله ، و يلقاه قبـــلَ ذلك بالبِشْر المنشِد * أُضَاحِكُ ضَيْفِى قَبْـــلَ إنْزالِ رَحْلِه *
فإنَّه من أصحابِ ولِيِّ لله طالمَـــا فاضَ وَلِيُّ معرُوفِه ، وآســـتفاضتْ نِسبَتُه المُرْشِديَّة فكان ولِيًّا مُرْشِـــدا قامتْ صفتُه مَقامَ موصوفِه ؛ و إنَّ آثارَ هذه البركات علىٰ هـــذا القادِمِ لائحه ، وإن علىٰ يده تجارةَ ذكر وأجر وهى فى سُوقِ هِمَم مولانا تجارةٌ رابِحه ، والله تعالىٰ يجعل له فى كلِّ ثناءٍ وثواب نَصِيبا ، ويُدِيم قلَمَه الكريمَ مَقْصِدَ رِفْد وجاهٍ (فطَوْرًا رِشاءً وطَوْرا قَلِيبا) .

وله : عن نائبِ الشامِ إلىٰ نائبِ حماةَ شفاعةٌ فى شخصٍ آسمه شهاب الدين ، وهو بعد الألقاب :

لازالتِ الأقدارُ تُسْعِده ، والملائكةُ تُنْجِده ، ومَواطِنُ النصر تجرِّدُ حدَّ بأسه ومَواطِنُ الحِلْم تُغْمِده ، والجُناةُ تلُوذُ بظلِّه : فأىُّ جانٍ ذَنْبٍ مايعفو عنه ، وأىُّ جانى بِرّ مايَرِقُّ عليه ويَرْفِده ، تقبيلًا يترادَفُ مَدَدُه ، ولا تنتهى فى القُرْب والبُعْد مُدَده .

وينهى بعـــد ولاءٍ وثناء : هـــذا لايَبْلىٰ جَدِيدُه وهـــذا لا تخفىٰ جدده ؛ وشوق وآرتياحٍ كلاهمـــا يُرْوىٰ عن آبن شِهاب توقُّدُه . ويحمل علىٰ يد شِهاب ســـنَدُه : أنَّ العلوم الكريمة محيطةٌ بمقدار الحِلْم وفضـــله ، والعَفْو ومحلِّه ، والتجاوُزِ عن هَفَوات المخطئين من القوم ، وطلبِ العفْو من الله غدًا بالعفْو عن عباده اليَوْم ، قال الله تعالىٰ : ﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ . ولمَّـــا سَمِـــع الصدّيقُ رضى الله عنه هـــذه الآيةَ ، قال : (بلىٰ والله إنِّى لَأُحِبُّ أن يَغْفِرَ اللهُ لِى) ثم عَفَا عمن نزلَتْ بسببه ، ومملوك مولانا أعزَّ الله أنصاره فلان ، قد آعترف بهَفْوةٍ بدَتْ منـــه ، وزَلَّة نُقِلتْ عنه ، ما يسَعُها إلَّا عفْو مولانا ومَراحِمه ، وقدِم على المملوك فكأنَّه ماخرجَ عن ظلِّ مولانا ولا فارقَتْـــه معالمُه ، وسأل سُؤالَ مولانا أن يشْـــمَله بالعفْو ، ويتجاوَزَ له

عن السَّهْو ؛ ويَرْحَمَ كِبرَ سِنِّه وكبيرةَ جَهْله ؛ ويرعىٰ قِدَمَ هجرته لخدْمة هـذا الباب الذى نشأ عُمُرا طويلا فى ظلِّه ، أهْلا لأن تشمَلَه عواطِفُ أهله ؛ وهو ـ كما عرَف المملوكُ واطَّلع عليـه حيثُ كان فى نيابة حمـاة ـ مشكورُ السِّيرة بالاِعتبار ، ناهضُ الخدمة بالاِختبار ؛ ملازمٌ لثرىٰ الباب بعزْمٍ ماعليـه غُبَار ؛ وله علىٰ المملوك بالأمْس حَقُّ خِدْمـة وباليوم حقُّ سؤال يشفَعُ بهما فى القلوب وهى كِبَار ؛ والمسئُول من صَدَقات مولانا تجاوُزُه عن هَفْوته ، وردُّه إلىٰ أَمْنـه ووظيفته ؛ وإجراؤُه علىٰ عادة إقطاعه ، وحاشاه فى أيَّام مولانا أن يُقْطَع ، بل حاشىٰ المذكورَ أن لايستخبَرَ وأن لايُقَطَع ؛ وآستقرارُه فى مكان خِدْمته ، وإجابةُ سؤالِ المملوك فى كل مايتعلق بنجاح هِجْرته وعَزْمته ؛ لايَرِح مولانا مأمولَ المِنَن الغائبـة والحاضره ، والمقيمةِ والسائره ؛ مأهُولَ الخواطر برَفْع ذكره وقَدْره فى الدنيا والآخره .

الشيخ جمال الدين بن نباتة :

لا زالتِ المحامدُ بذِكْرها مُتَوَّجه ، ومقدِّماتُ الفضـل والفضائِل من تِلْقاء شِيَمها مُنْتِجَه ؛ ومَطالعُ الكرمِ والإكرامِ هاديةٌ إلىٰ حَرَمها من آتَّجَه ؛ تقبيلَ مواظِبٍ علىٰ الدعاء يرفَعُـه ، والولاء يجْمَعُـه ؛ والثناء يقول بَضَّاعُ أرَجه لا ممـا نُضَيِّعه بل ممـا نُضَوِّعه ؛ [وينهى] أن عارضَ هذه الخِدْمةِ علىٰ عارِض كَرَم مولانا المُمْطِر ، وبابِه الذى هو لكَبِد الحاسد وفَمِ الوارِدِ مُفَطِّر ، فلان بالقضاء تعلُّقاتٍ له أوَّلُها التعلُّقُ بحبل رجائه المُحْصَد ، وآنتمائه المُرْصَد ، والتجمُّل بقصد بابِ مولانا الذى هو المُهِمُّ المقدَّم علىٰ كل مَقْصَد ، وهو من الفضلاء الذين يعرِفُهم آنتقادُ مولانا معرفةَ الخبير ، وله آتصالٌ بالأكابر الذين سُلِّم منهم زِمامَ المفاخر كُلُّ كبير ، وقصَدَ من المملوك هذه الخدمةَ لمولانا تُؤْنِسُ آغترابه ، وتنشد المَقَرَّ الذى ماقَرَع سنَّ الندامة مَنْ قَرَع بابَه :

Marfat.com

يَاغَرِيبَ الصِّفاتِ حَقٌّ لمنْ كا * نَ غَرِيبًا أنْ يَرْحَمَ الغُرَباء!

والمملوكُ يسأل من إحسان مولانا مُلاحظةَ المـذكور بعيْن عِنايَتِـه التى ما أغفَتْ عن القاصدين ولا غَفَلَتْ ، وعَواطِفِه التى طالمَا فتحَتْ أبوابَها فأثنَتْ عليها الركائبُ التى قفَلَتْ ؛ والله تعالىٰ يُدِيم تقليـدَ الأعناقِ بكَلمه وبِرِّه ، ويمتِّع الممـالكَ الساحليَّةَ بمـا قذَفَ لها من دُرَر بَحْره .

النـــوع الخـامس

(التشـــوّق)

قال فى "موادّ البيان" : وينبغِى للكاتب أن يجمَع لها فِكْره ، ويُظهِر فيها صناعَتَه ، ويأخُذَ فى نظمها مَأْخَذا من اللَّطافـة والرِّقَّة يَدُل علىٰ تَمـازُج الأرواح ، وأُتِـلاف القلوب ، وما يَجرِى هـذا المَجْرىٰ ؛ وأن يستخدِمَ لهـا أعذَبَ لفظٍ وألطفَ معنًى ؛ ويذْهبَ فيها مَذْهب الإيجاز والآختصار ، ويعدِلَ عن سُبُل الإطناب والإكثار ؛ لئلا يستغرق جزءا كبيرا من الكتاب فيُمِلَّ ويُضْجِر ، وينتظِم فى سِلْك المَلَق والتكلُّف اللذيْنِ لايعتادُهما المُتصافُون من الأصدقاء .

وهذه نسخٌ من ذلك :

أبو الفـــرج الببغاء :

شوْقُ المملوك إلىٰ مَوْلانا بحسب مَكانِه من تَفَضُّـله ، وحظِّه من جميـلِ نَظَره ، وآخْتِصاصِه بإنعامه ، وآغْتِباطه بشَرَف خِدْمتِه ، ومكانِه من إيثاره ؛ واللهُ يجمَعُ للمملوك شَمْلَ السـعادةِ بمُشاهدة حَضْرته ، وبنيانه (١) من الدَّهْر بالنظر إلىٰ غُرَّته ، علىٰ الحـال السارّة فيه وبِه .

---

(١) كذا فى الأصلين بإهمال النقط والمراد أنه يمتعه بالنظر الخ تأمل .

Marfat.com

وله : شَوْق المملوك إليه شوقُ الظَّمآن إلىٰ القَطْر، والسَّارِى إلىٰ غُرَّة الفَجر .

وله : شوْقِى إليــه شوْقُ مَنْ لم يَجِدْ مع بُعْدِه عِوَضًا منه، فتقودُه الزيادةُ إلىٰ الآنصراف بالرَّغبة عنه .

وله : شوْقِى إليه شوْقُ من فَقَد بالكُرْه سَكَنه، وفارقَ بالضَّرورة وَطَنَه .

وله : لو كان مايُصْدِره من خِطاب ، ويُناجِيــه به من متَضَمَّن كتاب؛ بقــدر ما أُعانِيه من أَلَمِ الشوق إلىٰ غُرَّته، ومَضَض الفائتِ من مشاهَــدَتِه، لمَــا أحاطتْ بذِكْره بَسْطةُ لسان، ولا نابَ فى إثباتِه آستِخدامُ بَنَان .

وله : أمَّا الدهرُ فمــا يَستحِقُّ من إبعاد المملوك عنــه عَتْبا ، ولا يُعدّ ماجَنَاه من ذلك ذَنْبا؛ إذ كان إنمــا نَقَلَ من حِشْمة المخاطَبه، إلىٰ آنبِساط المُكاتَبه .

وله : وقَدْره ـ أبقاه اللهُ تعالىٰ ـ يرتَفِــع عن ذكر الشَّوْق إليه ، فالمملوكُ يعبِّر عنه بذكر الشوق إلىٰ مافارقه من تفَضُّله؛ وبعُدَ عنه من أوطان تطَوُّله .

وله : ولولا أنَّ المملوكَ يُخْمِد نارَ الآشتياق ، ويبَرِّد أُوَار الفِراق ، بالتخَيُّل الممثِّــل لَمَنْ نأتْ مَحَلَّته، والتفكُّر المصوِّر لمن بَعُدتْ شُــقَّته ، لأُلْمِسَتْ أنفاسُــه ، وأُسْعِرَت حَوَاشُّه، وهَمَتْ دمُوعُه، وأنقَضَتْ ضُلُوعُه؛ واللهُ المحمودُ علىٰ ماوَفَّق له من تمَازُج الأرواح ، عند تبَايُنِ الأشْباح .

وله : ولا بُدَّ أن يُكَفَّ بالمكاتبات، من غَرْب الآشتياق ، ويستعينَ بالمُراسَلات، علىٰ وَحْشة الفِرَاق؛ فإنها ألْسُنٌ ناطقه، وعُيونٌ علىٰ البُعْد راقبه .

وله : عِنْــد المملوكِ لمولانا خَيَالٌ مُقِيم ، لا يبْرَح ولا يَرِيم ، يحْلُو عليــه صُورَته ، ويُطْلِــع علىٰ عينِ فكْرته طَلْعَتــه ، إن سَهِر المملوكُ سامر مُعينًا علىٰ السُّهاد، أو رقَدَ

تصوّر مُعْذِبا طَعْمَ الرُّقاد، لا يَمْطُله بزِيارته، ولا يُوحِشُه بغَيْبَته، كأنما تَصَوّر بصُورته فى الوَفاء، وتَخَلّق بخُلُقه فى المحافظة على الإخاء .

وله : إنْ تزايلَتِ الأشْباح، فقد تواصَلَتِ الأرْواح؛ وإن نَزَحت الأشخاصُ وبُعِدتْ، فقد دَنَت الأنفُس وتقاربَتْ؛ فلا يُمِضُّ الفُرْقةُ وتُؤلِم، وتُنَغِّصُ النَّوى وتَكْلِم؛ وقد يُنالُ بتَناجِى الضَّمائر، وتَحاوُرِ السَّرائر، مالا تَصِلُ إليه الإشاره، ولا تَدُلُّ عليه العِباره؛ إذ الأنْفُس البسيطةُ أرقُّ مَسْرًى، وأبعَدُ من الألْسنة مَرْمًى .

التشوق من كلام المتأخرين :

نسخة كتاب من ذلك، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة؛ وهو بعد الصدر:

لازالَ الدَّهْرُ يَقْضِى خِدَمَه، ويُمْضِى رأْيَه وسيْفَه وقَلَمَه، ويُرْضِى الدُّولَ الشاكرةَ تقْديمَه فيها وقَدَمَه؛ ولا بَرِحت الأقدارُ المُعْرِبةُ تجْزِم أمْرَه وتَكْسِرُ ضِدّه وترفع عَلَمَه؛ تقبيلًا إذا لَثَمَ التُّرْبَ التثَمَه، وإذا أُودِع القلْبُ فى ذلك التُّرْب ختَمَه .

ويُنهِى مواظَبَتَه على وَلاءٍ لايَنْسَخ البُعْدُ مُحكَمَه، ودُعاءٍ يقابِلُ النُّجومَ ولا تنْقَطِع من القَبُول إدْراراتُه المنجَّمَه .

ويُنْهِى أنه سَطَّرها عن شوْقٍ يَعِزُّ عليه أن ينُوبَ فيه سَعْىُ القلم، عن سَعْىِ القَدَم، وٱرتياحٍ إلى القُرْب الذى بأنسه يُؤْنِسُه أنوارا على أعْلَى عَلَم؛ وتطَلُّعٍ لمعاوَدةِ الأخبار أوْفى من تطَلُّع العامرىّ إلى مُعاوَدةِ أيّام ذِى سَلَم؛ وتعَلُّل بقول القائل :

بعَثْتُ لَكُمْ سَوادًا فى بَياضٍ * لِأَنْظُرَكم بشَىْءٍ مِثْلِ عَيْنِى!

وهيهاتَ! أينَ نظراتُ الحُروف المرْقُومة من نَظَرات العُيُون الرامِقه، وأينَ مَنالُ السُّلُوّ من شَجْو يقول : * أعيذُها نَظَرات منْك صادقَه *

Marfat.com

ما يَحْسُبُ المملوكُ من النظَر إلّا ما يَمْلأُ العينَ من ذٰلك الوجهِ الكريم ، ولا يَلْبَس من خِلَع الأيَّام إلا ماتَخِيط الأهْدابُ علىٰ شَبَا ذٰلِك القُرْب الرَّقِيم ؛ وعلىٰ ذٰلك فقد جَهَّزها المملوكُ علىٰ يَدِ فلان ، وحَمَّله من رسائل الشَّوْق مايَرْجُو أنْ يَنْهضَ فيه بأعباءِ الرِّساله ، ويَسْألُ الإصْغَاء والمُلاحظةَ فيما تَوجَّه فيه وإنْ أدّتِ الأمَالِى إلىٰ المَلَاله ؛ واللهُ تعالىٰ المسئُول أن يبَلِّغ فى امتِدادها مولانَا الأَمْنِيَّه ، ويمتِّعَ الدُّولَ منه بهذه البقِيَّة النقِيَّه ، إن شاء الله تعالىٰ .

نسخة كتاب فى المعنىٰ عن نائب الشام ، إلىٰ القاضى عَلَاء الدين بن فضلِ الله ؛ كاتبِ السِّرِّ بالأبواب السلطانية ، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُباتةَ أيضا ؛ وهو بعد الألْقاب .

لازال قَلَمُها مِفْتاحَ الرِّزْق لطالِبِه ، والجاهِ لكاسِبِه ، والظَّفَرِ لمستَنِيبِ كُتُبِها عن كتائبه ، والنُّجْحِ لرائِد مُطالبةِ الدَّهْر بعد المِطَالِ به ، ولا برِح البأسُ والكَرَم يتحدّثانِ عن بَحْرِها ولا حَرجَ عن عَجائِبِه ؛ تقبيلًا تغْبِطُه فى مَرابِعِها ، ثُغُورُ الأزاهِر ، لابل تحْسُدُه فى مَطالِعِها ، ثُغُور الزَّواهِر .

وينْهِى بعدَ دعاءٍ أحسنَتْ فيه الألسنةُ وأخلصَتِ الضَّمائر ؛ ووَلاءٍ وثناءٍ لهما مَصَاعدُ النَّجْمَيْنِ إلَّا أنَّ هٰذا فى القلُوبِ واقعٌ وهٰذا فى الآفاقِ طائِر ـ أنه جهَّز هٰذه الخِدْمةَ مُعْرِبةً عن شوقٍ يتجدَّد ، وارتياحٍ لايتعدّىٰ ولا يتعَدَّد ، ساعيةً عنه بخَطَوات الأقلام ، أنْ منَع الوقتُ خَطَواتِ الأقدام ، نائبةً فى تقبيلِ الأناملِ التى تُستَسْقىٰ دِيَمُها علىٰ القُرْب والبُعْد ولا كَيْدَ ولا كَرامةَ للغَمَام ؛ وجهَّزها علىٰ يدِ فلان بعْدَ أنْ حَمَّله من رسائل الشوقِ ماإنَّ حِمْلنا من إحسانه ليُنْضِى عقُودَ الأنجم لو تعدّدت ، ومَفاتيحَ أبوابه لتَنُوءُ بالعُصْبة أُولِى القوّة لو تجسَّدتْ ؛ وهو بين يدَيْه يقدِّمُ نَجْواها ، ويستشْهِد

Marfat.com

بالخاطر الكريم قبْـلَ حضُور دَعْواها ، والمسئُول إصـغاءُ السَّمْع الكريم إليـه ، والملاحظةُ فيما توجَّهَ فيـه متَّكِلًا علىٰ اللهِ وعليـه ؛ و إذا عادَ مشـمُولا بعنايةِ مولانا المعهُودَه ، مكفُولًا برِعَايته المقْصُورةِ علىٰ نُجْح الآمالِ الممْدُوده ، فلْيُنْعِم علىٰ المملوكِ من المشرَّفات الكريمة بما يسَكِّن علىٰ جَوْر البُعْد خواطِرَه الدَّهِشه ، ويُعِينُه علىٰ الوَحْشة التى حَرَّكها نحوه البِعَاد فهى الوَحْشَه ، واللهُ تعالىٰ يشكُر هِمَم مولانا غائِبًا وحاضِرا ، وشافِعًا لرسائل خَدَمه وناظِرا ؛ ويخُصُّ بابَه العَلَوىَّ بسلام كسلامِ سَقِيط الطَّلّ عن ورَق الغُصْن ناضِرا .

آخَر من كلامه : كتب به إلىٰ بعض رؤساءِ مصر .

ويُنْهِى أنه سَطَّرها مُعْرِبةً عن شوْقٍ مُقِيم ، وعهدٍ لا يبْرَحُ علىٰ صِراطِه المستَقِيم ؛ وآرتياحٍ لجَنَابِه ، أو لكتابه ، ليتْلُو لإنصات شَجْوه : ﴿أمْ حَسِبْتَ أنَّ أصْحابَ الكَهْفِ والرَّقِيم﴾ . متطلِّعا لمـا يَرِد من أخبار مولانا السارّةِ البارّهِ ، مرتقِبًا لأنبائه آرتقابَ الزُّهَيْرة الفاغِرةِ إلىٰ ضَرْع الغَمام الدَّارّه ، ولو أنَّ كلَّ مايتمَنَّى المرءُ يدْرِكه ، وكلَّ مايقْتَرِح علىٰ الدَّهْر يمْلِكه ، لغَنِىَ بقُرب المخاطبه ، عن بُعْد المكاتَبه ، وآستجلىٰ كوكبَ الجمال المشرِق وأقصَرَ فى ليالى الآنتظارِ عن المراقَبه . وقد جهَّزَها علىٰ يدِ فلان ، وحمَّله من رسائل الشوق أوْفىٰ وأوفَرَ من رسائل الصَّـفا ، وسألَ الإصغاءَ والملاحظةَ من مولىً كجارِه النيلِ معْروفِ المَنَافع والوَفَا ، ولآمالِ المملوك بمشرَّفاته وأوامِرِه جَمَالٌ حينَ يُرِيح وحين يَسْرَح ، وحينَ يَقْتصِر علىٰ مقْتَرَحات الأيامِ حينَ يشْرَح ؛ فيُنْعِم مولانَا بمواصَلتِها علىٰ هذه المقَدَّمه ، ويجعلُ ذٰلك من إدرارات صِـلاته المنجَّمَه ؛ والله تعالىٰ لايُعْدِم المملوك فى حال كَرَمه : إما أن يُفيض فى القُرْب بَحْرَه وإما أن يبعَثَ علىٰ البُعْد ديمَه .

Marfat.com

وله إلى كاتب السر :

أعلى الله أمْرَ قلمها على الأقْلام، وأدام بفيْض أنامِله عليه بَسْطَ كلمةِ الإسلام، راع بكتائب كُتُبه العِدَا إذا آنتَبهُوا، فإذا أغْفَوْا «سلَّتْ عليهم سُيوفَها الأحلام» .

ولا زالتْ تلكَ الأقلامُ العاليةُ فى تلك اليدِ الكريمةِ إن لم تكُنْ من المنشئات إنَّها من المُنْشَآتِ فى البحر كالأعْلام ؛ تقبيلَ مُواظِب على دُعاء يطلُعُ طُلوعَ طُرَّة الصبح تحتَ ذلك الظلام ؛ وولاءٍ إذا آعتبر الخاطرُ الكريمُ مَسْعاه وخِدْمتَه : قال يابُشْرَاىَ هذا غُلام » .

وينهى أنه جَهَّز هذه الخادمةَ مقصورةً على وصْف الأشواق المَدُودة ، وجَوانح الشَّجْو المعهودة ؛ وأنفاس الذِّكْرى التى لولا شرفُ ، ما كُوِّرها لم تكُنْ عندَه من الأنفاس المَعْدُودة ؛ فبالغَها مقصورةً على سوق دانيها غيرَ طويل العِنان سَبَّاقةَ الأرتياح ؛ وبالغَها أنفاسَ مستعير أعنَّة مناصفة ، كأنَّ كلَّ واحد رقيبُ رائع ؛ وبالغَها ورقةً غازلت بمشاعرها لثمَ اليد الشريفة فأوقعت رَعْشة ، وفاءت عن غُدُر الروض عِطْفا ؛ وآستطالتْ بانتظام السُّطور على البياض

وسَطَّرتْها والهمْ أنْحل مايرَى ، فيالَيْتنى أصبحْتُ فى ذا السطر

واصلةً إلى البابِ الكريم بسلام رحلَ عنه فؤادُ مألوفه ، وقد حمَل من رسائل الصَّفاء والوُدّ مثلَ ماحملتْ ، وحصلتْ من القلوب على ماحصَل وحصَلتْ ، والمأمولُ بسؤال الإصغاء إليها والبناء والإنعامَ على الحبِّ المشارِك بمشرَفات تجلو عليه أيامَ بُعْده عن أوقات وصْله إذا وصفها المشتاقُون وأقلامُهم دلَّوْا بأنامِل تحتفى من اللمع ، فأبرح ذكرُ مولانا عليًّا ، ويدُّ تملأ الآمال مآلَه ، ووصفُه بالنَّدى وحسابُ الجود على الحالين وليًّا :

Marfat.com

* * *

يامُنْيَـــةَ النَّفْس ويا مَالِكِى * مُذْ غِبْتَ عَنِّى لم تَـــنَمْ مُقْلتِى!

إنْ بِنْت عن عَيْنى بَرَغْمِى فقَدْ * سَكَنْتَ فى قلْبى وفِى مُهْجَتِى!

لا أوحشَ اللهُ من طَلْعتــه ، ولا أخْلىٰ من كريم مساعدَتِه ، وجمَعَ شَمْـل الأُنْس بخِدْمتـــه .

المملوك يشكُو من المولىٰ فِراقاً أوجب له علىٰ نَفْســه فَرَقا ، وجيْشَ صُـدُود منحَه من العَزائم طوَائفَ وفِرَقا ، وداءَ صَبابةٍ كلَّمـا ترجَّى الإفْراقَ[1] منه ازْداد تلَهُّبا وحَرَقا ، ووجُوبَ قلبٍ تحتَّم لغَيْبتــه ووجَب ، ودَمْعَ عينٍ يمحو مهْما عَبَّر عنه لسانُ قلمه أو كتَبْ ، وقد أطال الهَجْرُ تألُّمَه وعَتْبَه ، وأطار سِنَته ولُبَّــه ؛ مُذْ وصل المولىٰ غيْرَ وقَطَع عنــه كُتْبه ، والمولىٰ يعلمُ أنَّ المملوك لفظٌ والمولىٰ معناه ، وسعْدَه شخص وأنت وجْهُــه الميمُونُ ويُمْناه ؛ فبُواتر إرسالَ مكاتَبَاته ، ويُتْحِف بمأثُورِه ولُبَاناته ؛ ويعطِّر بذكرِه الجميـلِ الأماكِنَ ويُثَــنِّف المَسَامع ، كما شَرَّف بحُلُوله فيها الأضالِـع ؛ والله يُديمه ويُمِدّه بالإسْعاف والإسْعاد ، وينصُره علىٰ الأضداد والحُسَّاد :

* * *

أُقاسِى منْ بِعَــادِكَ ما أُقاسِى * وقلْبُــكَ راحِمٌ وعَلَىّ قاسِى!

وأحْمِلُ مِن نَوَاكَ بضَعْفِ نفْسٍ * عَنَاءً يُعْجِز الشُّمَّ الرَّوَاسِى!

وتُبْعِــدُنِى وأمْرُك إنْ أتَانِى * جعلْتُ مَحَـلَّه عيْنِى ورَاسِى!

---

(١) أى البرء مصدر أفرق العليل إفراقا اذا برأ من علته . انظر اللسان ج ١٢ مادة ف رق .

Marfat.com

قَرَّب اللهُ أوْبتَه، وعجَّل رُؤْيَتَه، وحَرَس نَفْسه من الغِيَر والحادِثات، وصان حِجابَه المنيعَ عن الملِمَّات المُؤْلِمات، وجَمَّل الأيامَ بوجُوده، والأنامَ بجُوده. ولا زالتِ الدنيا به مَجَمَّله، وأعناقُ أبنائها لِمِنَنِه متحمِّله .

صدرتْ هـذه الخدمةُ إلىٰ خِدْمته متضمِّنةً إهداء سلامه، وشاكِيةً لغَيْبته جَوْرَ أيَّامه، ومُنْهِيةً شِدّةَ أشواقِه التى أفْنَتْ بالصَّبابة قَلْبَه، وأذهبَتْ حُشَاشَتُه ولُبَّه، وهى فى ذلك نائبةٌ مَنابَ سائرِ الخَدَم، ومعبِّرةٌ عن ألْسِنَة الأقاليم بلِسانِ القَلَم، فإنَّ الأعيُنَ متطلِّعة إلىٰ رُؤْيته، والقُلوبَ متعطِّشة إلىٰ قُفُوله ورَجْعته، كما تتطلَّع إلىٰ السماء عُيونُ النَّرْجِس، وتتعطَّش الرِّياضُ إلىٰ الوابل الغَدَق بعـد اليوم المُحِرِّ المُشْمِس، فالمولىٰ يهمِلُ مواصلَتَه بأخباره فَرْضًا لازِما، ويمتنِـع من إغفالِه كما يمتنِـع من لَذَّة الطعام إذا كان صائِمًـا، فإنَّ المَوْلىٰ هو صورةُ الجُود ومَعْناه، وبيتَه الكريمَ فِنـاءُ الخير ومَغْناه، والناسُ مالم يرَوْك أشْباه، حرسه الله وتولَّاه، وضاعفَ عُلَاه، والسلام .

❖ ❖ ❖

يا أجْملَ النـاس سَنَاءً وسَـنَا * جفَتْ جُفُونِى لجَفَاك الوَسَنَا!

ثِمـارَ آلَامٍ إلامَ أجْتـنِى؟ * يا لَيْتنِى أعلَمُ حَظِّى ما جَنَـا؟

وأنْتُمُ يا أهْـل بانِ لَعْلعٍ * مُذْ بِنْتُمُ لم أرَ شَيْئًا حَسَـنا!

أقمْـتُمُ بمُنْحَـنىٰ أضالِعِى * وسِرْتُمُ يا أهلَ وادِى المُنْحَنا!

فى بُعْـدِكم مَنِيَّتِى لا تَبْعُـدُوا * وقُرْبُكُم غايَةُ سُؤْلِى والمُنَا!

خلَّد الله سعادته، وبلَّغه من العَلْياءِ إرادتَه، وأثَّل مَجْده، وأدام سعْدَه، وأعذَبَ مَنْهَله ووِرْدَه .

Marfat.com

المملوكُ يتشَوّقُ إلىٰ لِقائِه، ويتشوّفُ إلىٰ أنْبائِه، ويصِفُ شديدَ اشواقه وصَبَابته، وحنِينَه إلىٰ مشاهدةِ المَوْلىٰ ومشافَهتِه، وما يجدُه لذٰلك من ألَمٍ فى جَوَارحه الجَرِيحه، وسَقَمٍ فى جَوانِحِه الصحِيحه؛ ويلتَمِس مواصلَتَه بكُتُبه آناءَ الليلِ وأطرافَ النهار، وأخبارِه السارّةِ ليتضاعفَ له مزِيدُ الاِستِبْشار؛ فإنّ القلْب بنَار الصَّبابة قَدْ وَقَدْ، وأما صبْرُه علىٰ [بُعْدِه] فقَدْ فَقَدْ؛ ومتىٰ ورد كتابُ المولىٰ شُفِى الغَلِيل، وأبَلَّ العَلِيل، ونَجَع طعْمُ الحياة ونَجَح التأْمِيل؛ فليصَيِّرْ وَتْر مكاتَبَاتِه شَفْعا، ولا يجعَلْ لوصْلِهنّ قَطْعا؛ والله يمنَح عيشَه خَفْضا ومكانَه رَفْعا، والسلام.

شعر فى معنىٰ التشوّق:

قد كانَ لى شَرَفٌ يصْفُو برُؤْيَتِكم * فكَدَّرَتْه يدُ الأيَّامِ حينَ صَفَا

غـــيره:

كتَبْتُ (١) للكتابِ مجَلِّدٌ * علىٰ أنّه قَبْـلِى بلُقْياكَ يسْـعَدُ

النـــوع الســادس

(فى الاِســتِزارة)

قال فى "موادّ البيـان": رِقاعُ الاِستزارةِ إنما تشتَمِلُ علىٰ وصْفِ حالاتِ (٢) الأُنْس ومجالِسِ اللَّذّات، ومَشَاهِد المَسَرّات. قال: ويجبُ علىٰ الكاتب أن يُودِعَها حُلْوَ الألفاظ، ومُؤْنِقَ المَعانِى وبارِعَ التشبيهات؛ ويُبالِغ فى تشويق المستَزَار إلىٰ الحضُور، ويتلطّف فيه أحسنَ تلَطُّف.

---

(١) بياض فى الاصل ولعله "وشوقى للكتاب الخ".

(٢) لعله مجالات كما لا يخفى.

Marfat.com

وهذه نسخ من ذلك :

على بن خلف :

رُقْعتى ـ أطال اللهُ بقاءَ سيدى ـ ومَجْلِسى بمَنْ حلّه من خَدَمه ، ونزلَهُ من صَ
كرمه ؛ فلَكُ مُزَيَّنٌ بأنجُمه ، فإنْ رأىٰ أن يُطْلِع فيه بَدْرا بطُلُوعه وينقلَ قَدَمه إلي
ويُكمِّل نقْصَهم بتمَامِه ؛ ويُضيف ذٰلك إلىٰ تَلِيد إنعامه ، فعل ؛ إن شاء الله تعالىٰ

وله فى مثـــله :

قد آنتظمَ لنا ـ أطال اللهُ بقاءَ سـيدى ـ مجلسٌ رقّتْ حَواشِيه ، وتبَسّمتْ
عن حَبَب ، كالأَلِيءَ علىٰ ذَهَب ، وقامتْ فيـه سُوقُ السُّرور ، لا يُكْسِدُها إلا تَ
عن الحضُور ؛ فإنْ رأىٰ أن يُكمِّلَ جذَلَنا بإطْلاع طَلْعتِه علينا ، ويصَدِّق ظنّنا بـ
قدمه إلينا ؛ سَرَّ وأبْهج ، وتمَّم من الإحسان ماأخْدجَ ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وله : هذا ـ أطال اللهُ بقاءَ مولانا ـ يومٌ صَـفِيق الظِّلّ ، رقيقُ غِلالةِ الطّ
قد ترفّعتْ شمسُـه ببُرْج أُنسه ، وأفترّ جَذَلا عن مَضاحك بَرْقه ، وترنّم طَربا بزَ
رعده ؛ ووَشَتْ مَدارِجُ نَسيمه ، بأَرَج شَميمه ، وقام علىٰ مَنابِر السُّرور يخطُب
الكَرْم لأبناءِ الكِرام ، وينادِى بأعْلىٰ صَوْته : حَيَّ علىٰ المُـدام ؛ فقد وجبَ علىٰ
موفَّقٍ لآجتناءِ ثِمار السُّرور ، والْتحافِ عِطَاف الحُبُور ، أنْ يلبِّى دَعْوتَه ،
فُرْصتَه ؛ ويَعوّضَه من شَمس الآفله ، براح لإظهار ما آختفىٰ من
ويقفَه علىٰ التَّملّى بالكاس والنُّدمان ، ويجعلَه سِلْكا ينتظِمُ فيه الإخوان . ورقّ
هذه صادرةٌ إلىٰ مولانا ، وقد تهيّأ لنا مجلسٌ من مجالس الأُنْس ، يَبْسط تجعُّدَ النف

(١) لعله "افقه" .

Marfat.com

فيه بَغْم ونَغْم ، ومِزْهر وزَهْر ، وخُلَّان قد تراضَعُوا لِبانَ العُقَار ، وتَساهموا نَقْلَ[1] الوَقَار ، وشَجُعُوا فى مَعَارك الخَمَّار ، وأدْمَنُوا علىٰ المُماساةِ والاِبْتِكار ؛ إلَّا أنَّ هـذا المجْلِس مع تَمامِه مُخْدَج ، وعلىٰ كمالِهِ مختَلَجْ ؛ لبُعْد مولاى الحالِّ منـه محَلَّ الواسطة من النِّظام ، والأرْواحِ من الأجْسام ؛ فإن رأىٰ أن يُكَمِّل منه مانَقَص ، ويُميط عنه [مانَغَّص] فليْجَمِّلْنا بالمَصِير إلينا ، والطُّلُوع علينا ؛ وإعْفائِنا من إضْجار الاِنْتظار ، معتدًّا بذٰلك فى كريم الأيادِى والمَبارّ ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى مثـــله :

هـذا اليومُ ـ أطال اللهُ بقاءَ سـيدى ـ يومٌ أعْرس فيـه الجَوُّ بالجارِيَة البيضاء فخدَرها ، وحَجَبها بسَجْف الغَمَام وسَتَّرها ؛ واختالَ اختِيالَ المعَرِّس فى مُعَرَّسه ، بمُصَنْدَله ومُمَسَّكه ومُورَّسِه ؛ واتَّخـذ من ذَهَب البَوارق نِثَارا ، واستَنْطَقَ من زُنَّار الرَّواعد أوتارًا ؛ ودعا إلىٰ حُضُور وليمتِه ، والسُّرورِ بمَسَرَّته ؛ فإنْ رأىٰ أن يلَبِّىَ[2] طلب هذا اليومِ الصَّفِيق ، ويتمتَّع بعيْشه الرافِـغِ الرَّفِيق ؛ فلْيُطْلِـع علينا طَلعتَه التى تَبْهَرُ القمرَ المُزْهِر ، وتَصْدَعُ الليلَ المعتَكِر : ليُنْهِض غُرَّة الإصباح ، بغُرَّة الراح ، ويَقْطِفَ ثِمـارَ الأُنْس والمحاضره ، ويتملّىٰ بالسَّماع والمُذاكره ؛ ويأخُذَ بحظٍّ من لَذَاذة الفَيْخةِ الشبيهةِ بشمائله ، ويُعَدَّ ذٰلك من مَبارِّه وفواضِله ؛ [فعل] إن شاء الله تعالىٰ .

وله فى الاستزارة فى بُسْتان :

كتبتُ ـ أطال الله بقاءَ سيِّدى ـ وقد غدوْتُ فى هذا اليومِ [إلىٰ] بُستانِى والطَّيْرُ فى الأوْكار ، والأنداءُ تَهْبِط كالتَّيَّار ؛ والليلُ مشتَمِلٌ علىٰ الصَّـباح ، اشتِمال الأدْهَمِ

(١) هو بالفتح وبالضم وبالتحريك ما يتناقل به على الشراب . أنظر اللسان ج ١٤ .

(٢) فى الأصل « أبطل » ولعله من تصحيف الناسخ .

Marfat.com

علىٰ الأَوْضاح؛ عازمًا علىٰ مشارَفَته ومُشارَفَة ما آستمَدَدْتُ من عِمارته، لا للخَلْوة فيه بمُعاطاةِ المُدَام، ومُؤانَسةِ النِّدام؛ فحين سَرَّحتُ الطَّرْف فى مَيادِينه وجَداوِله، وأقبَلْتُ علىٰ تصَفُّح حلَاه وحُلَله؛ رأيتُ مَنَاظِرَهُ تعتلِقُ القلوبَ آعتلاقَ الأشْراك، وتعتاقُ المستَوْفِزَ عن الحَرَاك؛ وتُقِيم قاعِدَ المِزَاج والنَّشاط، وتُوقظ هاجِدَ الفَرَح والآنبِساط: فمن أشجارٍ كالأَوانِس، فى رَيْحانِيِّ المَلَابس؛ حاليةٍ من مُوَشَّع الزهر والثمر، بأنْصَعَ من الياقُوت والجَوْهر؛ كأنما تحفَّلتْ لآجتلاءِ عَرُوس، أو مُعاطاةِ كُئُوس؛ مابينَ نَخِيلٍ قد نشرَتْ عَذَبَ السُّنْدس علىٰ ذُرَاها، وأطلعَتْ طَلْعا كالخَنَاجر غَشِيَها صَدَاها؛ ونارَنْج يحمِلُ أكبرَ العِقْيان، أو وجَنَات القِيَان؛ وأُتْرُجٍّ قد آستعار ثمَرةَ أشْواقِ العُشَّاق، إذا صالتْ عليهم يَدُ الفِراق. ومن رِيضان[1] زاهيةٍ بنَشْرها، وقُضُبُها مختالةٌ فى مَلَابِس زَهْرها؛ ونَرْجِسُها كعينِ محبٍّ حَدَّق إلىٰ الحبِيب، وثنَىٰ جِيدَه خوفَ الرَّقيب، إذا عبَثَ به النَّسيمُ جمعَ بينَ كلِّ قَضِيب وإلْفِه، وسَعىٰ بالآعتناقِ من شَوْقه وكَلَفِه؛ ووَرْدُها كمَدَاهِنِ ياقوتٍ فيها نُضَار، وشقيقُها كمُدامات عقيقٍ فيها صُوَار[2]؛ وبَنَفْسَجُها كفَذٍّ تمْضى فيه من القَرْص آثَار؛ أو جامُ لُجَيْنٍ عليه من النَّدىٰ نِثَار. ومن أنْهارٍ قُدَّتْ حافاتُها قَدَّ الأدِيم، وحُدَّتْ علىٰ صراطٍ مستقِيم؛ بحرة مَسْجوره، كالسُّيوف المشْهُورة أو المَهارِق المنْشُوره؛ إذا خمَشَها الهوىٰ خلَع عليها مُتونَ المَبَارِد، أو سُلُوخَ الأَساوِد؛ يتخَرَّق ذٰلك كلَّه نسِيمٌ رقيقُ الغَلَائل، حُلْوُ الشمائل؛ يسعىٰ بالنَّمِيم، فى المَعَاطِس والشَّمِيم؛ انْصَبَّتْ إلىٰ مجلِسٍ فَسِيحِ البِناء، ضيِّق الأفْناء؛ مُوَشَّىٰ الجُدْران والسَّماء، فى صَدْره شاذَرْوان يَرْمِى بكِسَر البَلُّور، وفى وسَطه نَهَر ينْسابُ ماؤُه آنسيابَ

(١) الريضان والرياض جمع الروضة.

(٢) الصوار والصوار «أى بالضم والكسر» الرائحة الطيبة والقليل من المسك أنظر ج ٦ ــ ص ١٤٧ من اللسان.

Marfat.com

الشُّـجَاع المَذْعُور ، وتتوَسَّـطُه بِرْكَةٌ مُنَمنَمَةٌ ينصَبُّ المـاء إليها بالدَّوالِى إلىٰ أربع شاذَرْوانات ، ويخْرُج عنها من أربع فطيمات ؛ يحتَفُّها كلُّ شجرٍ مُثْمِر ، وروْضٍ مُزْهِر . فقلت : هـذا المَرادُ الذى يحُطُّ به الرائدُ رَحْلَه ، ويُوفِدُ إليـه أهْـلَه ؛ ويدْعُو إلىٰ اختيار مَنْ يهُبُّ إلىٰ السُّرور ، ويُساعِد علىٰ الحضُـور ، للمشاركة فى التمـلِّى ببَهْجتِه ، والتمتُّع بنَضْرته ؛ فكان مولاى أوَّلَ مَنْ جَرىٰ إليه ذِكْرى ، ووقَع عليه طَرْفُ فِكْرى : لأنه الساكنُ فى فُؤادِى ، الحالُّ فى مَحَلِّ رُقَادى ؛ فإنْ رأىٰ أراه الله ما يُقِرُّ العينَ أن يُكَمِّل مسرَّتِى بنَقْل قَدَمِه إلىّ ، وإطْلاع سعدِ طَلْعته عَلَىّ : ليتَمِّم محاسِنَ ما وصَفْته ، ويكمل الالتذاذ بما شرحْتُه ؛ فعل إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة رقاع الاستزارة

قال فى "مواد البيان" : لا يخلُو المستَزَار من الإجابة إلىٰ الحضُور أو التثاقُل عنه فإنْ حضَر علىٰ النَّوْر ، فلا جوابَ لمـا نَفَذ إليـه ، وإن وعَد الحضُورَ وتلَوَّم ليقْضِى شُغلا ويحضر ، فينبغى ان يَبْنِى الجوابَ علىٰ سُروره بما دُعِى إليه ، وحُسْنِ مَوْقِعه منه ، وأنَّ تلَوُّمه للعائق الذى قَطَعه عن أن يكون جوابًا عما وردَ عليه ، وأن حضُوره يَمْنَع رُقْعته . وإن أَيِس من الحضور ، وجبَ أن يبنَى الجوابُ علىٰ ما يمهِّد عُذْرَه ، ويقرِّر فى نفس مستَزِيره أنه لم يتأخَّر عن المساعدة علىٰ الأنس إلا لقَواطِعَ صدَّت عنه ، يعْلَم المعتذَر إليه صحَّتَها لينحرس ما بينَهما من المودّة ، فإنَّ كثيرا ما تتَفاسدُ الخُلَّانُ من مثل هذه الأحوال .

Marfat.com

النـــــوع السابع

(فى ٱخْتِطاب المَوَدّة وٱفتتاحِ المكاتَبـــة)

قال فى " موادّ البيان " : الرِّقاع الدائرةُ بين الإخْوان فى ٱختطاب المُعاشَره، وٱنتماء المكاثره، وطلبِ الخُلْطة والمُؤانَسة، يجب أن يقَدَّر الخطابُ فيها علىٰ أن يَصِل المرغوبُ فى عِشْرته إلىٰ الٱنخراط فى سلك أحبائه، والٱنحياز إلىٰ أهل وَلَائه، ويبعَثَ علىٰ قَصْده، فى الٱلتحاق بوُدّه، ويُدلّ علىٰ المماحصه، والصَّفاء والمخالَصه، وما جرىٰ هذا المَجْرىٰ مما يتعامل به أخِلّاء الصِّدق، ويجعلونه مَهْرا لما يلتَمسُونه من الممازَجه، ويرُومُونه من الٱختلاط والمواشَجَه .

قال : وينبغى أن يذهب الكاتبُ فى هذه الرِّقاع مَذْهبا لطيفا، ويُحْسِنَ التوصُّلَ إلىٰ الإفصاح عن أغراضها : ليأخُذَ بمَجامِع القُلوب، ويُعين علىٰ نَيْل المطْلُوب .

وهذه نسخ من ذلك :

رقعـــة : ويُنْهِى أنَّ المملوكَ لم يزَلْ مُذْ وقع طَرْفُه علىٰ صُورتِه، ولَجَ سَمْعَه بُعْدُ شِيمتِه، يُناجِى نَفْسَه بافتتاح مكاتَبتِه ومراسلَتِه، وٱخْتِطاب ممازَجتِه ومواصَلتِه، رغبةً فى الٱعتقاد بإخائه، والٱرتشاف من مَشارِع صَفَائه، والمقاديرُ تَطْوِى الطَّوِيَّة علىٰ ما فيها، والعوائقُ تُمْطِل النيَّـةَ بنَجاز ماتَنْويه وتَلْوِيها، إلىٰ أنْ أذِنَ الله [illegible] بإعراض الأعْراض، وٱنقباض أسبابِ الٱنقباض، فأظهر المملوكُ [illegible] القوّة، واثقا من مَوْلانا بحُسْن المُرُوَّة، وأنه يوجب القَبُول بإجابته، ويُجيب إلىٰ مساعدته، ويرضىٰ المملوكَ أهلا لٱصطفائه، ومحلًّا لإخائه، عالمًا بإيجابه للحقّ، والمعرفة بالسَّبْق، وأن تُلقىٰ هذه الرغبةُ بالقَبُول، ويُسَلَّم إليها مفتاحُ المأمُول .

Marfat.com

رقعـــة : لو كانتِ المودّةُ لا تحصُـل إلّا عن أُلْفة تالِدَة ، ومُواصلةٍ سالفة ؛ لم يستَطْرِف المرءُ صفِيّا ، ولم يستحْدِث وَلِيّا . وما زال البُعَداءُ يتقارَبُون ، والمتناكُرُون يتعارَفُون ؛ ولمّـا نُمِيَ إلىٰ المملوك من أنبـاء مولانا ماتضَوَّع عِطْره ، وطاب نَشْرُه ؛ سافرَ بالأمَلِ إليه ، وقدِم بالرَّغبة عليه ؛ طالبًا الانخراطَ فى سلك أوْليائه ، والاختلاط بخاصّـته وخُلَصائه ؛ ومثلُ مولانا مَنْ أجاب السُّول ، وصَـدَّق المأمُول ؛ والمملوكُ يرجُو أن تكْشِف الأيامُ لمولانا منه عن خُلَّة صادقة ، ومَوَدّةٍ صحيحة ، لا تضِيعُ معها إجابتُه ، ولا تَخْسَر صَفْقتُه .

رقعـــة : ويُنْهِى أنّ المملوكَ مازال مُذْ وقع طَرْفهُ علىٰ صُورته البَدْرِيّه ، وأحاط علمًا بخلائِقه المَرْضيّه ؛ راغبًا فى مُواشَجَته ، باعثًا نَفْسه علىٰ اختطاب مودّته ، وإكبارُه يُقْعده ، وإعظامُه يُبْعده ؛ فلمّـا تطاوَل يراعُ هِمَّتـه ، شجعَتْ علىٰ إنفاذ عَزْمتِـه ؛ فقدّم مكاتَبَته أمامَ مشافهتِه ؛ فإن حظِىَ بالإجابة وتنويل الطِّلبة ؛ فقدْ فاز قِدْحه ، وتبلّج صُبْحُه ؛ ونال مُناه ، وبلغ رِضَاه ، وصادَفَ هَناه ، وَدِيدا موثُوقا بوُدّه ، مسكونا إلىٰ عَقْـده وعَهْده ؛ يحمَدُه عنـد الاختِبار ، ويعرِفُ به صحّةَ رأيه عند الاختيار ؛ والمملوك يرجو أن يصِحّ ماسأله وكَفَله ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة : ويُنْهِى أنّ منْ عَمَر اللهُ تعالىٰ بثَنائه المَحافِل ، وعطّر بأنبائِه الفَضائل ؛ وأقام من مَساعِيه الكِرامِ خطيبًا يخْطُب بسُودَده وفَضْلِه ، ويُعْرِب عن شرف مَحْتِده وأصْـله ؛ تطلّعتِ الآمالُ للانتظام فى سِلْك أحبّائه ، وتشوّفت الهِممُ إلىٰ الامتزاج بخُلَصائه وأوْليائه : لمـا يَضْفُو علىٰ المعتَصِم بعُرىٰ مُصافاتِه من لِباس جَمَـاله ، ويُحلّى المعتَزِىَ إلىٰ وَلَائه من حِلىٰ جَلَاله ؛ وأحقُّ مَنْ أسـعَفَه مولانا بالمودّة إذا خَطَبها ،

Marfat.com

وأجابه إلىٰ المُصافاةِ إذا طَلَبها ؛ مَنْ بدأه بالرَّغْبه ، ومَتَّ إليه بالمحبَّه ، لا لمُرْغِب ولا مُرْهِب ، وٱختاره لنَفْسه علىٰ عِلْم بكماله ، ومعرفةٍ بشَرفِ خِلاله .

وما زال المملوكُ مُذْ أطلعه اللهُ علىٰ ماخُصَّ به مَوْلانا من المحاسن المتعذِّرة إلَّا لدَيْه ، والفضائل الممتَنِعة إلَّا عليه ؛ يحُومُ علىٰ مَشارِع ممازَجتِه ولا يَرِدُها ، ويَرُومُ مواقِعَ مُواشَجتِه ولا يعتمِدُها ، إكبارا لقدره ، وإعظامًا لخَطَره ، وخوْفًا من تصَفُّحه ونَقْده ، وإبقاءً علىٰ ماءِ وجْهِه من رَدِّه ؛ والمملوكُ وإن كان عالمًا بأنَّ كرمَ مولانا يَرْقَع الخَلَل ، وفضْلَه يُصَدِّق الأمَل ؛ فإنه لايَعْدَم مذ رَغِب فى قُرْب مولانا مالعَلَّه يجِدُه فيه ، مما يُخالِفُ مذْهَبه ويُنافِيه ؛ إذ كان لا يبْلُغُ تَضاهِيه فى التَّمام وتَوافِيه ، إلىٰ أنْ أذِنَ الله تعالىٰ بأن أبلغ نَفْسه الأُمنِيَّه ، وأظْهر ماطُوِيَتْ عليه الطَّوِيَّه ؛ فكتب هذه الرُّقعةَ وجعلها فيما رامَهُ من الٱعتِلاقِ بحبْل مَوَدّته سَفِيرا ، وعلىٰ ماٱلتَمَسه من الٱنْضِمام إلىٰ جُمْلته ظَهِيرا ؛ وقَدِم بها عليه وظَنُّه يترجَّحُ من الإعراض إلىٰ القَبُول ، ثقةً بقُرْب نَيْل المأْمُول ؛ فإن رأىٰ أن يُجِيبه إلىٰ ماسأله ، ويُسَرَّه بتنويل ماٱقترَحَه ، فعل ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

اختطاب المودّة ومفاتحة المكاتبة من كلام المتأخرين :

الشيخ جمال الدين بن نُباتةَ :

وضاعفَ للممالكِ ببقائِه الٱنتِفاع ، وبٱرتقائِهِ الٱرتِفاع ؛ وسَرَّ بمحاسن نظره وخَبَره العِيانَ والسَّماع .

ولا زال للمحبِّين من وُدِّه عَطْفُ المتلَطِّف وللأعداء من بأْسِه خَطْفُ الشُّجاع . أصدرها المملوكُ منْطويةً علىٰ ماعَهِد من صِدْق المحبَّه ، ووفاءِ العهُود المستَتِبَّه ؛ ودُرَر

Marfat.com

المحامد التى لا تَسْوىٰ[1] لَدَيْها دُرَرُ العُقود حَبَّه ، مُبْـدِيةً لعلمه الكريم أنَّ المودَّات إذا صفَتْ ، والقلوبَ إذا تجنَّدتْ وتعارفَتْ ؛ حثَّت المحبِّين فى البِعاد علىٰ المفاتَحة بكُتُبهم ورسائلهم ، والمخاطبةِ فى ظِلال الأوراق بألْسِنة أقلامهم من لَهَواتِ أناملهم ؛ إيثارًا لتجديد الأُنْس ، إنْ صَحَّ المِيثاق ، وتَذْكارا لخَواطِر الوُدِّ ، وإن رسَخَتْ منه الأصولُ ونَمَت الأعْراق ؛ ولذلك فاتَحَ بها مخاطِبا ، وارتقَبَ لُمنادِيها بالأخبارِ السارَّة مُجاوِبا ؛ نائبةً عنه فى مشاهدةِ الوَجْه الكريم ، ومصافَحَة اليَدِ فى حديثِ بِرِّها القديم ؛ تستطلع أخبارَه ، وتستعْرِض أوطارَه ؛ وتُحيِّ بالسلامِ وجهَه وعَهْدَه وديارَه ، علىٰ يد فلان ، وقد حَمَل من المودَّات والمشافَهات ما يُعِيـده علىٰ السَّـمْع الكريم المُنْعِم بإصْـغائه ، المُصْغِي بنَعْمائه ؛ المتْحِف بالمهِمَّات التى يحصُـل فوزُ القِيام بها ، والمشرِّفات التى كلُّ أسبابِ السُّرور متصلٌ بسببها ، والله تعالىٰ يُبهِج من تِلْقائه سَمْعا ونظَرا ، ويُبْقِى عيشَ حاسده هَشيما وعيشَ محبِّيه نَضرا ؛ ويُديم رياضَ ذكره تاليةً علىٰ المساء : ﴿فأخرَجْنا مِنْـــه خَضِرا﴾ .

أجوبةُ آختطـابِ المَودّة

قال فى " مواد البيان " : لايخلُو مَنْ يُرام ذٰلك منه من أن يُجيب أو يعتَلّ ، فإنْ اجاب بنىٰ الجواب علىٰ وُقُوع رَغْبة المخْتَطِب أحسنَ مواقِعها ، وآبتهاج المخْتَطَب بها ، ومعرفتِه بقَـدْر مارآه أهلًا له وسارعتِـه إليه ؛ وإن آعتلّ بنىٰ الجواب علىٰ أنه قد عَرَض له مايقصر عنه ، ولا ترضى نفسُه به ، وأنَّ العذر [ليس] بعادةٍ له فى المَزايله ، وطريقةٍ فى الآنفراد والمجانَبَة .

---

(١) أى لاتساوى يقال سوى درهما يسوىٰ من باب تعب ومنعها أبو زيد . أنظر المصباح .

Marfat.com

النـــــوع الثـامن

(فى خِطْبـــة النِّســـاء)

قال فى "مواد البيـان" : الرِّقاع فى ٱلتمـاس الصِّهْر والمواصَلة يجبُ أن تكونَ مبنيَّةً علىٰ وصْف المخْطُوب إليه بمـا يقتضِى الرَّغْبة ، ويدل الخاطب عن نفسه بمـا يؤدِّى إلىٰ الكِفَاية والإسعاف بالطَّلِبة .

قال : وينبغى للكاتب أن يُودِعَها من ألفـاظ المعانى المنتظِمة فى هـذا البابِ أوْقَعَها فى النُّفوس ، وأعوَدَها بتقريب المَرَام ، وأدَلَّهـا علىٰ صِدْق القول فيما تكفَّله من حسن معاشرةٍ ، ولينِ معاملة ؛ وأنْ يذهب بها إلىٰ الٱختصار والإيجاز .

وهذه نسَخٌ من ذٰلك :

مِمـا أورده أبو الحسين بن سعد فى ترسُّله .

وأفضلُ تِلكَ المواهبِ مَوْقِعًا وألطَفُها وأحمدُها عاقبةً ، وأرهنُها يدًا ، مايؤلِّف اللهُ به القُرُبات ، ويؤكِّد به الحُرُمات ؛ ويوجِبُ به الصِّلات ، ويجدِّدُ به المَكْرُمات ، ويُحْدِثُ به الأنْساب ، ويقوِّى به الأسْـباب ، ويكثِّر به من القِـلَّة ، ويجمَعُ به من الفُرْقة ، ويُؤْنِسُ به من الوَحْشة ، ويُزادُ به فى الحقُوق وجُوبا ، وفى المودّات ثُبُوتا ، ثم لامثلَ لمـا كان لله طاعةً ورِضاء ، وبأمره أخذًا وٱقتداء ، وبكتابه قُدْوة وٱستنانا ، فاللهَ نسألُ الخِيَرَةَ فى قضائه ، والبركةَ فيما يقوم بناؤك عليه (١) .

---

(١) فى الاصل فيما يعزم .

Marfat.com

ومنـــه : تَصِلُ رَحِما، وتعْقِد سبَبا، وتُحدِث نَسَبا، وتُجدِّد وُصْلة، وتؤكِّد أُلْفة .

رقعـــة : مَنْ خصَّه الله تعالىٰ بمـا خَصَّ به سـيِّدى : من طَهارة الأعْراقِ والأنســاب ، وشَرفِ الأخْلاق والآدابِ ؛ وأفردَه بآجتِماع خِلَال الخـير المتفرِّقة فى الأنَام، وعَطَّر بثنائه مَلَابس الأيَّام؛ رغِبَ الأحرارُ فى مُواصَلته، وهانَ عليهم بذْلُ الوجه فى آختِطاب ممازَجته، وآلتمـاس مُواشَجته ومناسبَتِه؛ وجديرٌ من رُغِب إليه، وطُلب مالدَيْه؛ وآخْتِير للمشابكَةَ فى الوَلَد واللُّحْمه، والمشاركةِ فى المـال والنِّعمه ـ أنْ يجيبَ ولا يمنع ، ويصـلَ ولا يقْطَع ؛ مصدّقًا لأملِ من أفرده بآرتِيَاده ، وتوحَّده بآعتماده ؛ عارفًا له حقَّ آبتـدائه بالثِّقة التى لايجُوز ردُّ من آعتقَـدَها، ولا صَدُّ من حَسَّن ظَنَّها؛ وقد علم اللهُ تعالىٰ أن [مضىٰ] للمملوك مدّةطويلة [وهو يَبْحثُ] متطلِّبًا سَبَبا للتأهُّـل، مُؤثِرا لِعمَارة المنْزِل، راغبًا فى سَكَنٍ تطْمئِنُّ النفسُ إليـه ، وتعتمِدُ فى الفَوائِح والمَصايِر عليه؛ وكُلَّمـا عُرِض للمملوك بيتٌ أبَاه ، أوذُكِر له جَنَابٌ قطَع عنه رَجَاه : لعدم بعض الشروط التى يُريدُها فيه ، وتعذُّرها عليه ؛ فلمـا قَرَع سمْعَه ذكْرُ سيدِى ، علِم أنَّه الغايةُ التى لامَرْقىٰ بعدها ، والنهايةُ التى لامَطْمَحَ وَراءَها، وأنه قد ظَفِر بالثِّقة ، ووصـل إلىٰ الأُمْنِيَّـة ، ووجد من يجمَع الخِلَال المرضِـيّة ويزيد؛ ويحُوز من الفضـل الشأْوَ البَعِيد ، وكتب المملوك هـذه الرقعةَ خاطبا كريمَته فلانة [ليكون لهـا] كالغِمْد الضامِنِ للهنَّد ، والجِلْد الحافظ للجَلَّد؛ ويكونَ لمولانا كالوَلَد البَرِّ بأبِيه ، ولأخيها كالصِّنو الشفيق علىٰ أخِيـه ؛ فإنْ رأىٰ سيدى أن يتدَبَّر ما كتبه المملوكُ و يَتَسمَّعَ من توكيد رُقْعته ماحمَلَتْه ،ويجِيبَه إلىٰ ماسأله فله عُلُوُّ الرأْي فى ذٰلك ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

Marfat.com

Marfat.com

مطالعته هذه مالم تسَعْ إيداعَه المكاتبة، فإنْ رأىٰ مولانا أن يُصْغِيَ إليه ويُجِيبَ عبْدَه بما يعتمِدُه المملوكُ فى ذلك فله الفضْل، إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة : ويُنْهِى أنـــ لذَوِى المَناجِب الطيِّبةِ الأنساب، والمَناحِت الزَّكيّـة الأحســاب ؛ والأخلاقِ الكريمةِ والآداب ، بين الأنام لِسانُ صِـدق يخطب لهم بالمَحاسن والمَحامد، ويُسَطِّر بثنائهم الصادِرَ والوارِد ؛ ويدْعُو القلوبَ إلىٰ نَيْل عُلَقه من ممازَجتهم ، والتمسُّك بطَرَف من مُواصلتهم ؛ وقد جمعَ اللهُ لمولانا من كريم المُتْلَد(١) والمُطْرَف، وقَديم وحديثِ الفضـل والشَّرَف ، ماتفرَّق فى السِّيادات ، وتوزَّع علىٰ أهل الرياسات ؛ وجعله فى طَهارة المَوْلِد، وطِيبة المُحتِد ؛ واستكمالِ المآثر، واستِتْمامِ المَفاخر، عَلَمـا ظاهِرا ، ونَجْما زاهِرا ؛ فمـا مِنْ رئيس سِوىٰ مولانا تُعْجِزه خَلَّة من خلَال الرياسة إلا وجدَها لدَيْه ، ولا نفيس تُعْوِزُه خَصْـلةٌ من خِصال النَّفاسة إلَّا آستماحها من يدَيْه ؛ ولذلك آمتدّتِ الأعناقُ إلىٰ آلتمسُّك بحبْله ، وتطلَّعتِ الهِمَمُ إلىٰ مُواشَجته فى كريم أصْله ؛ وصار مرْغُوبا إليه لأراغِبا ، ومطلوبًا لديْه لاطالِبا ؛ وهو جديرٌ بما وشبَّهُ الله من هذا الفضل الذَّائع ، والنُّبْل الشائع ، أن يُجِيب سائلَه ، ويُصَدِّقَ آمِلَه ؛ ولا يتجهَّم فى وَجْه قاصِده ، ولا يردَّه عن مَقْصَده ؛ ولا سيَّما إذا كان قد أسلفَه الظنُّ الجميل ، وبدأه بالثِّقة والتأميل ؛ وتعذَّر عليه قدرُ العارف بقَدْره ، العالِم بخَطَره ؛ المرتضِى بشرائطه ، النازل علىٰ حكمه ، المتدبِّر برأيه ؛ وقد علم اللهُ تعالىٰ أنَّ المملوك مُذْ نشأ وصَلَح للتأهُّل مرغوبٌ فيه ، مخطوبٌ إليه ؛ من عِدّة جهاتٍ جليلة ، وجَنَباتٍ رئيسة ؛ والمملوكُ صادٌّ عن الإجابة ، صارفٌ عن المطاوَعة : لشُذُوذ بعض الشُّروط التى يرُومُ أن تكون مجتمعةً فى النَّسب ، الذى أعُـدّه شريكًا فى الوَلَد والنَّشَب ؛

---

(١) المتلد (أى كمكرم) ماولد عندك من مالك أو نتج ومال متلد قديم .

Marfat.com

ومَفاوضًا فى الحال والسَّبَب ؛ مرتادٌ من يقْنَع بالموافقه ، ويرتضى بالعِشْرة والمرافَقه ؛ حتّى أفضىٰ فى الٱنتقاد إلىٰ مولانا فوجد المُرادَ علىٰ ٱشتراط ، وألىٰ المقصودَ علىٰ ٱشتطاط ؛ فدعاه ذٰلك إلىٰ التهَجُّم بعد الإحْجام ، وحمله علىٰ التجاسُر والإقْدام ؛ والتوسُّلِ إلىٰ مولانا بما يتوسَّل به الأحرار ، إلىٰ الأخيار ، وأمَّه بصادقِ الرغبةِ وصميم المحبة والٱنبساط ، فى خِطْبة كريمته فلانة ، علىٰ أنْ يعاشِرها بغاية الأُنْس ، ويَصْحَبها صُحبةَ الجسَد للنَّفْس ؛ ويَعْرِفَ لها من قَدْر أبوَّتها وأُمومتها ماتستحقُّ برياستها ، وقد أصدر هذه الرقعةَ نائبةً عنه فى ذٰلك ؛ فإنْ رأىٰ مولانا أن يتحفه بالقَبول ، ويجعله أهلا لإجابة السُّول ، فله الفضل فى ذٰلك ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

ومن النادر الغريب ماذكره الشيخ شهابُ الدين محمود الحلبى فى "حُسْن التوسُّل" فى الكتابة إلىٰ شخص فى تزويج أمه ، وهو :

هذه المكاتبة إلىٰ فلانٍ ـ جعله الله ممن يُؤْثِر دِينَه علىٰ الهوىٰ ، ويَنْوِى بأفعاله الوقُوفَ مع أحكام الله تعالىٰ فإنما لكُلِّ آمرئٍ ما نوىٰ ، ويعلَمُ أنَّ الخَيْر والخِيرَةَ فيما يسَّره الله من سُنَّة نبيه صلّى الله عليه وسلم وأنَّ الشرَّ والمكروهَ فيما طوىٰ ؛ نعرِّض له بأمرٍ لاحرجَ عليه فى الإجابة إليه ، ولا خَلَلَ يلْحَقُه به فى المُروءة وهل أخَلَّ بالمُروءة مَنْ فعل ماحَضَّ الشرْعُ المطَهَّر عليه؟ وأظهرُ الناس مُروءةً من أبلغَ النفْسَ فى مَصالح حُرَمه عُذْرَها ، ووَفَّى من حقُوق أخصِّهن ببِرِّه كلَّ ماعلم أنَّ فيه بِرَّها ؛ وإذا كانت المرأة عَوْرة ، فإنَّ كمالَ صَوْنها فيما جعل اللهُ فيه سَتْرَها ، وصَلاحَ حالها فيما أصلحَ اللهُ به فى الحياة أمْرَها ، وإذا كانتِ النساءُ شقائقَ الرجال فى باطن أمر البشَرِيَّة وظاهره ، وكان الأولىٰ تعجيلَ أسباب العِصْمة فلا فرقَ بين أوّلِ [وقت](١) الٱحتياج [إلىٰ ذلك](٢)

(١) الزيادة من "حسن التوسل" ص ١١٦ .

Marfat.com

وآخره ، وما جدع الحلال أنف الغيرة إلا ليزول شمم الحمية ، وتنزل على حكم الله فيما شرع لعباده النفوس الأبية ، ويعلم أن الفضل في الانقياد لأمر الله لا في اتباع الهوى بفضل الولية ، وإذا كان بر الوالدة أتم ، وحقها أعم ، والنظر في صلاح حالها أهم ، تعينت الإجابة إلى ما يصلح به حالها ، ويسكن إليه بالها ، ويتوفر به مالها ، ويعمر [illegible] وتحمل به كلفة خدمها عنها ، [illegible] منها ، ويضفو به ستر الإحصان [illegible] تتبع مواقع الإحسان إليها .

[illegible] بنفسه ، واعتده من أسباب [illegible] أن استكمال البر مما يعلى [illegible] هشاما لما سأله : لم زوجت [illegible] فقال [illegible] [إلى المولى] (١) في ذلك [illegible] لاجتماع دنياه ودينه ، [illegible] في أمنع حرم ، وتستظل [illegible] وعلو قدره [illegible] محل والده ، وأن يتجمل [illegible] فإن المرء كثير بأخيه ، [illegible] فإن عم الرجل صنو أبيه ؛ وأنا أتوقع [illegible] من البر أفضل ما ينتقى ؛ [illegible] قال الأحنف وقد وصف بالأناة : لكني أتعجل أن لا أرد كفؤا خاطبا .

(١) [illegible] من "حسن المرسل" .

النوع التاسع

(في الاسترضاء [illegible])

قال في "مواد البيان": [illegible] الرؤساء [illegible] الكبراء [illegible] تحتاج إلى حُسْن تأتٍّ [illegible] من مَرْعِيِّ الخِدَم [illegible] القلوب، ويستنزل [illegible] في تأليف الكلام.

قال: وينبغي للكاتب [illegible] واستيفاء المعاني [illegible] بالبَراءة مما قُرِف [illegible] رُمِي به، فإنَّ [illegible] لهم بالتقصير [illegible] توجبُ شكرا [illegible] فلا يُوضَع الإحسان إلا إليه [illegible] ذلك واجبٌ له [illegible]

---

(١) في الأصلين [illegible]

(٢) المراد أن إقراره والرضا [illegible]

وهذه نسخٌ من ذلك :

لأبى الحســين بن سعد :

فإن رأيتَ أن تنظرَ فى أمرى نظرًا يُشبِه أخلاقَك المرضيَّة ويكون لحسن ظنّى بك مصدّقًا، ولعظيم أملى [فيك] محقّقًا، ولِمَا لم تزل تعدُنيه مُنجزًا، ولحقّ حُرمتى بك وقديم اتّصالى بأسبابك قاضيًا، فعلت، إن شاء الله تعالى .

ومنـــه : لسليمانَ بنِ وَهْب .

مَنِ انصرفَ فى الاحتجاج إلى الإقرار بما يلزمه وإن لم يكن لازمًا، فقد لطّف الاستعطاف، واستوجب المسامحةَ والإنصاف .

ومنـــه : وقد نالنى من جفوة الأمير بعد الذى كنتُ أتعرّف من برّه وألطافه أمرٌ أحلّنى محلّ المُذنب فى نفسى مع البراءة من الذنب، وألزمنى الإسعاف مع الخروج من التقصير، وزاده عندى عظمًا وشدّة أنّى حاولتُه الخروج منه بالاعتذار، فلم أجدْ لى إلى الأمير ذنبًا أعتذر منه، ولا علىّ فيما ألزمنى من معتبة، حيلة أحاول دفعها والتخلّص منها، فأصبحتُ أعالج من ذلك داءً قد خفى دواؤه، وأحاول علاج أمرٍ لم أجنِ فساده، فإن رأيتَ أن تفعل كذا وكذا فتحل قديم ما أصبح عندى من معروفك بحديثه، فليس عندى لى مطالبة حجّة أحتجّ من التوجّه إلى الأمير [illegible] والثقة عنده بفضله، فإن كنتُ مذنبًا عفا، وإن كنتُ بريئًا راجع .

ومنـــه : لأبى علىّ البصير .

وأنا أحدُ من أسكنتَه ظلّك، وأعلقتَه حبلك، وحفوتَه بلطيف برّك، وخاصّ عنايتك، وانتصفَ بك من الزمان، واستغنى بإخائك عن الإخوان، فهو لا يرغب

إلَّا إليك ، ولا يعتَمِد إلَّا علَيْك ، ولا يستَنْجِح طَلَبه إلَّا بك ؛ وقد كان فَرَط منِّى قولٌ : إن تأوَّلتَه لِى ، أراكَ أوجُهَ عُذْرى ، وقام عندك بحُجَّتى ، فأغْنانِى عن توكيد الأَيْمان علىٰ حُسْن نِيَّتى ، وإن تأوَّلتَه علَىَّ ، أحاقَ بى لائِمَتَك وحبسنى علىٰ [أسوإ] حال عندك ؛ وقد أتيتُك معترِفا بالزَّلَّة ، مستكينا للمَوْجِدة ؛ عائذًا بالصَّفْح والإقالة ، فإن رأيت أن تُقِرَّ عينًا قَرَّت بنِعمتِك عندى ، ولا تَسْلُبَنِى منها ما ألبَسْتَنِى ، وأن تقتصرَ من عقوبتى علىٰ المكْرُوه الذى نالَنِى بسَبَب عَتْبِك علَىَّ ، وتأمُرَ بتعريفِى رأيَك بما يُطَأْمِنُ هَلَعى ؛ وتسْكُن إليه نَفْسى ؛ ويَأْمَن به رُوعِى ، فعلتَ ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

ومنه : لأبى الحُسَين بن أبى البغل .

نُبُوُّ الطَّرْف من الوزير دليلٌ علىٰ تغيُّر الحال عِنْده ، والجفاءُ ممن عَوَّد اللهُ البِرَّ منه شديدٌ ؛ وقد استدللتُ بإزالة الوزيرِ إيَّاىَ النَّحْلَ الذى كان نَحَلَنِيه بتطَوُّله ، علىٰ ما سُوِّئت له ظَنًّا بنَفْسِى ؛ وما أخافُ عَتْبا : لأنى لم أجْنِ ذَنْبا ؛ فإن رأىٰ الوزيرُ أنْ يُقَوِّمَنى لنفسى ، ويَدُلَّنى علىٰ ما يُرِيده منِّى ، فعل ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

ومنه : لأبى الرَّبيع .

أصدقُ المَقَال ، ما حقَّقه الفَعَال ، وأفضلُ الخَبَر ، ما صدَّقه الأَثَر .

ومنه : لمولانا سِيرةٌ فى الفضْل والإحْسان ما أمَّلها آمِل إلَّا جادَتْ وسَمَحَتْ ومَنَحَتْ ، وعرائِدُ فى العَفْو ما رَجَاها راجٍ إلَّا صفَحَتْ وسَمَحَتْ ، وأحَقُّ مَنْ تَلَقَّاه عند العِثَار ، بالإقالة والاغْتِفار ، ووَقَفَ به عند حدّ التقويم والإصْلاح ، ولم يُعَرِّضْه

(١) فى الأصل "على ما أحاق" تأمل .

Marfat.com

Marfat.com

المملوكُ أرسل لفظًا على سبيل الإشفاق ذهب به الحاسدُ إلى غير معناه ، وخالف في تفسيره حقيقته [illegible] وأحاله عن بنيته ، وعرضه عليه على غير صورته : ليُوحِشَ [illegible] المطمئنَّ بملاحظته وعنايته ، وقد [illegible] وأن يُعيد المملوك إلى مكانه [illegible]

Marfat.com

على بن خلف :

الأعذارُ ـ أطال اللهُ بقاء سيِّدى ـ تَنْأَىٰ على الإمتناع ، وتَضيق على الإتِّساع ؛ وذلك بحسَبِ ماتَصادِفُه من قَبُول ورَدّ ، ومسامحةٍ ونَقْـد ؛ وأنا أحمـدُ اللهَ على أن جعلَ عُذْرِى إلىٰ من يَتَحَمَّل العُذْرَ لِلْمُعْتَذِر ، ويصْفَح صَفْحَ المـالك المقْتَدِر ، كأنَّما تَمَثَّل بقول الشاعر :

إنْ ماأتَتْ من صاحِبٍ لك زَلَّةٌ ـ فكُنْ أنتَ مُحْتالًا لِزَلَّتِـه عُذْرا

ولم يعْمَـدْ إلىٰ من يُغَلِّب هاجِسَ الظُّنون ، علىٰ واضح الحُجَّـة ، ومعمَّل الشكّ علىٰ صحيح اليَقِـين ، ورُمِيَ إلىٰ أنَّ غابطا لمكانى من حَضْرته ، حسـدَنى علىٰ محلّ من سُدَّته ، وزوّر مايَنْكشِف عن الإفك والبُهْتان ، ودَلَّس الكذبَ فى صُورة البُرْهان ؛ فلمـا جَلَاه فى مَعارِض زُخارِفه أظهر لسيدى غِرَارَه ، وأبدىٰ لطَرْفه شُوَاره (١) ؛ فشَلَّ سَمْعَه عن رَعْيِـه ، وطَرَف طَرْفَه عن رَعْيـه ، واستَمَرَّ عَلَىٰ سَمْتِ شَمِيته ، فى حُسْن الظنّ بأحبَّته ، فقدَّمتُ من الاعتذار مايُقدِّمه المذنبُ نُزُولا علىٰ طاعته ، وتأنُّقا فى خِدْمته ، وشفَعْتُه من الشُّكْر بما يقتضيه إحسانُه ويوجبه .

أبو النسـيم البرقاه :

أسوقُ المَعاذِيرَ التى رأوْلاها بسَبَبَة القَلْب ماصدَرَ عن استِكانة الأقْدار ، ودَلَّ على سَقْم مواد الأضْرار ، وضَنًى من كَدَر الاحتجاجات ، وتنزَّه عن تَحَمُّل الشُّبُهات ؛ ليَخْلُص به مِلَاكُ العفْو ، ولتكْتَمِلَ نِعمةُ التَّجاوُز . ولستُ أكْرَه شرَفَ تأديبه ، ونُبْلَ تَقْلِيمه وتهذيبه ، مالم تَجاوَزْ فى المعاتَبة والتقْويم حَدَّ مَذَلَّة الإعْراض ، ومَضيض

(١) أى عيبه وشل سمعه أى طرده والمراد أنه لم يصغ اليه .

Marfat.com

التنكُّر والاِنْقباض، ولا أخطُبُ الإقالةَ من تفضُّله إلاَّ بلسان الثِّقة وشافع الخِدْمة، هاربًا إلىٰ سَعَة كرمه مما دفعتْنِي المحبَّةُ إليه، وأشفىٰ بى عدَمُ التوفيقِ عليه؛ فإنْ رأىٰ أنْ يكونَ عِنْدَ أحسنِ ظنِّ به فى الصَّفْح، كما هو عِنْد أصدقِ أملى فيه بالإنعام، فعَل.

وله فى مثـــله :

ليس يَخْلُو الإغْراقُ فى التفضُّـــل والمبالَغةُ فى الاِعتذار من إقامة حُجَّة، أو تمسُّك باعتراض شُـبْهة. وأنا أُجِلُّ ما أخْطُبـه من عظيم عَفْوه، وكثير ما أُحاوِلُه من نِعمة تجاوُزه، عن المقابلة بعيْنِ الاعتراف بالزَّلَل، وبعدَ الاِستحقاق من الصَّفْح، مالم يُوجِبْ لى بَسعَةَ تأوُّله. ويُعِدَّ علىَّ فيه بعاداتِ تفضُّله: لتصْفُوَ منه الأعْضاء، وتلزمنى واجباتُ الشكر والثَّناء، غيْرَ ممتنِعٍ مع ذلك من التبرِّى إليه مما أنْكَره من تجاوُزِ السَّهْو إلىٰ العمَل، والتوجُّه إلىٰ ما فَرَط بالاختيار والقصْد الذين يُغْفَر بجمْعهما ذنوبُ الأفعال، ويُتغمَّد سيِّئُ الأعمال؛ فإنْ رأىٰ أن يحمِلَ أمْرِى فيما قصدتْنِى الأيامُ بتوجُّه الظُّنون فيه علىٰ غيْر النية لاظاهرِ الفعل، إذ كانتْ صفاتُ الإنسان بالأشْهر من أخلاقه والأكثرِ من أفعاله، ولا صِفةَ لى أعْرَفُ بها وأنْسَب إليها غيرَ الاعتراف بإنعامه، والتطاوُلِ من اصطناعه، آخذًا من كلِّ حال بالتفضُّل، ومشفَّعًا بدَعْوة الرياسة والنُّبْل.

ولهِ فى مثـــله :

لستُ أخلُو فى المدَّة التى تجاوَزَ الدهرُ لِى عَنْها فى خِدْمتِه [illegible] بتفريط الاجتهاد، إلىٰ ماوصَل من رأيه إلىٰ رُتْبة التقبُّل والإسْعاد؛ وليس يَحْبَطُ ماأتيتُه من مرضىَّ الخدمة بالنيَّة والعَمْد بما لعلَّه فَرَط من غير مُراد؛ إذ كان ـ أيده الله بفائض

طَوْله ، ومأثور فَضْله ـ آخذًا من آداب الله بما احاكمه منه : (١) ﴿ إنَّ الحَسَناتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئاتِ ﴾ . و [لو] لا إيثارى مقتضَى الطاعة وامتثالَه الاعتداد ، وأن لا أخْطُب رضاه بلسان الاحتجاج ، لا أن الأمر مفوّض به بحسب الاستحقاق ، لتسلّم له صفاتُ التفضّل ، ولم يمكّن الاعتراض ، بل المعوّل ، لو رخّصت على سلامتى مما قد يعرض بوجه القبول واعترض الاعتراض ، ولا أنجا بشمس الهيئة وضاء الرأى ، من رأى أن يتوقّى ما أتوقّاه ، فشمّر عن ساعد ما يضرّوه عن التشمير ، بصورة عاقدتى وشكر فضله والاعتداد بما [ ] شكره والتقرير ، [ ]

أبيات [ ] سألته [ ]

قال [ ] وإياه [ ] من أمرين : أحدهما أن يمثّل [ ] وإن [ ] عن [ ] على [ ] ولا [ ] الأمر الذى أوجب [ ] عن [ ] وهو [ ] من قبل عذره [ ] على أن لا يعود [ ] وإن [ ] على إبطال العلل ومعارضته بما

---

(١) [ ]

(٢) [ ]

(٣) [ ]

يقتضيه ؛ والدلالة على خطإ المعتذر ، وأنه مما لا يسوغ الصفح عنه ، ولا يليق بالحزم إقالته .

قال : وهذان معنيان يحملان من العبارة ما لا يكاد ينحصر في قول مشروح مبسوط ؛ فضلا عن قول مجمل موجز ، إلا أن المتدرب بالصناعة إذا مرت به هذه الأصول أمكنه التفريع عليها .

النوع العاشر

(في الشكوى — أعاذنا الله تعالى منها)

قال في "مواد البيان" : رقاع الشكوى — عصمنا الله من موجباتها — يجب أن تكون مبنية من صفة الحال المشكية ، على ما يوجب المشاركة فيها ويقضي بالمساعدة إن استدعيت عليها ، من غير إغراق يفضي إلى تظليم الأقدار وإحباط الأجر ، وشكوى المبتلى بالخير والشر سبحانه وتعالى ، ويدل على التهالك بالجزع ، وضعف التماسك وقوة الهلع ، باستيلاء القنوط والإياس ، وأن يشفع الشكوى بذكر الثقة بالله سبحانه ، والتسليم إليه ، والرضا بأحكامه ، وتوقع الفرج من عنده ، وتلقي اختباره بالصبر ، كما تتلقى نعمه بالشكر ، ونحو هذا مما يليق به ويجري مجراه . قال : وقد يكتب الأتباع للرؤساء رقاعا بشكاية الأحوال ومساءلة النظر ، ثم ذكر أن سبيل هذه الرقاع أن يعدل بها عن التصريح بالشكوى إلى لفظ الشكاية ، وطلب الزيادة والإلحاق بالنظراء في الإحسان : لما في إطلاق الشكاية ، والتصريح بها من التعريض بإخلال الرئيس بما يلزمه النظر فيه من أحوال خاصتهم وتعهد مرافقهم من الكفاية .

وهذه نسخٌ من ذٰلك :

رُقْعـــة شكوىٰ هُمُوم :

كتب المملوكُ هذا الكتابَ وهو رَهِينُ فِكْرٍ وغَمّ، وقَلَقٍ وهَمّ، وحَلِيفُ جَوًى قد سكَنَ القلب، وخوفٍ قد أطار اللُّبّ؛ وباللهِ العِياذ، وهو المَلاذ؛ وبيده تُحَلُّ العُقَد، وبأمره تَزُول الشِّدّة؛ وقد ألهم اللهُ سبحانه المملوكَ صَبْرًا يَسَّر أمْرَه، وأمَلًا فى الفَرَج خفَّف ضُرَّه؛ وليس بآيِسٍ من عَطْفته، ولا قانِطٍ من نِعْمته .

رقعـــة فى معنىٰ ذٰلك :

كتب المملوكُ وهو شاكٍ لتجاهُل الأيام، وَقِيدٌ من مواقِع سِهامها الرَّغيبة الكلَام؛ منهوم بهموم تُضْعِف الجَلِيد، وتَسُوء الوَدِيد، وتَسُرّ الحسُود، لاقٍ من قَسْوة الدهْر وفَظَاظته، ونَبْوة العَيْش ونُفْرته؛ ما يردُّ الجفُونَ عن الهُجُوع، ويُغْرق العيونَ بالدُّموع، ولله تعالىٰ فى عباده أقضيةٌ يَقْضِيها، وأقدارٌ يُمْضِيها؛ والله أسألُ حسنَ العاقبة والختام، وتخصيصَ الأوزار والآثام .

رقعـــة : كتب المملوكُ وجِسْمُه صَحِيح، وقلْبُه قَرِيح، وجَنَانُه سَلِيم، وجَنَابه سَقِيم : لما يَتَبادر إليه من نِكَايات تَقْدَح وتَقْرَح، وحادثاتٍ تَكْلِم وتَجْرَح؛ ونُوَبٍ تَهْضِم، وتَهْدِم وتَرُضّ، وخطوبٍ تُخاطِب شِفَاها، وتُوصِّل من اليَدِ إلىٰ اليد أذَاها؛ إلَّا أنَّ الله يُهِبُّ رِيحَ المِنَح، وقد تداكت المِحَنُ فينْشِفُها، ويشقُّ عمودَ الفَرَج، وقد أدْلهمَّت فيكْشِفُها؛ وظنُّ المملوكِ بالله تعالىٰ جميل، وله فى صُنْعه ولُطْفه تأْمِيل .

رقعـــة : ويُنْهِى أنه قد كتب هذه العبُودِيَّة بيدٍ قد أرعشَتْها الآلام، يُمْلِى عليها قلْبٌ قد قلَبَته الأسْقام؛ بِجسمُه ناحل، وجسَده بعـد النَّضْرة قاحل؛ وقُواهُ قد

Marfat.com

وهَنَتْ، وجَلَادتُه قد وهَتْ؛ وصبْره قد تخَلّى وٱضْطَرب، وتحمُّله قد نَأى وٱقتَرَبْ؛ وعاد شَبَحا من الأشْباح، وهَباءً تَذْرُوه الرِّياح؛ فلو ٱعتلَقَ بشَعْرة لم تَنْصَرِم، أو وَلَجَ خَرْتَ إبرةِ خَيَّاط لم تنْفَصِم؛ ولولَا الثِّقةُ بالله وأنه يُتْبِع السُّقْمَ بالصِّحّه، ويَشْفَع المِحْنَةَ بالمِنحه؛ لذَهَب مابَقِيَ من ذَمَائه، وأطَلَّ على شَفَا شَقَائه؛ والمملوكُ يستشْرف منه تعالىٰ لُطْفا يُعِيد الكَليل حَدِيدا، والمُخْلَقَ جَدِيدا .

رقعـــة : ويُنْهِى أنه قد كَتَب هـذه الرُّقْعة، وقد ساءَ أثَرُ الأيَّام عليـه، وقَبُح صُنْعُها لدَيْه؛ وٱبتلَتْه بمُؤْلِم البَلْوىٰ، وأنطقَتْه بلسان الشَّكْوىٰ؛ فهو محتَرِقٌ بنارِ الغَيْظ، يدْعُو علىٰ نَفْسه بالفَيْظ؛ إن لم يكن فرَجٌ يفرِّجُ بين الأضْداد، ولُطفٌ يُرِيح من هذا الجِهَاد؛ وكُلَّما طلبَ المُزايلةَ عَوَّق، أو طلَبَ الفِكَاكَ ٱعتلَقْ؛ فهو قاطِنٌ فى صُـورة الظَّاعِن، وحالٌّ فى حالِ الراحِل، والله يمنُّ بالمَخْرَج، ويأتِى بالفَرَج .

رقعـــة : وقد سَطَّر المملوك هذه الصُّورِيَّة، وقد ٱنجلَتْ هذه النَّبْوة، عن البَلَاء والشُّقْوة، ونَفَاد المـال، وٱستحالةِ الحال، وٱستيلاءِ العدُوّ، وٱستيْلاء السُّوء، وكذا الدهْرُ خَدُوع غَرُور، خَئُون غَدُور؛ إنْ وهَب ٱرتجع، وإنْ ألبَس ٱنتزَع؛ وإن أعْطىٰ أعطىٰ قَلِيلا وقَلَع؛ وإنْ أحْلىٰ أمَرّ، وإن نَفَع ضَرّ؛ وإن أبْرَم نقَض، وإنْ رفَع خفَض؛ وإن أقبَـلَ أعْرَض، وإن وعَدَ أمْرَض؛ فنِعَمُه مقرونةٌ بالزَّوال، ومِنَحُه معرَّضة للٱنتِقال؛ وصَفْوُه مَشُوبٌ بالكَدَر، وعيْشُـه ممْزُوجٌ بالنَّكَد؛ ما أبْعَدَ الا أوجدَ خَلَلا، ولا أمَّن إلا أتْبَع الأمْنَ جَلَلا؛ والمملوكُ يحمدُ اللهَ تعالىٰ على أن أوسَعَه فى حال البَلَاء شُكْرا، وفى حال الٱبتلاء صَبْرا .

Marfat.com

أجوبة رِقاع الشـــكوى

قال فى "مواد البيان" : يجب أن تبين أجوبة [illegible] على الارتياح فى الحال المُشْكِية ، والتوجُّع منها [illegible] وما يجرى هذا المجرى مما يليق به .

[illegible]

(فى استماحة الحوائج)

قال فى "مواد البيان" : ورقاع الاستماحة يختار أن تكون [illegible] ما يحرك قوى السماح ، ويبعث دواعى الارتياح [illegible] بذل المال الصعب بذله ، إلا على من وفّر [illegible] وإن غلت .

قال : وينبغى للكاتب أن يتلطف فيها [illegible] من الحصول على إراقة [ماء] الوجه ، والخيبة [illegible] والإلحاف المضجرين ولا يضيق العذر على [illegible] المشاركة فى الحال .

وهذه نسخ من ذلك :

من كتاب [أبى] الحسين بن سعد .

أفضل القول أصدقه ، وأهنى المعروف أعجله ، وأبلغ الشكر [illegible]

Marfat.com

ومنـــه : إن حضرَتْك نيَّةٌ فى قضاء حاجةٍ فعجِّلْها، فإنَّ أهنىٰ المعروفِ ماعُجِّل، وأنكَدَه ماتنازعته العِلل، وٱعترضتْه كثرةُ الاِقتِضاء .

ومنـــه : أنتَ أعزَّك اللهُ واجدُ السبيلِ إلىٰ ٱصْـطِناع المعروفِ وٱكتسـابِ الثَّواب، وأنتَ أعرَفُ بمـا فى ٱستِنْقاذِ أسيرٍ من أسْرىٰ المسلمين، من وارد الأَسْر، وعَرْصة الكُفْر، وٱنتِياشِه من الذِّلَّة والفاقة، والبَلَاءِ والمشَقَّة، من جزيلِ ثوابِ الله وكريم جزائِه [وأجَلُّ] من أن تُخاطَب فى ذٰلك مخاطبَةَ من يَحتـاجُ إلىٰ زيادةٍ فى بصيرته، وتقويةٍ لنيَّته؛ وبالله توفيقُك وعَوْنُك .

علىّ بن خلف :

قد تَمسَّكَ أمَلِي بضَمَانك، وتطلَّع رجائِي إلىٰ إحْسانِك، وكَفَل لى النجاحَ مشهورُ كرمِك، ورَغْبَتُك فى رَبِّ نِعَمِك، ولِي من فضْلك نَسِيب أعتزِى إليه، ومن شُكْرى شفيعٌ أعتمِدُ عليه .

وله : المَوَاعيدُ ـ أطال اللهُ بقاءَ مولاىَ ـ غُرُوس، حُلْو ثمرِها الإنجازُ والتعْجيل، ومُرُّه المَطْلُ والتطويل؛ وقد شامَ أمَلى من سَحائبِ نضْـله، حقيقًا بأن ينْهمِر ويَهْمِى، وٱرتاد من روضِ نُبْـله؛ جديرًا بأن يَزِيدَ ويَنْمِى، فإن كانتْ هـذه المَخيلة صادِقَه، فلْتكُنْ منه هِمَّةٌ للرجاء محقِّقه، إن شاء الله تعالىٰ .

وله : هَمَمتُ أنْ أستصْحِب إلىٰ مولاى ذَرِيعةً تحجُبُ مَطلِى، وتكونُ حِجَابًا علىٰ وَجْهِى فى المطالعة بأَرَبِى، فَلاحَ لى من أسارِيرِه بَرْقٌ أوضح مَقْصـدى، ومن أخلاقِه ٱنبساطُ أمَلَ تجدِّى، ولسْتُ مع معرِفَتِه بحقِّ نعمة الله تعالىٰ وحقِّ مؤمَّله، محتاجًا عنده إلىٰ ذَرِيعة ولا مفتقرًا إلىٰ وَسيلة .

وله : ولا يحمِلُنى مولاىَ علىٰ ظاهر تجمُّلى ، وجميلِ توَكُّلى ، علىٰ حالٍ(١) قد أحالَتْها العُطْلة ، وتخلَّلتها الخَلَّة ؛ وإنما أُبْقِى بالتجمُّل علىٰ دِيباجة هِمَّتى ، وأصونُ بالتخفِيف عن الصديق مُروَّتى ؛ ولولا أنَّ الشكوىٰ تخفِّف متحمَّل البَلْوىٰ ، لأضرَبْت عن مُساءلتِه ، وأمسكْتُ عن تذْكِيره ، ولٰكِنْ لابدَّ للوَصِيب الشاكى ، من ذِكْر حاله للطبِيب الشافِى ؛ وقد كان بَرَق لى من سَحَاب وَعْده ما هو جدِيرٌ بالإِنْهمار ، وأورق من ثَمَائه ما هو حقِيقٌ بالإِثْمار ؛ فإنْ رأىٰ أن يَسِمَ وجْهَ التأْمِيل ، بعد الإنجازِ والتعْجِيل ، فعل .

وله : ما حامَتْ آمالِى ـ أطال اللهُ بقاءه ـ إلَّا وقعَتْ بحَضْرته ، ولا صَعُبَتْ علَىَّ جوانبُ الرَّجاء إلا سَهُلَتْ من جِهَتِه ؛ ولا كَذَبَتْنِى الظُّنونُ إلَّا صدَقَها بعُلُوِّ همَّتِه ؛ فبذٰلك أعتلِقُ فى المُهِمِّ بحبْلِه ، وأعتَصِم فى المُلِمِّ بظِلِّه ؛ وقد عَرَض لى كذا وعليه فيه المَعْوَل ، وهو المرجُوُّ والمؤمَّل ؛ وما أوْلاه بالجَرْىِ علىٰ عادته فى رَيْش جَنَاحى ، والمَعُونة على سَلَاحى .

ومن طريف كتبه ، من كلام المتأخرين :

لَا أيُّها المَوْلىٰ الَّذى نَهْرُ جُودِه ... يَزِيدُ وعَاصِى أمْرِه الدَّهْرَ ينْقُص !

إلَيْكَ اشْتِكائِى من دِمَشْقَ وبَرْدِها ... وما أنَا فِيهِ مِنْ أُمُورٍ تُنَغِّص !

وإنِّى فى عُرْسٍ من البَرْدِ دائِم ... تُصَفِّقُ أسْنانِى وقَلْبِى يَرْقُص !

المملوك يَنْهى بعد الابْتِهال إلىٰ الله تعالىٰ فى إدامة نِعْمته ، وإدالة دَوْلته ، أنه مأْلَف من إحسانه إلا أنَّه يُضاعِف رَسْم الإنعام ، ويُواتِر إرْسالَه علىٰ مَمَرِّ الأيام والأعوام ؛ وللمملوك فى خِزَانته الشريفة فى كلِّ عامٍ تشْرِيفٌ يُفِيضه علىٰ جَسَده ،

(١) كذا فى الأصول والظاهر "بل أنا على" الخ .

Marfat.com

ويَسُرّ به قلوبَ أوليائه ويُفُتُّ أكبادَ حُسَّده، ويتّقِي به سَوْرة الشتاء وقُرَّه، ويجعله قُرّة ويحمِلُ به من الدَّعَة وِقْرَه، وقد دَرَس رسمُه، وفُقِد من الدِّيوان المعمورِ اسْمُه، وهو يسألُ بُروزَ الأمر العالى بإجرائه على عادتِه المستمِرّه، وقاعدتِه السالفةِ المستقِرّه، بتشريفِه بأخْذ التشريف ولُبْسه : ليدْفَع بذلك شِدّةَ البَرْد وأليمَ مَسّه، ويتذكّر بها فى يومه مايُوجِب حمدَ المولى وذَمَّ أمْسِه، ورأيُه العالى .

وله فى طلب ورق :

يا أسْمَحَ النـاسِ ويامَنْ غَدَا * جَبِينُه يُخْجِل ضَوْءَ الشَّـفَق!

جُودُك بالوَرْق(١) عميمٌ [فلِمْ] * أخَّرْتَ يامَوْلاىَ بَعْثَ الوَرَق؟

وله فى طلب رَسْم :

رَسْمِى يامَوْلاىَ غَـدَا * مُؤَخَّرًا ولو حَضَـرْ!

ولَـوْ أرادَ سـيِّدِى * إحْضارَه، كانَ أمَرْ!

فقَـدْ مَضَى مُحَـرَّمٌ * وراحَتِى مِنْه صَـفَرْ!

وكتب كاتبٌ إلى مَخْدومه، وقد تأخّر صرفُ معلُومه :

وتَعْـلَمُ أنّى كثيرُ العيَـال * قَلِيـلُ الحِرايةِ والواجِبِ!

فلَسْـتُ على ظَـمإ قانِعًـا * بِوِرْدٍ من الفَشَلِ الناضِبِ!

ولا شَـكَّ فى أنّنِى هارِبٌ * [فـ]قَدِّرْ لنَفْسِك فى كاتِبِ!

---

(١) الورق مثلثة وككتف وجبل الدراهم المضروبة اه من القاموس .

Marfat.com

قلت : وكتبتُ نظْما لأمير المؤمنين المستعينِ بالله أبي الفضل العبَّاس : خليفة العَصْر، أستميحه حاجةً فى مجْلِس كان فيــه هو وولَدُه يحيىٰ وأخَواه داودُ ويعقوبُ

ماصـــورته :

إذا رُمْتَ أن تَحْظىٰ بنَيْـــل، مآرِبٍ * فبادِرْ إلىٰ العَبَّاس مِنْ آلِ عَبَّاس!

إمامٌ به ثَغْـــرُ الخِـــلافة باسِـــمٌ * وعِمْرِينُها يَسْمُو علىٰ قِمَّـــة الراسِ!

أَبىٰ الفضْـــلُ إلاَّ أنْ يَكُونَ لأهْلِهِ * [دواما]وأنْ يُدْعىٰ أبا الفَضْل فى الناسِ!

فالمستَعِينِ آقْصِـــدْ تَجِدْ خَيْرَ مُنْجِدٍ * حرِيص علىٰ المَعْرُوف بَرًّا بإيناسِ!

فيَحْيا له يَحْـــيىٰ وداوُدُ صِـــنْوُه * ويعقوبُ أعْضادًا وحِصْنًا من البَاسِ!

* * *

وكتبت لقاضى القُضاة شيخ الإسلام جلالِ الدِّين عبد الرحمن آبن شيخ الإسلامِ عُمر البُلْقِينِى - أستميحُه حاجة أيضا :

أَيَا شَيْخَ إسْـــلامٍ وقاضِى قُضاتِهِ * ومَنْ قد سَمَا فى الناسِ عِلْمًا ومَنْصِبا!

لقَـــدْ عَمَّ نَوْءٌ منكَ كلَّ مُؤمِّلٍ * وحاشىٰ لَبَرْقٍ شِمْتُ يِظْهَرُ خُلَّبا!

أَأُحْرَمُ معْرُوفًا له كُنْتُ أرْتَجِى * ويَحْجُبُ ذُو بُعْدٍ من القومِ أقْرَبَا!

وما زِلْتُ أرجُو فى زَمانِك رِفْعةً * ولكِنْ جَوَادُ الحَظِّ بالبُعْدِ قَدْ كَبَا!

ولَنْ يَسْتعِيضَ الخَفْضَ بالرَّفْعِ ماجِدٌ * خَصوصًا ومَنْ أخَّرتَ ما نَالَ مَطْلَبَا!

ولَسْتَ تَرىٰ مِنِّى إلَيْكَ وَسِـــيلَةً * سِوالَكَ وحَسْبِى بِاعْتِلاكَ تَقَرُّبَا!

Marfat.com

* * *

وكتبت لقاضى القُضاة جمـالِ الدين محمود القَيْسَرانى (١)، وهو يومئذٍ قاضى قُضَاة لحنفيـة وناظِرُ الجُيُوش المنصورة ؛ أذْكُرُ بِطَالةً عرَضَتْ لى من وظيفةِ مبـاشرةٍ كَانتْ بيدى :

إلى الله أشْكُو مِنْ زَمانِى بَوَارَهُ * فأمسَيْتُ فى الحِرْمانِ بِى يُضْرَبُ المَثَلْ !

تمـادَيْتُ بَطَّالًا وأَعْوَزْتُ حِيلَةً * ولم يَبْرَحِ البَطَّالُ تُعْرَفْ له الحِيَلْ !

فلا مُلْتَجَى جاهٍ ولا عِزُّ صاحِبٍ * ولا مالِكٌ يَحْنُو فيـاقَوْمِ ما الحَمَلْ؟

ولكِنَّ (محمـودَ) العَواقِبِ أرْتَجِى * ومَنْ يَحْمَدُ العُقْبَى علَى القَصْدِ قد حَصَلْ !

* * *

وكتبت للقاضى شمس الدين العُمَرىّ كاتب الدَّسْت الشريف فى حاجةٍ نَجَّزها :

إن لَّا أرَى عُمَرًا حَتَّى أُلِـمَّ بِهِ * أَلْفَيْتُ من نَسْلِهِ مَنْ كانَ لِى عُمَرا .

لم يَعْفُ عن حاجَتِى حتَّى أنَبَّهَـه * وكَيْفَ يَعْفُو وفى المَعْروفِ كَمْ سَهِرا؟

جَعَلْتُه مبتَـدًا فى رَفْعِـه خَبَرِى * وعادةُ المبتَـدَا أنْ يَرْفَعَ الخَبَرا !

أجوبة آستماحة الحوائج

قال فى "مواد البيان" : لايخلُو المستماح والمكلَّف حاجةً من أن يُسْعِف أو يُسْعَف، فإن أسعَفَ فقد غَنِىَ عن الجواب ، وربما أجاب المُسْعِفُ بجواب مبنىٌّ على حُسْنِ موْقِعِ آنبساطِ المستميح ، والاعتذار عن التقصيرِ فى حَقِّه وإن كان قد بلَغَ به فوْقَ

(١) نسبة إلى قيسارية على غير قياس .

Marfat.com

ما يجِبُ له ـ تكرُّما وتفضُّلا ، وإن منع فربّما أجاب بعُذْر فى الوقت الحاضرِ أوعُذْر فى المستأنِف ؛ وربما أخَلَّ بالجواب تغافُلًا .

◆ ◆ ◆

وهـذه نسخة جواب بالإسعاف بالمقصُود ، كُتِب بها فى جوابِ لكاتبِ السرّ عن نائب الشام ، فى طَلَبِ إقطاع ، من إنشاء الشيخ جمـالِ الدين بن نُباتةَ إجابةً للمطلوب ، وهى :

لازال قلَمُها يَمُدُّ على الإسلامِ ظِلًّا ظَليلا ، ويستَجِدُّ صُنْعا جميلا ، ويأخُذُ بأمْرِ الله أعداءَ دينِه أخْذًا وَبيلا ، ويقومُ باجتهادِه فى مَصَالحِ المُلْك النَّهارَ كُلَّه واللَّيْلَ إلّاقليلا ؛ تقبيـلَ مُواظِبٍ على ولاءٍ لا يجِدُ له تبْـديلا ، وثناءٍ لو سمِعَه المُحِبُّ فشَافَهَ الأحبابَ إذًا لاتَّخذُوه خَليلا .

ويُنهِى ورُودَ مشرَّفة مولانا القديم فضْلُها ، الكريم وصلُها وأصلها ؛ فوقف المملوكُ عليها ، وأصْغى بجملتِه إليها ؛ وعلِم مارَسَم به مولانا ، وأشار إليـه تِبْيانا ؛ وكذلك بلّغه مملوكُه الولدُ فلان المشافهة الكريمة فجَدَّا من صاحب السِّرِّ إسرارا وإعلانا ؛ وشكر لها مشرِّفةً ومشافهةً أوردا الإحسانَ مَثْنَى مَثْنَى ، وسِرًّا سمعه المملوكُ لفْظا وآستهداه مَعْنى ؛ فما مِنْهما فى الإحسان إلّا زائده ، ولا فى الصِّلات إلا عائِدَه ؛ لا جَرَمَ أنّ المملوك أقبل على قَبِيلهما بسمْعِه وناظِرِه ، وقلْبِه وخاطِرِه ، وجُمْلتِه وسائِرِه ؛ وآمتثل الإشارةَ العاليةَ التى من حقِّها أن تُقدّمَ على كلِّ مهمٍّ يرِدُ عليه ، وأمْرٍ يتَوجّه إليـه ، ويدُ الزمان مشكورةٌ يأخُذُها منه بكْلتَا يدَيْه ؛ وعيّن المملوكُ لوقته الإقطاعَ المطلُوب ، وتقدّم بكتابةِ مربَّعته حَسَب مارَسَم مَنْ تجرى السعادةُ مِنْ سَطْره تحتَ مكتُوب ؛ وجهَّزها قرينَ هـذه الخدمة ومَنْ ذا يُقارنُ سبْقَ ذلك البِرِّ المـديد ، وكيف تُوازى

Marfat.com

المربَّعة كتابا هو بالإحسان للعُنُق تقْليد، لا برِحتْ مراسِمُ مولانا معدودةً من رُسُوم نِعَمه، ومشرِّفاتُه محسوبةً من تشريفاتِه التى يَخْلَعُها علىٰ أبناءِ محبِّيه وخَدَمِه .

النـــوع الثـانى عشر

(فى الشـــكر)

قال فى "مواد البيان" : رقاعُ الشكر يجبُ أن تكونَ مُودَعةً من الاعتراف بأقْدار المَواهب، وكِفاية الاستقلال بحُقوق النعم، والاضْطِلاع بحمْلِ الأيادى، والنُّهوض بأعباء الصنائع، ما يَتَّحِذ الهِمَمَ فى الزيادة منها، ويُوثِّق المصطَنِع بإفاضة الصُّنْع، ويعربُ عن كريم سجيَّةِ المحسِنِ إليه .

قال : وينبغى للكاتب أن يفتَنَّ فيها، ويقرِّب مَعانيها، وينتحلَ لها من ألفاظ الشكر أنْوطَها بالقلوب : لتستيْقِنَ نفسُ المتفضَّل أنه قد آجتنىٰ ثمرةَ تفضُّله، وحصل من الشكر علىٰ أضعافِ مابذَلَه من مالِه أوجاهه، إلَّا أنَّه ينبغى أنها إذا كانتْ صادرةً من الأتباع إلىٰ رُؤسائهم، ومَنْ يرجِع إلىٰ آختصاصٍ وأثَرة، أنْ لاتبنىٰ علىٰ الإغراق فى الشكر : لأن الإغراق فى الشكر يحمل هذه الطبقةَ علىٰ التملُّق الذى لا يليقُ إلَّا بالأباعد الذين يقصِدُون الدَّلالةَ علىٰ آستقلالهم بحُقوق ما أُسْدِىَ إليهم ؛ فأما من ضَفَا عليه من النعم ما يدْفَع الشكُّ فى آعترافه بالذلّ لديه، فإنه يَغْنىٰ عن المبالغة فى الشكر والآعتداد ؛ ثم قال : وإنما يجب أن يذهبَ فيما يكتب عن هؤلاء من هذا الفنّ مذْهَبَ الاختصار، والإتيان بالألفاظ الوجيزة الجامعة لمعَانى الشكر، دون مَذْهَب الغُلُوّ والإفْراط، وذُو الطبع السليم، والفكر المستقيم، يكتفى بيسير التمثيل .

Marfat.com

وهذه نسخٌ من ذٰلك :

أبو الفرج الببغاء، فى شكر تابع لمتبوع :

أنا فى شُكْرِه ـ أيده الله ـ مُبَرْهِنٌ عن مَواقِـعِ إحسانِه إلىّ، وتظَاهُرِ إنعامه علَىّ، لامقـدرٌ أنّى مع المبالغةِ والإسْهاب ، والإطالةِ والإطْناب ؛ أجازى عفْوَ تفضُّله ، ولا أجامِلُ أيسَرَ تطَوُّله ؛ وقد وَسَمنى أيده الله من شَرَف ٱصْطناعه ، بمـا بَوَّأنى به أرفَعَ منازِل خَدَمه وأتْباعه ؛ وإلىٰ الله أرغبُ فى توفيقى من مقابلة ذٰلك بالٱجتهـاد فى خِدْمته ، والمبالغةِ فى طاعتِه ـ لِمَـا أكونُ به للمزيد مستوْجِبا ، وللحُظْوة مستحِقًا

وله فى شكر قريب :

فرْضُ الشكر ـ أعزّك الله ـ لايَسْقُط بقرب الأنساب ، ولذٰلك لا أستجيزُ إغفالَ الواجبِ علَىّ منه ، ولا أجدُ عُدُولا فى التسامح فيـه والإضرابِ عنْـه ، وإن كنتَ غنيًّا عن الإفاضة فيما أعتقدُه من ذٰلك وأُضْمِره ، وأُبْدِيه وأُظْهِره ؛ بالمتعالَم من خُلُوص النيةِ وصحة الٱعتقاد ، فلا أخْلاكَ [الله] من جميلِ نَشْدِيه ، وتفضُّل تُولِيه ؛ يمترى لك المزيدَ من سوابِـغ النِّعم وفوائِدِ الشكر .

وله : قد ٱستنْفَد مادَّةَ شُكْرى ، ووُسْعَ ٱعتِـدادِى ونَشْرى ؛ تتابعُ تفضُّـلِك ، وتوالِى تطوُّلك ؛ ولستُ أقـدِرُ علىٰ النُّهوض بشكرِ مِنَّـةٍ حتّٰى تطرُقَنى منك مِنَّـه ولا أُحاوِل مجازاةَ نِعمَةٍ حتّٰى تَفِدَ علَىّ مِنْـك نِعمه ؛ فبأىِّ عَوارِفك أعترِف ، أم بأىِّ أياديك بالثَّناء أنتَصِف ؛ فقـد فزِعتُ إلىٰ الإقْرار بالعجْز عمَّـا يلزَمُ من فُروضك ، وواجباتِ حقُوقِك ؛ وٱنصرفتُ إلىٰ سُؤال الله جلّ ٱسمه بإيزاعى شُكْرَ ماوهبَ منك ، والتَّجاوُز للمكارم والفضل عَنْك .

Marfat.com

وله : وقد شـــكرتُ بِرَّكَ الجليلَ موْقِعه ، اللطِيفَ موْضِعه ، الخفيفَ مَحْمَـلُه ، العَـذْبَ مَنْهَلُه ، وشافهْتُك من ذٰلك بمـا آتَّسـعتْ له القُدْرةُ لا ما تقتضيه حقُوقُ المنَّـــة .

وله : أنا فى الشكر بين نعمةٍ تُنْطقنِي ، وعَجْزٍ عمـا يجِبُ لك يُخْرِسُنِي ؛ ولستُ أفزَعُ إلىٰ غير تجـاوُزِك ، ولا أعتمِـدُ علىٰ غير مسامحَتِك ؛ ولا أتطـاوَلُ إلا بمكانِى منك ، ولا أُفاخِر إلا بمَوْقِعى من إيثارك ؛ فالحمـدُ لله الذى جعلَنِي بوَلَائك مشهُورا ، وفى شكرك مقْصُورا .

على بن خلف :

رقعـــة : وينهِى أنَّ الله تعالىٰ لَمَّـا ألْهَم مولانا البِرَّ ، ألهم المملوكَ الشُّـكْرَ ؛ فهو لايَزالُ يُوسِع فى البِرِّ ويَزِيد ، والمملوكُ لايَزالُ يُبْدِى فى الشكر ويُعِيد ، ولٰكِنْ شتَّانَ بين فاعِلٍ وقائِل ، ومُعْطٍ وقابِل ، وواهِبٍ وسائِل ، ورافِد وحامِد ، وشاكر وشاكِدْ ؛ والمملوك يحمَدُ الله تعالىٰ إذ جعل يدَه الطُّولى ، وحظَّه الأعلىٰ .

رقعـــة : وصل بِرُّ مولانا وقد أحالت الخَلَّةُ من المملوك حالَه ، وأمالَتْ آماله ؛ فلَأَمَتْ ماصَدَعه الدهرُ من مَرْوَته ، وجدَّدَتْ ما أخلقـه من فَرْوته ، فكفَّ المملوك يديه [عن] آمتحان الخُلَّان ، وقبضَ لسانَه عن شِكاية الزَّمان ؛ وأقَرَّ ماءَ وجْهِه فى قَرَارته ، وحفِظ علىٰ جاهِه لِباسَ وَجاهتِـه ؛ فيالَهُ من بِرٍّ وقَع من الفقْر ، مَوْقِـعَ القَطْر من القَفْر ؛ ولم يتقدَّمْه من قدامة الوَعْد ، ما يتقدَّم القَطْرَ من جَهامة الرَّعْد ، وكُلُّ مَعْروفٍ وإن فاضتْ ينابِيعُه ، وطالتْ فُروعه ، قاصرٌ عن الأمل فى كرمه ، واقِعٌ دُونَ غاياتِ همه ؛ كما أنَّ الشكر ولو وَاكبَ النَّجْم ، وساكب السَّجْم ؛ قاصرٌ عن مكافاة تفضُّله ، ومُجازاة تطَوُّله ؛ والمملوكُ يسأل اللهَ تعـالىٰ الذى جعله قُدْوةَ

الكرام، وحسنَةَ الأيَّام، ورَبَّ الإنعام، وواحدَ الأنَام؛ أن يُلْهِم المملوك من حَمْده، بقدر ما أسبغه عليه من رفْده .

رقعـــة شكر : عِنْـد المملوك لسـيِّدى أيادٍ وصلَتْ سابقـةُ هَوَاديها ، وظلَّتْ لاحِقةً تَوَاليها ؛ فصارتْ صُـدورُها نسـبا أعتَزِى إليـه ، وأعجـازُها [سَبَبًا أعوَل فى الملمَّـات عليه] .

رقعـــة : لولا أنَّ اللهَ تعالىٰ جعل الشُّـكر ثمرةَ البِرّ، والحمـدَ جزاءَ الرِّفْد، وأراد إقرارَهُما علىٰ أهلِهما من الغابِرين ، وأن يجعَـلَ لهم مِنَّا لسانَ صِـدْق فى الآخِرين ، لكان الذى عَمَر به مولانا من الإنْعام ، يُتحـدّثُ عنـه تحَدُّثَ الرِّياح بآثارِ الغَمَام ، ويُكفىٰ المملوكُ بالإشاره، مَئُونةَ العِباره؛ والمملوكُ وإنْ رام تأدِيةَ ما يلزَمُه من شُكره، قاصرٌ عن غاية بِرِّه؛ ولو آستَخْدَم ألسـنةَ الأقلام ، وآستغرقَ أمَدَى النَّثار والنِّظام؛ ومولانا جديرٌ بقَبُول اليَسِـير ، الذى لا تُمكِنُ الزِّيادةُ عليه ، والصَّفْح عن التقصـير، الذى تُقودُ الضرورةُ إليه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة : لو أنَّ هذه العارِفةَ بِكْرُ عَوارِفه ، وباكُورةُ لطائفه ، لعجَزْتُ عن شُكْرها ، وقَصَّرت عن نَشْرها ؛ فكيفَ وقد سـبَقَها قرائِن ونظائِر ، وتقدَمَها أترابٌ وضَرائر؛ [مـا] أنقَلَ من المملوك كاهلَه ، وبَسَط به يَدَىْ أمله ، فما يَعْدَم شيئًا فيُرَجِّيه ، ولا يَفْقِده فيَرْغَب فيـه ؛ والذى تَرُبُّه من المملوك جوارِحُه ، وتَحْوِيه جوانِحُه ؛ علمُه بأنه لايُجارِى أياديه ، ولا يُجازى مَسَاعِيه ؛ واللهُ تعـالىٰ يخصُّه من الفضائل ، بمثل ماتبَرَّع به من الفَواضل .

رقعـــة : ومِثْلُ مَوْلانا من [ذوى الشَّرَف](١) والسُّودَد من حَسُن مَحْضَره، وطاب مَخْبَره، وكَرُم غيبُه ومَشْهَده، وصحَّ علىٰ تغايُرِ الأحوال عَقْدُه ووُدُّه؛ وقد ٱتَّصل بالمملوك ماأعاره له مَوْلانا من أوْصافه، وجرىٰ فيه علىٰ عادةِ فضْله وإنصافِه؛ فطَفِق لفضله شاكرا، ولطَوْله ناشرا؛ وأضاف ذٰلك إلىٰ تَوَالِدِ إحسانه، ونَظْمه فى عقْد ٱمتنانه .

رقعـــة : قد طَوّقَ مولانا [مملوكَهُ] من فضله طَوقا كأطواق الحمائم لايُنْزَع ، وألبسه بُرْدا من بِرِّه لايُخْلَع؛ وأولاه من مَزِيده ما قَصَّرت الهِمَّة عن تَمَنِّيه، ولم تهتدِ القريحةُ إليـه فتستَدْعِيه؛ ولو وجد المملوكُ جزاءً علىٰ دارفَتِه ، وكِفَـاءً لمَثُوبته ، غيْرَ المُوالاة الصَّرِيحَه، وعَقْـدِ الضمائر علىٰ المودّةِ الصحيحه؛ واللَّهَج بالشُّـكر، فى السِّر والجَهْر، لرمىٰ مِن وراء عنايتِه، ولا استَبْعَدَ طُولَ شُـقَّته؛ ولكنِ المملوكُ عادِمٌ لمـا يقابِلُ به يَدَه الغَرّاء، عاجزٌ عمَّا يقضى به حَقَّ مَوْهِبتِه الزَّهْراء؛ مالم يُحْسن كرمُه أمْرَه، ويَقْبَلْ منه علىٰ التقصير شُكْرَه؛ ويُضِفْ ذٰلك إلىٰ لطائفه، وينْظِمه فى سلْك عَوَارفه؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة : وٱجتهادُ المملوكِ فى نَشْر أياديه وشُـكْرِها ، كٱجتهادِ مولانا فى كِتْمانها وسَتْرِها؛ فكُلَّما أبديتُها بالثَّناء أخْفاها، أو نَشَرْتُها بالإشادة طَوَاها؛ وهيهاتَ أن يخفىٰ عُرْفٌ كعَرْف المِسْك نَشْرا ، ومَنٌّ كالروضة نَوْرا والغَزَالة نُورا؛ ولو كان المملوك والعياذُ بالله سَتَر هـذا العُرْفَ بكُفْر ، وٱغْتمصه مانعاً لشـكْر؛ لنَمَّ عليه حسنُه نُمُومَ الصَّباح ، وتَوَقَّد توقُّدَ المِصْباح؛ فكيفَ وللمملوكِ مِقْوَل لايُسامىٰ [يُعجِم [illegible]](٢) الليالى بالإحْماد، ويَرْقُم صَفَحاتِ النهار بالٱعْتِداد .

---

(١) بياض فى الاصول والتصحيح من المقام .

(٢) فى الاصول « ولا يسامى الليالى » الخ وزدنا مايقتضيه المقام ويتم الكلام تأمل .

Marfat.com

الأجوبة عن رقاع الشـــكر

قال فى "مواد البيان" : [ان كانَتْ] هـذه الرِّقاع من المرءُوسين إلىٰ الرُّؤساء فلا جوابَ لهـا . وإن كانتْ من النَّظير فالواجبُ أن يُسْتعمل فى أجوبتها مندُوبُ التناصُف والتفاوض .

جواب عن فعل المعروف والشكر عليه من كلام المتأخرين

من ذٰلك، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نباتة ، وهو بعد الصدر :

خَلَّد اللهُ علىٰ الممالك نِعَمَه ، وعلىٰ المـاليك ذِمَمَه ؛ وحَرَّم ببقائه ذَمَّ الزمان وأوجَبَ ذمـه ؛ ولا بَرِح نحوُ المحامد يُنـادِى يومَ الكَرم مُفْرَده ويومَ الهِيَـاج عَلَمَه . تقبيلا يسحَبُ فى الفَخَار بُرودَه المُعْلَمه ، ويتذكَّر بالقرب فلا يزال الشوقُ يُنْتِجه حيثُ كَلا التَّذْكار والعهد مُقَدَّمه .

وينهى ورُودَ المثال العالى بمـا مَلأَ القلبَ خيْرا واليَدَ بِرّا ، والسمْعَ بِشارةً والوجهَ بِشْرا ، حتّٰى تَناقسَتِ الأعضاءُ علىٰ تقْبيله ، والجَوَارِحُ علىٰ تأميله ؛ فاليَـدُ تسابق إلىٰ مِنَنه بالامتِداد ، والقلب يسابِقُ إلىٰ كَرَم عَهْده بالاِعْتِداد ؛ والوجهُ يقلِّب ناظِرَه فى سماء مَوَاقِع القَلَم ، والسمعُ يَنْعَم بمـا تَقُصُّ عليه المَسارُّ من أخْبار جِيرة العَلَم ؛ حتّٰى كاد المملوكُ يمحُو بالتقبيـل أسْطُرَه ، ويشتَغِلُ بذٰلك عن استجلاءِ ماذكره المُنْعِم لاعدِم المملوك فى مصر والشام تَكَرُّره ؛ وفهِم ما أشار مولانا إليه من الفضـلِ الذى مولانا أهْلُهُ ، وكرمِ العهد الذى لا يُنْكَرُ من مثلِه وأين مِثْلُه ؛ وقابل المملوكُ جميعَ ذٰلك بجَهْده من الأدْعِيَـة الصالِحه ، وبسَمَاحةِ الحمدِ المُتفَاوِحه ؛ والاعتـدادِ بنعمة مولانا الَّتى لولا [مُوالاتُها](١) كلَّ وقتٍ لقيلَ فيهـا «ما أشبَهَ الليـلةَ بالبارِحه» وتَضاعَفَ

(١) بياض فى الأصل والتصحيح من المقام .

Marfat.com

نُهوضُ الممـــلوك علىٰ قَـدَم المُوالاة التى [يستشْهِد] فى دَعْواها بشهادة الخـاطر الشريف ، ويتقدَّم بهـا تقدُّما تحتَ لواء الولاءِ وتأتِى بقيَّـة الأولياء فى اللَّفيف ، والله تعـالىٰ يُوزِع المملوكَ شُكرَهـذه النِّعَم المتصلِ مدَدُها ، والمِنَنِ التى لا يَعْدَمُهـا ولا يعُدُّها ، ويطيلُ بقاء مولانا لحمدٍ يَجْتلِيه ويجتَنِيه ، وشرفٍ دنيا وأخرىٰ يهدِمُ وَفْره وعُمُره ويبتَنِيه .

النـــوع الثـالث عشر

(العِتَـــاب)

قال فى "موادّ البيان" : المكاتبـةُ بالمعاتَبة علىٰ التحَوُّل عن المودّة والاستخفاف بحقُوق الخُلَّة من المكاتبـات التى يجبُ أن تُستوفىٰ شروطُهَا ، وتكمَّل أقسامُها : لأن ترخيصَ الصَّـديق لصَديقه فى المقـاطَعَة والمُصارَمة دالٌّ علىٰ ضَعْف الاعتقـاد ، واستحالة الوِدَاد .

من كلام المتقدّمين .

إنِّى ما أحدثتُ نَبْوه ، إلَّا بعد أن أحدَثْتَ جَفْوه ؛ ولا أبديتُ هَجْرا ، إلَّا بعدَ أن أبديْتَ غَدْرا ؛ ولا لَوَيْتُ وَجْها عن الصِّلة ، إلَّا بعـد أن ثَنَيْت عِطْفا إلىٰ القَطيعة ؛ والأوّلُ مِنَّا جان ، والثانى حانٍ ؛ والمتقدِّمُ مُؤْثِر ، والمتأخِّر مُضْطَرّ ؛ وكم بين فعل المختارِ والمُكْره ، والمبتَدِع والمتَّبِـع .

آخـــر : إنْ أمْسكْتُ ياسـيدى عن عِتَابِك ، مُرْخِيا من عِنَانك ؛ كنتُ بين قَطْع لحَبْلك ، ورِضًا بفِعْلك ؛ أو اقتصرتُ فيـه علىٰ التَّلْويح به لم يُغْنِ ذاكَ مع كثرة جُمُوحك ، وشدّة جُنُوحك ؛ وما ارتكبْته من رائك ؛ واستخرجْتَه من جَفَائِك .

Marfat.com

رقعـــة عتاب : لمولانا لدىٰ المملوك عَوارِفُ لا يهتدِى إلىٰ معرِفتها فيُوفِّيها كُنْـهَ المُراد، وأيادٍ لا يبْلُغ ماتستحقُّه من الإحماد ؛ ولو عَضَّدتْه خُطبـاءُ إيَاد، أجلُّها فى نَفْســه خَطَرا، وأحسَنُها عليــه أثَرا؛ ما يَفْرِضُــه له من بِرِّه وإكْرامه ، وتعهُّــده وٱهتمامِه ؛ وقد غيَّر مولانا عادَتَه ، ونَقَضَ شِيمَتَــه ؛ وبَدَّل المملوكَ من الٱنعطاف بالإعراض، ومن الٱنْبِساط بالٱنقباض ؛ وحَمَّــله من ذٰلك ما أوْهىٰ قُوىٰ صَبْره، وأظلَمَ بصائِرَ فِكْره؛ فإنْ يكُنْ ذٰلك لخَطَإ واقَعَــه المملوكُ ساهِيًا، وجُرْم ٱجتَرَمه لاهِيا؛ فمثْــلُ مولانا لا يُطالِب إلَّا بالقَصْد، ولا يُعاقِب إلَّا علىٰ العَمْد؛ إذ كان المملوكُ لا يُعْصَم من زَلَل ، ولا يَسْــلَمَ من خَلَل؛ اللَّهمَّ إلا أن يكونَ مولانا أرادَ من المملوك تَقْوِيمَه وتأديبَــه ، وإصلاحَه وتهذِيبَه : ليُحْسِنَ أثَرَه فى خِدْمته ، ويَسْلُكَ السبيلَ الواضِحَ فى تِبَاعتِه ، فلا أعدَمَ اللهُ المملوكَ تثقِيفَه ، ولا سلَبَه تبْصِيره وتعْرِيفَه؛ وإنْ كان ذٰلك لشَكٍّ عَرَضَ من المملوك[1] فى وِدَاده ، وٱرتيابٍ حامَرَ فى حُسْن ٱعتقاده؛ فأُعِيذُه بالله من القَطْع بالشُّبُهات ، والعمــلِ بمُنْغَلِ[2] السِّعايات ؛ ومولانا خليقٌ بأن يُطْلِــع من أُنْس المملوك ماغَرَب ، ويُنْبِط من سُروره مانَضَب؛ ويُعيــدَه لرِضاه، ويُجْرِيَه علىٰ ما أحمَدُه منه وأرْضاه .

رقعـــة : ليس المملوكُ يَرْفَع مَوْلانا فى إعراضه، إلَّا إلىٰ فَضْله ، ولا يُحاكِمه علىٰ ٱنْقِباضه، إلَّا إلىٰ عَدْله؛ ولا يَستعِينُ عليــه إلَّا بمــا يستَمْليه من آدابِه ، ولا يناظِرُه إلا بمــا أخذه عنه من مُحافظتِه وإيجابِه ؛ إذ كان المملوكُ مُذْ وصلَتْه السعادةُ بحِباله ، ناسِجًــا علىٰ مِنْواله ، متقبِّلا شرائفَ خِلَاله ، وما عهِــدْتُه عَمَر اللهُ مَعَاهِدَه ، وكَبَتَ

(١) لعـــله للولى .

(٢) يقال أنغلهم حديثا سمعه ثم إليهم به أنظر اللسان ج ١٤ ص ١٩٤ .

Marfat.com

حاسدَه ؛ يغضَبُ تقليدًا قبل الاِختبار، ويُحْوج البرِىءَ إلىٰ مَوْقِف الاِعتذار ؛ ولا سِيَّما إذا كان المظنُونُ به عالِمًا بشرُوط الكرم ، عارفًا بمواقِع النِّعم ؛ لايَنْسَخ الشكرَ، بالكُفْر، ولا يتعوَّضُ عن الحَمْد، بالجَحْد؛ وقد عرفَ مولانا ثَناءَ المملوك علىٰ تَفْضاله ، ووقف علىٰ بَلَائه لأعْماله ؛ وهو وفىٌّ بِرَبِّ عوارِفه وصنائِعه ، وتثمير مارَهَن لدَيْه من وَدَائعه؛ وتنزيهِ سَمْعِه عن الإصغاءِ إلىٰ مايختلِقُه حاسِد ، ويصُوغُه كائد ؛ وقد حَكَّم المملوكُ علىٰ نفسه نَقْدَه الذى لايُبَهْرَجُ عليه ولا يدَلَّس ، وكَشْفَه الذى لايُغَطَّى عليه ولا يُلَبَّس ؛ فليَحُكَّ أفعالَ المملوك علىٰ مَحَكِّ بصيرتِه ، وليُجِلْ فى تأمُّل مقَاصِده طَرْفَ فكْرته ؛ فإنه ممن لاتُحِيلُه الأحوال ولا تُحَوِّله ، ولا تُغَيِّره الغِيَرُ ولا تُبَدِّله ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعة : أفعالُ شكر(١) المملوكِ فى الحِلْم والغَضَب، والرِّضا والسَّخَط ، إذا لم يقْتض الحزمُ إيقاعها مَوْقِع الفضل، واقعةٌ موْقِعَ الإنصاف والعَدْل؛ ولا يُغَلِّبُ هواه علىٰ رَأْيه ، ولا بادرتَه علىٰ أنَاته ؛ وقد جانَبَ مع المملوك عادَتَه ، وبايَنَ فيه شِيمتَه ؛ ونالَهُ من إعْراضه، وجَفَائِه وٱنْقباضه، وتغيُّر رأْيه، ما وَسَمَ المملوكَ فيه بالذَّنْب ولم يُذْنِبه ، وحمله علىٰ الجُرْم ولم يَحْتَقِبْه ؛ وأوقفه لدَيْه مَوْقِفَ الاِعتذار ، وأحْوَجه إلىٰ الاِستقالةِ والاِستغفار ؛ وليس المملوكُ يُحاكِمُه إلَّا إليه، ولا يُعوِّل فى الٱنتصاف إلَّا عليه ؛ وما أوْلاه بأن يُعيد المملوكَ إلىٰ محلِّه من رضاه ، فإنه لم يُواقِعْ فى خدْمته إلا مايَرْضاه ؛ وحسبُه شاهدًا بذٰلك مايعلَمُ من المملوك من سَلَامةِ غَيْبه ، وطهارةِ جَيْبه؛ وفَضْل وُدّه، وصحَّة معتَقِده؛ إن شاء الله تعالىٰ .

(١) كذا فى غير أصل ولعله " أفعال شيم المولىٰ " ليستقيم الكلام بعد .

رقعـــة بمعاتبةٍ على[1]

كلُّ مانعٍ مالَدَيْه مَنْ رَغِبه ، دافعٍ عمَّا عنده مَنْ طَلَبه ؛ فمستغنًى عنه إلَّا الله تعالىٰ المُبتـــدِئ بالنِّعم ، العَوَّادُ بالكَرَم ؛ ولو عَرَف مَوْلانا بطَعْم شجرةِ[2] المعْرُوف ، لأسرَعَ إلىٰ آحتِـــذائِها ، ولو علم مالله تعالىٰ عليـــه من الحُقُوق فى مالِه وجاهِه ، لم يُقَصِّر عن أدائِها ؛ غيْرَ أنه ظَنَّ أنَّ الفَوْز بالوُجْد ، غايةُ المَجْـد ، وأنه إذا أحْمَدَ النَّسَبَ غنِيَّ عن الحَمْـد ؛ وأنَّ النعمةَ تُرتَبَطُ بالرَّبْط علَيْها ، وتَنْصرِف بالتَّصرُّف فيها ؛ وما ساء المملوكَ أن تَنزَّه عن تقَلُّد مِنَّـةِ لئِيم ، وحُرِم مَحْمَدَةً من كريم ؛ وهـــذا الحِرمانُ أحسَنُ والله فى عين المملُوكِ من النَّوال ، وهذا الإكْدَاءُ أبَرُّ لدَيْه من بُلُوغ الآمَال ؛ وسينْشُر المملوكُ مَذْهَبه فى كلِّ نادٍ ، ويكُفُّ عنه أمانِيَّ القُصَّاد ؛ ويكفِيه مَـُونةَ الآعتذار ، ويصُونُه عن أن تُبْذَل إليه وُجُوهُ الأحْرار : ليعـلَمَ أنَّ المملوكَ علىٰ مَنْعه لم يُقصِّر فى بُلُوغ أوْطارِه ، والسَّعيِ فى إيثارِه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة فى المعنىٰ : ماردّ المملوكُ بِرَّ مولانا مستَنْزِرا لقلِيلِه ، ولا لائِمًـا لنَفْسه علىٰ تأمِيـــله ؛ لٰكِنَّه آنتجَعه آنتِجاعَ من ظَنَّه عارفًا بقَدْره ، راغبًـــا فى شُكْره ؛ فلو أغضىٰ المملوكُ منـــه علىٰ الآطِّراح لأمْرِه ، لآستَدلَّ منـــه علىٰ قِصَر الهِمَّة ، وظَنَّ أنه قَوَّمه بدُونِ القِيمة ؛ لا سيَّما وهو يَفْرض لمن لا يُجارِى المملوكَ فى مِضْمار ، ولا يُساوِيه فى مِقْدار ؛ من غير قَصْدٍ بتأميلٍ ورَجَاء ، وتقديم ذرِيعةٍ من تَقْريظ وثَنَاء ، ماتَضيق عنه الهِمَمُ الفِسَاح ، ولا يَصِل إليه الآقتِراح .

---

(١) بياض فى الأصل ولعله « على منع عطاء » .

(٢) لعله « ثمرة المعروف ... ... الى اجتنائها » تأمل .

رقعةُ عِتاب، علىٰ تقصير فى خطاب :

حُوشِىَ مولاىَ أن يُجُرَّ الذَّيْلَ علىٰ آثارِ فَضْـلِه ، ويُميتَ من غُرُوس إحسانه ماهو جديرٌ أن يَتعهَّده بوَبْله ؛ ويُعفِّىَ مِنِّى رُسُومَ كَرَمه، ويَصْدَعَ بجانبة الإنْصاف صَفاةَ صِفاته وصفَائه، ويُنْطِقَ الألْسُنَ بعتابه؛ ويُصْلِت سيفَ التأنيبِ من قِرابه؛ بمـا آستحسَنَه من مستقْبَح المُصارَمَة فى المخاطبه، وآستَوْطاه من جامح التَّرْيِيث فى المُكَاتَبه ؛ ولا سِيَّما وهو يعـلَمُ أنَّ موْقِع الإكرام من الكِرام ، ألطفُ من مَوْقع الإنْعام ؛ وأن مَحَلَّ القال، أفضلُ من محلِّ النَّوال، وأن تغيُّر العادة فى البِرّ، مُقَوِّض لمَعَاهِد الشُّكْر؛ وسيح (؟) السنة فى الإنْصاف، قاضٍ بالآنصراف بعد الآنعطاف، وقد كان المملوكُ أزمَعَ أن يتحَمَّل تقصيرَه به ، وأن يُقِلَّ من غَرْبه ، غير مطاوِعٍ للحميَّه ، ولا مُنْقادٍ لنفس العَصَبية، ولا يَقْرَعَ سَمْعه بعِتَاب ، ولا يُوردَ عليه مُمِضَّ خِطاب ؛ ثم رأىٰ المملوكُ أن يُرْشِدَه إلىٰ الأَزْيَن ، ويبعَثَه علىٰ آعتماد الأحْسَن ؛ ويَحُضَّه علىٰ مُرَاجعة الأفضل، ومُعاودة الأجْمَل : ليتحَفَّظ مع سِواه، ولا يَجْرِىَ مَجْراه ؛ فليس كلُّ أحدٍ يتحَمَّله، ويرضىٰ رِضَا المملوكِ بما يفْعَلُه ؛ فمولانا حبَّب اللهُ إليه الرَّشَد، ووفَّقه إلىٰ المَنْهَج الأسَدّ؛ هل هو من شيءٍ سوىٰ بَشَر ؛ فما هذا التِّيهُ والبَطَر ؟ ولِمَ هـذا الأزْلُ والأَشَر ؟ وما فِعـل الرئيس إلى مايصْغُر عنـه قَدر ؛ ولا يَيْأَس من نَيْله عمر ؛ ولا مضَتْ أقلامُك فى الأقاليم ، ولا أُشِـيرَ إليك ببَنَـان التعظيم ؛ ولا فُوِّضتْ إليك الوزارةُ والرِّدافَهْ ، ولا تأمَّرْتَ علىٰ الكافَه ؛ ولا طاوَلْتَ الأكفاءَ فطُلْت، ولا ناضَلْت القُرناءَ فنضَلْت ؛ وإنما سَرَق إليك الحظُّ من بلده وَشَـلا مُصَرَّدا ، وأدَرَّ لك الدَّهْرُ من أخلافه مُجَدَّدا ، فآفتتحتَ المعامَلَة بظُـلْم الإخْوان ، ونَسْخ شرائِـع الإحْسان ؛ كذَبَتْكَ نفْسُك ، وغَرَّك حَدْسُك ؛ كيف بك غدًا إذا آسـتَرَدَّ الزمَنُ ماخَوَّلَك ، وآسـترجَعَ مانَوَّلَك ؛ وصَحَوْتَ بالعزّل من سَـكْرة

Marfat.com

الولَايه ، وتقرقرت[1] بعــد طَلَب الغايه ؛ وعُدْتَ إلىٰ إخوانك فوجدْتَ أوطانَ أُنْسهم بك نابِيَه ، ونُفُوسَهم للإقبال عليك آبِيَه ؛ ولو كان الزمنُ أمكَنَك من رَقَبتى ، وطرّقَ لك الطريقَ إلىٰ إيداع عُرْفك فى جِهَتى ؛ لقَبُح بك أن تَطُول بطَوْلك ، وتدَّعِىَ الفضلَ بفَضْلك ، ولم يحسُنْ أن تُبَــدِّل الإنْعام ، وتَضِنَّ بالآلتزام ؛ فإن كنت تفْخَر بسَلَفك وأُبُوَّتك ، وتُطاوِلُ بأوَّليَّتك وأُسْرتك ؛ فلو كان أبوك كِسْرىٰ ، لمــا جَبَر منك كَسْرا ، ولو كان جَدُّك نُخْتَ نَصَّر ، لمــا آنتفعت به فى مُظـاهَرة ولا نَصَّر ، فدَعْ أكثَرَ مافات ، ولا تُعَوِّلْ علىٰ العِظَام الرُّفَات ؛ فمــا آستنَدَ إليها إلَّا عارٍ من الفضــل عاطِلٍ من الحِلىٰ . علىٰ أنَّك لو فاخرْتَنا بها لفخَرْناك ، وتقدَّمْنا وأخَّرْناك ؛ وإن كنتَ تستَنِد إلىٰ دِيانَتِــك ، وتعتمِدُ علىٰ نُسُكك وأمانَتِك ؛ فهــذه خالصُ حالٍ لا تخْلُص مرتَبتُهــا ولا تتمُّ فضــيلتُها إلا بآستِشْعار التَّواضُــع ، والأخْذِ بمكارم الأخلاق لدىٰ التنازُع ؛ فارْجِعْ هِدْيَتَك[2] إلىٰ الأجَلّ ، وآعمَلْ بالأفضَــل ، وقِفْ بحيثُ رُتْبَتِك ؛ ولا تتشــوَّفْ إلىٰ غير دَرَجَتِــك ؛ وإن أبيتَ ذاكَ فآقطَعِ المراسَــلَه ، وأعْفِهــا من المواصَله ، والسلام .

رقعة عتاب علىٰ تأخر المكاتبة :

من حُكْم الوِدَاد ــ أطال اللهُ بقاءَ سيدى ــ الزيارةُ عند المُقَاربة ، والمكاتبةُ عند المُبَاعدة ؛ وإن كانت الموَدَّةُ الصريحةُ لايُغيِّرها آجْتِناب ، إلا أنَّ الكُتُب أَلْسُنُ البِعَاد ، والأعيُنُ التى تنظُر حقائِقَ الوِدَاد ، ولها فى القُلُوب تأثير ، وموقِعُها فيها أثير ، وحُوشِىَ مولانا أن أَهُزَّ أرْيَحِيَّته لمــا يؤكِّد الثقةَ بإخائه ، ويشْهَد بوَفَائه ؛ ولا سِيَّما وهو يَفْرِضُ ذلك لأحِبَّته ، وقولُه واجبٌ فى شرع مَوَدَّته .

---

(١) لعــــله « وتقهقرت » . (٢) فى الأصل « عديتك » .

Marfat.com

رقعـــة فى معنـاه :

إنِ ٱبتـدأ المملوكُ مولانا لم يُجِب ، وإنْ سأله الإبتـداءَ لم يُوجِب ؛ فلا حَقَّ لإجابة تُؤدِّيه ، ولا ناجِزَ المسـألة تَقْضـيه ؛ فإنْ كان إذا شخَصَ غابَتْ عن فِكْره أشخاصُ أحبَّتِه ، وإذا بَعُد عاملَهُم بتَجافِيه وجَفْوتِه ؛ فقد كان ينبغى أن يتَكَلَّف ويتجمَّل ، ويتصَنَّع ويتعَمَّل : فإنه لو علَّل مشُوبا بالٱنتظار ، أو ٱعتـذر ممرِّضًا بالٱعتذار ؛ لأقمتُ ذٰلك مُقامَ المُكاتبه ، وصُنْته عن مَحْض المُعَاتبه ؛ لٰكنَّه مال مع المَلَال ، ورضِىَ الإطِّراحَ والإهمـال ؛ ودلَّ علىٰ أنه مستقِلٌّ بالإخوان ، متنقِّلٌ مع الزمان ؛ وأرجو أن تَصْدُقَ المَخِيله ، ويَرْجعَ إلىٰ العادةِ الجميله .

رقعة معاتبةِ رجل كريمِ الأصل لئيمِ الفِعل :

قد عَرَف مولانا وَفَّقه الله ووقَفَه علىٰ مَنْهج الرَّشاد ، أنَّ جنايةَ الغضَب الذَّميم ، تقْـدَح فى كَرَم الجِنْثِ(١) الكريم ؛ وأنَّ قَبِيحَ الصَّلَف ، ينْسَخ تَلِيـدَ الشَّرَف ، وخبِيثَ الذُّرِّيه ، يُعَفِّى علىٰ طِيبِ المَناحِتِ الزَّكِيَّـه ؛ وأنه ليس لمن تحَلَّىٰ بالظُّـلم والجَوْر ، وتَلَبَّس بالنَّكْث والغَـدْر ، وسامح نفْسَه باطِّراح الحُقُوق ، وٱستيطاء العُقُوق ؛ الَّا إضاعةُ الحُرَم ، وإخْفارُ الذِّمم .

المعاتبة من كلام المتأخرين :

الشيخُ شِهاب الدين محمود الحلبى :

يُقَبِّل الأرضَ ويُنْهِى أنه قد صار يَرىٰ قُرْبَه ٱزْوِرَارا ، وطويلَ سلامه ٱختِصارا ؛ ويُغالِطُ فى ذٰلك حتّٰى شاهده عِيَـانًا مِرَارا ؛ هـذا وبِكْرُ الوَلَاء ، صَقِيلةُ الجِلْباب ،

(١) جنث الانسان أصله . ووقع فى الأصل "الحديث" وهو تصحيف .

Marfat.com

وعَروسُ الثناء، جميلةُ البِزَّة حسنَةُ الشَّباب، وهو لايفْتأ من المُوالاة فى صَعَد وقَدْرُه فى صَبَب ؛ فكُلَّمـا مَكَّن وَتَدَ الإستِعْطاف يرجُو عدَمَ تخلْخُله فُصل بأيْسَرِ سَبَب ؛ بحيثُ أطفأ الإهمـالُ نارَ المُساعَفَة والمُساعَده، وٱنتقل تَوهُّمُ عدمِ العِناية إلىٰ تيَقُّن وُجوده بالمشاهَده ؛ وقد كان يُرْفَع قدرُه فخُفِض، وعُوِّض فى الحـال عن الرَّفْع بالإبتداء، أنه مُفْرَد ويُنْصَب كالنكِرة فى النِّداء، وأُهْمل حتّٰى صار كالحُروف لا تُسْنَد ولا يُسْنَد إليهـا ، وأُلْغِىَ حتّٰى شابَهَ ظننْتُ إذا وقعتْ متأخِّرةً عن مفعُولَيْها ؛ ومتىٰ يَقْلَقْ لأمر، أنشد نفسه * ما فِى وُقُوفِكَ ساعةً من باسِ *

وكان يَغْشىٰ مجْلِسَه الكريمَ خِدمةً وأداءً للواجب ، وطلبًـا لعادةٍ أكَّدها إحسانُه حتّٰى صارتْ ضربَةَ لازِب ؛ فلا يخلُو مجلِسٌ من إظهار تغـيُّر عادةٍ وَطَّد الجُود أساسَها، وٱنتقاضِ قاعدةٍ أبْرَم الكَرَمُ أمْراسَها ؛ فينقَطِع سُـلوكًا للأدَب وتخفِيفًا عن الخَواطر ، ويتلقّٰى مايصْـدُرُ بقلبٍ شاكٍ ولسانٍ شاكِر ؛ فإنْ كان قد عَزَم مولاه علىٰ طَرْده، وعوَّضه عن مِنْحة القُرْب المِحنَةَ ببُعْده ؛ فإنه يأبىٰ ذٰلك جُودُه ولُطْفُه، ومعرفه يشْكُر ويزيدُ لا يمكِنُ صَرْفُه ؛ ولو جاز الصَّرفُ لمجرّد (١) بالعُبُودية لمَنَعه العدْلُ من سيِّده، والحِلمُ الذى عُرِفَ من كريم مَحْتِـده ؛ فكان المملوكُ يستحْسَن فى حِبْره وسِـبْره ، ويعوَّضُ عن مقابلتـه بجَبْره ؛ فقد صار سمينُه غَثًّا وشحمُه ورَمًا، وحديثُه رَثًّا وسهله عَلَمًا :

وعَيْنُ الرِّضَـا عَنْ كُلِّ عيْبٍ كَليلةٌ * كما أنَّ عيْنَ السُّخْط تُبْدِى المَساوِيَا

وما تَمَّ بحمـدِ الله مايُوجِب ذٰلك ولا بعْضَه ، ولا يُحْدِثُ ذَمَّ المملوك وبُغْضَـه ؛ ولو بَدَا منه زَلَل ، أو لمَحَ منه خَطَل ؛ فمكارمُ مولانا أوسَعُ من إبقاء ذٰلك فى صُدُور الصُّدور، و[أحرىٰ بـ]مَحْوِ آياتِ السيِّئات فإنه لِمَنْ عَزْم الأُمُور .

(١) بياض بالأصل ولعله « مجرد شك بالعبودية » .

Marfat.com

✦
✦ ✦

وله : يخْـدُم بدُعائه، وصادِقِ وَلَائِه؛ ويُنْهِى أنه آنكَسَر خاطِرُه ، وأرِقَ جَفْنُه وناظِرُه؛ وتَضاعفَ بَلْبالُه ، وتزايدَتْ فى النَّقْص أحوالُه ؛ منذ تأخَّرت الأمثِلةُ الكِرام، وآنقطعَتْ عنه بانقطاعها المِنَنُ الجِسام ؛ وهو يسأل العفْوَ عن ذَنْبٍ وَقَع ، وتشريفَه بمثال يَرْفَع من قَدْره ما وَضَع ؛ وآستعمالَ الصَّفْح عنـه كسائر عاداتِه ، وإجراءَه علىٰ اللُّطْف الذى أَلِفَه من تفضُّلاته ؛ فقد ضَعُف صبرُ المملوك وجَنَانُه ، وتفرّقَ للفِرَاق جَفْنُه وإنسانُه؛ وصَغُر قدْرُه ، وأُهْمل جانِبُه وممَّن أمَرَ بإهانته نَفْره، ولهذا ضاقَتْ عليه المَسَالك ، وكان لسانُ حاله [ينشد] فى ذلك :

وأَهَنْتَنِي فأَهَنْتُ نَفْسِيَ عامِدًا * ما مَنْ يَهُونُ عليْـكَ ممَّنْ يُكْرَمُ!

والمملوك معترفٌ بأنه مازال يجهَلُ مايجب عليه من الخِدَم ،ومُقِرّ بتقصيره عن القيام بحَمْل مايُواصَـلُ به من النِّعم؛ لٰكنَّه أَلِفَ من مولانا أن يقابِل إساءتَهُ بالإحسان، وجَهْلَه بصَفْح لايقُومُ بشُـكره اللِّسَان ، بل جميعُ الجُثْمان؛ فإن كان ذَنْب من المملوك هو الذى أوجَبَ آطِّراحَه ، وأوجَدَ أسَفَه وأذهب أفْراحَه ؛ وكان أيْسَرَ مما تقدّمه من جَهْـله وإساءته ، فحِلْمُك جديرٌ أن يُلْحِقَه بإخْوته؛ وإنْ كان قد تزايدَ مِقْدارُه، فالمولىٰ قد تضاعَفَ علىٰ العَفْو آقتِدارُه ؛ وإذا كَبِرت الخطيئةُ كَثُرَ أجرُ غُفْرانها، وعلَتِ المجاوزَةُ عنها علىٰ أقْرانِها؛ وعلىٰ كِلَا الأمرين فقد آستحَقَّ المملوكُ المَغْفِرة بكلِّ طريق، وأنْ يُقابَلَ رجاؤه بالتحقيق، وأمَلُه بالتصديق .

✦
✦ ✦

وله : ويُنْهِى أنه ما زالَ يتْـلُو آياتِ مَحاسِـنِه وحمْدِه ، ويرفَعُ راياتِ إحسـانِه ومَجْـده؛ ويتوَلَّاه ولا يتولّٰى عن محَبَّته ، ويُكْثِر الثنـاءَ علىٰ ألْمِعِيِّ فِطْنتـه وجَزِيل

مُرُوءته ، وقد صار يُشَاهد من المَوْلىٰ مَلَالًا وصُدُودا ، وإعراضًا يَغِيظ به صـديقًا ويَسُرّ به حَسُودا ؛ وأطّراحا أوْهَمَه أنه أَلِفُ وَصْلٍ دُرِجتْ ، أو لفظةُ هُجْرٍ لُفِظت ولا يعرف له ذَنْبا يُوجِب إبْعـاده ، ولا جُرْمًا يستوجِبُ به أن ينقضَ حبلَ وَصْـله ويُفْضِ وِدَادَه ، ولا يعلمُ سببًا يُوجِب سَبَّه ، ولا شَيْئًا يُحْدِث عَتْبه ؛ مع أنَّ المملوكَ أحقُّ أن يَبْدأَ بالإعْراض ، ويَرْفُلَ من إغفال مَوَدّته فى الثَّوب الفَضْفاض ؛ فإنَّ المولىٰ آلَـه بالقَوْل مِرارا ، وجعل سَحابةَ حَيْفه تَهْمِى عليـه مِدْرارا ؛ وهو يحتمل الأَذىٰ ، ويُغْضِى علىٰ القَـذىٰ ؛ ولا يُظْهِر إلا محبَّـة ، ولا يُبْطِن له إلا مَوَدّة ؛ فإن شاهد المولىٰ بعد إعراضه إعراضا فليَلُمْ نفْسَه ، أو أحْرقه لَهَبُ نار الجَفَاء فلا يشكُو مَسَّه ؛ يُحِيطُ بذلك علما ، ورأيه العالى .

شـــعر فى العِتاب :

مَوْلاىَ قَدْ طالَ التَّبـاعُدُ بَيْنَنَا * أَوَمَا سَمِعْتَ قَطِيعَتِى ومَـلَالِى!

إنْ لَمْ تَرِقَّ لِحالَتِى يا هَاجِرِى * مَوْلاى قُلْ لِى مَنْ يَرِقُّ لِحالِى!

غـــيره :

يُبَاعِدُنِى عَنْ قُرْبِهِ ولِقَائِهِ * فلَمَّا أذابَ الجِسْمَ مِنِّى تَعَطَّفَا

غـــيره :

إنْ كانَ هِجْرانُنَا يَطِيبُ لَكُمْ * فلَيْسَ للوَصْل عِنْدَنَا ثَمَنُ

غـــيره :

شَمَّتَّ بِى الأعْداءَ حينَ هَجَرْتَنِى * والمَوْتُ دُونَ شَمَاتَةِ الأَعْداء!

غـــيره :

تَنَـامُ عَيْناكَ وتَشْـكُو الهَوَىٰ * لَوْ كُنْتَ صَبًّا لم تَكُنْ نائِمَـا!

Marfat.com

ولبعضهم : سيدى بادَأنِى[1] بلُطْفٍ من غير خِبْره، وأعقَبَنِى جَفاءً من غير ذَنْب؛ فأطْمَعَنِى أوّلُه فى إخائه، وآيَسَنِى آخِرُه من وَفَائه ؛ فسُبْحانَ من لو شاءَ لكَشَف بإيضاح المُبْهَم عن عَزِيمةِ الرأْى فيه؛ والمملوك يقول :

عَجِبْتُ لقَلْبِكَ كَيْفَ ٱنقَلَبْ * وصَفْوِ وِدَادِكَ أنّى ذَهَبْ

وأعْجَبُ مِنْ ذَا وذَا أنّنِى * أراكَ بعَيْنِ الرِّضَا فى الغَضَبْ

أجوبة رقاع العِتاب

قال فى " مواد البيان " : حكم أجوبةِ هذه الرِّقاع حكْمُ رِقاع أجوبةِ الاعتذار إلّا أنها لا تخلُو من الإجابة بالإعتاب أو الإصرار علىٰ العِتَاب . قال : ويجبُ أن يسْلُك فيها المجيبُ مذْهَبَ المجيبِ عن رقاع الإعتذار .

زهر الآداب :

فى جواب العَتْب علىٰ تأخُّر مكاتبة .

وعلم المملوكُ ما أشارَ به من العَتْب بسبب تأخُّر خِدَمِه عن جَنَابه ، وما توهَّمه من آشتغالِ المملوكِ بأهله وأصحابِه، وحاشاه أن يتوَهَّمَ فى المملوك غيْرَ الوَلَاء، والمُلازمةِ علىٰ الحمدِ والثَّناء ؛ فهو لا يعتمِدُ ذٰلك إلّا تخفيفًا عن خاطِره ، ووُثُوقا بما يتحقَّقُه المولىٰ من خالص مودَّتِه فى باطنِه وظاهِره؛ حرسهُ الله ووفَّقه، وفتَح له بابَ السعادة ولا أغلقه، بمنِّه وكرمه .

---

(١) ضمنه جواب عبد الله بن معاوية فى العتابِ .

Marfat.com

زهر الربيـــع :

جواب عِتَاب :

زاد اللهُ جَنَابه حَنَانا، وأسبغَ عليه إنعامًا وإحْسانا، وخلَّد له على كلِّ عدوٍّ سلطانَا.

ولا زالت همَّتُه سماءً لمَناكِبِ الكَوَاكب، وأيادِيه تُفيضُ على الأولياءِ غَرائبَ الرَّغائب، ولا بَرِحَتْ سحائبُ إنعامه هامِيه، وفُطوفُ إحسانِه دائمةً دانِيَه، وشرائعُ مِياه جُودِه تُجَفِّف جُفُونا من الفاقةِ دَامِيه.

المملوكُ يجدِّدُ خِدْمته، ويُواتِرُ للمولى أدْعِيَتَه، ويعترِف بمِنَنِه التى أقرتْ بها ألسِنةُ جوارِحه فلا يَستطيعُ أن يُنْكِرَها، ويغترِفُ بيد تضرُّعه من بِحار جُوده التى تَنْعَبُ الوَنِيَّ من سَحَابها إلى كل وَنِيّ وتَقْذِف له جَواهِرَها.

ويهنى وُرودَ المكاتبــة والعلْمَ بمضْمُونها. والاِحتِواءَ على سائر مَعانِى فُنُونِهـا، وما أشار إليــه من العَتْب الذى يرجُو به بَقاءَ الوِدَاد، واستِصحابَ حالِ التَّواصُل من غيرِ تَفَاد، والمملوك فلا يُنْكِرُ ذَنْبه، ولا يتنَصَّل ولا يتوَصَّل بل يعترِفُ بجُرْمه وقِلَّة خِدَمِه، ويَستمْسِك بالعُرْوة الوُثْقَى من إحسانه وحِلْمِه، ويسألُ مَكارمَه إجراءَه على عادته بالصَّفْح عنه ورَسْمِه، وهو يرجُو أنَّ أمَّ هذه الهَنْوة لاتَلِد لهـا أُخْتا، وأنه لايعتمِدُ إلَّا ما يَزِيدُه إلى المَوْلى مِقةً ويُزِيل مَقْتا، فإنَّ معاتَبــةَ مولانا قد وَعَتْها أُذُنٌ واعِيه، ومَراضِيَه لاتَخْفى على المملوك بعدَ ذلك منها خافِيَه، إن شاء الله تعالى.

آخـــر : أسعدَ اللهُ المجْلِسَ وعَطَف للأوْلياءِ قَلْبَه، ونَصَر كتائِبَه وأنفَذَ كُتُبه، وأَرهَفَ فى نُصْرة الإسلام سِنانَهُ وعَضْبه، وألْهَمَ حَبَّــةَ قلب الزمان حُبَّه، وأقْدَره على الحِلْم الزائد حتَّى يغفرَ به لكلِّ مُذْنِب ذَنْبه.

[وينهى] وُرودَ الكتابِ الذى أعدَّتْه يدُ مولانا فصارَ كَرِيما، وكسَتْه عبارتُه ثَوْبَ بَرَاعتِه فأصبَحَ مَنْظَرُه وَسِيما، وٱستنْشَق عَرْفَ نَسِيمه المبـارك فطاب شَمِيما؛ وعلم المملوكُ منـه شِدّةَ عَتْبه، ومُرَّ التجَنِّى الذى ظَهَر من حُلْو لفْظه وعَذْبه؛ ولم يَعْرف لعَتْبه مُوجِبا، ولا لتغَـيُّر مَوَدّته سَبَبا؛ فإنه ماحادَ عن طرِيقِ وَلَائه ولا حال، ولا زَلَّت قدَمُه عنـه ولا زال؛ ولا مادَ عن مَنْهَج المودّةِ ولا مال؛ وما فَتِئَ لمَحَاسنِه ناشِرا، ولإحْسانِه شاكرا؛ فإن كان قد نُقِل عنه إلىٰ مولانا شىءٌ أزْعَجَه، وأخْرجه عن عادةِ حِلْمه وأحْرَجه؛ فإن الوُشاةَ قد ٱختلَقُوا قوْلَهم ونَقْلهم، وقصَـدُوا تشتِيتَ المُصاحبةِ شَتَّت اللهُ شَمْلهم:

وقد نَقَلوا عَنِّى الَّذِى لَمْ أَفُهْ بِهِ * وَما آفَةُ الأَخْبارِ إلَّا رُواتُها!

آخـــر: وردت المشرَّفة العاليـة أعلىٰ اللهُ نَجْمَ مُرْسِـلها؛ وأسبغَ أيادِيَه وشـكر جسِـيمَ تفضُّلِها؛ فابتهجتِ الأنفُس بحُلُولها وحُلَل جَمالها، وعُوملتْ بمـا يَجِب من إكرامِها وإجْلالِهـا، وفُضَّ خِتامُهَا ففاحَ منهـا أرَجُ العَبِير والعَنْبَر، وتُليتْ ألفاظُها التى هى أبْهىٰ من الرِّياضِ وأحْلىٰ من السُّكَّر؛ فأغنَتْ كُئُوسُ فَصَاحتِها عن المُدَام، وأزال ماؤُها الزُّلالُ البارِدُ حَرَّ الأُوَام؛ وأعربَ مُنْشِـيها عمَّـا فى ضميره من العَتْب، والضيقِ الذى حَصَل فى ذٰلك الصَّدر الرَّحْب؛ وهو يُقْسِم بنِعْمته، وبصادِقِ محبَّتِه؛ أنه لم يَبْدُ منه مايُوجب عليه عَتْبا، ولا آنثَنىٰ عن الثَّناء علىٰ [مَحَاسِـنه](١) التى شغَفَتْه حُبّا؛ فإن كان المَوْلىٰ قد توَهَّم شيئا أحْرجَه وأقلَقَه، وإلىٰ أليم العَتْب شَوَّقه؛ فلْيُزِل ذٰلك الوَهْمَ من خاطِرِه، ولْيَثِقْ بمـا تحقَّق من مُوالاته فى باطِنِـه وظاهِرِه؛ ورأيه العالى.

(١) بياض فى الأصل والتصحيح من المقام.

Marfat.com

آخـــر : أعزَّ الله عَزَماته، وشكَرَ جسيمَ تفضُّلاته .

ولا زالتْ نِعمتُه باقِيــه، وقدَمُه إلىٰ دَرَج المَعَالى راقِيــه؛ وهِمَّتُه إلىٰ السُّمُوَّ علىٰ الكَواكِب سامِيه، وسماءُ جُوده علىٰ العُفَاة هامِيَه؛ وعَزْمتُه لثُغُور الإسلامِ حامِيَه، عبْدُ نِعَمه، وغَرْس كَرَمه، يُعلمُه بِصدْق وُدّه، والمداومةِ علىٰ شُكْره وَحَمْــده؛ وأنه وقَفَ علىٰ مُشَرَّفه وفَهِمه، وشاهَدَ منه عَتْبه وعَلِمَــه؛ وهو لا يشْكُو من المولىٰ جَفَاءً ولا يَعِيب، و[عن] طريق المُصافاةِ والمُخالَصةِ فلا يغيب؛ بل يقول :

أنْتَ البَرِىءُ مِنَ الإساءةِ كُلِّها * ولَكَ الرِّضَا وأنا المُسِيءُ المُذْنِبُ

والمرجوُّ من لَطَافة أخلاقه، وطَهارةِ أعْرَاقه، أنْ يصْفَح عن زَلَّتِه، ويعْفُوَ عن ذنبه وإساءتِه :

فأنْتَ الَّذِى تُرْجىٰ لتَخْفِيف زَلَّتِي * وتَحْقِيق آمالِى ونَيْــل مَآرِبِى!

وقُرْبُك مقْصُودِى وبابُكَ كَعْبتِي * ورُؤْيَاكَ يأسُــوْلِى أعَزُّ مَطَالِبِى!

قلت : وكتبتُ إلىٰ المولىٰ شِهاب الدين الدُّنَيْسرى وقد بلغَنِى عنه مُساعدةُ بعض الجُهَّال علىَّ فى بعض الأمور :

عَهِدْتُ شِهابَ الفَضْل يَرْمِى بِسَهْمِه * شَيَاطِينَ جَهْلٍ أنْ تُدانِى جَنَابَه!

فَمَــا بالُ مولانَا علىٰ فَرْط فَضْــلِه * يُعَرِّفُ شَــيطانَ الجَهَــالةِ بَابَهُ ؟

Marfat.com

النـــوع الرابع عشر

(العِيادةُ والسُّؤال عن حالِ المريض)

رُقْعـــة عيادة :

ويُنْهِى أنه ٱتّصـل بالمملوك مِنْ ألِمَ مَوْلانا ـ أطال اللهُ بقاءَه ، وحَرس حَوْباءَه ـ ما أهْمىٰ مَدَامِعَه ، وأحْمىٰ أضالِعَـه ؛ ومَزَّق جِلْده ، وحَرَّق خَلَده ؛ وأطار الوَسَن عن عَيْنِه ، ونَفَّر الهُدُوءَ عن مَضْجَعِه ؛ حتّى تداركَ اللهُ تعالىٰ بكتابِه الناطِق بإقْلاع المُلِمّ ، المعْرب عن دِفَاعِ المَهِمّ ؛ فرَقَأَ من دُمُوعى ما ٱرفَضّ ، وجَبَر من ضُـلُوعِ المملوك ما ٱرتَضّ ؛ والتأم من جِلْده ماتفَطَّر ، وبَرُد من خَلَده ماتوَقَّد[1] ؛ وجَثَم ماطار من وَسَنِه وآنَسَ من الهُدُوء مانَفَر عنه ، والتأمتِ الآمالُ بعد ٱنْثِلامها ، وبرزَتْ ثِمـارُ الأمانِىِّ من أكمامها ؛ وطَلَع من الرجاء آفِلُه ، ورَوِى من السُّرور ماحِلُه ؛ وتجدَّد من السُّؤدَد طامِسُه ، وضَحِك من الزمان عابِسُه ؛ والله تعالىٰ يغُضُّ طَرْفَ الحَدَثانِ ، عن مُهْجَتِه ، ويَصْرِف صُروفَ الزمان ، عن ساحَتِه ؛ ويهنِّيه بمـا أعاده إليه من الإبْلال ، ويُمَلِّيه بمـا أفاضه عليه من الٱستِقْلال ، بمنِّه وكرمِه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

رقعـــة : ويُنْهِى أن ماخامَرَه من قَلَق وجَزَع ، وفَرَقٍ وهَلَع ، بسبَب مابلَغَه من شَـكْوىٰ مولانا لاتَحْصُره الأوْهام ، ولا تُسَطِّره الأقْلام ؛ ولولا ثِقةُ المملوكِ باللهِ تعالىٰ لَوهَتْ عُقَد صَـبْره ، ولَا نْخلعَ فُؤادُه من صَدْره ؛ وقد علم اللهُ تعالىٰ أنَّ هـذا الألَمَ لو نُقِل إلىٰ المملوك لَمَـا ثَقُل عليـه ، وكيف يستَثْقِل مايخَفِّف عن [illegible] ويحْسِـمُه ، ويُعَكِّف له سِـلْكَ الشِّفاء ويَنْظِمُه ؛ والله تعالىٰ [illegible] من كِفَايته ، وضَمانٍ من حِيَاطتِه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

---

(١) فى الاصل "توفر" بالفاء والراء ، وهو لايناسب المعنى .

Marfat.com

أجوبةُ كتُب الشفاعات والعِنَايات[1]

قال فى "مواد البيان" : هذه الكتُبُ إذا أُجِيب الملتمِسُ إلىٰ حاجتــه فينبغى أن تُبْنىٰ أجوبتُها علىٰ شُكْرِ مَقْصد الشافع ، والإدلالِ والآسترسالِ وإنالةِ المشفوع له وَطَرَه إيجابا لحقِّ الشافع ، وإن وقع الآمتناعُ والتوقُّف عن الإجابة إلىٰ الملتَمَس ؛ فالواجب أن تُبنىٰ علىٰ إقامة العُذْر لاغيْرُ .

زهر الربيــع :

جوابُ شفاعةٍ فى حقِّ كاتب :

جدَّدَ الله [له] السعادةَ وخَلَّدها ، وأصارها له شِعارًا وأبَّدها ، ووطَّد به الممــالكَ ومَهَّدَها ، وعضد به طائفةَ الإسلام وأيَّدَها ، وشــكَرله صنائعَ يعُدُّ منها وَلِيٌّ ولا كُلٌّ يستطيعُ أن يعَدِّدها .

المملوكُ يقبِّل اليــدَ الشريفةَ أداءً للفرض اللازم ، وشُــكْرا لمــا أوْلتْه من الأيادى والمَكارم ، وحمدًا لألطافِه التى أطمعَتْه بالتميز فأصبحَ برَفْع قدرِه كالجازِم .

وينهى ورُودَ المشرِّف الذى نَزَّه ناظِرَه ، وجبر قلْبَــه بحُسْن ألفاظه وخاطِرَه ، والعلْمَ بمــا أمَرَ به ، وشَــفَع إلىٰ المملوكِ بسَبَبه ، وهو الكاتبُ الذى أشارَ إليه ، وقد ركَن إلىٰ ما شكَرَه به المَوْلىٰ وأثنىٰ به عليه ، واعتَقد يُمْنَ[2] إغارة الشافع فعقَــدَ علىٰ المشفوع فيه خِنْصِرَه ، وتَقدَّم بترتيبه فى ديوان إنْشائه ، وجعله من جُمْــلة خَواصِّه وخُلَصائه ، وفعل ذٰلك كلَّه آتِّباعًا لإشارته ، وقَبُولا لشَفَاعته ، فالمولىٰ يواصل بمراسِمه وأمثلتِه ، فإنَّها تَرِدُ علىٰ مُرْتَسِم ممتَثِل .

---

(١) حق هذه الأجوبة أن تكون تابعة للنوع الرابع فهى مؤخرة من تقديم فتنبه .

(٢) لعله إشارة الشافع .

ومنـــه : جواب شفاعةٍ فى آستخدام جُنْدىّ :

ضاعفَ اللهُ تعالىٰ نِعَمَه ، وأرْهفَ فى نُصْرة الإسـلام سَيْفه وقَلَمه ؛ ولا بَرِحتْ ألْسِنةُ الأنام ناطقةً بوَلَائه ، وأيْدِى ذَوِى الرجاء مملوءةً من فَوَاضل نَعْمائه .

المملوك يُواصل بأدْعِيَتِه الصالحه ، ويستَنْشِق رُوحانِىَّ رِيحكم فيسْكُن منـه بلَذِيذ تلكَ الرائحـه ؛ ويشكُرُله مامنَحَه من المَكَارم ، ويباهى بعَزَماته اللُّيوثَ الضَّرَاغم ؛ فلا يجد مُضاهِيًا لتلكَ العَزَائم .

وينهِى ورُودَ المِثَـال الذى أشرقَتِ الوُجُوه بنوره ، وآبتهجت الأنفُس ببـلاغة مُنْشِيه ووَشْيِ سُطُوره ، وعلم إشارةَ المولىٰ فى مَعْنىٰ فلان : أدام اللهُ سعدَه ، وأعذَبَ مَنْهَلَه ووِرْدَه ، والتوصِيَة بأمرِه ؛ وما أبداه من حَمْده وشُكْرِه ، وأن يُقْطع إقطاعًا يليق بأمثاله ، ويتفَيَّأ من خراجها ضافِىَ ظِلاله ، وعند مثُول مِثاله العـالِى آمتُثِلَ وآلتثِمْ ، وآستخْدَم المشارَ إليه لإشارته وخَدَم ، وهٰذا بعضُ مايجب من قَبُول أمره ، وتعظيم كتابه وتَبْجيل قَدْرِه ، فيواصلُ بمراسِمِه فإنهـا تُقابَل بالآرتِسَام ، ومشرِّفاتِه فإنها تُعامَلُ بوَافِر الإكرام .

جوابُ شـــفاعة فى الجمـــلة :

قُلْ ما تَشاءُ فإنَّنِى لَكَ طائِـعٌ * ماأنْتَ عِنْدى شافِعٌ بل آمِرُ !

جعله اللهُ لكلِّ خيرٍ سبَبًا ، وحقَّق به لأوليائِه ظُنُونا وحَصَّل أَرَبا ؛ ووَفَّر له من أجر شفاعتِه الحسَنةِ نَصِيبا ، وأدامه عن كلِّ شرٍّ بعيدًا وإلىٰ كلِّ خيرٍ قريبا .

المملوكُ ينهِى تألُّمَـه لِفِراقه ، وما يجِدُه من صَبَابتِه وشِدّةِ أشْواقه ؛ ويُعانِيه من حَنِينه وأَنّواقه ، وأنه ورَد عليه كتابُه فاستَلَمه ولَثَمه ، وبَجَّله وعَظَّمه ؛ وعلِم ما أشار

Marfat.com

إليه، وأخَذَ أمْرَ المشفُوع فيه بكلْتا يدَيْه، وجعل قَضاءَ أرَبِهِ أمرًا لازِما، وما قَنِعَ على ساقِ الاجتهادِ قائمـا، إلىٰ أنْ حصَّلَ غَرَضَه، وأدّىٰ من حُسْن القيـام بأمره ما أوْجبَه مُشَرَّفُه العالى وٱفترَضَه، والمَوْلىٰ آمِرٌ غيرُ شَـفِيع، ومَهْما وردَ من جِهَتِـه علىٰ المملوك فوارِدٌ علىٰ سَمِيع مُطِيع، فيوَاصل من مَرَاسِمه بما سَنَح، ومن أخباره بمـا تأرَّج طِيبُ عَرْفه ونَفَح، ورأيهُ فى ذلك العالى .

آخـــر : شـكَرَ اللهُ عَوَارِفَها، وتالِدَ جُودِها وطارِفَها، ووافِرَ ظِلَالهـا ووارِفَها، وبنى ثناءه علىٰ مَعَاليه، وملازَمَته ومُداومَته علىٰ بَثِّ محـاسنِه ونَثِّ أياديه، وحمـدِ عواقِبِ إحسانه ومَباديه، وشِـدّةَ أشواقِه إلىٰ جَنَـابه، ولَذيذِ مشاهدتِه وخِطابِه، وما يُعانيه من غَرامٍ لازَمه مُلازمةَ الغَرِيم، وداءِ صـبابةٍ يُضَاعِفُ شَوْقَه إلىٰ رؤية وجْهه الوَسِـيم، ومُداومَتَهُ علىٰ التعوُّض بشُكْرِ محاسِـنِه عن المُدامة والنَّـدِيم، ونَظْم جواهرِ مَدْحه لجِيدِ جُوده، وحَمْـدِ المولىٰ علىٰ ذٰلك التنظيم، وأنه ورد عليه مشرَّفُه العالى فقَبَّله، ودعا لمُرْسِله دُعاءً يرْجُو من الله تعالىٰ أن يستجِيبَه ويتقَبَّله، وحصَل له بوصولِه ٱبتهاجٌ عظيم، وقال لمن حضر وُرودَه ﴿يٰأيُّها المَلَأُ إنِّى أُلْقِىَ إلَىَّ كتابٌ كَرِيم﴾ وفَهِم مضمُونَه وفَحْواه، وعلم معْناه وما أظهره فيـه وأبْداه : من الوصيَّة بفلان وما يُؤثِره من تسهيل مَطَالِبه، وتيْسِيرِ مآرِبه، ووصـل المشارُ إليه وحصَلَ الأُنْس برُؤيته، وتمتَّعت النَّواظِرُ والمَسامِعُ بمشاهَدته ومشافَهَتِه، وقام المملوكُ فى أمْره قيامًا تامًّا، وجعـل عينَ ٱجتهاده فى مصلَحته متيَقِّظةً لاتعْرِف مَنَاما، وشَمَّر عن ساق الٱجتهاد، فى تحصِيلِ المَرَام والمُراد، إلىٰ أنْ حصَل له الفوْزُ بنَيْل أمَلِه، وعاد راتِعًا من العَيْش فى أخْضَره وأخْضَـله، رافلًا من السُّرور فى أبْهىٰ حُلَله، فيُحيط علمُه بذٰلك، والله تعالىٰ يعضِّدُ به الدُّولَ والممـالك، إن شاء الله تعالىٰ .

Marfat.com

آخـــر : جعـله اللهُ مِفْتاحا لكلِّ بابٍ مُرْتَجْ، وصَـدَّق به [أملَ] كلَّ آمل وحقَّق رجاءَ كلِّ مُرْتَجْ ، ولا زالتْ سحائبُ جُودِه هاميـةً بالوَسْمِيّ والوَلِيّ(١) ، ماطرةً بوَبْلها وطَلِّها علىٰ الوَلِيّ .

المملوكُ يخْدُم بتحيَّة أرَقَّ من النَّسيم ، وسلامٍ أطْيبَ عَرْفا من بانِ النَّقَا إذا تحمَّلتْ عَرْفَه رِيحُ الصَّريم .

وينهى إلىٰ علمِـه الكريم ورُودَ مشرَّفه وأنه أحاطَ بمضْمُونها علْما ، وشاهدَ منها فى حال طَيِّها مَكارِمَ أصارَتْ تفضيلَه علىٰ حاتمِ الطائيِّ حَتْما ، ووقَفَ منها علىٰ دُرِّ لفْظ قذَفَه بحرُ خاطِرِه نَثْرا ونَظْما ، وبراعةِ عبارةٍ زادتْ قَلْبَ مُواليه غَرَاما وأنْفَ مُناوِيه رَغْمـا ، وفصاحةٍ عرَّفتْه قولَه صلّى الله عليه وسلم « إنَّ مِنَ الْبَيَانِ لَسِحْرًا وإنَّ من الشِّـعر لَحُكْمًا(٢) » وفَهِم عنايتَه بفلان نفَع اللهُ بعلمه وعَمَله ، وقَرَّب له من الخـير مالا يُطْمِعُه به بعيدُ أمَلِه ، وإشارتَه بسبَبِ التنبيه والإرشادِ علىٰ جُمَل فضائله ، ومفَصَّل مناقبِه المشهورةِ فى البِلاد ، وإيضاحِ كفايتِه فى وَجيز تلك الفُصُول الصِّحاح الإسْناد ، فحـالَ قُدومِ المذكورِ وحلُولِه ، ووُرودِ مشَرَّفه ووُصُوله ، أنهىٰ المملوكُ أمْرَه إلىٰ مخْدُومِه ، وطالع به شريفَ عُلُومه ، ولا زال يُحْسِن سعْيَه ، ويعتمِدُ علىٰ مشيئةِ الله ولا يتْرُك حِرْصَه ومَشْيه ، إلىٰ أنْ حقَّق قصـدَه بقضاء شُغُله ، وقرَّب له أمَدَ أمله ، وكتبَ توقِيعَـه ولم يُرد الله تَعْويقه ، ونجَع طعمُ قصده وأنْجَحَ اللهُ طريقَه ، وقد جاء مصحُوبًا بالسَّلامه ، معروفًا بتحصيل هذا القَصْد بأنه (طَلَّاع الثَّنَايا) العِمَامه ، حسَبَ إشارةِ المولىٰ وأمْرِه ، والله تعالىٰ يُمِدُّه بصونِه [illegible]

---

(١) الولى المطر الذى يأتى بعد الوسمىّ ووقع فى الأصول "الوبلى" وهو تحريف واضح .

(٢) هو بضم الحاء وسكون الكاف العلم والفقه أى إن فى الشعر كلاما نافعا يمنع من الجهل والسفه..... ويروى إن من الشعر لحكمة وهو بمعنى الحكم . انظر اللسان ج ١٥ ص ٣٠ .

Marfat.com

آخـــر : فى آستخلاص حقّ .

شكَرَ اللهُ إحسانَه وإنعامَه، وحَصَّل به لكل وَلِيٍّ مَرَامه، وحَمِدَ تطوُّلَه وتفَضُّله، وأنال به لكلِّ آمِلٍ أمله، وخلَّد دولتَه، وأدام نِعْمتَه، وأنفذ كلِمَته؛ ولا زال فضلُه كاملا، وإحسانُه إلىٰ الأولياء واصِلًا؛ ونوالُه لبنِي الآمالِ شامِلا .

المملوك يخدُمُ بدعاءٍ أحسنَ من نَوْر الرُّبا، وثناءٍ ألطفَ من ريح الصَّبَا؛ وسلامٍ أطيبَ بمُروره من تذَكُّر أيَّام الصِّبا .

وينهى وُرُودَ الكتابِ الذى طابَ بالمَوْلىٰ مَحْتِدُه ونِجَارُه، وزاد علىٰ كتائبِ الكُتُب فَخَارُه، وأنه وقَف عليه وُقُوفَ مشتاقٍ إلىٰ مُرْسِلِه، شاكرٍ أنعُمَ فضلِه وجسيمَ تفضُّله؛ فأسكرتْه تلكَ الفَصاحةُ بشَذَاها الأَرِجْ، ونزَّهتْ لَحْظَه فى دُرِّ لفظِها البَهِج؛ فظنَّها لَمَّا آستنْشَق رائحتَها راحًا قَرْقَفَا، ولَمَّا أبْهجَه لفظُها بألفاظ تُزْهِى علىٰ الرِّياض رَوْضةً أُنُفا؛ وعلِمَ الإشارةَ الكريمةَ فى معنىٰ فلان والوصيَّةَ بخِدْمته، وما أمَرَ به من مُساعدته ومُساعَفَته؛ وعند وُصُول مشرِّف المولىٰ وقَبْل وَضْعه من يَده، نوىٰ المملوكُ مساعدةَ المذكورِ علىٰ مَقْصَده، فتقدّم بإحضار غريمه فوجده عن البلد غائبا، فانتظَره إلىٰ أن عادَ آئبا؛ فعند وصوله طلَبَه وأحضَرَه، وسأله عمَّا يدَّعيه عليه خصْمُه فأنْكَرَه؛ وطلب الحضُورَ إلىٰ القاضى، وحَثَّ علىٰ ذٰلك حتّٰى أوْهَمَ أنه المُتقاضِى؛ فلَمَّا رأىٰ المملوكُ أنّ حُجَّةَ المشفُوع فيه لاتقُوم بصدْق دعواه وحُجِج، ولا يظهَر بها علىٰ غريمه إلا من طريقٍ حَرِج؛ بذَلَ فى مُصالحتهما جُهْدَ الآجتهاد، وما زال يُرشِدُهما إلىٰ طريقِ الرَّشاد؛ ويدُلُّهما علىٰ سبيل السَّداد، ويعرِّفهُما أن التضارُرَ ضَيْر، وأنَّ الصُّلْحَ خَيْر؛ فكل منهما يَهِيم فى وادْ، ويسْلُق خصْمَه بألسنةٍ حداد؛ إلىٰ أنْ تراضَيَا وتوافَقَا، وسلَكَا طريقَ الرِّفق وتَرافَقَا؛ وصدَّق الخصمُ

Marfat.com

خَصْمَه فتصادَقَا ، وٱنفصلَا وكلٌّ منهما قد أرْضىٰ خِدْنه ، وعن المحاكمة والمحاقَقة أغْضىٰ جَفْنه .

آخر : أيَّدَ اللهُ سعدَ المولىٰ وأبَّده ، وأثَّل مَجْدَه ومَجَّده ، وأعانه علىٰ إسْداءِ العَوارِف وعَضَّده ، وأمدَّه من المَسَرَّات بما يُزِيل عن الأيَّام أبْدَه[1] ، وأناله سَعْدا لاتبْلُغ الأيَّامُ أمَدَه ، ولا زال بُرْدُ جَدِّه من السعادة جَدِيدا ، ونجْمُ عدُوِّه آفِلًا ونجْمه سَعِيدا .

الذى يُحِيط به علْمَه الكريم أنَّ كتابه ورد فسَرَّى هَمَّ الأنفُس وسَرَّها ، وضاعفَ بما ضاعَ من نَشْره بِشْرَها ، وفاحَ منه شَذًا عند إقْباله ، فقيل : قد هبَّتِ القَبُول ، ورَنَّح الأولياءَ ، فقيل : قد هَبَّتْ ريحُ الشَّمال وأدِيرتِ الرَّاحُ الشَّمُول ، وأنَّ المملوكَ وقَفَ منه علىٰ ألفاظٍ سقَتْه كُئُوسَ سُرُورٍ لا كُئُوسَ مُدَام ، وروَتْ له أخبارَ حِلْمٍ لو أُسنِدَتْ إلىٰ سِواه لتُوُهِّمتْ أضغَاثَ أحْلام ، وروَتْ أكْبادًا أضَرّ بها لغَيْبتِه حَرُّ ظَمَإٍ وأُوَام ، وبيَّنتْ سِحْرَ البَيان ، وأعرَبَتْ بلسان حُسْنها عمَّا لمُنْشِيها بل مُوَشِّيها من الإحْسان ، وأغرَبَتْ فى الفَصاحة فخِلْنا كلَّ كلمة تنْطِقُ عن سَحْبانَ بلِسَان ، وزهَتْ ببانِع ثِمارِ فضْلِها فنزَّهتْ كلَّ عين فى بُسْتان ، وعلم إشارةَ المولىٰ فى مَعنىٰ فلان ، وما أبداه من العِنَاية فى حقِّه ، والإيثار لِصلةِ رِزْقه ، وأنه من الألْزام ، والذين تَجِب معاملتُهم بالإكرامِ والاحترام التام ، وعند ماشاهدَ المملوكُ كتابَ من شَرَّفه ، وسَمِع ألفاظَه التى بلُطْفها أتحفَه ، بل بِردائها علىٰ البَرْد ألحفه ، تقدَّم بإجابةِ سُؤاله ، وترتيبِه فى جهةٍ تليق بأمثالِه ، وقمَّصه من العناية قميصًا لايَبْلىٰ ، وجمع لخاطِره والدَّعة شَمْلا ؛ وهذا حسَب إشارةِ المولىٰ التى لاتُخَالف ، وأمرِه الذى يقِفُ كلُّ أحدٍ عنده ولا يستَوْقِفُ ولا يُواقِف[2] .

---

(١) أى غضبه فهو مصدر أبد عليه كفرح اذا غضب .

(٢) هذا آخر ماحققه التقديم بعد النوع الرابع وقبل الخامس فتنبه .

Marfat.com

كتاب إلى مريض بالسؤال عنه من كلام المتأخرين :

حَاشَى مِزَاجَكَ مِنْ أذًى * وكرِيمَ جِسْمِكَ من وَصَبْ!
يَا غَايَةَ المَـأْمُـولِ والْـ * ـمَرْجُوِّ يا كُلَّ الطَّلَبْ!
مُذْ غِبْتَ عَـنِّى لَمْ أزَلْ * مِنْ بَعْدِ بُعْدِكَ فى نَصَبْ!
جَفْنِى غَرِيقٌ بالدُّمُـو * عِ وماءُ صَبْرِى قد نَضَبْ!
واللهِ مـالِى فى البَقَـا * ءِ وأنْتَ ناءٍ مِنْ أرَبْ!
فـتُرَى[1] أبَشَّرُ سـيِّدِى * أنَّ اللِّقـاءَ قَدِ اقْـتَرَبْ!

حرَسَ اللهُ مِزَاجَ المَوْلَى! وأصار العافِيَةَ له شِعَارًا، والصِّحَّةَ له دِثَارًا، ولا زالَتْ ساكِنَةً فى جَوَانِحِه، مقيمةً حَشْوَ أعضائِه المبارَكةِ وجَوَارِحِه .

أصدرها المملوكُ تُعْرِب عن شوْقٍ يكِلُّ عن وصْفِه اللِّسان، وتَوْقٍ لا يُحْسِن وَصْفَه البَنَان، ولاعِجٍ يَعْجز عن حملِ بعضِه الجَنَان. ملتَمِسا المواصلةَ بأخْباره، وواصِفًا ما يجِدُه القلبُ من ألَمِ الشوقِ وناره، وشاكِيًا من جَوْرِ أيَّامِ الفِرَاق، وراجيًا أن يُبَشَّر بالإبْلال من مَرَضِه والإفْراق، وداعيًا إلى اللهِ بتعجيلِ أيَّامِ التَّلَاق . ومع ذلك فلو رُمْتُ أنْ أشرَحَ كُلَّ ما أجِدُه من الصَّبابة لأسأمْتُ وأسْهَبْتُ، بل لو ذكرتُ ما أُعانيه لألِمَـه لثقَّلتُ على خاطِرِه وشَوَّشْتُ[2]، لكن خاطِرُ المَوْلَى شاهِدٌ بوَجْدِى، وعارِفٌ بما تحمَّلتُه من الكآبة التى لم يحمِلْها أحدٌ قَبْلِى ولا تُحَمَّلُ بَعْـدِى، فيُواصِلُ بأخبارِه، واللهُ يحرُسُه آناءَ ليلِه وأطرافَ نَهارِه، إن شاء الله تعالى .

(١) مراده فتى أبشر . ولعله تصحيف من الكاتب .

(٢) نقل هـذا الفعل الفارابى وتبعه الجوهرى واستعمله كاتب هذه الرسالة وأنكره بعض الحذاق وقال الصواب هوّشت .

فى معنـــاه :

يامَنْ شَكَا فَشَكَا فُؤادِى حُرْقـةً * لاتَنْطفِى وصَـبابةً لاتَبْرَحُ !

وغَدَا سَقِيمَ الجِسْمِ يَوْمًا واحِدًا * فتَزَحْتُ دَمْعا للمَدَامِـعِ يَجْرَحُ !

وٱزْدادَ شَوْقِى نَحْوَ طلعتِـه الَّتِى * أبدًا يُمِنِ بَهائها أستَنْجِح !

لازِلْتَ فى عِزٍّ وسَـعْدٍ دائمٍ * أيَّامُنـــا ببَقَـــائِه تَتَبَجَّح !

وبَقِيتَ مابَقِىَ الزَّمانُ مُؤيَّدا * تُمْسِى قَرِيرَ العيْنِ فيه وتُصْبِح !

كَلَّى اللهُ عافِيَـةَ المَوْلىٰ وحَرَسَـه ، ولا سَلَبه ثَوبَ الصِّحَّة بل قَمَّصَه إيَّاه وألْبَسه ، وأخدَمَه الأيَّامَ فلا تستَطِيعُ مخالَفـةَ أمْره ولا الخُروجَ عن حُكْمه ، ورزَقه أن يَمْلِكَ الدُّنيا بحذَافيرِها وهذا يحصُلُ بعافِيَةِ جِسْمِه .

المملوكُ ينهِى أنه ٱتَّصل به تألُّمُه فشَقَّ ذٰلك عليه ، ووصلَ من القَلَق إلىٰ حَدٍّ لم يَصِـلِ المَوْلىٰ والحمدُ للهِ إليه ؛ وٱبتهَلَ إلىٰ اللهِ فى مُعافاة جَسَدِه ، وأن يُعضِّدَه ببَقاء والدِه وولَدِه ؛ ويُضاعفَ تسهيلَ مآرِبِه ومَقاصِـــدِه ، ويرفَعَ كلمتَه وقدْرَه علىٰ رَغْم مَعْطِس شانِيهِ الأبْترِ وحاسِده ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

جوابٌ إلىٰ من قَنْطره فرسُه (١) :

ثَبَّت اللهُ قواعِدَ مَجْدِه ، وبلَّغه سَـعْدا لاتبْلُغه الآمالُ لبُعْـده ، وأهمىٰ علىٰ محيَّاه سحائبَ جُوده ورِفْده .

---

(١) جارٍ فى هذا الفصل اللغة العامية والصواب قطره قال الشاعر :

قد طلبت سلمى وجاراتها * ماقطر الفارس الا أنا

انظر اللسان ج ٦ ص ٤١٨ .

المملوكُ يخْدُم بتحيَّة أرقَّ من النَّسِـيم، و يشْكُر مَواهبَه التى مازالتْ تَحنُو عليه حُنُوَّ المُرْضعات علىٰ الفَطِيم .

ويُنْهِى ورُودَ الخبر بأنه كَتَابِه جوادُه عنـد مازَلَّت قوائِمُه، وأثقَلَتْه فضائلُ المولىٰ ومكارِمُه؛ فآنْزعَج لذلك وتألَّم، وكاد قَلْبُـه لولا المبَشِّر بسلَامتِـه أنْ يتَكَلَّم؛ وجَوادُ المَوْلىٰ لاسبِيلَ إلىٰ ذَمِّه، فإنه أسْمحُ جَواد، ولا آتِّهـامِه بالعَجْز، فإنَّه عُرِفَ بإتْهام وإنْجـاد :

لٰكِنَّه نَظَر الأفلاكَ ساجدةً * إلىٰ عُلَاك فلَمْ تَثْبُتْ قوائِمه!

والمولىٰ أولىٰ مَنْ قابل عُذْر طِرْفه بطَرْف القَبُول، وآعتمد عليـه دُونَ سائِرِ الخُيُول : فإنَّ المولىٰ ولله الحمدُ فى صحةٍ دائمه، وسـلامةٍ ملازمه؛ وهـذا هو القَصْدُ والمُراد، والآستبشارُ الذى تفْتَرُّله ثُغورُ الثُّغور وتعْمُر به البِلاد؛ جعله اللهُ فى سعدٍ ماله فَراغٌ ولا نَفَاد، ورزقه مادعا به العِمادُ الفاضل والفاضِلُ العِماد؛ إن شاء الله تعالىٰ .

أجوبة كُتُب العيـادة

قال فى "مواد البيان" : يجب أن تبنىٰ هذه الأجوبةُ علىٰ وُصُول الرُّقعـة، وما صادفت المريضَ عليه من المَرَض، وأنها أهدَتْ رَوْحَ الهُدُوء، وأركدَت رِيَاحَ [illegible] بنَسيم الإبلال، وتضوّعَتْ بأرَج الآسـتقْلال؛ وبَشَّرت بالعـافيةِ والسَّلامه، وآذنتْ بالصَّلاح والآستِقَامه؛ وأشباه هذا .

ابن نباتة المِصْرى :

شَكَرَ اللهُ آفتِقـادَها وأُنْسَها، وقلَمَها وطِرْسَها؛ وحمىٰ مِنْ عارض الحَطَبِ لامِنْ عارض الحِصْب شَمْسَها؛ ولا أعدمَ الأولياءَ قصْدَها الجميل، ووُدَّها الجليل، و إحسانَ

رسائلها التى كُرِمَتْ فما صَوْبُ الغَمَام لها رَسِيل ؛ وأمْتع الممالكَ بيُمْنِها التى صحَّت بتدبيره فليس غَيْرَ النَّسِيم عَلِيل .

و يُنْهِى ورُودَ المشرَّف الكريم فتلقَّاه المملوكُ حَبِيبا وارِدًا ، وطبِيبًا بإحسانه ولِلحمد عائِدا ؛ وفَهِم المملوك ما آنْطوىٰ عليه من الصَّدَقات التى ما زالَتْ فى فَهْمه ، والمحبةِ الصادقةِ التى ما عَزَبتْ عن عِلْمه ؛ وما تضَمَّن من فصولٍ كانَتْ أنفعَ من فُصُول أَبِقْراط لمعالجة جِسْمِه ؛ ولَمِينَ أبِقْراطُ من بركاتِ كتابِ مولانا الذى طالَعَ منه كتابَ الشِّفاء علىٰ الحقيقه ، والنَّجاةِ من عُرْوة البأس الوَثِيقه ؛ وأدْنىٰ ورَقَته الحمراءَ لرأسه تبَرُّكا وإكْراما وقال : نِعْمَ الجُلَّنارةُ المُعَوَّذَةُ من الشَّقِيقه ، وآستطَبَّ حُروفَها فإنها عن أيْدِى الكريم والكِرَامات ، ولَثَمَ العلامةَ وتمسَّك بالسُّطور فإنها من أسباب الصِّحَّة والعَلَامات ؛ ووافقتْ عيادةُ مولانا مبادِىَ العافية وآذنَتْ بالزِّياده ، وصلَح خطُّه الكريمُ عائدا وما كلُّ خطٍّ يصلُحُ للعِيَاده ؛ وما تِلكَ الجارحةُ المتألِّمةُ إلا يَدٌ أثقلَتْها مِنَنُ مولانا فأعْيَتْ وتألَّمت ؛ ثم أعانَتْها بركتُه هى والقدَمُ بالحمل العظيم وتقدَّمَتْ ؛ وما بقِيَّة الجَوارِح إلا عيونٌ كانتْ تنتظِر لُطْفَ الله تعالىٰ و بركتَه وقد قَدِمَتْ ، فشُكْرا لها من بركاتٍ تَنْعَمُ بها قبلَ الجُسُوم أرواحُها ، وأدْويةٍ قلبِيَّة تُعالَجُ بها ذواتُ النُّفُوس فكيف أشباحُها ؛ لا بَرِح جوْهَرُ كلماتِ مولانا يُؤْذِن بالشِّفاء من العَرَض ، وسِهام أقلامه إذا كتبَتْ عائدةً أو جائدةً أصابت الغرَضَ وفوْقَ الغَرَض .

وله : تقبَّلَ اللهُ منه وفيه صالِحَ الأدْعِيه ، وملأ بمَحَاسِن ذِكْره وبِرِّه الآفاقَ والأنْدِيه ، وشكرِهِباتِه و بركاتِه التى تَنْزِل بعارِض الغيثِ قبل الإسْتِمطار وترفَعُ عارِضَ الألَمِ قبلَ الأدْويه ؛ تقبيلَ معترِفٍ بسابق النِّعم ، مقِيمٍ علىٰ صحَّة العُبُودية والولاء فى حالَتَىِ الصِّحَّة والسَّقَم .

Marfat.com

وينهى وُرُودَ مشرِّف مولانا الكريم علىٰ يدِ فلان عائدًا من جِهة العِياده ، وعائدًا من جِهةِ الصِّـلات المعتاده ؛ ومُفْتقِدًا لاعَدِم الأولياءُ فى الشِّـدّة والرَّخاء آفتقادَه ، ما كان إلَّا رَيْثَمَا نَشِقَ العليـلُ نَسَماتِه الصحيحه ، ويتناوَلَ كأسَ ألفاظه الصَّريحه ؛ وإذا بقانُون المِزَاج قد هَمَّ باعتِدَاله ، وكتابِ الشفاءِ والنجاةِ قد تسنَّتْ فوائدُ إقْبالِهِ ؛ فتميَّز حال الصحَّة من المَرَض ؛ وآستعمل جَوْهَرَ الألفاظ فعَزَم علىٰ زَواله العَرَض ؛ وبلَّغ الولدُ فلان المشافَهةَ وكلُّ مَقاصِد مولانا مبتَدَأة مبْتدَعة ، والمملوك[1] جوابَها وكلُّ أجوبته مُنَوَّلةٌ منوَّعه ؛ شكر اللهُ عوارِفَ مولانا المتَّصِـله ، ورُسلَ آفتقاده التى منها العائدُ ومنها الصِّله .

وله : فى جواب كتاب عِيادة وارد فى يومِ عِيد علىٰ يد من آسمه جمال الدين محمود .

شـكَر اللهُ مِنَنَهـا التى إذا أبْدتْ أعادَتْ ، وإذا جادَتْ أجادت ؛ وإذا كَرَّرتْ الآفتقـادَ حَلَا وإذا تصـدَّتْ لمَوَدّات القلوب صادَتْ ؛ تقبيـلَ مخلِص فى ولَائه وآبتهاله ، مُقِيم علىٰ صحة العهدِ والحمد فى صِحَّته وآعتِلاله .

وينهِى ورُودَ مشرِّفة مولانا الكريمةِ علىٰ يدِ الولدِ جمـال الدين محمود متفقِّدا علىٰ العـاده ، مكرِّرا لعيادة الإحسانِ وإحسانِ العِياده ؛ فقابل المملوكُ بالحمد وارِدَها ، وبعوائد الآعتِدادِ عائدَها ؛ وفَهِم ماتضمَّنته من تألُّم قلب المـالك علىٰ ضَعْف المملُوك ، وقَلَقِ خاطره علىٰ بَدَن كَبِيَت[2] العُروض مَنْهُوك ؛ وأنه كان آبتدأ ضَعْفُ المملوكِ فتألَّم ، ثم تَلَا خبرُ الصحة فتَـلَا : ولكنَّ اللهَ سَـلَّم ؛ ثم بلغه أنَّ آلامًا تراجَعَتْ ، ومَوادَّ واصلَتْ بعد ما قاطَعَتْ ؛ فحملَتْه خواطِرُ الإشفاقِ علىّ علىٰ تكريرِ العِيَاده ، وارتقابِ فَعلَات الشفاء المستَجَاده ؛ جاريًا من إحسانه وآفتقادِه علىٰ أجمل معْهُود ، باعثا مشَرَّفتَه

(١) مراده وناول أى أوصل المملوك الخ تأمل .

(٢) فى الأصول "كئيب" وهو تصحيف من الناسخ .

وحامِلَها وكلاهُما حسَنُ الحال محمود ؛ فعند ماوصَلَا أوصَلَا كمالَ العافيه ، وحقَّقتُ أخيلَةَ البُرْءِ الشافيه ؛ وما كان المشكُوُّ إلا مادَّة يسيرةً وزالتْ ، وبقِيَّةَ ضَعْف تولَّت بحمد الله وبركة مولانا وما تَوالَتْ ؛ وما عيَّدَ المملوكُ إلا وشفاءُ الجسد فى ٱزْدِياد ، والنفس بالوقت وبالمشَرِّفة فى عيدَيْن قائمَيْنِ بأعياد ؛ لا زالتْ مِنَنُ مولانا إزاءَ اللَّحْظ حيثُ دار ، ووُدُّه وحِمَاه جامعين فَضْلَ الجارِ والدَّار .

زهر الربيـــع :

لازالَ محروسَ الشِّيَم ، هاطِلةً سحائبُه بالدِّيَم ؛ مشكورًا بأمانَى الإنسانِ والقَلَم .

المملوك يقبِّل يدَه الشريفـةَ مُؤَدِّيا للواجب ، ويواصِلُ بدعاءٍ صالحٍ أصاره إنعامُه ضَرْبَةَ لازِب .

وينهى إلىٰ كريم علمـه وُرُودَ مشرِّفه الذى أبهَجَ الأنفُسَ وضاعفَ الصَّبَابه ، وأفنىٰ الصبْرَ عن مُحيَّاه وإنْ كان ماأفناه أيْسَرَ صُبَابه ؛ وأنَّه عَلِم منـه إنعامَه وتشوُّفَه إلىٰ المملوك وإلىٰ سَمَاعِ أخبارِه ، وما أبْداه من شَفَقةٍ أُلِفَت من إحسانه وعُرِفتْ من كريم نِجَاره ؛ وتُحُقِّقتْ من شِيَمه علىٰ من يَنْأىٰ عن بابه العالى ودارِه ، فاللهُ يحرُس هٰـذه الأخلاقَ التى هى أرَقُّ من المـاء الزُّلَال ، والشمائلَ التى تفْعَل بلُطْفها فِعْـلَ الجِرْيال ؛ والمملوكُ فواللهِ لايُحْصِى شَوْقَه إلىٰ الخِدْمة العاليـة ولا يَحْصُرُه ، ولا يَقْدِر علىٰ وصف مايُسِرُّه من الأَتْواق ويُظْهِره ؛ إنمـا الاعتمادُ فى ذٰلك علىٰ شاهِدَىْ عدْلٍ من خاطره وقَلْبه ، وهما يُغْنِيان المملوكَ عن شَرْح وَلَائِه بألسنةِ أقلامِه ووُجُوه كُتْبه ؛ وأما السؤال عن أخبـار مِزَاج المملوك فإنه كان فى ألمٍ دائمٍ ، وسُقْمٍ مُلازِم : لشـدّة المَرَض ، الذى كاد يحتوى علىٰ جَوْهَر جسـمه والعَرَض ؛ فمُـذْ ورَدَ كتابُ المولىٰ ٱنتعشَتْ قُوّته ، وٱشْتدّتْ مُنّته ؛ وصدَقَتْ فى طلب تنـاوُل الغذاء شَهْوتُه ؛ وترجّى

Marfat.com

الشفاءَ بعدَ أن كان علىٰ شَفَا التّلَف ، وكان له كالطبيبِ الآسِى فى إزالة مَرَض الأَسَا والأَسَف . وقد حصلت للملوك مَسَرّتان بكتاب المولىٰ وعافيتــه ، وفَرْحتان بمــا أهداه إليه من عَظيم إنعامه ومَحْو أثَر الألم وتعْفِيَتِه ؛ وكلُّ ذٰلكَ بسعادَته .

ومنـــه : ورد المُشَرَّفُ العالى لا زال قَدْرُ مُرْسِله شريفا ، وشَرَفُه البَاذِخُ يجعل كلَّ شريف مشْرُوفا ؛ وسحائبُ جُوده تُهْدِى إلىٰ الأولياءِ من مكارمه تَلِيدا وطَرِيفا ، وقواضِبُه تَرُدّ [طَرْف] حوادثِ الأيّام عنه مَطْرُوفا ؛ وأيادِيه تبعثُ لمحبيــه تُحَفا ، وهيبتُه تُهْدِى إلىٰ الأعداء خَوْفا ، والدهْرُ بخدمةِ جَنَابه العالى مشْغُوفَا ؛ فوقفَ عليه وُقوفَ مشتاقٍ إلىٰ مُسَطَّرِه ، متنزِّه فى ربيع ألفاظِه وحُسْن أسْطُرِه ؛ وعَرفَ منــه إحسانًا مافَتِئَ يعْرِفه ، وتفضُّــلا مازال المَوْلىٰ بمثــله يُتْحِفُه ؛ وما أشار إليه من شِدّة إيثارِه ، لرُؤْية المملوك وسماعِ أخباره ؛ والذى يُنْهِيه أنّ جسده كان قد تَضَاعف ضَعْفُه ، حتّى أتعبَ الألْســنةَ وصْفُه ؛ فلمــا وقَفَ من مشَرَّف المولىٰ علىٰ خَطّ هو الوَشْىُ المنَمْنَم ، وألفــاظٍ هى الرَّحِيق المُخَتَّم بل الدُّرُّ المنَظَّم ؛ وسحرٍ هو محلّل وكلُّ سحرٍ مُحَرَّم ؛ أبَلَّ المملوكُ وبَرَدَتْ غُلّتــه ، وبَرَأَتْ عِلّتُــه ؛ وكان كمن آســتوفىٰ نصيبَه من النَّصَب ، وأخذ قِسْمَه من السُّقْم والوَصَب ؛ فسَقَاه مشَرِّفُه الصحةَ فى كاس ، وأفاضَ عليه من العافية أفخرَ لباس .

آخـــر :

وَرَدَ الكِتابُ فَعَمَّتِ الأفْراحُ * وأضَاءَ فى لَيْل الأَسَا الإصْباحُ !
وآفْــتَرَّ ثغرُ للزّمان بفَرْحةٍ * وللفظه طَرِبَتْ رُبًى وبِطاحُ !
وتَضَوَّعَتْ أرْواحُ طِيبٍ عَرْفُها * تَحْيــا بِهِ الأجْسامُ والأرْواحُ !
وسَرَىٰ سُلَافَ فَصاحةٍ وبَلَاغَةٍ * ما المِسْكُ عندَ شَمِيمِهَا ما الرّاحُ !

شكر الله مِنَنه، وأخدمه زَمَنَه، ومنَحه من العَيْش أغَضَّه وأحْسَنه، وشَرَّف ببقائه الدهْرَ وشنَّف بمَدْحه أُذُنَه .

المملوك يُنْهِى إلىٰ علمه وُصولَ مشرَّفه الذى تنزَّهت الأعينُ فى حُسْن مَنْظَره، ويانع ثمارِ لفظه البديع ووَشْي أسْطُره؛ وأنه آستَنْشقَ من رِيحه أطيبَ نَفْحه، وتقمَّص منه ثَوْبَىْ دَعةٍ وصِحَّه ؛ فشفىٰ داءً شَفَّ منه جِسْمُه، وزاد لوُرودِه سُرورُه وزال هَمُّه؛ وعلم إنعامَ المولىٰ الذى لا يَشُكُّ فيه، وإحسانَه الذى لا يحْصُره لسانُ مادح ولا يُحْصِيه ؛ وما ذكره من الألَمِ المُلِمِّ به وآشتغالِ خاطرِه الكريم لما ألَمَّ بجِسْمه، والمرضُ بسعادة المَوْلىٰ قد بَقِىَ منه قُلُّه، وتقلَّص بعدَ ما آمتدّ ظلُّه ؛ والعافيةُ تتكمَّل إن شاء الله تعالىٰ برُؤْية مُحيَّاه الكريم ومشاهدَتِه، والمُثُولِ بين يديْه العاليتين فى خدْمته .

النوع الخامس عشر
(فى الذَّمّ)

ذَمُّ بخيل: لأحمد بن يوسف :

كأنَّ البُخْلَ والشُّؤْم صارا معًا فى سَهْمه، وكانا قبْلَ ذلك فى قِسْمه، فحازَهما بالوِراثه، وآستحقَّ ما آستَمْلك منهما بالشِّفْعة، وأشهَدَ علىٰ حِيازتِهما أهلَ الدِّين والأمانة، حتّىٰ خَلَصا له من كلِّ مانع، وسَلِما له من تَبِعةِ كلِّ مُنَازِع ؛ فهو لا يُصيب إلّا مُخْطيا، ولا يُحْسِن إلّا ناسِيا، ولا يُنْفِق إلّا كارِها، ولا يُنْصِف إلّا ساخِرا .

وفى مثله : وصلَ كتابُك فرأيْناك قد حَلَّيته بزَخارف أوْصافك، وأخْلَيْتَه من حقائِقِ إنْصافك ؛ وأكثَرْتَ فيه الدَّعاوىٰ علىٰ خَصْمك، من غير بُرْهانٍ أتيْتَ به علىٰ دَعْواك وزَعْمِك .

Marfat.com

ومنـــه : ولو أراد غيرَ ذلك من الأخلاق السَّنيَّه ، الشريفةِ الهَنيَّه ؛ لاستوحش في سُبُلهـا ، ووقع في مَضَّة منها ، ولن يجد من سَلَفِه ولا نَفْسه دليلًا عليهـا ، ولا هاديًا إليها .

ومنـــه : لأبي العَيْناء :

أما بعـــدُ ، فلا أعلَمُ للمعروف طريقًا أحْذَرَ ولا أوْعَرَ من طَرِيقه إليـك ، ولا مستودَعًا أقلَّ زكاءً ولا أبعَـدَ ثمرةَ خيرٍ من مكانه عِنْـدك : لأنه يحصُلُ منك في حَسَبٍ دَنِيّ ، ولِسان بَذِيّ ، ونَسَبٍ قَصِيّ ، وجهْلٍ قد مَلَكَ طِباعَك ؛ فالمعروفُ لَدَيْك ضائِـع ، والشُّكْرُ عِنْـدك مَهْجور ؛ وإنمـا غايتُكَ في المعروف [أنْ] تُحْرِزه ، وفي وَلِيِّه أن تكْفُرَ به .

ومنـــه : لمحمد بن الليث :

كم عَلَنَ الظُّـلمُ ، وظهَرتِ البِدَع ، وٱندفَنَ الحقُّ . وعَزَّ الفاجِر ، وظَهَرَ الكافِر ، وفَشَتِ الآثام ، ونُقِضَت الأحْكام ، وٱتُّخِذ عبـادُ الله خَوَلا ، وأموالُه دُوَلا ، ودِينُه دَخَلا .

ومنـــه : لأبي عليّ البصير :

عَدُوُّك مُنْعزِل عَنْك ، وصديقُك على وَجَل منك ؛ إن شاهدْتَه عاقَّك ، وإن غِبت عنه حاقَّك ؛ نسألُ فوقَ الطاقه ، وتَرْهَقُه عنـد الفاقَه ؛ وإن ٱعتذَرَ إليك لم تَعْذِره ، وإن ٱستنْصَرَك لم تَنْصُره ؛ وإنْ أنعَمَ عليك لم تَشْكُره ؛ ولا يزيدُك السِّنُّ إلا نَقْصا ، ولا يُفيدك الغِنى إلا حِرْصا ؛ تسْمُو إلى الكبير ، بقَـدْر الصغير ؛ وتشِفُّ للتَّطْفِيف لالتَّخْفيف ؛ تعتَرِض الناس بالسُّؤال ، غيرُ مُحْتَشِم من الإمْلَال ، ولا كارِهٍ لأن يُنْظَر إليكَ بعين الٱستقلال ؛ حتّى لقد أخرجْتَ الأضْغان ، وقَبَّحْتَ الإحْسان ؛ وزهَّدتَ

Marfat.com

فى ٱصطناعِ المعرُوف، وإغاثةِ الملْهُوف، والناسُ منك بينَ أسرارٍ تُفْشىٰ، وبوائِقَ تُخْشىٰ، وشَناعاتٍ وارِدَه، ونَوادِرَ بارِدَه، وُدُّك تَخَلُّق، وشكْرُك تَمَلُّق .

ومنـــه : لسعيد بن حميد :

رجلٌ يَعْنُف بالنِّعَم عُنْفَ من قد ساءَتْه بمُجاوَرَتِها، ويستَخِفُّ بحقِّها ٱستِخْفافَ من لايَخِفُّ عليه مَحْمَلُها، ويُقَصِّر فى شُكْرِها تقصيرَ مَنْ لايعلَمُ أنَّ الشكرَ يَرْتَبِطُها، ومن كانتْ هذه حالَهُ فى ٱختيارِه لنَفْسه، فكيف أرجو حُسْنَ ٱختيارِه لى ؟ ومَنْ كان فى مُدَّة من ٱبتلاءِ الله بعيدةِ مابينَ الطَّرَفَيْن لاأدرى أينفُذُ بى الأجلُ إلىٰ أقصاها، أمايُقَصِّر بى فى أدْناها، فكيف يتَّسع الصدْرُ للصبْر عليه، إنَّ اللهَ لايَخافُ الفوتَ فهو يُمْهِله، وإنه إنْ ماتَ لم يخرُجْ من سلطان الله جلَّ وعزَّ إلىٰ سلطان غيره فيعاجِلُه، وأنا علىٰ خوفٍ من إعجال المَدىٰ عن بلوغ [مناى فأذهب][1] حرِجًا صدْرى، وعلىٰ ثقةٍ من الشُّغُلُ فى الآخرة بنَفْسى عن التَّشفِّى من أهل عَدَاوتى وتِرَتى، وأحمدُ الله علىٰ المِحْنة، وأسأله تعجيلَ رَوْح النِّعمة، وفُسحةَ العافية .

النـــوع السادس عشر
(فى الأخبـــار)

قال فى "موادّ البيان" : كُتُب الأخبار وإن كانت من الكُتُب الكثيرة الدَّوَران فى الاستعمال فليسَتْ ممـا يُمْكِن تمثيلُه، ولا حصْرُ المعانى الوامقة[2] فيه بُرسُوم تشتمل عليها، نعَمْ ولا أن نقدِّم له مقدّمةً تكون توطئةً لمـا بعدها، كما يجرِى الأمرُ فى سائر فُنُون المكاتبات الأُخَر التى لاتخْلُو من مقدّمات تُحَلُّ منها محلَّ الأَسَاس من البُنْيان،

---

(١) هذه الزيادة يقتضيها المقام .

(٢) مراده الواقعة فيه ولعله مصحف عنه تأمل .

Marfat.com

والرأس من الجُثْمان ؛ لكن المقدِّماتُ التى تُوضَعُ فى الكتب من شَرْطها أن تكون مشتقَّةً من نفس معنى الكتاب ، ومُنْهِى الخبر لا يمكنه أن يَسْتنبط من كل خبرٍ ينهيه مقدّمةً تكون بساطا له ؛ وإنما يقول : كتبت من موضع كذا يومَ كذا ، والذى أنهيه كذا ؛ بل الذى يلزمه أن يتحدّاه بطالبه ، ويتحرّاه بجهده ، أن يبيِّنَ ما يطالِعُ به من الأخبار ؛ ويكشفَه ويوضِّحَه ويُفْصِح عنه ، ولا يقِفَ منه إلَّا عند الشفاء والإقناع لتتقرَّر صورتُه فى نفس من يُنْهِيه إليه ؛ اللهم إلا أن يكون الخبر مما يوجب الأدبُ العُدولَ عن لفظه الخاصِّ به ، والإخبارَ عنه بألفاظٍ تؤدِّى معناه ، ولا يهجُم على المُخْبَر بما يسُوء سماعُه ، كأن يكون خبرا يرفَعُه إلى سلطانٍ عن عبدٍ له قد أطْلَق فيه ما يَضَع منه ويُسْقِط مَهَابته ، أو نحو من ذلك مما يثْقُل على السلطان النغص منه ، فإنه ينبغى أنْ يُعدَل فى هذا وأمثاله عن التصريح إلى التعريض ، ومن التصحيح إلى التَّمْريض ، وعن المكاشَفَة إلى التَّوْرِية ، وأن يأتِىَ بألفاظ تدُلُّ على معانى ما يُروم إبداءه ، ويحْرِص [على] صورة منْزِلة السلطان وتوقيره عن قَرْع سمعه بما يكْرَهه ولا تجوزُ مقابلَتُه به ؛ وأن يقصد إلى استعمال الإيجاز والإطناب فى المواضع التى تحتمل كلًّا منهما ، فهذا ما يمكن أن يُتعرَّف من رسوم هذا الباب .

قال : ومن نَفَذ فهمُه وخاطرُه فى الصناعة وتدرَّب فيها ، يكتفى بهذه اللُّمْعة ولا يحتاج إلى زيادةٍ عليها .

فى الإخبار بوقوع مطر وسيل

من ترسُّل أبى الحسين بن سعد :

فالماءُ منه يَفِيضُ على العُمْران ، بعد أنْ ضاقَتْ به المَغَايِصُ والغُدْران ؛ فأتَى على كثير من التِّلال والرَّوابِى ، فضلا عن الرَّساتِيق والقُرى ؛ وصار الوادى على اتِّساع

عَرْضه، وآمتدادِ طُولِه، وَسَعة مَصَبِّه، ونُسْخة مَفِيضه، لايَفِي بهضمه، ولا يقُوم بحَمْله؛ ففاضَ منه ماعَطَّل العُمْران ونَسَف الدُّور ومَحَق الزُّروع، فعَظُم به البَلاء، وكَثُر له الجَلاء، وشمِل الفَساد، وعَظُم الخَراب.

صدر كتابٍ بإخبارٍ عن الخليفة :

كتبتُ، ومولانا أميرُ المؤمنين فى توطُّد من خِلافته، وتمهُّدٍ من دَوْلته، وعلوٍّ من رَأْيه، ونَفاذٍ من كلمته، وعزٍّ من سلطانه، وآرتفاعٍ من شانه، ونِعَم سابغة عليه وعلى أهل طاعتــه، فالصةٍ عن أعدائه وأهــل مخالفته، وآستقامةٍ من أطرافه وثُغوره، وآستِتبابٍ من أحواله وأمُوره؛ والحمــدُ لله على إحسانه حمدًا لايَقِف دُونَ رضاه، ولا يُحِيط بمقداره سِواه.

صدر بإخبــارٍ عن الوزير :

كتبتُ، وحضرةُ الوِزَارةِ السامية فى نِعَمٍ مُخْصِبةُ الأَكْناف، بَعِيدةُ الأَطْراف، سادِرةُ الوَيْل، ساحِبةُ الذَّيْل؛ وما أنظُرُ فيــه من أمر دَوْلتــه منتظِم، وأُراعِيه من أحوال رَعِيَّتــه ملْتَئِم؛ وقد وَطَّأ اللهُ له أوْعارَ السِّياســة والتَّدْبير، ووَقَفه على جَوادِّ المصلحة فى التقــديم والتأْخير؛ والحمدُ لله حمــدًا يستقِلُّ بحقِّه فيَمْضيه، وبواجِبــه فيؤدِّيه، ويَنْتهِى إليه عزُّ سلطانه فيُرْضِيه.

صدر بإخبــارٍ عن أمير :

كتبتُ، والأميرُ فى عُلُوٍّ من سلطانه، وآرتفاعٍ من شانه، وظَفَرٍ يُواكِبُ ألويَتَه، ونصْرٍ يُصاحِب دَوْلَتَه؛ ووافانا على من ظِلِّه، وشَمِلنى من فَضْله، [illegible] وطابتْ أغْراسُه؛ والحمْدُ لله آعترافًا بنعمتِه، حمدًا يُوجِب شُمولَ مِنَّته، ويستدْعِى الشكرَ عليها، ويقْضى بمَزيدٍ منها.

Marfat.com

صدر بإخبارٍ عن عافيةِ المكتوب عنه :

كتبتُ، وأنا صالحُ الحال، وقد مَنّ اللهُ تعالى بالعافيةِ والإنعاش، والإقالة والإ[1]اش؛ وأعاد إليّ الصحةَ بعد نَبْوِها وذَهَابِها، والسلامةَ بعد نَجْعِها وإغْرابِها؛ وأسبَلَ النِّعمةَ بعد الإنْذار، والتحذيرِ من الاغْتِرار؛ ممحِّصًا بما ألَمَّ من الآلام عَصَبَ الأيَّام؛ والحمدُ لله أولى ما تُلِيتْ به النِّعم؛ وطُرِّز به المفْتَتَح والمختَتَم؛ حمدًا يؤمِّن من التغيير والتبديل، ويُعيذ من الانتقال والتَّحْويل.

ابن أبي الخصال، في الإخبار عن زَلْزَلَة عظيمة وقعت بمدينة قرطبة من الأندلس.

الشيخَ الأجَلّ، الوليَّ الأكرمُ الأفْضل؛ أبو فلان، الذي أطْرَفَهُ اللهُ تعالى بعجائب الأخبار، وأذْهَبَ به في مَسْلَك الاتِّعاظ ومَنْهَج الادِّكار، أبقاه الله آخذًا في سَنَن الانْزِعاج ونَهْج الازْدِجار. المخلِصُ له المَحْضَ الناصعَ من الوَلاء، ومَعْرِفةَ غَرِيبِ الآثار وعَجِيبِ الأنْباء؛ فلان.

سلامٌ عليكم ورحمةُ الله وبركاتُه.

أمّا بعد حمد الله الذي جعل عِبَرَ أنواعًا متلوِّنةً وصُنُوفًا، وأرسلَ الآياتِ وما نُرْسِلُ بالآياتِ إلا تَخْوِيفًا، والصلاةِ على سيدنا محمدٍ المصطفى صلاةً طيِّبةً تَعْبَق تأريجًا وتَضُوعُ تعريفًا، وعلى آله وأصحابه الطاهرين الذين حَضَرُوا حُرُوبًا وشَهِدُوا زُحُوفًا، والدعاءِ لسيدنا الإمام أمير المؤمنين في نَصْرٍ عزيزٍ يُؤَنِّس مَذْعورًا ويُؤَمِّن مَخُوفًا، فإني كتبتُه ـ كتبَ اللهُ لكم دَعَةً حافظةً وأمانًا، وتصديقًا بآياتِ اللهِ البيِّنة وبُرْهانًا ـ من موضع كذا، عند ما طرأ علينا ما كَحَل العُيونَ بقَذاها، ومَنَعَها لَذِيذَ كَرَاها، وأخْفَقَ الضُّلوعَ الحانِيَةَ وأقْلَقَ مَصَارِينَ حَشَاها: وهو أنّ اللهَ عزّ وجلّ

(١) بيض في الأصول لهذا الحرف.

ذَكَّر عباده إنْ نفعت الذِّكْرى، ونبَّههم إنْ تنبَّهُوا ولم يأْمَنُوا منه كَيْدًا مُبِيرا ولا مَكْرا؛ وذٰلك بزَلْزَال قَضىٰ به علىٰ قُرْطُبَةَ وبعض أعمالها، ومَلأ نُفُوسَ ساكِنِيها من رَوْعاتها وأَوجالها؛ وحالَتْ لذٰلك فى الخَوْف(١) والارتفاع أقْبَح حالِها؛ حتّى نحَوْا إلىٰ الاستكانة والضَّراعة، وأطاعَ اللهَ مَنْ لم يكُنْ له قبلَ ذٰلك طاعَةٌ؛ وخَشُوا بل كانُوا يُوقِنُون أنَّها زَلزلَةُ الساعة. وكان من عظيم آثارها، وكَرِيه إيرادِها وإصْدارِها، انْهِدامُ القُبَّة العُظْمىٰ فى المسجد الجامع صانَهُ الله، وكانتْ قُبَّةً أُسِّس علىٰ التَّقْوىٰ بِناؤُها، وذهبَ فى المَشارق والمَغارب ذِكْرُها العاطِرُ وثَناؤُها؛ وتهدَّمتْ بسبب ذٰلك الهَدْم دِيارٌ كثيرة، وحدَثَ به حوادثُ مُبِيرة. وأما تلوكة من أعمالها، وكان فيها مبنًى من مَبانى الرُّوم، فإنه غادَرَها قاعًا صَفْصَفا، وقَرًا نَفْنَفا؛ واضْطَرَّ ذٰلك الخَطْبُ الفادِح، والرِّيحُ القادح؛ إلىٰ أنْ خرج السيِّدُ أبو إسحاق وكافَّةُ أهل قُرطُبَةَ من دِيارهم، وفَرُّوا من الموت بأقْواتِهم وأصحابِهم؛ ثم إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ تدارَكَ بالرُّحْمىٰ، وكَشَفَ تِلْكَ الغُمّى، جعل الله ذٰلك صَقْلا لقُلُوبنا، ونَوبةً عما سَقَى من ذُنُوبنا؛ وعَصَمَنا من جُرْمنا المُوبِق وحُوبِنا، وأَوْلانا وإيَّاكم أمْنا من الغِيَر، وازْدجارًا بما ظَهر من العِبَر؛ وجعل كِلانا(٢) جميلَ الحوادث طَيِّبَ الخبر، بمَنِّه؛ والسلامُ الطيبُ المبارَك ورحمةُ الله وبركاتُه.

من كلام المتأخرين فى الإخبار بقدوم نائب إلىٰ نيابة.

من ذٰلك نسخة كتاب عن نائب الشام إلىٰ كافل الممالك الإسلامية مُخْبِرًا له بوصوله إلىٰ دِمَشْق، من إنشاء الشيخ جمال الدين بن نُبَاتة. وهو بعد الألقاب

(١) لعله فى الخفض.

(٢) جرى الكاتب فى كلا على لغة من يعربها اعراب المقصور على حد قوله:

نعم الفتى عمدت إليه مطيتى * فى حين جدّ بنا المسير كلانا

Marfat.com

لا زالتْ آفاقُ الممَالك مُضِيَّةً بأنْوارِ شَمْسِه، هَنِيَّةً بأُنْس سعادتِه وسَعادةِ أُنْسِه؛ سَنِيَّةَ المَقاصد التى قام فى كَفَالتِها بنَفَاسة نَفْسه؛ ولا بَرِح يستَثْمِر من خَيْر الدُّنيا والآخرةِ ماقَدَّم صُنْعُه الجميلُ من غَرْسه. تقبيلًا يُشافِه به القَلَمُ القِرْطاس، ويَوَدّ المملوكُ لو شافَه به الخِدَم ساعِيًا سعْىَ القَلَم علىٰ الرَّاس. ويُنهِى قيامَه بوظائِف دُعاء يُنِير الحَلَك، ووَلَاءٍ يدُورُ بكَواكب الإخْلاص إدارةَ الفَلَك؛ وحَمْدٍ تَذْهب به صَفَحاتُ الصُّحُف حيثُ ذَهَب وتَسْلُك عُقُودُ الأفلاك حيث سَلَك، وأنَّه خدم بهذه العُبُوديَّة عند وُرُوده إلىٰ دِمَشْق المحروسةِ لنيابةٍ كانتْ عنايةُ مولانا سفيرةَ أمْرِها، ومميِّزةَ بِرِّها، يوم كذا؛ وسعادةُ مولانا السلطان ـ خلَّد اللهُ مُلْكَه ـ تُعلِّمه وتُعْلِمه، والغيثُ ببركاتِ الدولة القاهرة يُسايِره ويَقْدُمه؛ وثَغْرُ المطر يسابِقُ ثغرَ المملوكِ إلىٰ مشافَهةِ الثَّرىٰ ويَلْثِمُه؛ والرعيَّة منه آمنةٌ فى سِرْبِها، وادعةٌ بظِلَال الأبواب الشريفةِ مع بُعْدها دَعَةَ الصَّوارِم فى قُرُبِها، وباكر المملوكُ يومَ الاثنين الذى بُورِك فيه: فى الخَميسيْنِ من يوم وجَيْش، وانتصب لمُهِمَّاتٍ علىٰ مثلها فى الخِدْمة يَطِيب أن يَرْفُغ لِينُ العَيْش؛ مجتَهِدا فيما هو بصَدَدِه، مستمِدًّا من ربِّه عز وجل وسعادةِ سلطانه بَرشَدِه، معتَدًّا نِعَمَ مولانا فيما يأتِى [فى] ذلك من أوفىٰ وأوفَرِ عَدَده ومَدَده، والله تعالىٰ يُعِين المملوكَ علىٰ شُكْرِ مِنَن مولانا الباطنةِ والظاهره، والغائبةِ والحاضِره، والمُقيمةِ والمسافِره، ويصِلُ نَفْع المملوك بوَلَائِه فى الدنيا والآخِره؛ ويُقِيم الرَّعايا بالأمْن فى كَفَالته التى مابَرِحتْ بعُيُون الأعداء فإذاهُمْ بالسَّاهره.

الأجوبة عن كتب الأخبار

قال فى "موادّ البيان": الأخبارُ علىٰ أكثر الأحوال لاأجْوِبةَ لها، وإنما هى مُطالَعاتٌ بأمور يُنْهِيها الخُدَّام، وأصحابُ البُرُد إلىٰ السلاطين، مما تخْرُج أوامرُهم

Marfat.com

إلىٰ الوُلاة بما تضَمّنته : مما يقتضيه كلُّ خبر ينهىٰ من سياسةٍ عامّة ، أو مصلحة تامّة . قال : فأما ما يستعْمِله الإخوانُ فى المكاتبة بالأخبار التى يِكلُ بعضُهم إلىٰ بعض الإخبارَ بها ، فمنها مايقتِضى الجوابَ ، ومنها ما لايقْتضِيه . قال : وأجوبةُ مايقتضى الجوابَ منها تُفْتَنُّ بحسَبِ آفتنان الأخبار والأغراض التى يجيب المُجيبُ بها، وهو أيضا مما لا يعبَّر عنه بقوبٍ جامعٍ ولا برَسْم رَسْم كُلّىّ ، وإنما يرجَعُ فيه إلىٰ الأمور التى يبتدأُ بها ويُجابُ عنها .

النـــوع السابع عشر

(المُدَاعبــةُ)

قال فى "مواد البيان" : ومَعانِى المُدَاعبَاتِ التى يستعْمِلها الإخوانُ غيرُ مُتناهيَه ، والأغراضُ التى ينْتظِمُها المِزَاح وتُعــدُّ من طَلَاقة النفس لا تَقِف عند قاصِــيه : لِأنها مســتَمْلاةٌ من أحوالٍ متباينه ؛ وماخوذَةٌ من أُمُور غير معيَّنه ، وحصْرُها فى رُسومٍ جامعةٍ يستحيلُ ، وتمثيلُها غير مُفِيد : لأنه لاتعلُّق لبعضها ببعْض ؛ ولا نِسبةَ بينَ الواحِد والآخَر ؛ ثم قال : والأحسَنُ بأهل الوِدَاد والصَّــفاء ، والأليقُ بذَوِى المخالَصة والوَفَاء ، أن يتنَزَّهوا فى المُداعَبة الدائرةِ بينَهُم عن بَذىء اللفظ ومُفْحَشه ، ومؤلِم الخطاب ومُقْذِعه ؛ ويكُفُّوا اللسانَ واليَدَ عن الآنطلاقِ بما يدُل علىٰ خفَّة الأحلام ، والرِّضا بالرَّذْل من الكلام اللائِقِ بسُــفَهاء العَوامّ ؛ ويتحرَّجُوا من إرسال قولٍ يبْقىٰ وَصْمةً علىٰ [مَدىٰ الأيَّام] إذْ لافرقَ بين جَرْح اللسانِ وجَرْح اليَد ، وقد نطَقَ بهذا المَثَلُ : لما فى ذٰلك من الترفُّع عن دَنَايَا الأُمُور التى لايتنازَلُ إليها الكُرَماء ، والتنَزُّه عن المَسَاقط التى لايستعْمِلُها الأُدَباء ؛ وصيانةِ المُروءة عما يَشينها ويَخْدشُها ، وتَوْقيرِها

Marfat.com

عما يَنْقُصها ، والأَمْنِ من الجواب الذى رُبَّمـا قَدَح فى النفس وأثَّر، وأَحْمىٰ الصدْرَ وأوْغَر ؛ ونَقَل عن التَّوادُد إلىٰ التَّضادُد، وعن التَّـدانِى إلىٰ التَّبَاعُد؛ وقد أشارَ إلىٰ ذٰلك أميرُ المؤمنين علىّ كَرَّم اللهُ وجْهَه بقوله من أبياته المنسوبة إليه :

فَـرُبَّ كَلَامٍ يُمِضُّ الحَشَـــا * وَفِيهِ من الضَّحْك ما يُستَطَابُ

مع مُراعاةِ السلامةِ من المُداخَلة المُنْطوِيَةِ علىٰ الغِلّ ، والمُراآةِ المبنِيَّة علىٰ المَكْر؛ إذا لم يكُنْ للمقابَلةِ علىٰ الابتـداء المُمِضّ بالجواب المريض، وغير ذٰلك ممـا لا تُؤمَن عاقبتُه، ولا تَحْسُن عائدتُه . قال : ويكون المستعْمَل فى هذا الفَنّ ماخَفَّ مَوْقِعُه؛ ولَطُف مَوْضِـعُه ، وهَشَّ له سامِعُه؛ وتلَقّاه الواردُ عليه مستَحْلِيا ثِمـارِه، مستَدْعِياً لأنْظاره ، ولا يُعـدَل به عن سَمْت الصِّدْق، وطريق الحَقّ ، ومَذْهب التحرُّز من المَذْق؛ ويُقتَصَر فيه علىٰ النادِرة المستَطْرَفه، والنُّكتة المُستَظْرَفه؛ واللُّمْحة المستحْسَنَة، والفِقْرة المستَغْرَبة، دُونَ الإطالة المُمِلّة ، ولا يجعل المَزْحَ غالباً علىٰ الكلام، مُداخِلاً لجميع الأقسام : فإنَّ ذٰلك يُفْسِد معانِىَ المكاتبـه ، ويُحِيل نِظامَ المخاطَبَـه ، ويَضَع من مَعْناها وإنْ كان شَرِيفا، ويُوخِمُ لَفْظَها وإن كان لَطِيفا؛ ويَذْهَبُ بِجِـدِّها فى مَذْهب الهَزْل ويُمِيله عن القَصْد؛ وإلىٰ ذٰلك يُشِير بعضُهم بقوله :

أَفِدْ طَبْعَكَ المَكْدُودَ بالجِدِّ راحةً * بلَهْوٍ وعَلِّلْهُ بِشَىْءٍ من المَزَح!

ولٰكنْ إذا أعْطَيْتَهُ المَزْحَ فلْيَكُنْ * بِمِقْدارِ مايُعْطىٰ الطَّعامُ مِن المِلْح!

وأنْ يَقْتَصِد مع ذٰلك . ثم قال : وينبغِى أن يَقْصد إلىٰ آستِعْمال الدُّعَابةِ فى المواضِع اللائقةِ بهـا ، والأحوالِ المشابِهةِ لهـا ؛ ولا يُودِعَ باباً من الأبْواب ، مالا يحتَمِلُه من الخطاب : فإنَّ القصْدَ فى هذا النَّوْع من المكاتبات إنمـا هو الإعْرابُ عن الظَّرْف والبَرَاعة ، والإبانَةُ عن طَلَاقة النَّفْس ؛ والآنسـلاخُ من تعبيس الفَـدَامة

Marfat.com

والجَهَامة؛ ثم عَقَّب ذلك بأن قال : ومَنْ وَقَف من ذلك عند الحدّ الكافِى، ولَزِم فيه الأدَبَ اللائق بأهْلِ التَّصافِى ، دلَّ علىٰ ما ذكرناه ، وشهد لمستعْمله بإحراز ما وصَفْناه ؛ ومَنْ تعدّىٰ ذلك عُدّ من المُجُون والمُلَاعبة ، وحُسِب من رَذَالة الطبع ونَذَالة الخِيم وسَفَه اللسان ، وغير ذلك من الأمور التى لا تليقُ بالكاتبين الكِرام ، الذين هم خِيَارُ الأَنَام، ووُلاةُ النقضِ والإبْرام . وختم ذٰلك بأن قال : والكاتب إذا كان مهيَّأَ الطبع للانطباع برسوم الصِّناعة ومُناسبةِ أوضاعها ، أغناه الوقُوفُ علىٰ هذا القول المجمَل فى ٱستعمال مايقَع فى هذا البابِ عن تمثيلٍ مفَصَّل . ولم يذكر له مِثَالا .

اِبن أبى الخصال :

سيِّدى وواحِدى الذى أَجَمِّل ذكْرَه ، وأُوالِى شُكْره ؛ لا زال مَغْناكَ رَحِيبا ، وَزَمانُك خَصيبا ؛ ولا زِلْتَ تأخُذ لِأُخْراك نصيبا ؛ عبدُك فلان مؤدِّيها ينتَجِع الكِرام ، ويُبارِى فى جَرْيها الأيَّام : فتارة يجْمَع ، وأخرىٰ يفَرِّق ؛ وطورًا يُغَرِّب ، وطورًا يُشَرِّق ؛ وأمَّ الحضْرة ـ وصلَ اللهُ حِراسَتَها ، وأدام بهْجَتها ونَفاسَتها ـ والمُلْك بها غَضُّ الشَّباب، أخضَرُ الجِلْباب؛ وإحسانُك إحسانُك، ومكانُكَ من المُرُوءة مَكانُك؛ فأَوْسِعْه قِرَى، وٱمْلأ عينَيْه علىٰ الشِّبَع كَرىٰ ، أستَغْفِر الله، بل أمْجِدْه تِبْنا وعَلَفا ، وأرْكِبْه حَزْنا من الأرض ظَلَفا (١) ؛ ودُونَكَه لم يقَلِّب أرضَه بَيْطار ، ولا لِجنابة به جَبَّار، وجُرْحُه جُبَار ؛ وعنده كما علمت دعاءٌ مُبَاح ، وثناءٌ فى الشكر [illegible] وصَبَاح ؛ والسلام .

---

(١) الظلف بالتحريك ماغلظ من الارض فلم يؤدّ [أى لم يظهر] أثرا . انظر اللسان ج ١١ ص ١٣٤ .

Marfat.com

من كلام المتأخرين :

كتب بعضُهم إلىٰ كمال الدِّين بنِ الأثير ، وقد جاء إليـــه فى بُستانه فلم يَجِدْه ولا وجد مَنْ أنصفَه .

حضَر المملوكُ البُسْتان ، مستَدْنِياً قُطوفَ الإنعامِ والإحْسان ، وآستَمْطر سحائبَ فضله ، وهَزَّ إليه بجِذْع نَخْله ؛ فلم تَتَساقَطْ عليـه رُطَباً جَنِيّا ، فعلِم أنه قد جاءَ شَيْئاً فَرِيّا ، فثبَّت نَفْسَه مع تَصاعُد الأنفاس ، والطمعُ ينشده :

* مافى وُقُوفك ساعةً من بَاس *

فانطلق حتّى أتىٰ القريةَ مستطْعِما أهلَها فأبَوْا أن يُضَيِّفُوه ، مستعْطِفا حاشِيَتَه الرقيقَـةَ فأبَوْا[1] حاشِيتُه أن يستَعْطِفُوه ، وقال كلٌّ منهم : تُطالِبُ بالقِرىٰ كما تُطالِبُ بدَيْنِك ! آرجِعْ حيثُ شِئْتَ هـذا فراقُ بَيْنِي وبَيْنِك ! وعلِمَ أنه لو أقامَ بها جِدَارا لَمَـا أُعْطِيَ عليه أجْرا ، ولو حاول قِرًى لسَمِع من التوبيخ مالم يَسْتَطِعْ عليه صَـبْرا ، فرجع بخُفَّىْ حنين ، بعْدَ مَشَاقَّ جرَّعتْ كاساتِ الحَيْن ، فأينَ هـٰذه المعاملةُ ممـا نُشِيعه عنه من كريم الخِلَال ، وكيف نَشْكُو نَقْصَ حظٍّ وله كمالُ الإحسان وإحْسانُ الكَمَال .

الأجوبةُ عن رِقَاع المُدَاعبـــة

قال فى "مواد البيان" : ينبغِى للمُجيب عن المُدَاعبة أن يشْتَقَّ من نفس الابتداء جواباً مناسبًا لهـا ، وأن يَبْنِيَه متىٰ أحبَّ الأخْذَ بالفضـل علىٰ المُسامحة ، وآطِّراح المناقشة ، والإغضاءِ عمَّـا يُمِضُّ إبقاءً علىٰ المودّة ، وتحسيناً لقُبْح الصَّديق ، وتعوُّدا لعادة الحلم والاحتمال ، وأن يذْهَبَ فى الجواب مَذْهبَ الاختصار ، وإيرادِ النُّكَت الرائقة كما فى الابتداء ، علىٰ ما تقدّم .

(١) كذا فى النسخ وهو على لغة يتعاقبون فيكم ملائكة .

Marfat.com

الفصـــل الثـامن[1]

(فى إخفـاء ما فى الكُتُب من السِّرِّ)

وهو ممـا تَمَسُّ الحاجةُ إليـه عند آعتراض معترِض من عدوّ ونحوه يحُولُ بين المكتوبِ عنه والمكتوبِ إليه : من مِلكين أو غيرهما حيث لم تُفِد الملَطّفات لضرر الرَّصْد وزيادة الفَحْص عن الكُتُب الواردةِ من الجانِبَيْن، وهو علىٰ نوعين :

النـــوع الأوّل

(مايتعَلَّق بالكتابة، وهو علىٰ ضربين)

الضـــرب الأوّل

(مايتعـــلَّق بالمكتـــوب به)

وذٰلك بأنْ يُكتَب بشىْء لايظْهَر فى الحال، فإذا وصـل إلىٰ المكتوب إليه فعل فيـه فِعْلا يكونُ مقَرَّرا بين المتكاتبين من إلقاء شىْء علىٰ الكتابة، أو مَسْحه بشىء، أو عَرْضِه علىٰ النار ونحو ذٰلك .

وقد ذكروا لذٰلك طُرُقا :

منهـا — أن يُكْتَب فى الوَرَق بلَبَنِ حلِيبٍ قد خُلِط به نُوشَادِر فإنه لاتُرىٰ فيـه صورةُ الكتابة، فإذا قُرِّب من النار ظهَرتِ الكتابةُ .

ومنهـا — أن يُكتَب فى الورق أيضا بمـاءِ البَصَل المعْتَصَر منه فلا تُرىٰ الكتابةُ فإذا قُرِّب من النار أيضا ظَهَرت الكتابةُ .

---

(١) أى من الباب الثانى من المقالة الرابعة وهو آخر فصولها فهى ثمانية لاستة وتقدم فى ج ٦ ص ٣٦٥ أنها ستة موافقة للأصول فتنبه .

Marfat.com

ومنها ــ انه يكتُب فيما أراد من وَرَق او غيره بماءٍ قد خُلِط فيه زاجٌ، فلا تظْهَر الكتابةُ، فإذا مُسِح بمـاءٍ قد خُلِط فيه العَفْص المدقُوق، ظهرتِ الكتابةُ .

ومنها ــ أن يكْتُب فى الورق غيرِ المُنَشّى بالشَّبَّ المحلُول بمـاء المطر؛ ثم يُلْقيه فى المـاء أو يَمْسَحُه به، فإنه إذا جَفَّ ظهرتْ فيه الكتابةُ .

ومنها ــ أن يكتُبَ بمَرارة السُّـلَحْفاة فإنَّ الكتابة بهـا تُرىٰ فى الليـل ولا تُرىٰ فى النهـار .

ومنها ــ أن تأخُذَ الليمونَ الأسـودَ وعُروقَ الحَنْظل المقْلُوّةَ بزيتِ الزيتونِ جزْأين مُتساوِيَيْنِ وتَسْحَقَهما ناعِمًا، ثم تُضيفَ إليهما دُهْنَ صَفَار البَيْض وتكتُبَ به علىٰ جسد من شِئْت، فإنه يَنْبُت الشَّعرُ مكانَ الكتابة ، وهو من الأسْرار العَجِيبة؛ فإذا أُريد إرسالُ شخص بكتاب إلىٰ مكانٍ بعيد، فُعِل به ذٰلك، فإنه إذا نبتَ الشَّعَر قُرئت الكتابةُ .

الضـــرب الثـانى

(ما يتعـلق باللَّـفْظ المكتُوب)

بأن تكون الكتابةُ بقَلَم اصطَلَح عليه المُرْسِلُ والمُرْسَـل إليـه لا يعرِفُه غيرُهمـا ممن لعَلَّه يقِف عليه ، ويسمّى التعمية ، وأهـلُ زماننا يعبّرون عنه بحَلّ المتَرْجَم ، وفيه نظر : فإنَّ الترجمةَ عبارةٌ عن كَشْف المُعَمّىٰ، ومنه سُمّى المعبّر لغيره عن لُغَة لا يعرِفُها بلُغة يَعْرِفُها بالتَّرْجُمان؛ وإليـه يَنْحَلُّ لفظُ الحلّ أيضا ؛ إذ المرادُ من الحلّ إزالةُ العَقْد فيصيرُ المرادُ بحلّ المتَرْجَم ترجمـةَ المتَرْجَم أو حَلّ الحل ، ولو عُبِّر عنه بكَشْف المُعَمّىٰ لكان أوفَقَ للغرض المطلُوب .

ثم مبنىٰ ذلك علىٰ قاعدتين :

القاعدةُ الأُولىٰ — كيفية التعمية .

اِعلم أنَّ التعميةَ بالنِّسبة إلىٰ كلِّ واحد من الناس باعتبار ما يجهَلُه من الخُطُوط ، فيعَمّٰى عَلىٰ العربىِّ فى اللغـــةِ العربيَّة بالخُطُوط غير العربيـة ، كالرُّوميَّة والعبْرانيَّـة ونحوهما ، إذا كانت حروفُ تلكَ اللغةِ تُوافِقُ لغةَ العرب ، أو بقلَم مصطلَح عليه علىٰ وَفْق حُروف العربيـة ؛ وكذٰلك يعمّٰى علىٰ غير العربىِّ من الرُّومى ونحوه ممن يجهلُ الخطَّ العربىَّ بالقلم العربىّ ، وعلىٰ ذٰلك .

ثم للناس فى التعمية مَذْهبانِ :

المذْهَبُ الأوّلُ — أن يُكتَبَ بالأقلام القديمة التى ليستْ بمتدَاوَلةٍ بين النـاس ممـا لايعْرِفُه إلَّا الآحادُ ، إذا وافق ذٰلك القلَمُ اللغةَ التى تُرِيد الكتابة [بها] .

وقد ذكر ابن الدُّرَيْهِم أنَّ أقلَّ اللُّغات المُغْل وهو سـبعَةَ عشَرَ حرفا ، وأطولَهَـا الأرْمنِىُّ ، وهو ستةٌ وثلاثون(١) حرفا . ثم قال : والتركىُّ عشرون(٢) حرفاً ، وكذلك الفارسىّ إلا أنَّ فى الفارسىّ ثلاثةَ أحرف ليستْ فى التُّركى ، وهى الهاءُ والفاءُ والدالُ . وفى التركىّ ثلاثة ليست فى الفارسى : وهى الصادُ والطاءُ المهملتانِ والقافُ ، والعِبْرانىّ والسُّريانىّ اثنان وعشرون حرفا [من أوّل أبجد إلىٰ آخر قرَشَتْ . واليُونانِىُّ والرومىّ القديمُ أربعةٌ وعشرون حرفا](٣) ولهم قلَمٌ آخر ثلاثون حَرْفا ؛ والقِبْطىُّ اثنان وثلاثون حَرْفا ؛ وذكر أنَّ جميع الأقلام مقطَّعةُ الحروف علىٰ اصطلاح أبجـد ، خلا العربىَّ والمُغْلىَّ

(١) فى هذا الحصر مخالفة لما تقدّم فى ج ٣ ص ١٩ من هذا المؤلف فراجعه وتبصر .

(٢) قد تقدّم أنه من أربعة وعشرين الى ستة وعشرين حرفا فتنبه .

(٣) زائد فى بعض النسخ .

Marfat.com

والسُّريانىّ فإنَّ حروفها تُوصَل وتُقْطَع، وقطع السريانى كالعربى، وأقلامُ المتقدّمين المُقَرّرة : كالرُّومىّ والفَرَنْجىّ وغيرهما معلومةٌ لاحاجة إلىٰ التمثيل بشىءٍ منها.

المذهب الثانى — أنْ يَصْطَلِح الإنسانُ مع نَفْسه علىٰ قلم يبْتكِره وحُروف يُصَوّرها؛ وقد ذكر ابن الدُّريهِم أنَّ الناس آختلفَتْ مقاصِدُهم فى ذلك :

فمنهم — من يصطلح علىٰ إبدال حرف معيَّن بحرف آخَرمعيَّن حيثُ وقع فى القلم المعروف بالقُمّى، وهو أنهم جعلُوا مكان كلِّ حرف من حروف العربية حرفًا آخر من حروفها؛ فجعلوا الكافَ ميما وبالعكس، والألفَ واوًا وبالعكس، والدّال المهملة راءً مهملة وبالعكس، والسينَ المهملةَ عينا مهملة وبالعكس، والفاءَ ياءً مثناة تحتية وبالعكس، فيكتب محمد «كطكر» وعلى «سهف» ومسعود «كعسار» وعلىٰ ذلك، وقد نظم بعضهم ذلك فى بيت واحد ذكر فيه كلَّ حرف تلو مايُبْدَل به، وهو :

كَمْ أَوْ حَيط صِلَا لَهُ دَرْ سَعٌ ۔ فى يَزْ خَيش غَضّ ثج تَدَفق

قال : ومنهم — مَنْ يعكِسُ حروفَ الكلمةِ فيكتُب محمد «دمحم» وعلى «يلع».

ومنهم — من يُبدِل الحرفَ الأولَ من الكلمة بثانيه مُطْلَقا فى سائر الكلام فيكتب محمد أخو على «حمدم خا عو يل» إلىٰ غير ذلك من التميزات.

ومنهم — مَنْ يُبْدِل الحروفَ باعدادها فى الجُمَّل؛ فيكْتب محمد أربعون، وثمانية، وأربعونْ، وأربعة، وتعمل التعميةُ صفةَ محاسَبة.

ومنهم — من يكتُب عِوضَ عدَد الحرف حُرُوفا وهو أبلغُ فى التعْمِيَة؛ فيكتب محمد «لى بو لى اج» لأنَّ اللام والياء باربعين وهى عدد ماللميم الأولىٰ، والباء

والواو بثمانية وهى عدد ما للحاء، واللام والياء أيضا بأربعين وهى عدد ما للميم الثانية، والألف والجيم بأربعة وهى عدد ماللدال، فكأنه قال : م ع م د . وإن شاء أتىٰ بغير هذه الحروف ممـا يتضمن هذه الأعداد .

ومنهـم — من يجعَلُ لكلِّ حرفٍ آسمَ رجل أو غيره .

ومنهـم — من يَضَع الحروفَ علىٰ منازل القمر الثمانيـة والعشرين علىٰ ترتيبهـا علىٰ حروف أبجد : فيجعل الألف للشَّرَطين ، والباء للبَطِين، والجيم للثُّرَيَّا ، وهكذا إلىٰ آخرها ، فيكون بطنُ الحوت للغين من ضـظغ . وربمـا آصطُلِح علىٰ الترتيب علىٰ أسماء البُلْدان أو الفواكه أو الأشجار أو غير ذٰلك ، أو صُوَر الطير وغيره من الحيوانات، إلىٰ غير ذٰلك من ضروب التَّعامِي التى لايأخُذُها حَصْر. وأكثَرُ أهل هذا الفنّ علىٰ أن يرْسُم الحروفَ أشـكالا يخترِعها قلَمـا له مقطَّعـة علىٰ ترتيب حروف المعجم . والطريق فى ذٰلك أن يُثْبِت حروف المعجم ثم يُرتِّب تحتَ كل واحد شَكْلا لايمـاثِلُ الآخَرَ، فكلما جاءه فى اللفظ ذلك الحرف كتبه بحيث لايقَعُ عليـه غلطٌ، ثم يفصل بين كلِّ كلمتين : إما بخط أو بنقط أو ببياض أو دائرة أو غير ذلك، وأكثَرُ المتقدِّمين يجعلون الحرفَ المشدّدَ بحرفين، والمتأخرون يجعلونه حرْفًا واحدا، وهذه صور حروفِ مترْجَم كان قد وصل إلىٰ الأبوابِ السلطانية من مُناصحينَ فى بغداد يُقَاس عليه

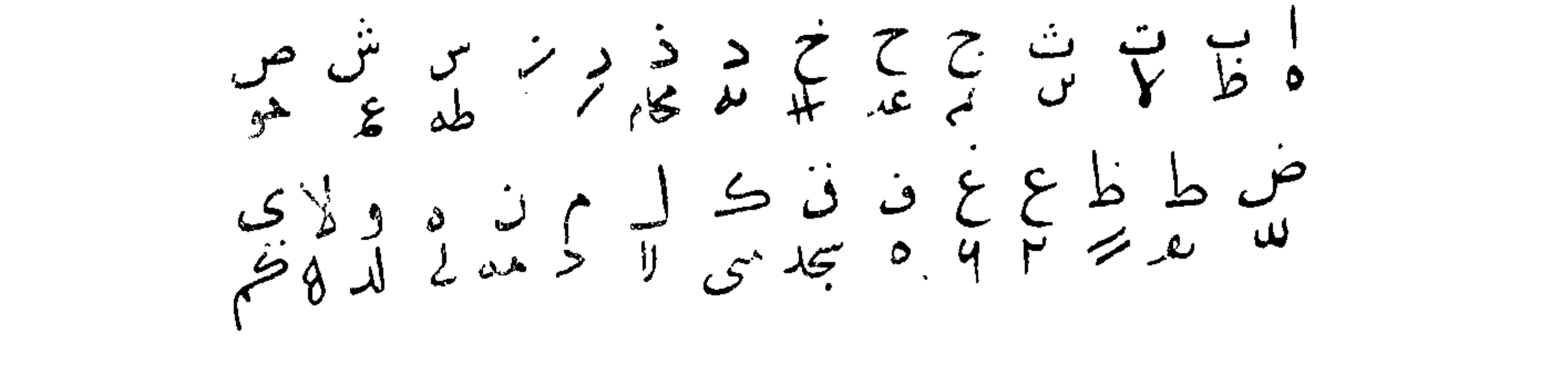

Marfat.com

القاعدة الثانية ــ حلُّ المعمّى، وهو مقصودُ الباب ونتيجتُه .

ويحتاج المتصدِّى لذلك مع جَوْدة الحَدْس وذَكاء الفطرة أن يعرفَ اللغـةَ التى يروم حلَّ مترْجَمِها مما وَقَع به التعميةُ فيها، ومِقدارَ عدد حُروفِها، ولا خفاءَ فى أن حروفَ العربية ثمـانيةٌ وعِشْرون حرفًا ، ويجب أنْ يعرِفَ الحروفَ التى تدخُل كلَّ لغة والحُروفَ الممتنعةَ الوُقوعِ فيها كما تقدم .

ثم المعوَّل عليـه، والمنصَبُّ القول إليـه، فيما هو متعارَف فى هذه المملكة لغـةُ العرب التى [هى] أشرفُ اللغات وأبْذَخُها .

والناظِرُ فى حَلِّ مترجَمِها يحتاجُ إلىٰ أصلين :

الأصلُ الأوّلُ ــ معرفة الأُسِّ الذى يترتَّب عليه الحَلُّ ؛ والذى تمسُّ إليـه الحاجةُ من ذلك سبعةُ أُمُور :

أحدها ــ أن يعرف مَقادير الحروفِ التى تتركَّب منها الكلمة .

وآعلَمْ أنَّ كلام العرب منـه ما يُبْنىٰ علىٰ حرفٍ واحدٍ مثـل «ق» من الامر بالوِقَاية، و «ع» من الأمر بالوَعْىِ؛ ومنه مايبنىٰ علىٰ حرفيْنِ من الأفعال مثل «قُمْ» فى الأمر بالقيام ، و «كُلْ» فى الأمر بالأَكْل؛ ومن الحروف نحو : مِنْ فِى رُبَّ هَـلْ بَلْ وما أشـبه ذلك ؛ ومن الأسمـاء المبنيَّة نحو : ذِى تَا مَنْ كَمْ ؛ ومن الضـمير مع حروف الجر نحو : بِكَ لَهُ ، ومنـه مايُبنىٰ علىٰ ثلاثةِ أحرُفٍ وأربعـةٍ وخمسـةٍ فى الحُروف والأفعـال والأسمـاء ، ثم تدخُل فيه أحرف الزيادةِ العشرةِ ، وهى « هَوِيت السِّمانَ » وثلاثةُ أحرُف أُخَر ، وهى الفاءُ وباءُ الجرِّ وكافُ التشبيه

Marfat.com

وكافُ الخطاب إلىٰ أنْ تبلُغَ الكلمةُ علىٰ آصطلاحِ الكُتَّاب [أربعةَ] عشَرَ حَرْفا ، كقولك مخاطباً لرجلين [أنْشَا] جُنَينةً : أَفَلَمُسْتَنْزَهاتِكُمَا أعددتماها .

قال آبن الدُّرَيْهِم : وليس فى كلامِ العربِ كلمةٌ رُبَاعِيَّة الأصل أوخُمَاسِيَّةُ الأصل ليس فيها حَرْف من الحُرُوف الذَّلَقِيَّة كاللام والنون والواو، والشَّفَوِية كالفاءِ والميم والباء إلا ماشَذَّ مثل «عَسْجَد» من أسماء الذَّهَب .

قال : ونهايةُ الأسماءِ العربيَّة قبل الزِّيادة خمسةٌ ، وشَذَّ (؟) مثلُ عَنْدَلِيب ؛ والأفعالِ قبل الزيادةِ أربعةٌ ؛ وليس فى القرءان كلمة خُمَاسِيَّةُ الأصل سِوىٰ الأسماءِ الأعْجَمِيَّة مثل إبْراهِيم ، ولا يمكنُ أن يتكَرَّر حرفٌ[فى] كلمةٍ واحدةٍ أكثَرَ من خمسة كقول القائل مارأينا [كُكَكا كَكُكَكِكُمْ](١) جمع كُكَّة وهو المركب الكبير مثل عُكَّة وعُكَك ، وأربع كافات فى قولك (٢) وكَكَعْكِك .

الثانى — أن يعرِفَ الحروفَ التى لا يُقاربُ بعضُها بعضا بمعنَى أنها لا تجتمع فى كلمةٍ واحدة .

وآعلم أنَّ فى الأحرف مالا يُقارب بعضُه بعضا مطلقا بتقْدِيم ولا تأخير كالثاء المثلَّثة ، فإنها لاتقارِب الذالَ المعجمةَ والزاىَ المعجمةَ والسينَ والصادَ المهملتين والضاد المعجمةَ ، وكذلك الجيم لاتُقارب الطاء المهملة ولا الظاءَ المعجمة ولا الغينَ

(١) بيض له فى الاصول وقد صححناه من المقام ، ولكن لم نعثر علىٰ هذا البناء فى كتب اللغة ولعله عامىّ تأمل .

(٢) بياض فى الاصل .

المعجمةَ ولا القافَ ولا الكافَ، وما وقع من ذلك فى الكلام نحو : نُغْجَة وبَرْجَق وجُرْمُوق وجَوْلَق وجُلَاهِق ومَنْجَنِيق وجَوْقة وجَوْسَق وصَنْجَق وسَنْجَق وجَرْدَق ونحو ذلك فليست عربيـةً : لأنه لا يجتمع فى كلام العرب جيم وقاف فى كلمةٍ واحدة ، وكذلك الدال المهـملةُ لا تقارنُ الظـاءَ المعجمة والذالُ المعجمة لاتُقارن الزاى المعجمةَ والصادَ والضادَ والطاءَ والظـاءَ ، وما وقع فى الكلام من ذلك فليس بعربىّ ، مثل طبرزذ فارسىّ والزُّطُّ نبطىّ ، ولا تقارن السينُ المهملةُ الصادَ المهملةَ والضادَ المعجمةَ والظاء المعجمةَ ، ولا تقارن الصادُ المهملة الضادَ المعجمةَ ولا الظاء المعجمةَ ، ولا تقارن الضادُ المعجمةُ الشـينَ والظاء المعجمتين ، ولا تقارن الطـاءُ المهملةُ الظاء المعجمةَ ، ولا تقارن القاف الغين المعجمةَ(١) ولا الكافَ فى كلمةٍ أصلية ، وشـذَّ نَغق الغُرابُ وناقة نَغِيق ، ولا تقارن الكافُ الخاءَ المعجمةَ فى كلمة أصلية ، ولا تقارن الميمُ الباءَ الموحَّدة والفاءَ فى كلمة أصليَّة إلا فى فَمٍ وأصـله فَوَه ، وأما بَمٌّ لأحدِ أوتار العُود فليس بعربىّ ، والحروفُ الحَلْقيَّة لا يُقارن بعضُها بعضًا خَلَا الهاءَ فإنها تَعْقُبها زائدة ، كهاءِ الضمير وهاء التأنيث ، وتعقب العينَ أصليةً كالعَهْد والعَهْر وعَهِر ، وليس فى كلمةٍ أصـلية حرفانِ حلْقيَّان سِوىٰ ما تقدّم من الهـاء ، وقد تعقُب بواسـطةٍ كغَيْهَب وعَبْهر ، أما حَيْهل فمركَّبة ، ولا يجتمع حرفان من هـذه الخمسة : وهى الهاءُ والطاءُ المهملة(؟) والعينُ والغينُ والحاء المعجمةُ فى أوّل كلمة سِوىٰ ماذكر ، ولا فى أثناء الكلمةِ إلَّا الهاء مع الدين كهَلَعَ والهاء مع الغين كأَهْيَغ ، والحاء مع الغين كأَحْيَغ(٢) ، والهاء مع الخـاء المعجمة فى كلمة واحدة وهى هَيَّخَة ؛ ولا تجتمع الهـاءُ

---

(١) فى الأصول العين المهملة وهوغير مستقيم . وفى كتب اللغة ناقة نغيق «أى باعجام الغين» اذا كانت تبغم مرة بعد مرة .

(٢) لم توجد فى كتب اللغة التى بأيدينا .

Marfat.com

الأصليةُ مع الخاءِ المعجمةِ ، ولا الحاءُ المهملةُ والعـينُ المهملةُ إلا أن تكون مركّبة مثل هرقصع (؟) والحَيْعَلة .

الثـالث — أن يعرِف الحُروفَ التى لا تُقارن بعضَ الحروف فى الكلمات إلّا قليلا ، كمقارنة السِّين المهملة للشِّين المعجمة فى سِسْع والشين مع الزاى كشَزْر والراء مع اللام كوَرَل .

[وآعلم] أنَّ الحرفَ الواحدَ يتكرر فى الكلمة الواحدةِ كثيرًا مثل دَهْدَه وتَهْتَه ونَهْنَه وحَصْحَص وحَبْحَب وحَمْحَم وجَلْجَل وخَلْخَال وشَـعْشَعة وزَعْزَع ودَغْدَغ وبَغْبَغ ونَقْنَق وعَسْعَس وزُعَازع وغَوْغاء وضَحْضاح وخَوْخ وما أشبه ذٰلك .

الرابع — أن يعرف ما يجوز تقـديمُه على غيره من الحروف وما يمتنِـع ، فالثـاء لا تتقـدّم الشِّـينَ المعجمة ، والدالُ المهـملة لا تتقدّم على زاى ولا صادٍ مهـملة(١) ولا طاءٍ مهملة بدليـل أنهم لمـا عَرَّبوا مُهَنْدِز ، أبدلوا الزاى سينا فقالوا مُهَنْدِس وهَنْدَسة ، والذالُ المعجمة لا تتقـدّم الجيمَ ولا السِّينَ المهملةَ ولا الشينَ المعجمةَ ولا العينَ المهملةَ ، ومن هنا لَمَّـا عرَّبوا الفالُوذَج من الفارسىِّ قالوا فالُوذَق ؛ والشين المعجمة لاتتقدّمُها الزاىُ المعجمةُ ولا السين المهملةُ ولا الصادُ المهملةُ ؛ والطاء المهملةُ لا تتقدّم الكافَ فى كلمة أصلية ؛ والسين المهملة لاتتقدّم على الدال المهملة إلّا قليلا كسَدَاب(٢) ، والذالُ المعجمة لا تتقـدّم على الدال المهملة إلا قليلا كقولك فى الأمر ذُدِ الغَنَمَ .

---

(١) فى الأصل "على نون" وهو غير مستقيم كما لايخفى .

(٢) أورده القـاموس بالذال المعجمـة وتكلم عليـه شارحه ثم قال ويوجد فى بعض كتب النبات بالدال المهملة .

الخـامس ــ أن يَعْرِف ما لايقَع فى أوّل الكلمات من الحروف كالجيم لا تقع بعدها التـاء المثناةُ فوق ولا الصادُ المهملة ولا الضادُ المعجمةُ ولا الغين المعجمةُ؛ أما الخاصُّ فمعَرَّب .

السادس ــ أن يعرِفَ أنه لايتكَرَّر حرفٌ فى أوّل كلمة إلاَّ من هذه العَشْرة الأحرف وهى: الكافُ واللامُ والميمُ والنونُ والتـاءُ المثناة فوقُ والألفُ والبـاءُ الموحَّدة والواوُ والقافُ واليـاءُ المثناة تحتُ ويجمعها قولك «كُلُّ مَنْ تابَ وُقِى» وأقلُّها وقوعا كذٰلك الياءُ .

السابع ــ أن يعرِف أكثَرَ الحروف دَوَرَانا فى اللُّغة، ثم الذى يليه من الحُروف فى الكَثْرة إلىٰ أقلِّها دَوَرَانا .

وٱعلم أنَّ كلامَ العرب أكثَرُ مايقَع فيـه علىٰ ما دلَّ عليـه ٱستقراءُ القرءانِ الكريم الألفُ ثم اللامُ ثم الميمُ ثم اليـاءُ المثناة تحتُ ثم الواوُ ثم النُّون ثم الهـاءُ ثم الراءُ المهـملةُ ثم الفـاءُ ثم القافُ ثم الدالُ المهـملةُ ثم الذالُ المعجمةُ ثم اللامُ ألف ثم الحاء المهملةُ ثم الجيمُ ثم الصادُ المهملة ثم الخـاء المعجمةُ ثم الشـينُ المعجمة ثم الضادُ المعجمة ثم الزاىُ المعجمة ثم الثـاءُ المثلَّثة ثم الطاءُ المهملة ثم الغينُ المعجمةُ ثم الظاء المعجمةُ؛ وقد جمع بعضهم أحرفَ الكَثْرة فى قوله (اليمونه) وبعضهم يجمعها فى قوله (اليوم دن) وجمع الحروفَ المتوسطةَ فى قوله (رعفت بكدس نخح)[1] وجمع أحرفَ القلَّة فى قوله (طظغ صخدز قش) .

(١) تأمل هذا المثال وما بعده وحررهما .

Marfat.com

قال آبن الدُّرَيْهِم : وقد يقع فى لَفْظ غير القُرءان علىٰ خلاف ذٰلك كما يتعمَّدُون الظْم والنثر بغير ألف أو بغير نقط أو بغير عاطل الحروف أو ألفاظ قليلة ، وقد يكون الكلام ألفاظا قلائلَ لاتستوعِبُ الحروف .

الأصل الثانى ــ كيفيةُ التوصُّل بالحَدْس إلىٰ حَلِّ المتَرْجَم :

قال آبن الدُّرَيْهِم : إذا أردْتَ حلَّ ماتُرْجِم لك ، فآبدَأْ أوّلا بعدد الحروف ، وكم تكرَّر كلُّ شكلٍ منها مرةً فأثبِتْه أوّلا فأوّلا . قال : وأوّلُ ماتستخرج الفاصلةَ إن كان الذى عمّى قد بالغ فى التعمِيَة ، يعنى بإخفاء الفاصلةِ فى ضِمْن الحروف ؛ وذٰلك أنك تأخذ حرفا فتظُنُّ أنّ الفاصلةَ تكون الثانى فتُجْريه علىٰ ماتقرّر من الكلمات من المقادير علىٰ ماتقدّم ؛ فإنْ وافق وإلا أخذتَ الثالثَ ، فإن وافَقَ وإلّا الرابع وهكذا حتّى يصحَّ لك انفصالُ الكلماتِ ، ثم تنظر أكثرَ الحروف دَوَرَانا فى الكلام فتُقاربُه من الترتيب المتقدّم فى أكثر الحُرُوف دَوَرانا علىٰ ماتقدّم ، فإذا رأيت حرفًا قد وقع فى الكلام أكثرَ من سائر الحروف فتظنُّ أنه الألف ؛ ثم الأكثر وُقُوعا بعده فتظُنُّ أنه اللام ؛ ويؤيد صحةَ ظنك أن اللام يُدَار فى أكثر آستعمالاته تابعًا للالف ؛ ثم تنظر إن كان فى الكلام حرف مفرد فتظن أنه اللام ألف ؛ ثم أوّل ماتَلَفّق من الكلام الثنائيةَ بتقريب حُرُوفها حتّى يصحَّ معك شىءٌ منها فتنظر أشكالَها وتردُّ عليها ، وتُجْرِى الكلامَ فى الثُّلاثيَّات حتّى يصحَّ معك شىءٌ منها فترقُم نظائرَها ثم تجرى الكلام فى الرُّباعيَّات والخُمَاسيَّات علىٰ الوزن المتقدّم ؛ وكلُّ ما آشتبه فآحتمل آحْتمالين أو ثلاثةً أو أكثر تُثْبتــه إلىٰ حين يتعيَّن من كلمةٍ أخرىٰ ؛ فما آنتظم لك من ذٰلك

Marfat.com

فتُثْبِت الباقِيَ عليــه؛ وإذا رأيت حرفاً قد تقدّم الألف واللام فى أوّل الكلمة فتظن أنه إما باء واحدة وإما فاء وإما كاف غالبا .

قال : وينبغى أن يكتب للمبتدئ أوّلا كلَّ كلمة على حدتها منفصلةً، وأن يكتب له الشِّــعْر دُون النثر؛ فإنَّ الوزن يساعده على ظُهور بعض الحُروف، كهاء التأنيث وتاء التأنيث الساكنة وتاء المتكلِّم والساكن الذى لا يمكن أن يكونَ إلا أحد حروف العلة الدائرةِ فى الكلام وأمثــالِ ذلك؛ ثم ضرب لذلك مثلا بأنك إذا رأيت هــذه الأسطر مكتوبةً بهذا القلم

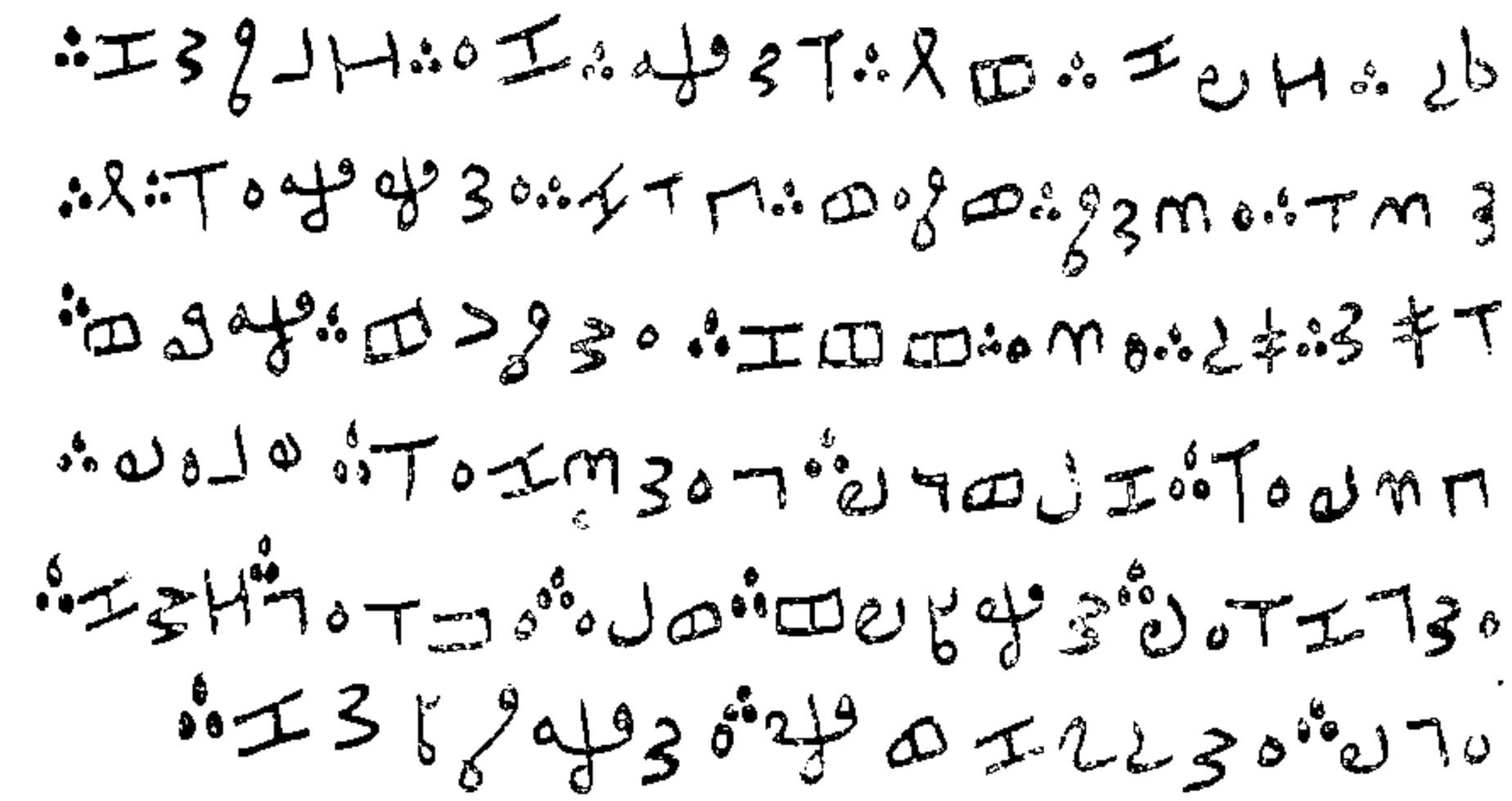

قال : فينبغى قبلَ كلِّ شىء أن يبدأ فيرقُمَ تحت كلِّ شكلٍ من هذه الأشكال كم تكرر مرّة أوّلاً فأوّلاً على هذا المثال

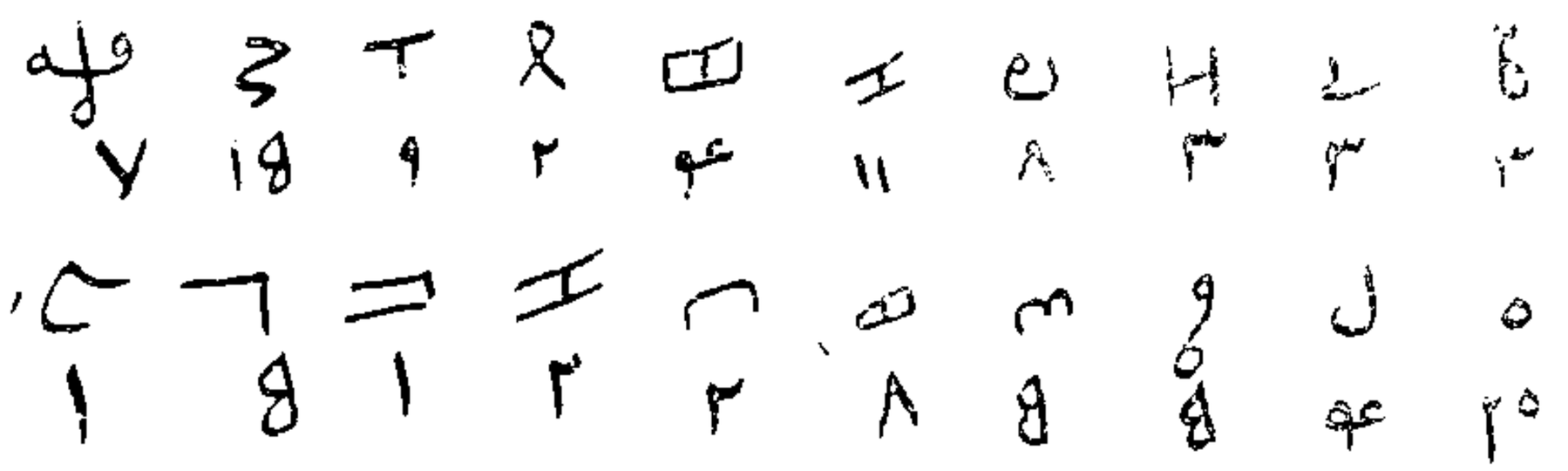

Marfat.com

فيجد قد تكَرَّر معه هذا الشكل ه أكثر من كلِّ الأشكال بكثيرٍ، فيعلم أنَّه الألفُ فيرْقُم عليه فى مواضعه، ثم المكَرَّر بعده أكثَرَ من باقى الأشكال هـذا الشكل 3 فيظُنُّ أنه اللامُ ويحقِّق ظنَّه كونُه تابعًا للألف فى سبعةِ مواضِعَ من الكلام؛ ثم ينظُر فيجِدُ فيـه حرفًا واحدا كلمةً فيظُنُّ أنهـا اللامُ ألف؛ ثم يجد الكلمة الثالثـةَ ثُنائيَّة ثانيها اللام ألف فيمكن أن تكون إحدىٰ هذه : بلا تلا جلا حلا خلا سلا علا تملا فلا كلا هلا ولا؛ ثم يجد هذا الشكل ⊕ الذى مع اللام ألف قد ورد مكررا فى أوّل كلمـة آمتنع أن يكون جيما أو حاء أو خاء أو سينا أو عينا أو غينا أو هاء فلم يبق معنا سوىٰ بلا تلا فلا كلا ولا ؛ ثم يجد الكلمةَ الخامسةَ ثُنائيَّة ثانيها ألف فيمكن أن تكون إحدىٰ هذه با جا دا ذا سا شا ضا فا ما نا يا، ثم يترجَّح أنهـا ما أو يا لأن هذا الشكل ⌶ قد تكرر أكثر من باقى الحروف فيكون إمَّا الميمَ أو اليـاء وإن قاربهما النون لكِنْ ما ويا أكثر وَقْعا فى الكلامَ من نا فإنها غريبةُ الوقوع ، ثم رأينا هـذا الشكلَ المتقدّم قد تلا الشكلَ الذى مع اللام ألف الذى ظننـا أنه أحد هـذه ه ب ت ف، ك وفى الكلمة الثلاثيـة الكرر أوّلهـا ⊖ ⊡ ⌶ فجـرَّبنا الحروف مع المـيم فظهر منهـا لفظة «ففى» لاغير، ثم نظرنا هذا الحرف ⊡ فوجدناه وقع فى أربعة مواضع فى الكلام لاغير، فقلنا إنه الفاءُ : لأن الياء بنسبة هذا الكلام تقع أكثَرَ من ذلك غالبا، فصَحَّ معنا أنَّ الكلمة الثالثـةَ «فلا» والكلمة الخامسة «يا» والحرفَ المفرد «لا» والكلمة الخامسة منـه هى رايد ذلك أننا وجدْنا الكلمةَ الحـاديةَ عشرةَ قد تكرر [فيها] بعد الألف واللام حرفان تلاهما ألف بعده حرف آخر، ولا يمكن أن يتكَرَّر حرف فى مثل هذا المكان سوىٰ الميم إذا جَرَّبته علىٰ جميع الحروف، فقلنا : المَمَـات

Marfat.com

المَـاح المَـار المَـاس المَـاع ؛ ورأينا هذا الشكل ﺗ الذى هو آخر الكلمة قد تكرر أكثرَ من باقى الحروف بعد الألف واللام والباء ، فبقى أن تكون هـــذه ر س ت ع لأن الميم قد صح معنـا ولم يكن النونَ فعلَّمنا علىٰ الميم فى مواضـعه ؛ ونظرنا فرأينا هـذا الشكل ﺗ أولَ الكلمة الرابعـة الثُّلاثِيَّة وقد صح ثانيها اللام وثالثها الميم فجـرَّبناها علىٰ هذه الحروف فسقطتِ الراءُ وبقى أحد هذه : سلم تلم علم ؛ ثم نظرنا الكلمة المجارِية للمات المـاع المـاس ، فرأينا قبـل الألف واللام حرفا يكون أحد هذه ب ل و : لأن الفاء علَّمناها ؛ ونظرنا هذا الحرف ﻣ قد تبع الألف واللام قبل الياء ، ووجدناه بين البين فى كلمة ثلاثية تكون إحدىٰ هـذه أبا أذا أسا أنا ، فجرَّبنـا الكلمة علىٰ البـاء والدال والسـين والنون علىٰ أن يكون الحرف الآخر السين فلم يتفق منه لفظ فسقط « ســـلم » ثم جَرَّبناها علىٰ أن تكون العين فصل منه بعدَ الحرف الأوّل البياع ؛ ثم علىٰ أن تكون تاء فصل منه الثبات السيات فسقط وبقى أبا أسا أنا ؛ ثم نظرنا الكلمة السابعة وهى ثلاثية أوّلُها اللامُ وثانيها هـذا الحرف ﻣ الذى قبل الياء وثالثها هذا ﺗ الدائر بين العين والتاء قلنا يقوم منها « لست » وسقط الباء والنون ، وإنمـا لم يقم منه « كسع » لأنه لمـا سقطت البـاء سقطت العين من البياع ، فصح أن تلك « السيئات » ونظيرها « المـات » والثلاثية « تلم » وســقط علم ، فرقمنا علىٰ التاء فى مواضعها وعلىٰ السين فى مواضعها ، فصارت الثلاثية « أسا » فقد صح معنا من الكلمات : « فلا تَلُمْ يا لَسْتُ المـاتِ لا أَسَا ففى » وبقِىَ الحرف الذى قبلَ السيئات ؛ ثم نظرنا الكلمة العاشرة الثلاثية فيها ت ى جرَّبناها علىٰ الحروف فظهر منها « حتّىٰ » لايشارِكُها شىء فعلَّمنا علىٰ الحاء فى مواضعها ؛ ثم نظرنا كلمـةً خماسيةً قد بقى منهـا الحرفُ

Marfat.com

الوسطُ، بجرَّبناها علىٰ الحروف فقام من ذلك : « حَسَرات حسكات حَسَنات » فعلمنا أنه حسنات : لأن هـذا الشكل ﻫ تكرر أكثرَ من باقى الحروف بعد الألفِ واللامِ واليـاء والتاء، وقد صَحَّ الميم فأثبتنا النُّون فى موضعها؛ ثم نظرنا هذا الشكل ﻫا فى أول كلمتين ثُلاثِيَّتين وقد صح من إحداهما ن ى ومن الأُخْرىٰ ل ى، بجرَّبنا الحرف فوجدناه إمَّا عينا أو واوا، فيقوم منهما عنى على وبى ولى فتعين أن يكون عينا لقلة الحرف عن مرتبـة الواو ؛ ثم نظرنا كلمة سُباعِيَّة قد بقى منها حرف مجهول، جَرَّبناها علىٰ الحروف فصحت «البَيَانُ» لايشاركها لفظةٌ أخرىٰ، وللحرف هذا الشكل ﻥ الذى قبلَ السيِّئات فتعيَّنت الباء فى مواضعها؛ ثم نظرنا كلمةً سُداسِيَّة ثالثُها حرفٌ مجهول ، بجرَّبناها فظهر منها «الكتّاب» ؛ ثم نظرنا كلمة خُماسِيَّة قبل التى قبل «هذه» قد بقىَ حرفُ الوَسَط [منها] مجهولا، بجرَّبناها علىٰ الحروف فقام لمحيف لمدنف لمصنف فتعينت « لمصنف » بسبب سياق الكلام بلفظ « الكتّاب » ورقمنا علىٰ الصاد؛ ثم نظرنا الكلمة الأخيرة قد بقِىَ منها رابعُها مجهولا، بجرَّبناها علىٰ الحروف فصَحَّت «المَوْصِل» وصحَّت الكلمة التى بعد لست أنها «أسلو» فرقمنا علىٰ الواو؛ ثم نظرنا الكلمة الأولىٰ وهى ثنائيـة أولها ص بجرَّبناها فصحت صَدَّ، وإنما كنا أخَّرناها لقِلَّة وَقْع حروفها، ثم علَّمنا علىٰ الدال فوجدنا كلمةً ثنائية آخرها «د» بجرَّبناها علىٰ باقى الحروف التى لم تظهر، فقام منها جد حد قد هد؛ ثم نظرنا كلمة ثلاثية فصح أولها ت وآخرها ل وسطها هذا الحرف ﻠ الذى قبل الدال فى الثُّنائيـة، بجرَّبناها علىٰ الجيم والخاء والقاف والهاء، فسقطت الهاء وبقى تجل تقل تخل؛ ونظرنا فرأينا سياق الكلام يدل علىٰ أن الكلمة قبل أسا «قد» والثلاثية « تَقُلْ » فانتظم الكلام « لا تَقُلْ قَدْ أسَا » ثم نظرنا الكلمة السادسة قد بقى منها

ثانيها مجهُولا ، فجرّبناها علىٰ باقى الحـروف فصحت « عَذُولى » ، فرقمنا علىٰ الذال فى مواضعه ؛ ثم نظرنا الكلمة الثلاثية التى بين «لمصنف» وبين «الكتاب» أوّلها هذا الشكل ⊃ وقدصح منها «ذا» فعلِمْنا أنّها «هذا» ورقمنا علىٰ الهاء ؛ ثم نظرنا الكلمة الخُمَاسِيّة التى بين «ففى» وبين «منه» قد بقى رابعُها ، فجرّبناها علىٰ باقى الحروف فصحت « الوجه» ؛ ثم نظرنا الكلمة السباعية التى قبل الأخيرة وقد بقى منها رابعُها مجهولًا ، فجرّبناها فظهر منها الدُّرَيْهِم ، فتكمل الحلُّ وظهر الكلام :

صُـدَّ عَنِّى فلا تَـــلُمْ يا عَذُولِى * لَسْتُ أسْلُو هَواهُ حتّى المَمَات

لا تَقُلْ قَدْ أسا فَفِى الوَجْهِ منه * حَسَناتٌ يَذْهَبْنَ بالسَّيِّئات

هذا البيانُ لمصنّف هذا الكتابِ ، عَلِىّ بن الدُّرَيْهِم المَوْصِلىّ .

وعلىٰ مثل هـــذا المِنوال يَجْرِى الحلُّ ؛ ثم آنظر إلىٰ حروف هـذا الكلامِ كيف جاءَتْ أحدًا وعِشْرين حرفًا ، ونقص منه ثمـانيةٌ لم تُوجَد فيــه ، فإذا نظرتَ إلىٰ ما قرّرتُ لك من ترتيب وَقْع الحروف كما جاءت فى الكتاب العزيز ، رأيتَ الثمـانية الناقصة هى آخِرُ الترتيب سواء لم يختلط منها شىء بتقديم أو تأخير ، وهـذا آتفاقٌ : لأنه قد يَقَع الحرف قريبا من رُتْبته كما تقدّم ؛ وكما تقدّمت الياء علىٰ الميم فى هـذا الكلام ، والفاءُ علىٰ الميم والنُّون ، وتقدّمت الهاءُ علىٰ الميم أيضا ؛ لكن الأصل معرِفةُ وَقْع الحروف بالتقريب وتجربةُ الكلمات ، ومقارَبةُ ما دَلّ عليه سِياقُ الكلام .

ولْنَضْرب مثالا آخَرَ : لتتضِحَ أنواعُ الحَلِّ .

Marfat.com

وهذا مثال آخر أورده ابن الدُّرَيْهِم، وهو :

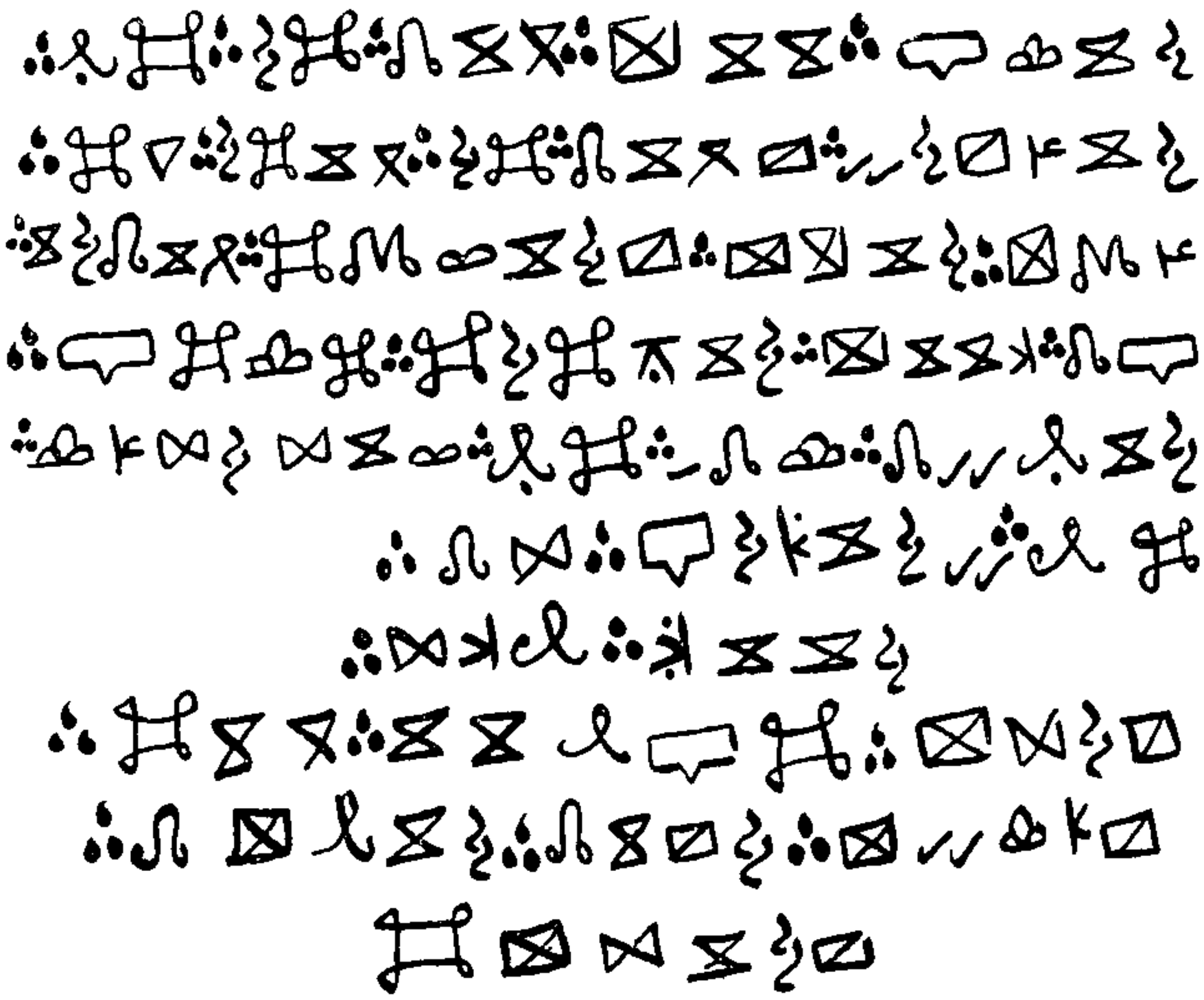

فتعدّد المكررات من الأشكال كما مرّ وترقمها على هذه الصفة .

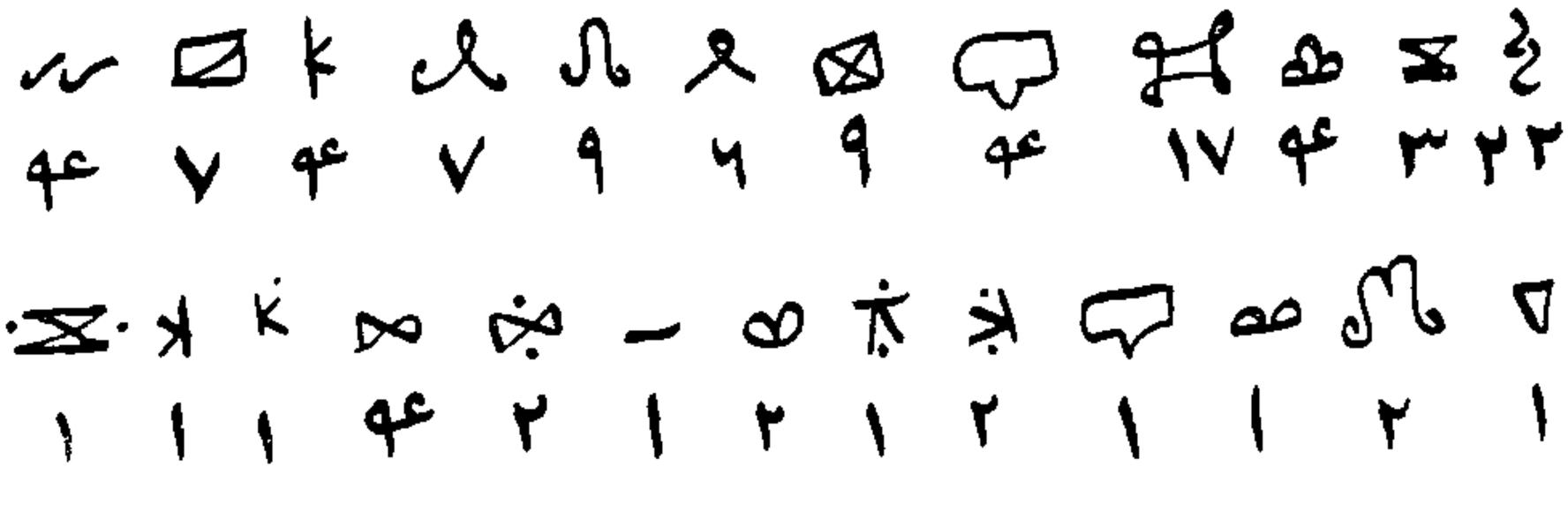

فتنظر فإذا أكثرها وقعا ثم ثم ثم هذين ثم هذين ثم هذا ثم هذه فتظن أن هذا الشكل الألف ، وهذا اللام : لكونهما أكثر وقعا

من الجميع فلم يوافق : لأنه قد تقرّر أن اللام تكون تابعـــة للألف فى أكثر المواضـع ولم نجده تبعه البتة ، بل وجدنا العكس فعلمنا أن هـذا ﻟ هو الألف وهـــذا ﻫ هو اللام ، ورقمنا عليهـــما فى مواضعهـــما فإذا الكلمة الثانيـة الثُّلاثية فيها لامان ، بقى حرف آخِرَها مجهول ؛ فجرّبناها علىٰ الحروف فظهرت الهـاء لايمكن غيرها ، فعلمنا أنها « لِلّٰهِ » ورقَمْنا علىٰ الهاء فى مواضعها ، ثم وجدنا الكلمة الخُماسِيَّة قد بقِىَ رابعُها مجهُولا ؛ فجرَّبناها فظهر الهما ألهجا ألهما الهنـا ، ووجدنا الحرف قد تكرر أكثر من كلِّ الحروفِ بعـدَ الألفِ واللام ؛ فظننا أنه الميمُ ، لكنه يحتمل أن يكون النون ، وسقط البـاء والجيم فوجدناه فى الثنائيات فى كلمتين قبـل الألف ؛ فعلمنا أنهـا « ما » فرقمنا علىٰ الميم فى مواضـعها ، ثم رأينـا الميم قد تبعـه فى الثُّنائيَّات حرف يحتمل أن يكون مد مر مس مص مط مع من ، ورأينـا الحرف كثير الوقوع ، وقد تكررتْ ثلاث لفظات ؛ فعلمنـا أنها « من » ورقمنا علىٰ النون فى مواضعه ، ثم رأينا هذا الشكل ﻭ أكثر من غيره وهو قبل الألف واللام وفى أوائل الكلمات فقلنـا إنه الواو ، ثم رأينا آخر كلمـة قد بقى منها رابعها مجهولا ، فجرَّبنـاها فظهر والبهم والتهـم والجهم والدهم والسهم والشهم والفهم واليهم ؛ ثم وجدنا هـذا الحرف ﻫ الذى فيها قد جاء قبل حرف فى الثُّنائيَّات وذٰلك أكثَرُ ما وقع بعـد الألف واللام والميم ، فيحتمل أن يكون اليـاء ، ووجدنا قد بقى من كلمةٍ هذا الحرف فصَحَّ أن يكون النُّهىٰ وأُخرىٰ أُولِى ، فعلمنا أنها الياء ، فجربنـا الحرف معها ؛ فظهر بى نى ، ووجدنا كلمة خُماسِيَّة هـذا الحرف ﻫ رابعُها وبعدُ حرفٌ آخر ، جربناها علىٰ الياء والفاء فظهر اللبث اللبـد اللبس اللبط اللبك اللفت اللفج اللفح اللفظ اللفق ؛ ثم وجدنا هذا الحرفَ الآخر ﻟﺬ أوّل كلمة بعده لامان وهاء ؛ فجرّبناها فظهر منهـا الحرف الثالث مجهولا ، جَرَّبناها ظهر

التَّمام الحَمَام الذِّمام الشمام الغَمَام الكمام؛ فرأينا سياق الكلام يدُلُّ علىٰ أنه «ظَلَّل الغَمَام» وتعينت تلك اللفظة والأخرى الفَهْم والثنائيـة، فرقمنا علىٰ الفـاء؛ ثم رأينا الكلمة الثالثة الثُّلاثِيَّة ثانيها لام وآخرُها ياءٌ وبعدها «ما ألْهَمَا» فدل سياقُ الكلام علىٰ أنها «علىٰ» فرقمنا علىٰ العين، فرأينا الرُّباعِيَّة التي بعـد «وآله» قد بقي ثالثُها مجهولا؛ فجرَّبناها فظهرتْ مَعْجِن مَعْدِن فتعين مَعْدِن والثنائية التي بعدها؛ وقيل «علم كل» فرقمنا علىٰ الدال في مواضعه ورأينا الكلمة الأولىٰ قد بقي وسطها مجهُولا؛ فجرَّبناها وظهرت الثمد الحمد الصمد، فدلَّ سياقُ الكلام أنها الحمدُ؛ لأن بعدها «لله علىٰ ما ألهما» فرقمنا علىٰ الحـاء في مواضعها، ورأينا الثالث من الرُّباعِيَّة التي بين علىٰ وظَلَّله، فجرَّبناها فظهرت «الذي»، ورأينا الكلمة الخُماسِيَّة التي بعد «مُحَمَّد» قد بقي رابعها [مجهولا]، فجرَّبناها فظهرت «النبي» فرقمنا علىٰ الباء في مواضعها ورأينا قد بقي ثالثُ السُّداسِيَّة التي بعد «من» هـذا الشكل [illegible] وهو ثالث رُباعِيَّة أوّلهـا الألفُ وثانيها فاء وآخرها حاء، وثاني خماسيَّة [illegible] وخامسها هاء؛ فتعينت الصاد، فالأولىٰ «الصَّواب» والأخرى [illegible] «وصَحْبه» وتعينت الثنائيـة التي هي أوّل البيت الثاني بعد [illegible] والتي تليها «صلاة» وتعين السين في السـلام؛ فصار «ثُمَّ صلاة [illegible] السلام» وكلمـا تمرّن الإنسان في ذٰلك ظهر له أسْرَع بكثرة المباشرة، ثم [illegible] التي بعد أفصح مَنْ أنه الضاد، وتعين بسياق الكلام أن بعد [illegible] نَطَق» فرقمنا علىٰ القاف فرأينا مجاريها الثلاثية من رأس [illegible] علىٰ الخاء، وتعينت الكلمة التي قبـل «مَنْ خُلِق» أنها «خير» فتكملت الأبيات وظهر أنهـا :

Marfat.com

الحَمْـــــدُ لِلّٰهِ علىٰ ما أَلْهَـــمَا * مِنَ الصَّوابِ وعلىٰ ما عَلَّما

ثُمَّ صـــلاةُ اللهِ والسَّـــلامُ * علىٰ الَّذِى ظَلَّلَـــــه الغَمَامُ

محمدِ النبىّ خَـــيْرِ مَنْ خَلَقْ * أفْصَحِ مَنْ بالضادِ فى اللَّفظ نَطَقْ

وآلِهِ مَعْدِنِ كلِّ عِـــلْمِ * وَصَحْبِـــهِ أُولِى النُّهىٰ والفَهْمِ

قلت : ومما يلتحق بتعمية الخَطِّ المتقـدمةِ الذِّكرِ ماحكاه آبنُ شيثٍ فى مَعالِمِ الكتابة : أنَّ بعض الملوك أمر كاتِبَـه أن يكتُب عنه كتاباً إلىٰ بعض أتْباعه يُطَمِّنه فيه ليَقْبِضَ عليه عند آنتهازِ فُرْصةٍ له فى ذٰلك ؛ وكان بينَ الكاتِبِ والمكتوبِ إليه صَداقةٌ فكتب الكاتبَ علىٰ ما أُمِرَ به من غير خُروج عن شَىءٍ من رَسْمه ، إلا أنه حين كتب فى آخرِهِ « إنْ شاء الله تعالىٰ » جعل علىٰ النُّون صورةَ شَـدّة ، فلما قرأه المكتوبُ إليه ، عَرَف أنَّ ذٰلك لم يكن سُدًى من الكاتب فأخذ فى التأويل والحَدْس فوقع فى ذِهْنه أنه يُشِير بذٰلك إلىٰ قوله تعالىٰ : ﴿ إِنَّ المَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ . فأخذ حِذْره ، وآحترز علىٰ نَفْسه ، وبلغ الملِكَ آحترازُه علىٰ نفسه فاتَّهم الكاتبَ فى أنه ألحقَ فى الكتابِ شيئا نَبَّه به علىٰ قَصْـد الملِك ، فأحضره وسأله عن ذٰلك ، وأمره بأن يكتُب الكتابَ علىٰ صُـورة ما كتَبَ به من غير خُروج عن شىءٍ منـه ، فكتبه ولم يغـيِّر شيئا من رَسْمه حتّٰى إنه أثبتَ صُورةَ الشدّة علىٰ النُّون ؛ فلمـا قرأه الملكُ ونظر إلىٰ صورة الشـدّة أنكرها عليه ، وقال : ما الَّذِى أردْتَ بذٰلك ؟ قال : أردت قوله تعالىٰ : ﴿ إنّ المَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ ﴾ . فأعْجِب بذلك وعفا عنـه لصـــدْقه إيَّاه .

Marfat.com

النـــوع الثـانى

(الرُّموزُ والإشاراتُ التى لاتعلُّق لها بالخطِّ والكتابة)

وهى التى يعبّر عنها أهلُ المَعَانى والبيان بالاِستعارة بالكِنايَةِ «بالنون بعد الكاف»، وقد يعبَّر عنها بالوحْيِ والإشارة .

ومن غريبِ ما وقع فى ذلك ما حكاه العَسْكرىّ فى "الصناعتين": أنَّ رجلا من بَنِى العَنْبر أُسِرَ فى بَنِى حَنْظلةَ، وفَهِم عنهم أنهم يَقْصِدون الغارةَ علىٰ قومه بَنى العَنْبرِ، فقال لبنى حنْظلةَ : إنَّ لى حاجةً عنـد أَهلى وأُرِيد رسولًا من قومكم أُرْسِـله فيها، فأجابُوه إلىٰ ذٰلك بشرْط أنْ يخاطِبَه فى حاجتـه بحُضُورهم ؛ فأحضروا له رجُلا فى الليل وقدْ أوقَدتِ العربُ نِيرانَهـا ، فأقبل علىٰ الذى أتَوْه به وقال له : أتَعْقِل ؟ قال : إنِّى لعاقلٌ . فقـال : آنظُر إلىٰ السماء ونجومِها ، فنَظَر ؛ ثم قال : آنظُرْ إلىٰ نِيرانِ العرب ، فنظر ؛ فقال له : ماأكْثَرُ؟ نجومُ السماء أو نيران العرب؟ فقال : إنَّ كلًّا منها لكثير ؛ قال : إنك إذًا لعاقِل ، ثم دفع إليـه حنظلةً وصُرّةً فيها رَمْل وصُرّةً فيها شَـوْك ، وقال آذهبْ إلىٰ قومى فادفَعْ إليهم هـذه الحنظلةَ وهاتَيْنِ الصُّرَّتَيْن ، وقُلْ لهم يُعْرُوا ناقتِى الحَمْراء، ويُرْحِلوُا جَمَلى الأوْرَق ، وسَلُوا أخِى الأعورَ يُخْبِرْكم الخَبَر . فقال الحاضِرون : ليس فى هـذا ما يُنْكَر، آذهَبْ فى حاجته ؛ فذهب إلىٰ بنى العَنْبر ودفع إليهم ذٰلك وقصَّ عليهم القِصَّـةَ ورجع ، فبعث القومُ إلىٰ أخيه الأعْورِ فحضر ، فأخبروه الخَبَر . فقـال إنه يقول : أتاكُمْ بنُو حنظَلةَ فى عَدّ الشَّوْك والرَّمْل ، وإنَّ نِيرانَ العرب تُعادُّ نُجُومَ السماء، ويأمُرُكم أن تَرْحَلُوا عن الدَّهْناء وانْزِلُوا مكان كذا ؛ ففعلوا ورحَلُوا لوقتهم فصَبّحهم بنُو حنظلةَ فلم يُدْركوا منهم أحدا .

Marfat.com

وفى معنىٰ ذٰلك ماحكاه المَقَـرّ الشّهابىّ بنُ فضـــل الله فى كتابه "التعريف" : فى الكلام علىٰ المكاتبة إلىٰ الأدفونش مَلِك الفَرَنج بطُلَيْطُلة من بلاد الأنْدَلُس ؛ كان خبيثَ النيـــة ، سَيِّئَ المقاصد لأهل الإسلام ؛ وأنه أرسل مَرَّة إلىٰ الملِك النـاصر محمد بن قلاوون : صاحب الديار المِصْرية هـديةً فيها سَيْفٌ وثوبُ بُنْدُقٍ وطارقةٌ مستَطيلة تُشْبِه النَّعش كأنه يقول : أقتُلُك بهذا السَّيف ، وأُكَفِّنك فى هذا الثوب ، وأحمِلُك علىٰ هذا النَّعْش . قال : وكان الجوابُ أنْ أرسل إليه حَبْلا أسودَ وحَجَرا ، أى إنه كلب يُرمىٰ بهذا الحَجَر أو يُرْبَط فى هذا الحبل .

قلت : ومما وقع من ذٰلك فى زماننا أنه فى الدولة الظاهِرِيَّةِ «بَرْقوق» وتمرلنك يومئذ ببلاد العِراق يُغَاوِر الممـالكَ الشاميةَ لقصد الاستيلاء عليها وردَ عليه كتابٌ من المملكة الحلَبية فيـه : أنه وقع بتلك البلادِ سَيْلٌ عظيم ساقَ جملةً من الأُسْد والنُّمُورة والحَيّات ، وأنه دَفَع حيَّة عظيمةً سَـعةُ رأسها بقَدْر قَوْس ، وقرئ الكتابُ بحضرة السلطان ، وحملُوا ذٰلك علىٰ ظاهره : من أنَّ المرادَ حقيقةُ السيل ، وأنه لقوّته ساقَ تلكَ الحيَّةَ والسِّباع وغيرها ، وشاع ذٰلك بينَ الكافَّة من الأمراء وأهل الدولة وسائر الرعيَّـة ، ومضىٰ الأمر علىٰ ذٰلك ؛ ثم ظهر أنَّ المقصودَ بذٰلك السيلِ وما فيـه هو تُمُرلَنْك وعساكره ؛ وأنه كُنِيَ بالحيـة العظيمة عنه نَفْسِـه ، وبالسِّباع والحيَّات عن عساكره .

ومن لطيف ماوقع فى ذٰلك أنه ورد علىٰ السلطان الملِك الناصر «فَرَج بن بَرْقُوق» فى أواخر دولته كتابٌ عن صاحب تُونُس من بلاد المغْرِب فى آخره خطابا للسلطان (وعلىٰ إحسانِكم المُعَوَّل ، وبيتُ الطُّغرائىّ فى لاميَّـة العجم لايُتَأوَّل) فسألنى بعضُ أعيان ديوان الإنشاء عن المراد من ذٰلك ولم يكن الكتاب متضمِّنا لغير الوصية

علىٰ حُجَّاج المَغَـاربة ، وكان رَكْب المغاربة قبلَ تلك الحَجَّـة قد عرضَ لهم عارضٌ من عَرَب دَرْب الحجاز اجتاحُوهم فيه ، وقتلوا منهم خَلْقا كثيرا ، ونهبُوا منهم أموالا جَمَّةً ، فعرضتُ ذٰلك علىٰ أبيات اللاميةِ ، فلاح لى أنه يُشِير إلىٰ قوله فيها :

فقُلْتُ أرْجُوكَ لِلْجُلَّى لتَنْصُرَنِى ٭ وأنتَ تَخْذُلُنِي فى الحادِثِ الجَلَلِ

والجُلَّى بضم الجيم هى الأمرُ الجلِيل العظيمُ ، والجَلَل بفتح الجيم فى اللُّغة من أسماء الأضـدادِ ، يقع علىٰ الشىء الجليل وعلىٰ الشىء الحقير ، كأنه يقول : أنا كنتُ أرجُوك للأمور العِظام لتنصُرَنى فيها فخذَلْتنى فى هـذا الأمر الخَسِيس ، وهو الأخذُ بثأر حُجَّـاج بِلَادى ممن اعتَدىٰ عليهـم من عرب بِلادِك : فخاب ظنِّى فيما كنتُ أرجُوه فيـك ، وأؤمِّله منـك ، وأشار بقوله لايُتأوَّلُ إلىٰ أنه لايحملُ الجَلَل فى قول الطُّغرائىّ علىٰ الشىء الجليل كما قال الصَّـلاحُ الصفدِىّ فى شرح اللاميـة ، بل علىٰ الأمر الخَسِيس : لأنه هو اللائقُ بالمَقَام .

واعلم أنَّ مثل هذه الأمورِ تحتاجُ إلىٰ قوّة ذكاء واحتـدام قريحة من الذى يَقَع منـه الرمزُ ، وإلىٰ قوّة حَدْس من الذى يحاوِلُ إدراكَ المَقْصَد من تلك [المَعَامِى] كما يقع فى الألغاز والأحاجِىّ للمُلْغِز ، والمتصدّى لحَلِّ ألغازه والجواب عنه ، والله تعالىٰ هو الهادى إلىٰ سبيل الصَّواب .

Marfat.com

المقـالة الخـامســـة

فى الوِلَايات ، وفيهـا [أربعـــة] أبوابٍ (١)

البـاب الأوّل

فى بيـان طَبَقاتها وما يقعُ به التفاوُتُ ، وفيـــه ثلاثةُ فصول

الفصـــــل الأوّل

فى بيان طَبَقات الولَايات، وهى علىٰ ثلاثِ طَبَقات

الطبقةُ الأولىٰ ــ الخِلَافة ؛ ولِمَـا يكتب فى وِلَايتها طريقان : إمَّا عهدُ من الخليفة الأوّل، وإما بَيْعةٌ من أهْل الحَلِّ والعَقْد إن لم يُوجَدْ عهـدٌ من الخليفة قبْلَه علىٰ ماسيأْتى بيانُه إن شاء الله تعالىٰ .

الطبقة الثانية ــ السَّلْطنة ؛ ولِمَـا يكتَبُ فى ولايتها طريقان : أحدُهما العهـدُ من الخليفة، والثانى العهْدُ من السلطان قَبْلَه . قال فى " التعريف " : أمَّا مَنْ قام من المُلُوك بغيْر عهْد، فلم يجر العادةُ أن تُكتَبَ له مبايَعةٌ .

الطبقة الثالثةُ ــ الولاياتُ عن الخلفاء والمُلُوك وما يُكتَبُ عن السلطان بالديار المصريَّة فى أقطار المملكةِ بمصرَ والشامِ والحِجازِ : مما يكتَبُ من ديوان الإنشاء الشريفِ بالأبواب السلطانية .

وهى علىٰ خمســـة أنواع :

---

(١) بياض فى الأصل والتصحيح مما تقدم فى ج ١ ص ٢٤ من هذا المؤلف .

Marfat.com

النـــــــوع الأوّلُ

(ولاياتُ أربابِ السُّيوف ؛ وهم علىٰ ثلاثة أصناف)

الصِّنف الأوّل — النُّوّاب من الأمراء وغيرهم من أرباب الوظائف ، وغالِبُ مَنْ يكتَب له منهم بالبلاد الشاميــةِ ومُضافاتِها ؛ كنُوّابِ السلطنةِ بدِمَشْقَ وحَلَبَ وطرابُلُس وحَماةَ وصَــفَدَ والكَرَك ، ومُقَدَّمى العســكر بغَزَّةَ وسِيسَ ؛ ونُوّابِ القِلاع بالمُدُن العِظام ذواتِ القِلاع الرفيعةِ القَــدْر : كالنائبِ بقلعة دِمَشْقَ ، والنائبِ بقَلْعة حَلَبَ ، والنائبِ بقَلْعة صــفَدَ . أمَّا طرابُلُسُ وحَمَــاةُ ، فليس بهما قلعــة ؛ وكذٰلك النِّيابات الصِّغارُ المُضافةُ إلىٰ القواعد الكِبَار : كالقُدْس الشريف وحِمْصَ ومِصْياف من مُضَافات دِمَشْقَ ، وقلعةِ المسلمين والرَّحبة والْبِــيرةِ والرُّهَا وشَيْزَر وعَيْنتاب وبَهَسْنىٰ وملَطْيَةَ وآياس والأَبُلُسْتَيْن وأَذَنة وطَرَسُوسَ من مضافات حلَبَ ، واللَّاذقيَّة وحِصْــن عَكَّار من مضافات طرابُلُسَ وما يجرى مَجْرىٰ ذٰلك ، علىٰ ما ســيأتى بيانُه مفصلا فى مواضِعِه ؛ إن شاء الله تعالىٰ .

أمَّا مادُونَها من النِّيابات فإنَّ نُوّاب السلطنة بالمملكة يستقِلُّون بالتولية فيها .

قلت : والضابِطُ فى ذٰلك أنَّ كلَّ نيابةٍ كان نائبُها تَقْدِمةَ ألْف فوِلايتُها عن السلطان بمرسوم شريفٍ من ديوان الإنشاء بالأبواب الســلطانية ؛ وكلَّ وِلايةٍ كان نائبُها جُنْديًّا أو مقــدَّمَ حَلْقة فوِلايتها عن نائب السلطنة بالمملكة التى هى مُضافةٌ إليه بتوقيع كريم من ديوان الإنشاء بهــا ؛ وكلَّ نيابةٍ كان نائبُها أميرَ طَبْلخاناه أو عشرة ربَّمــا وَلِّى فيها السلطانُ وربما ولِّى فيها نائبُ السلطنة ، إلا أنَّ تولِيةَ السلطان لنوّاب الطبلخاناه أغلَبُ ، وتوليةَ نُوّاب السلطنة لنُوّاب العشرةِ أغلَبُ .

Marfat.com

أمَّا الديارُ المِصريةُ فإنه كان يُكتَبُ فيها أوّلًا لوُلاة الوجهين : القبـلىِّ والبَحْرىّ جَرْيا علىٰ ما كان الأمرُ عليه فى زمَن الخُلَفاء الفاطميِّين، وكذٰلك والى الإسكَنْدريَّة قبل أن تستقِرّ نيابةً ، ووالِيَا الوُلاة بالوجهين قبل أن يستقِرّا نيابتَيْن ، فى جماعةٍ أُخرىٰ من أرباب الوظائف : كالنائب الكافل وأتابك الجُيُوش كإسْتادَار وأميراخُور ومقدَّم المماليك ووالِيَىْ مصرَ والقاهرةِ ؛ ثم صارت الكتابةُ لذَوِى الوظائِف من أرباب السُّيوف قاصرةً علىٰ النـائب الكافل إذا كان موجُودا والنُّوّاب المستَجِدّين بالإسكندرية والوجهين : القبلىّ والبحرىّ ؛ وبطل ماعَدَا ذٰلك ممـا كان يُكْتَب ، وكأنَّ المعنىٰ فيه القُربُ من مَقَرّة السلطان ؛ والكتابةُ إنمـا تقَع فى الغالب مع البُعْد : لتكونَ حجـةً للتولِّى علىٰ بُعْـد المَدىٰ ، ولا ينتقضُ ذٰلك بمـا يُكتَب للخلفاء والمُلُوك فى الحضرة ، فإنَّ ذٰلك من الأمور العامَّة التى يُخافُ آنتقاضُها أو جُحودُها ، إذ مثـلُ ذٰلك لا يجور فى الولايات عن السلطان : لأنه متىٰ شاء عزَلَ مَنْ وَلّاه .

الصِّنف الثـانى — ولايةُ أُمَراء العُرْبان ، وهٰؤُلاء لاحظَّ لهم فى الكتابة بالولاية بالديار المصريَّة الآنَ ؛ وربَّمـا يُكْتَب لأمرائهم بالمملكة الشاميَّة : كأميرِ آلِ فَضْل ، وأميرِ آلِ صِرا ، وأمـيرِ آل عَلِىّ ، ومُقَـدَّم جَرْم ، وكذٰلك أمـيرُ مكةَ المشرَّفـة ، وأميرُ المدينة النبويَّة على ساكنها أفضلُ الصلاة والسـلام ، والتحية والإكرام ، والنائب بالْيَنْبُع من البلاد الحجازيَّة . والمعنىٰ فى آختصاص مَنْ بَعُـد منهم ماتقدم فى الكلام علىٰ أرباب السُّيوف مع ضَعْف شأن عَرَب الديار المصريَّة وعـدمِ الآهتمام بأمرهم .

الصِّنف الثالث — ولايةُ المُقدَّمين علىٰ الطَّوائف : كمقدَّمى التُّرْكمان ، والأكراد ، ونحيلة البلاد الشاميَّة ، وأتابك طائفة الإسماعيلية بقلاع الدَّعْوة ، وحاكم البُنْدُق

ونحوهم ؛ وهذه الطوائفُ ممّن يكتَبُ له إلىٰ الانَ ؛ أما حاكم البُنْدُق ، فإنه لم يُعْهَد له كتابةٌ من ديوان الإنشاء بمصر والشام . علىٰ أنَّ المقرّ الشهابىّ بنَ فضل الله قد ذكر وصيَّته فى " التعريف " ولعلَّه ممن كان يكتَب [له] فى زمانه أو قبْلَه ثم تُرِك ، وإنما يكون ذٰلك بحسَب آعتناءِ السلطان بشأْن البُنْدُق وعدمِه كما فى لباس الفُتوَّة ، وأنه رُبَّما آعتنىٰ به بعضُ الملوك فكتب له ثم تُرِك .

النـــوع الثـانى

(ولايةُ أرباب الأقلام ، وهم صنفان)

الصِّنـــف الأوّل

(أربابُ الوظائف الدينيَّـــة ، وهم على ثمـانيةِ أضْرُب)

الضرب الأول — أكابرُ القُضَـاة بأقطار المملكة : كقُضَاة القُضَـاة بالحَضْرة السلطانيـــة بالدِّيار المصرية وثَغْر الإسكندرية ، وكذلك قُضاة القُضَـاة بدِمَشْق وحَلَب وطرابُلُس وحَمَاة وصَفَد والكَرَك ، وقُضاةُ العَسْكر بالديار المصْرية ؛ أما القُضَـاة بالنِّيابات الصِّغار المضافاتِ إلىٰ دمشْق وحلَب ونحوهـا فولايتُهم إلىٰ قُضاة القُضاة بهـا ، وقُضاةُ العسكر بدِمَشْق وحلَب ومافى معناهما إلىٰ القُضاة بتلك الممـالك .

الضرب الثـانى — المُفْتُون بدار العَدْل بالديار المصرية ؛ أما المُفْتُون بدار العدل بالممـالك الشامية فولايتهم إلىٰ نائبها .

الضرب الثـالث ــ أكابرُ المحتَسِبين : كمحتَسِبَيْ مصر والقاهرةِ ، أما الممـالك الشاميَّةُ فلا يُولَّى فيها إلا نُوابُها .

الضرب الرابـع ــ أكابر المدَرِّسين فى عامَّة العُلُوم بأماكنَ مخصوصةٍ : كالزَّاويَة الخَشَّابِيَّة بالجامع العَتِيق بمصر ، والمدرسةِ الصَّلَاحية بتُرْبة الإمام الشافعىّ بالقَرافة ، ونحو ذٰلك بأقطار المملكةِ من مُدَرِّسى الفِقْه والحديث والتفسيرِ وغير ذٰلك من العلوم الدِّينيَّـــة .

الضرب الخامس ــ أكابرُ الخُطَبـاء بجوامِعَ مخصوصـةٍ بأقطار المملكة : كجامع الناصِرىِّ بقلعة الجَبَل ، والجامِع الأُمَوىّ بالشام ونحوِهما .

الضرب السادس ــ وُكَلاءُ بيتِ المـال بالدِّيار المِصرية وغيرها .

الضرب السابـع ــ المتحدِّثُون علىٰ الوظائف المعتَبَرة : كنِقَابة الأشْراف ، ومَشْيَخة الشُّـيوخ ، فمـا كان بالدِّيار المِصربة فولايتُه من السـلطان ، وتوقيعُه من ديوان الإنشاء ، وما كان منها بالممـالك الشاميَّة فوِلايتُها إلىٰ نُوّاب السَّلْطنة بها .

الضرب الثـامن ــ المتحدِّثُون علىٰ جِهات البِرِّ العامَّة المصلحةِ : كنظر الأَحْباس وأنظار البِيمارسْتَانات ونحوها : فمـا كان منها بالدِّيار المصريَّة : كنَظَر الأَحْبـاس والبِيمارسْتانِ المنصُورىّ وما أشبه ذٰلك فتوليتُه إلىٰ نُوّابها ، مالم يكن لها ناظرٌ خاصٌّ فيكون ذٰلك مختصًّا به .

---

(١) لعله فتوليته من السلطان ، وتوقيعه من ديوان الانشاء ، وما كان منها بالممالك الشامية فتوليته الخ كما لايخفى تأمل .

Marfat.com

الصنف الثاني

(أرباب الوظائف الديوانية)

ودواوينها على ثلاثة أضرب :

الضرب الأول — دواوين المال ، وأربابها [illegible] من أكابر [illegible] من ديوان الإنشاء : إمَّا ناظر ، أو وزير ، أو صاحب [illegible] أو [illegible] أو [illegible] ؛ فأمَّا الوزارة فلا يُصرَّح بها إلا للوزير بالأبواب [illegible] [illegible] يُصرَّح بها [illegible] دمشق إذا وليها من ارتفعت مرتبته ، والأ [illegible] ناظر [illegible] .

وأما النظر ، فكناظر الدواوين المعبَّر عنه بناظر الدولة ، وناظر الخاص ، وناظر الخزانة الكبرى ، وناظر البيوت « الحاشية » وناظر بيت المال ، وناظر [illegible] السلطانية ، وناظر دار الضيافة والأسواق ، وناظر [illegible] ، وناظر [illegible] والكارم ، وناظر الأهراء ، وناظر المواريث [illegible] [illegible] الحرمين ، [illegible] [illegible] الأوقاف [illegible] [illegible] بدمشق [illegible] [illegible] [illegible] ، وناظر [illegible] [illegible] بدمشق ، [illegible] [illegible] وناظر [illegible] [illegible] .

وأمَّا كتابة الديوان ، [illegible] [illegible] وأمثال ذلك .

وأما الشهادة [illegible] كشهادة الخزانة [illegible] [illegible] [illegible] .

وأمَّا الاِستِيفاء ، فكاَسْتِيفاء الصُّحْبة ، واَستيفاءِ الدَّوْلة ، واَســتِيفاءِ الخاصِّ ، ونحو ذلك . ولاحَظَّ لغير النُّظَّار من دَواوين الأموال بالممالك الشاميَّة : من صاحب ديوانٍ ولا شاهدٍ ولا مستَوْفٍ ، فى الكتابة بالوِلاية من ديوان الإنشاء بالأبواب السلطانية ؛ بل وِلايتُها من نُوَّاب الممالك الشامية بتواقِيعَ من دَواوِين الإنشاءِ بها .

الضرب الثـانى — دَواوينُ الجُيوش بالديار المصرية وغيرِها من الممـالك الشاميَّـة . وأربابُ الخِدَم بها لايخْرُجُون عن ناظرٍ ، وصاحبِ ديوانٍ ، وشاهـدٍ ، ومســتَوْفٍ .

والذين يُوَلَّوْنَ عن السلطان منهـم [و] تُكْتَبُ تَوَاقِيعُهم من ديوان الإنشـاءِ الشريف ناظِرُ الجيش بالأبوابِ السلطانية ، وناظِرُ الجيش بدِمَشْقَ ، وناظرُ الجيش بحلَبَ ، وناظرُ الجيشِ بطرابُلُسَ ، وناظرُ الجيشِ بحَمـاةَ ، وناظرُ الجيش بصَفَدَ ، وناظر الجيش بغَزَّةَ ، وناظرُ الجيش بسِيسَ ، وناظرُ الجيش بالكَرَك ، وصاحبُ ديوان الجيش بالأبواب السلطانية ، والشُّهودُ ، والمستوفُون بها ؛ أمَّا مَنْ عدَا هؤُلاء : من نُظَّار الجيش وأصحابِ الدواوين والشُّهود بالممـالك الشامية ، فوِلايتُهم إلى نوَّاب الســلطنة بها .

الضرب الثالثُ — دَواوينُ الإنشاء ، وأربابُ الخِدَم بها لايخرُجُون عن كاتبِ سِرٍّ ، وكاتب دَسْتٍ ، وكاتبِ دَرْج .

والذين يُوَلَّوْن عن السلطان من كُتَّاب هذه الدَّواوين وتكْتَبُ تواقيعُهم من ديوان الإنشاء السلطانِىِّ صـاحبُ ديوانِ الإنشاء بالأبوابِ السـلطانية ، وصاحبُ دِيوان الإنشاء بدِمَشْقَ ، وصاحبُ ديوان المكاتبات بحلَبَ ، وصاحبُ ديوان المكاتَبَات

Marfat.com

بطرابُلُسَ ، وصاحب ديوان المكاتَبَاتِ بحماةَ ، وصاحبُ ديوان المُكاتَبات بصَفَدَ ، وكاتبُ الدَّرْج بِسِيسَ ، وكاتبُ الدَّرْج بغَزَّة ، وكاتبُ الدَّرْج بالكَرَك ، وكاتبُ الدَّرْج بالإسكَنْدريَّة، وكُتَّابُ الدَّسْت وكُتَّاب الدرج بالأبواب السلطانيـة، أما كُتَّاب الدَّسْت وكُتَّاب الدَّرْج بالممالك الشاميـة فإلىٰ نُوَّابها بتواقِيعَ من دَواوين الإنشاءِ بهـا .

النـــوع الثـالث

(وِلاياتُ أربابِ الوظائف الصِّنـاعيَّة)

كالْأَطِبَّاء، والكَحَّالين، والجرَائِحيَّة، ومَنْ جرىٰ مَجْراهم من سائرِ أربابِ الوظائف التى هى من تَتِمَّة نظام المُلْك؛ فما كان منها بالأبوابِ السلطانية فوِلايتُه عن السلطان بتَوْقِيع من ديوان الإنشاءِ السـلطانى ؛ وما كان منها بالممـالك الشامية فولايته إلىٰ نُوَّاب السلطنة بها .

النـــوع الرابع

(ولاياتُ زُعَماء أهل الذِّمَّة . وهى ضربان)

الضرب الأوَّلُ — وِلايةُ بَطَاركة النَّصارىٰ من اليَعاقِبة والمَلَكانِيَّة[1] .

الضرب الثـانى — وِلايةُ رئيسِ اليهُود الحاكم علىٰ طوائِفهم .

---

(١) لم ينص على من له توليتهما .

Marfat.com

Marfat.com

الفصل الثاني

من الباب الأوّل من المقالة الخامسة

(في بيان ما تجبُ على الكاتب مراعاتُه في كتابة الولايات على سبيل الإجمال)

قال الشيخ شهابُ الدين محمودٌ الحلبيّ رحمه الله في "حُسْن التوسل": يجبُ على الكاتب أن يُراعِيَ في ذلك أمورًا.

منها — بَرَاعةُ الاستهلال بذكر الرُّتبة، أو الحال، أو قدر النِّعمة، أو لَقَب صاحب الولاية، أو اسْمِه؛ بحيثُ لا يكونُ المطَّلِع أجنبيًّا من هذه الأحوال، ولا بعيدًا منها، ولا مباينًا لها؛ ثم يستصحِبُ ما يناسب الغرضَ ويوافق القَصْد من أوّل الخُطْبة إلى آخرها.

ومنها — أن يراعِيَ المناسَبة وما تقتضيه الحالُ: فلا يُعْطِي أحدًا فوقَ حَقِّه، ولا يصِفُه بأكثرَ مما يُراد من مثله؛ ويراعي أيضًا مقدارَ النعمة والرُّتبة فيكون وصفُ المِنَّة بها على مِقْدار ذلك.

ومنها — أن لا يصِفَ المتولِّيَ بما [يكون[1]] فيه تعريضٌ بذمِّ المعزول [وتَنْقِيصٌ له[1]]؛ فإنّ ذلك مما يُوغِر الصُّدور، ويُورِث الضَّغائن في القلوب، ويدلُّ على ضَعْف الآراء في اختيار الأوّل، مع إمكان وصْف الثاني بما يحصل به المقصود من غير تعريض بالأوّل.

ومنها — أن يتخيَّر الكلامَ والمعانيَ فإنه مما يَشِيع ويذيع، ولا [illegible] في ذلك بعَجَلة ولا ضِيق وقت؛ فإنّ مَجَال الكلام [illegible]، والبلاغة تظهر في القليل والكثير.

---

(١) الزيادة من "حسن التوسل" ص ١١٠.

قلت : ومنها أن يَحْرِص الكاتبُ علىٰ أن تكون نهايةُ السجعة الأُولىٰ فى السَّـطْر الأوّل أو الثانى ولا يُؤَخِّرها عن ذٰلك . ومما كان يراعىٰ فى ذٰلك أن تكون الخطبةُ من أوّلها إلىٰ آخرها علىٰ رَوِىّ واحدٍ فى السَّجْع ، وكذٰلك الدعاءُ فى أوّل صِغَار التواقيع والمَراسِيم المبتدأةِ بلفظ « رُسِم » بخلاف مابعد ذٰلك إلىٰ آخر ما يكتب ، فإنه يتّفِق فيه رويُّ السجعتين والثّلاثِ فما حوْلَها ، ثم يخالَفُ رويُّها إلىٰ غيره ؛ ولا يكَلَّف الكاتبُ الإتيانَ بجميعها علىٰ روىٍّ واحد ؛ وعلىٰ ذٰلك كانت طريقـة فُحُول الكُتَّاب بالدولة التركية ، كالقاضى محيي الدِّين بن عبد الظاهر ، والشـيخ شهابِ الدين محمود الحلبى ، والمقرِّ الشهابىِّ بن فضل الله ، ومَنْ عاصرهم إلّا فى القليل النادر ؛ فإنه رُبَّمـا وقع لبعضهم مخالفةُ رَوِىّ الخطبة ؛ وإلىٰ هذا قد جَنَح غالب كُتَّاب ديوان الإنشاء فى زماننا ومالُوا إليه : لمـا فى آلتزام الرَّوِىِّ الواحد فى جميع الخُطْبـة من التكلُّف وعُسْر التلفيق علىٰ مَنْ يتعاناه .

ثُمَّ الكلامُ فيما يُكتَب فى الولاية قد يكون جميعُه بلفْظِ الغَيْبـة ، مثل أن يقال : عَهِـد إليه بكذا ، أو قَلَّده كذا ، أو فَوَضَ إليه كذا ، أو أنْ يستقِرَّ فى كذا ، ونحو ذٰلك ، ثم يقال : وأَمَره بكذا ، أو ونحن نُوصِـيه بكذا ، أو فعَلَيْه بكذا ، وما أشبه ذٰلك ، وقد يكون جميعُه بلفظ الخِطاب ، مثـل أن يقال : وقد عهـدَ إليكَ بكذا ، أو قلّدك كذا ، أو فوّضَ إليك كذا ثم يقال : ونحن نُوصيكَ بكذا ، أو فعليكَ بكذا ، ونحوه ؛ وقد يُصَـدَّر بلفظ الغَيْبة ثم يُلتفَت منها إلىٰ الخطاب ؛ وقد يُصَـدّر بلفظ الخطاب ثم يلْتفَتُ منه إلىٰ الغيبـة بحسَبِ مايُؤْثِره الكاتب وتُؤدِّى إليه بلاغَتُه ممـا سَتَقِفُ علىٰ تنويعه فى خِلَال كلامهم فى أصناف الوِلَايات الآتية فى هذا الكتاب ، إن شاء الله تعالىٰ .

الفصـــــل الثـالث

من البـاب الأوّل من المقالة الخامسة

(فى بيان مايقَعُ به اِلتفاوُتُ فى رُتَب الولايات، وذٰلك من سبعةِ أوجُه)

الوجـــــه الأوّل

(الألقـابُ، وهى عـــلىٰ ثلاثة أنواع)

النـــــوع الأوّل

(ألقابُ الخُلَفـــاء)

وسبيلُها الاِختصارُ دُونَ البَسْط، آكتفاءً بمـا هو ظاهِرٌ من أُبَّهة الخِلافة، وعُلُوّ مَقَام الإمامة، إذ هى الزَّعامة العُظْمىٰ، والرتبةُ التى هى أعلىٰ الرُّتَب وأسْمىٰ .

وهى صنفان :

الصنفُ الأوّل ــ ألقابُ الخلفاء أنفُسهم، وغايةُ مايُنعَتُ به الإمام وأميرُ المؤمنين.

الصنف الثانى ــ ألقابُ أولياءِ العَهْد بالخلافة، وألقابُهم نحوُ السـيِّد الجليل وذَخيرة الدِّين، ونحو ذٰلك علىٰ ماسيأتى بيانُه فى عهُود الخلفاء عن الخُلَفاء .

النـــــوع الثـانى

(ألقابُ المُلُوك، وهى صنفان أيضا)

الصنفُ الأوّلُ ــ ألقابُ السلطان نفْسِه، والكُتَّابُ تارة يبتدئُونَها بالسلطان، ونارة يبتدئُونها بالمَقَام، ولكلٍّ منهما نعوتٌ تخصُّه، وسيأتى الكلامُ علىٰ ذٰلك مستوفًى فى الكلام علىٰ عُهُود الملوك عن الخلفاء، إن شاء الله تعالىٰ .

Marfat.com

الصنف الثانى — ألقابُ أولياء العهْد بالمُلْك ، والملوكِ المنفَردين بولايةِ صِغَار البُلْدان عن السلطان الأعظم ، وهى لا تُفْتَتَح إلَّا بالمَقَام ليس إلَّا ، ولها نعوتٌ تخصُّها يأتى الكلامُ عليها فى الكلام على عهودهم أيضا .

النـــوع الثـالث

(ألقـابُ ذوى الولايات الصادرات عن السلطان : من أرباب الوظائف الواقعة فى هـذه المملكة)

وقد تقدَّمَ فى الكلام على الألقاب فى مقدمة الكتاب أنَّ أصولَ الألقاب المستعملةِ فى ذلك خمسةُ ألقاب على الترتيب : وهى المَقَرّ ، ثم الجَنَاب ، ثم المَجْلِس ، ثم مَجْلِس مضافا : كمجلس الأمير ، ومجلس القاضى ، ومجلس الشيخ ، ومجلس الصَّدْر ، ثم الاقتصار على المضاف إليه وحذفُ المضاف : كالأميرِ والقاضى والشيخ والصَّدْر ، ويلتحق بذلك لأهل الذمَّة الحَضْرة ، وحَضْرة الشيخ ، والشيخ مجرَّدًا عن حَضْرة ، وتقدَّم فى الفصل الأول من هذا الباب أنَّ أربابَ الولايات خمسةُ أنواع : أربابُ السُّيُوف ، وأربابُ الأقلام ، وأربابُ الوظائف الصِّناعية ، وزُعَماء أهل الذمَّة ، ومَنْ لا يختص بطائفة لصغرهم ، وجميعُ هذه الأنواع على اختلاف أصنافهم لا يخرجون عن الألقاب المتقدمة ، وقد تقدَّم الكلامُ على هذه الألقاب ونعوتها لمن يُكاتَب عن الأبواب الشريفة السلطانية من أرباب الوظائف ، ويستوفى فى المكاتبات ، إلَّا أنه قد يُولَّى عن السلطان مَنْ لم يؤهَّل للمكاتبة عنه ، كأكثر أرباب الوظائف من حملة الأقلام وغيرهم ، فاحتيج إلى تعريف مراتب الألقاب لكلِّ نوع من أرباب الولايات .

Marfat.com

فأما أربابُ السُّيوف، فأعلى ألقابهم المقرّ، وأدناها مجلسُ الأمير، ثم الأمير مجردًا عن مجلس.

وأمّا أرباب الوظائف الصّناعيّة، فأعلى ألقابهم المجلس، وأدناها مجلسُ الصّدر، ثم الصّدرُ مجرّدًا عن مجلس.

وأما من لا يختص بطائفة لصغره، فيقتصر فيه على لقب التعريف، وهو فلانُ الدّين إن عُظِّم وإلّا اقتُصِر على اسمه خاصّة.

وأما زعماء أهل الذّمّة، فأعلى ألقابهم الحَضْرة، ثم حَضْرة الشيخ، ثم الشيخ مجردًا عن حَضْرة.

واعلم أنّ كلّ مَنْ كانت له مكاتبةٌ عن الأبواب السلطانية من أرباب السُّيوف والأقلام وغيرهم، فلقبُ ولايته ونعوتُه كما في مكاتبته، غير أنه [illegible] المركّبة ذكر اسمه العلم، ونسبته إلى السلطان [illegible] إن كان ممن ينتسب إليه بنيابة [illegible] الدعاء من أوّل المكاتبة إلى [illegible] مكاتبتُه: أعزّ الله تعالى أنصار المقرّ الكريم، [illegible] السلطان — إن كانت — بأعزّ الله تعالى أنصاره، [illegible]

وإن كانت مكاتبته تُفتتح بغير الدعاء: [illegible] يدعى له في الولاية عقب الاسم والنسبة إلى [illegible] في مكاتبته في آخر الألقاب، [illegible] هذه المكاتبة إلى المجلس العالي أو [illegible] سعادته، وأدام الله رفعته، ونحو ذلك، وإن لم تكن له مكاتبة [illegible]

Marfat.com

كُتِب له فى الولاية مايُناسِبُه من اللَّقب والنُّعوت، ثم يذكر آسمُه والدعاءُ له إن كان مستحِقًّا للدعاء ؛ وسـياتى لقَبُ كلِّ ذِى وِلاية من الأنواع الخمسـةِ المتقدّمةِ الذِّكرِ ونعوتُهُ عند ذكرِ وِلَايته فيما بعدُ، إن شاء الله تعالىٰ .

ثم للألقاب فى الولايات محلان :

أحدهما ــ الطُّرَّة . ويُفتَصَر فيها علىٰ اللَّقَب : من المقَرّ أو الجَناب أو المَجْلِس، أو مجلِس مضافا وما بعده من النعوت إلىٰ اللَّقب المميِّز للوظيفة كالأَمِيرىّ والقَضَائى ونحوهما ، ثم يُذكر لقَبُـه الخاصُّ به وهو الفُلانىّ أو فُلان الدين ، ثم يذكر آسمُه وآنتسابُه إلىٰ السلطان إن كان، علىٰ ماسيأتى بيانُه مفصَّلا، إن شاء الله تعالىٰ .

الثانى ــ فى أثناء الوِلَاية . وهُنالك تستوفىٰ النُّعوتُ ويُؤْتىٰ بما فى الطُّرَّة فى ضِمْنه إلا أنه يُجعَلُ لقبُ التعريف ــ وهو الفلانىُّ أو فلانُ الدِّين ــ بين النعوت المفردة والمركَّبة فاصلا بينهما .

الوجـــــه الثـانى

(ألفاظ إسناد الوِلَاية إلىٰ صاحب الوظيفة، ولها سِتُّ مراتِبَ)

الأولىٰ ــ لفظ العَهْد، مثـل أن يقال : أنْ يُعْهَد إليه، وهى خاصَّـةٌ بالخلفاء والمُـلُوك .

الثانية ــ لفظ التَّقْليد ، مثل أن يقال : أن يُقَلَّد كذا، ويكون مع المَقَرّ الكريم والجَنَاب الكريم .

الثالثة ــ لفظ التَّفْويض ، مثل أن يُقَال : أنْ يفوَّض إليه كذا، ويختصُّ بالجناب لأرباب السيوف، وكذلك الجنابُ والمجلسُ العالى لأرباب الأقلام .

Marfat.com

قلت : وكُتَّابُ زماننا يستعْمِلونهـا[1] مع المقَرّ أيضا ، ولا يستعْمِلون لفظَ يُقَلَّد فى التقاليـد لتوهُّمهم الاِكتفاءَ بلفظ تقليدٍ عنها ، ولم يعْلَمُوا أنَّ يقَلَّد فوق يُفَوَّض كما تقدّم . على أنَّ المَقرّ الشهابىَّ بنَ فضل الله قد صرّح بذلك فى "التعريف" كما سيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالى .

الرابعـة — لفظ الاِستقرار والاِستمْرار ، مثل أن يقال أنْ يستقِرَّ فى كذا ، أو يستَمِرّ فى كذا . ولفظ يستقرّ مختصٌّ بالمستَجِدّ ، ولفظ يستمرّ مختصٌّ بالمستَقِرّ ؛ ويكونان مع المجلِس السامىّ بالياء ، والمجلِس السامِى بغير ياء لأرباب السيوف والأقلام وغيرهم ؛ أما المجلسُ العالى فإن كانت مكاتبتُه تُفْتتح بالدعاء ، مثل : أدام الله تعالى نعمةَ المجلس العالى كنائب السلطنة بالكَرَك ، فإنه يقال فيه أن يُفوَّض إليه ، وإن كانتْ مكاتبتُه تُفتَتَحُ بصدرَتْ هـذه المكاتبة كنائب القُدْس ونحوه ، فإنه يقال فيه أن يستَقِرّ .

الخامسة — لفظ الترتيب ، مثل أن يقال : أن يُرَتَّب فى كذا ، ويكون مع مجلس مضافا ، مثل مجلِس الأميرِ ومجلِس القاضى ونحوهما ، وربَّمـا اُستُعْمِلت مع السامى بغـير ياء .

السادسة — لفظ التقدّم ، مثـل أن يقال أن يُقدَّم فلانٌ على الطائفة الفلانيَّة ونحو ذلك .

قلت : وهاتان المرتبتان أعنِى السادسةَ والخـامسةَ قد ذكرهما المقرُّ الشهابىُّ بن فضل الله فى "التعريف" فقال : وقد يقال أن يُرتَّب وأنْ يُقدَّم . وهما موجودتان فى كتابة مُعاصِريه بمصر والشام ؛ أمَّا كُتَّاب زمانِنـا فقد رفَضُوهُمـا جملةً وأضْرَبُوا عن اُستعمالهما بكلّ حال ، واكتفَوْا عنهما بالمَرْتبة الرابعـة وهى لفظُ الاِستِقْرار ،

(١) أى لفظة "يفوّض" .

Marfat.com

Marfat.com

الوجـــــــه السادس

(طُولُ الكلام وقِصرُه ، فكُلَّما عظُمت الوظيفةُ وٱرتفعَ قدْرُ صاحبها كان الكلام فيهـا أبسَـطَ)

قال فى " حُسْن التوسل " : ويحسُن أنْ يكونَ الكلامُ فى التقاليد منقَسِما أربعةَ أقسام متقارِبة المَقادير، فالرُّبعُ الأول فى الخُطْبة ، والرُّبُع الثانى فى ذكر مَوْقِع الإنعام (١) فى حق المقلَّد ، وذكر الرتبـة وتَفْخِيم أمرها ؛ والربعُ الثـالثُ فى أوصاف المُولَّى ، وذكرِ ما يناسبُ تلك الرتبةَ ويُناسبُ حالَه من عَدْل وسياسةٍ ومَهابة وبُعْدِ صيتٍ وسُمْعة وشجاعةٍ إن كان نائبا ، ووَصفِ الرأى والعَـدْل وحُسْن التدبير والمعرفةِ بوُجُوه الأموال ، وعِمـارة البلاد ، وصَلاح الأحوال ، وما يناسبُ ذٰلك إنْ كان وزيرا ؛ وكذلك فى كلِّ رتبة بحسَبِها ؛ والربع الرابع فى الوصايا .

قال فى " التعريف " : والذى أختـارُه ٱختصارُ مِقْـدار التحميدة [التى](٢) فى الخُطْبة والخُطَب مطلقا وإطالةُ ما بعـد ذٰلك ؛ والإطنابُ فى الوصايا [اللهم] إلا لمن جَلَّ قدْرُه [وعظُم أمرُه](٢) فإن الأولىٰ الٱقتصارُ فى الوصايا علىٰ أهَمِّ الجُمْلِيَّات ، ويعتذِرُ فى الٱقتصار بما يُعْرَف من فضله ، ويُعْلَم من عِلْمه ، ويُوثَق به من تجْربته ومن هذا ومثله . قال : والكاتب فى هـذا [كلِّه](٢) بحسَبِ ما يراه ، ولكلِّ واقعةٍ مَقال يليقُ بها ، ولمَلْبَس كلِّ رجل قدرٌ معروف لا يليقُ به غيرُه ؛ وفى هـذا غِنًى لمن عَرَف ، وكفايةٌ لمن عَلِم ؛ علىٰ أن المقرّ الشهابىَّ تابع فى ذلك القاضى « محيى الدين ابن عبـد الظاهر» رحمه الله، فإنك إذا تأمّلْتَ تقاليـدَه وتواقِيعَـه ، وجدتَها كلَّها

---

(١) فى حسن التوسل ص ١١٠ «المقلد» وهى بمعناها .

(٢) الزيادة من التعريف ص ٨٨ .

Marfat.com

كذلك ، ولكلٍّ وجهٌ ظاهر ؛ فإنّ المطوّل للخطبــة لا يُخْليها من بَراعةِ الاِستهلال ، المناسبةِ للحال ؛ والمقَصِّر لها مُراعٍ لزيادة الإطناب فى الوَصْف .

قلت : ولا يخفىٰ أن ما ذكراه فى التقاليد يجىءُ مثلُه فى العُهُود لجرْيها علىٰ مُوجِبها من مُولٍّ ومُولًّى .

أما إذا كانت الولايةُ بَيْعةً فإنه يجعَــلُ موضِعَ الوَصَــايا ذكْرَ آلتزام الخليفــةِ البِرَّ والإحسانَ للخلق ، ووَعْدَ النظر فى أمُور الرعية ، وصلاحِ أحْوالهم ؛ وذكر التحليف للخليفة ، أوله وللسلطان إن كان معه ســلطان قام بعقْد البَيْعــة له علىٰ الوَفَاء بالعَهْد والدُّخُول تحت الطاعة . قال فى "حسن التوســل" : والأمْرُ الجارى فى ذلك علىٰ العادة معروفٌ لٰكنه قد تَقَع أشياءُ خارجةٌ عن العادة فيحتاجُ الكاتبُ فيها إلىٰ حُسْن التصرُّف علىٰ مايقتضيه الحالُ ؛ وذكر من ذلك تقليدًا أنشأه لمتملِّك سيسَ ، وتقليدًا كتبه بالفُتُوَّة ؛ وسيأتى ذكر ذٰلك مع ماشاكله فى مواضعه إن شاء اللهُ تعالىٰ .

الوجــــــه السـابع

(قطــع الورق)

وآعلم أنَّ الولاياتِ من ديوان الإنشــاءِ بالأبواب الســلطانية بجملتها يَقَع قطع الورَق فيها فى خمسة مَقاديرَ لا يتعدَّاها :

أحدها ــ قَطْع البغــدادىِّ الكاملِ ؛ وهو مختصٌّ بالبَيْعات والعُهُود مُطْلقا علىٰ أىِّ الآفتتاحات كان .

الباب الثانى

من المقالة الخامسة فى البَيْعات، وفيه فصلان

الفصـــــلُ الأوّلُ

(فى معنـــاها)

البَيْعات جمع بَيْعة، وهى مصدرُ[1] بايَعَ فلانٌ الخليفةَ يُبايِعه مُبايعةً، ومعناها المعاقَدةُ والمُعاهَدةُ، وهى مُشَبَّهة بالبَيْع الحقيقىِّ . قال أبو السَّعادات بنُ الأثير فى نهايته فى غريب الحديث : كأنَّ كلَّ واحدٍ منهما باعَ ماعِنْدَه من صاحبِه وأعطاه خالصةَ نَفْسه وطاعَتَه ودَخِيلةَ أمْرِه . ويقال : بايَعَه، وأعطاه صَفْقةَ يدِه؛ والأصلُ فى ذلك أنه كان من عادةِ العربِ أنه إذا تَبايَعَ اثنانِ صَفَقَ أحدُهما بيده علىٰ يَدِ صاحبِه .

وقد عَظَّم الله تعالىٰ شأنَ البيعةِ وحَذَّر من نَكْثِها بقوله خطابا للنبىّ صلى الله عليه وسلم : ﴿ إنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإنَّمَا يَنْكُثُ عَلىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . وأمر بمبايعة المُؤمِنات فى قوله تعالىٰ : ﴿ يَاأَيُّها النَّبىُّ إذَا جَاءَكَ المُؤمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلىٰ أنْ لايُشْرِكْنَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللهَ إنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . وبايع النبىُّ صلى الله عليه وسلم الصحابةَ رضوانُ اللهِ عليهم بَيْعَتَيْنِ .

---

(١) ليس مراده المصدر الصناعى كما لايخفى والأوضح "وهى اسم مصدر لبايع" الخ تأمل .

Marfat.com

الفصـــــــل الثـانى

(فى ذكر تنويع البَيْعات ، وهى نوعان)

النـــــوع الأوّل

(بَيْعـاتُ الخُلَفَـــاء، وفيهـــا سبعة مقـاصِـــدَ)

المقصـــــــد الأوّل

(فى أصل مشروعيتها)

فالأصْل فى ذٰلك بعد الإجماعْ ماثَبَت فى الصحيحين من حَدِيثِ عائشة رضى الله عنها " أنَّه لمـا تُوُفِّىَ رَسُولُ اللهِ صلّى الله عليه وسلم، آجتَمَعتِ الأنصارُ إلىٰ سَعْدِ بْنِ عُبَادَةَ فى سَقِيفَةِ بَنِى ساعِدَةَ، فقالُوا : مِنَّا أمِيرٌ ومِنْكُمْ أمِيرٌ، فذهب إليهم أبُو بَكْرٍ وعُمَرُ وأبُو عُبَيْـدَةَ بنُ الجَرَّاح ، فذهَبَ عُمَرُ يتَكَلَّمُ فأسْـكَتَهُ أبُو بَكْرٍ؛ وكان عُمَرُ يقُول : ما أرَدْتُ بذٰلك إلَّا أنِّى قد هَيَّأْتُ كَلامًا أعْجَبَنِى خَشِيتُ أن لَّايَبْلُغَهُ أبُو بَكْرٍ؛ ثم تكَلَّم أبو بَكْرٍ فتكَلَّم أبلغَ النـاسِ . فقال فى كلامِه : نَحْنُ الأُمَرَاءُ وأنْتُمُ الوُزَراء . فقال الحُبَـابُ بنُ المُنْذِر : لَا واللهِ لانَفْعلُ ! مِنَّا أمِيرٌ ومِنْكُمْ أمِير . فقال أبو بَكْر : لَا ولٰكِنَّا الأُمَرَاءُ وأنْتُمُ الوُزَراءُ . فبايِعُوا عُمَرَ أوْ أبَا عُبَيدةَ . فقال عمرُ : بَلْ نُبايِعُكَ فأنْتَ سيِّدُنا وخَيْرُنا وأحَبُّنا إلىٰ رسولِ اللهِ صلّى الله عليه وسلم ، فأخذ عُمَرُ بيدِه فبايَعَه وبايَعَ الناسُ " .

وهـذه أوّلُ بيعةٍ بالخلافَةِ كانتْ فى الإسلام ؛ ولكن لم يُنْقَل أنه رضى الله عنه كُتِبَ له مبايعةٌ بذٰلِك ، ولعلّ ذٰلك لأنَّ الصحابةَ رِضوانُ الله عليهم كانوا إذا بايَعُوا لايَجْحَدُون البَيْعَةَ بعد صُدُورها، بخِلاف مابعد ذٰلِك .

Marfat.com

المقصـــــد الثـانى

(فى بيانِ أسبابِ البَيْعة المُوجبة لأخْذها علىٰ الرَّعِيَّة)

وهى خمســـة أسباب :

السببُ الأوّل — موتُ الخليفة المنتصبِ من غير عَهْد بالخلافة لأحدٍ بعـده ، كما فى قِصَّة الصِّـدِّيق المتقدِّمة بعد وَفَاة النبىّ صلّى الله عليه وسلم ، أو بتَرْكها شُورىٰ فى جماعة معيَّنة ، كما فعل عمرُ رضى الله عنه عند وَفَاته حيثُ تَركها شُورىٰ فى ستة : علىّ بنِ أبى طالب ، والزُّبَير بن العَوَّام ، وعُثْمانَ بنِ عفَّان ، وعبدِ الرحمٰن بنِ عَوْف ، وطلحةَ ، وسعدِ بنِ أبى وَقَّاص ، رضى اللهُ عنهم .

السبب الثـانى — خَلْع الخليفةِ المنتصبِ لمُوجِب يقتضى الخَلْع ، فتحتاجُ الأمةُ [إلىٰ] مبايعةِ إمام يقُوم بأمورها ، ويتحمَّل بأعبائها .

السبب الثالث — أن يتوَهَّم الخليفةُ خُروجَ ناحيةٍ من النَّواحى عن الطاعة فيُوجِّهَ إليهم من يأخُذ البيعةَ له عليهم : لينقادُوا لِأمْرِه ، ويدخُلوا تحتَ طاعتِه .

السبب الرابع — أن تُؤْخَذَ البيعةُ للخليفة المعهودِ إليه بعدَ وَفَاة العاهد ، كما كانتِ الخلفاءُ الفاطميُّون تفعَلُ فى خِلَافتهم بمصر ، وكانوا يُسَمُّون البيعةَ سِجِلًّا كما كانوا يُسَمُّون غيْرَها بذٰلك .

السبب الخـامس — أن يأخُذَ الخليفةُ المنتصبُ البيعةَ علىٰ الناس لولِىّ عهـدِه بالخلافة بأن يكون خليفةً بعدَه إمضاءً لعَهْده ، كما فعل معاويةُ رضى الله عنه فى أخذه البيعةَ لولده يَزِيدَ .

Marfat.com

المقصـــــــد الثـالث

(فى بيان ما يجبُ علىٰ الكاتب مراعاتُه فى كتابة البَيْعة)

وٱعلم أنه يجبُ علىٰ الكاتب أن يُراعِىَ فى كتابة البَيْعة أمورا :

منها ــ أن يأتِىَ فى بَراعة الٱستهلال بما يتهيَّأ له من ٱسم الخليفة أو لَقَبه كفلانِ الدِّين، أولقَبِ الخلافة : كالمتوكِّل أوالمستَكْفِى، أومقتضىٰ الحال المُوجِب للبَيْعة من موتٍ أو خَلْع ونحوهما، أو غير ذٰلك مما يجرى هذا المَجْرىٰ .

ومنها ــ أن يَنبِّه علىٰ شَرَف رُتْبة الخلافة وعُلُوّ قدْرها ورِفْعة شأنها ، وأنها الغايةُ التى لافَوْقَها، والدرجةُ التى لابَعْدَها ؛ وأن كلَّ رُتْبة دُونَ رُتْبتها ، وكلَّ مَنْصب فرعٌ عن مَنْصبها .

ومنها ــ أن ينبِّــه علىٰ مَسيس الحاجةِ إلىٰ الإمام ، ودِعايَة الضَّرورةِ إليه ، وأنه لايستقيمُ أمْرُ الوجود وحالُ الرعِيَّة إلّا به، ضرورةَ وُجوبِ نصبِ الإمام بالإجماع، وإن شذَّ عنه الأصمُّ فخالف ذٰلك .

ومنها ــ أنْ يُشِــيرَ إلىٰ أنَّ صاحبَ البَيْعة ٱستوعبَ شُروطَ الإمامةِ وٱجتمعتْ فيــه ، ويصِفَه منها بما يَعِزُّ وجُودُه، ويُمَــدَّحُ بحصوله : كالعِلْم والشَّجاعة والرأْى والكِفاية ؛ بخلاف مالا يعِزُّ وجودُه ولا يُمَدَّحُ به وإن كان من الشروط : كالحُرِّية والذُّكورة والسمْع والبَصر ونحو ذٰلك ؛ فإنَّ الوصف بذٰلك لا وجْهَ له .

ومنها ــ أن ينبِّــه علىٰ أفضليةِ صاحبِ البَيْعة وتقدُّمه فى الفضل وٱستيفاءِ الشُّروط علىٰ غيره : ليخْرُج من الخلاف فى جَواز تولِيَةِ المفضُول مع وجُود الفاضل .

ومنها — أن ينَبِّــه علىٰ أنَّ المختارين لصاحب البَيْعة ممن يُعْتَبَرُ آختيارُه من أهل الحَلِّ والعَقْد : من العلماء والرُّؤساء ووجُوه النــاس الذين يتيسَّر حضُورُهم علىٰ الوجه المعتَبَر .

ومنها — أن ينَبِّه علىٰ تعيين المختارين للبَيْعة، إن كان الإمامُ الأوّلُ نصَّ عليهم ؛ إذ لايصِحُّ الاختيار [من] غير من نَصَّ عليه، كما لايصحُّ إلا تقليدُ من عَهِد إليه .

ومنها — أن ينَبِّــه علىٰ جَرَيان عَقْــد البَيْعةِ من المختارين، ضرورةَ أنه إن آنفردَ شخْصٌ بشروط الإمامة فى وَقْته لم يَصِرْ إماما بمجرّد ذٰلك .

ومنها — أن ينَبِّه علىٰ سبب خَلْع الخليفة الأوّلِ إن كانت البيعةُ مترتِّبة علىٰ خَلْع، إذ لايصح خَلْع الإمام القائِم بلا سبَب .

ومنها — أن ينبِّه علىٰ قَبُول صاحب البيعةِ العقدَ وإجابته إليه إذ لابُدّ من قَبُوله .

ومنها — أن ينبِّه علىٰ أنَّ القَبُول وقع منــه بالآخْتيار : لأنه لايصِحُّ الإجبارُ علىٰ قَبُولها، أللهم إلّا إن كان بحيثُ لايصلُح للإمامة غيْرُه فإنه يجبَرُ عليها بلا خِلَاف .

ومنها — أن ينَبِّه علىٰ وُقُوع الشهادة علىٰ البَيْعة، خروجًا من الخلاف فى أنه هل يُشتَرَط الإشهادُ علىٰ البيعة أم لا ؟ .

ومنها — أن ينبِّه علىٰ أنها لم تقترن ببَيْعةٍ فى الحالِ ولا مسبُوقةٍ بأُخْرىٰ، إذ لايجوز نَصْبُ إمامين فى وقتٍ واحدٍ وإنْ تباعَدَ إقليماهُمَا ، خلافا للأُســتاذ أبى إسحاقَ الأَسْفَرايِنِي حيثُ جوّز نصْبَ إمامين فى إقليمَيْن .

ومنها — أن ينَبِّــهَ علىٰ أنه بمجرّد البَيْعــة تجبُ الطاعةُ والآنقيادُ إليــه ، ويجب علىٰ كافّة الأمة تفويضُ الأمور العامّة إليــه ، وطاعتُــه فيما وافَقَ حكمَ الشرع وإنْ كان جائِرا .

Marfat.com

ومنها ــ أن يعزَّىَ فى الخليفة الميت ويُهنَّأ بالمستَقِر إن كانت البيعةُ مبنيَّةً علىٰ موتِ خليفةٍ ؛ وأن يبيِّن سببَ خلْع الخليفة الأوّل إن كانت مرتَّبةً علىٰ خَلْع (١) .

أما التَّعزيَةُ والتهنئـةُ بموت الأوّل ، فعليـه جرىٰ عامَّة الكُتَّاب ؛ إلَّا أنه يختصُّ فى عُرْفهم بما إذا كان الخليفةُ الأوّلُ شـديدَ القُرْب من الثانى ؛ كأبيه وأخيه وٱبن عَمِّـه .

وكان الأوّلونَ يتعَانَوْن ذٰلك فى خطاب الخلَفاء بالتهنئـة بالخلافة بعدَ أقاربهم ، وقد رُوِى أنَّ عطاءَ بنَ أبى صَـيْفِىّ دخل علىٰ يَزِيدَ بن معاويةَ فهنَّأه بالخلافة وعزَّاه فى أبيه فقال :

رُزِئْتَ بأمير المؤمنـين خليفـةِ الله ، وأُعْطِيتَ خِلافةَ الله ؛ قضىٰ معاويةُ نَحْبَـه ، فغفرَ اللهُ ذَنْبه ؛ ووُلِّيت الرِّياسه ، وكنتَ أحقَّ بالسِّياسه ؛ فاحتَسِبْ عندَ اللهِ جليلَ الرَّزِيَّه ، وٱشكُرْه علىٰ جَزِيل العطِيَّـه ؛ وعَظَّم اللهُ فى معـاويةَ أجْرَك ، وأحسنَ علىٰ الخلافة عَوْنَك .

وتعرَّضتْ أعرابيَّة للمنصور فى طريق مكَّةَ بعد وَفَاة أبى العَبَّاس السَّفَّاح ، فقالت :

ياأميرَ المؤمنين ٱحتَسب الصَّبر ، وقدِّم الشُّـكْر ؛ فقد أجزلَ اللهُ لك الثَّواب فى الحالين ، وأعظَمَ عليك المِنَّةَ فى الحادثَيْن ؛ سَلَبَكَ خليفةَ الله ، وأفادكَ خِلافَةَ الله ؛ فسَلِّم فيما سَلَبك ، وٱشـكر فيما منَحك ؛ وتَجاوزَ اللهُ عن أمير المؤمنين ، وخارَ لَكَ فيما ملَّكك من أمر الدُّنيا والدِّين .

وأما التعريف بسبب (١) الخَلْع ، فلأنه لا يصحُّ خلْعُ الإمام بغير مُوجِب للخَلْع .

ومنها ــ أن يشير إلىٰ ذكر السلطان القائم بالبَيْعة إن كان القائمُ بهـا سلطاناً علىٰ ما ٱستقرّت عليه قاعدةُ الكُتَّاب فى ذٰلك .

---

(١) سبق التنبيه على هذا فى الصفحة قبل .

ومنها ــ أن ينبّه علىٰ أنّ من آستُحْلِف فى البَيْعة من وُجُوه الدولة وأعيان المملَكةِ إن جرىٰ حَلِفٌ، ويذكر صفةَ حلِفهم وما آلتزمُوه من الأيْمان المؤكّدة، والمَوَاثيق المغَلّظة .

المقصد الرابع

(فى بيان مواضع الخِلافة التى يستَدْعِى الحالُ كتابةَ المبايَعات فيها)

وهى أربعة أمور :

أحدها ــ موتُ الخليفة المتقدّمِ عن غير عهدٍ لخليفةٍ بعده ، وهو موضوعها الأصلىّ الذى عليه بُنيتْ .

الثانى ــ أن يَعْهَد الخليفةُ إلىٰ خليفةٍ بعدَه ، ثم يموتَ العاهِد ويستقرّ المَعْهود إليه بالخلافة بالعَهْد بعده، فتؤخَذَله البَيْعةُ العامّة علىٰ الرّعية، إظهارًا لوقُوع الإجماع علىٰ خلافته، والآتّفاقِ علىٰ إمامتِه .

الثالث ــ أن تؤْخَذ البيعةُ للخليفة بحضْرة وِلَايته ، ثم تُنَفَّذ الكتُبُ إلىٰ الأعمال لأخْذ البَيْعة علىٰ أهلها، فيأخذُ كلُّ صاحب عملٍ له البيعةَ علىٰ أهل عَمَله .

الرابع ــ أن يَعْرِض للخليفة خَلَلٌ فى حال خلافته : من ظهور مخالِف أو خُرُوج خارجىّ، فيحتاج إلىٰ تجديد البَيْعة له حيثُ وَقَع الخلافُ .

ولكلّ من هذه الأحوال ضَرْبٌ من الكتابة يُحتاجُ فيه إلىٰ بيان السبب الموجب لأخْذ تلك البيعةِ .

Marfat.com

المقصـــــد الخـامس

(فى بيـان صورة مايُكْتَب فى بَيْعات الخلفاء، وفيها أربعة مذاهب)

المـــــذهب الأوّل

(أن تُفتتحَ المبايعةُ بلفظ « تُبَايع فلانا أميرَ المؤمنين » خطاباً لمن تُؤْخَذ عليـــه البَيْعة)

ويذكر ما يقع عليه لفظ المُبايعة، ويأتى بما سَنَح من أمر البَيْعـة، ثم يذكر الحلف عليها، وعلى ذلك جرى مصطَلَح كُتَّاب خلفاء بنى أُميَّةَ، ثم خلفاءِ بنى العَبَّاس بعدهم بسنداد.

واعلم أنه قد تقدّم فى المَقْصد الأوّل من هـذا الفصل أنه لم يُنْقَـل أنه كُتِب للصديق رضى الله عنه ولا لمن وَلِىَ الخلافةَ بعده من الصَّحابة من غير عهد بيعةٌ، وإنما كتبت خلافة بنى أُميَّة، وآلَ الأمر إلى عبد الملك بن مَرْوان، وأقام الحجَّاج أبو يوسف على زمارة العراق، وأخذ فى أخذ البيعة لعبد الملك بالعراق، رتَّب أيمانا [illegible] تشتمل على الحلف بالله تعالى والطَّلاق والعَتاق والأيمان المُخْرِجات يُحْلَف بها على البيعة، واستهرت بين الفُقَهاء بأيمان البيعة، وانفرد أمرُها فى الدولة العبَّاسيَّة بعد ذلك، وجرى مصطَلَحهم فى ذلك على هذا الأسلوب.

وهـذه نسخة مبايعة، ذكرها أبو الحسين [illegible] الصابى فى كتابه "غُرَر البلاغة" [illegible]:

تُبَايع عبـدَ الله أمير المؤمنين فلانا بيعة طوْع [illegible] وإيثار، وإعلانٍ وإسْرار، وإظْهارٍ وإضمار، ونجاة من نَفَل، و[illegible] من غير [illegible]، وثبات من غير

Marfat.com

تبديل. ووَقَار من غير تَأويل ؛ وٱعترافٍ بما فيها من ٱجتماع الشَّمْل، وٱتِّصال الحبْل؛ وٱنتظام الأُمور، وصَلَاح الجُمْهور؛ وحَقْن الدِّماء، وسُكُون الدَّهْماء؛ وسعادة الخاصَّة والعامَّه، وحُسْن العائدة علىٰ أهل المِلَّة والذِّمَّه ـ علىٰ أنَّ عبدَالله فلانا أمير المؤمنين عبدُالله، الذى ٱصطفاه؛ وخليفتُه الذى جعل طاعتَه جاريةً بالحق، ومُوجَبةً علىٰ الخَلْق؛ ومُورِدةً لهم مَوَارِدَ الأَمْن، وعاقدةً لهم مَعاقِدَ اليُمْن؛ ووِلايَتَه مُؤذِنةٌ لهم بجميل الصُّنْع، ومؤدِّيةٌ بهم إلىٰ جزيل النَّفْع؛ وإمامتَه الإمامةُ التى ٱقترَنَ بها الخيرُ والبَرَكه، والمصلحةُ العامّةُ المشتَرَكه؛ وأَمَّل فيها قمعَ المُلْحد الجاحد، وردَّ الجائرِ الحائِد؛ ووَقْم العاصى الخالِع، وعَطْفَ الغازِى المُنازِع ـ وعلىٰ أنَّك ولِىُّ أوليائه، وعدُوُّ أعدائه: من كلِّ داخِلٍ فى الجُمْله، وخارجٍ عن المِلَّه، وحائدٍ عن الدَّعْوه. ومتمسِّكٌ بما يذليه، عن إخْلاصٍ من رَأْيك، وحقيقةٍ من وَفَائك؛ لا تنقُضُ ولا تَنْكُث ولا تُخْلِف ولا تُوارى ولا تُخادِع، ولا تُداجِى ولا تُخاتِل؛ علانيتُك مثل نِيَّتك، وقولُك مثلُ طَوِيَّتك ـ وعلىٰ أن لا تَرْجِع عن شىءٍ من حُقُوق هذه البيعةِ وشرائطِها علىٰ مَرِّ الأيام وتَطاوُلها، وتغيُّر الأحوال وتنقُّلِها، وٱختلافِ الأزمانِ وتقلُّبها ـ علىٰ أنَّك فى كلِّ ذلك من أهل المِلَّة الإسلامية ودُعاتِها، وأعوانِ الدولة العبَّاسيَّة ورُعاتِها؛ لا يُداخِل قولَك مُواربةٌ ولا مُداهَنه، ولا تعترِضُه مغالَطةٌ ولا تتعقَّبُه مخالفه؛ ولا تَخِيس به أمانه، ولا تَغُلُّه خِيَانه؛ حتّى تلقىٰ الله تعالىٰ مقيماً علىٰ أمْرِك، وَفِيًّا بعَهْدك؛ إذ كان مُبايِعُو وُلاة الأمور وخلفاءِ الله تعالىٰ فى الأرض ﴿إنَّمَا يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

عليكَ بهذه البيعةِ ـ التى أعطَيْتَ بها صَفْقةَ يَدِك، وأصْفَيْتَ فيها سَرِيرةَ قلبك، وٱلتزمتَ القيامَ بها ما طالَ عُمْرُك، وٱمتدّ إنَّ عهدَ الله كان

مسْئُولا ؛ وما أخذه علىٰ أنبيائِهِ ورُسُله وملائكتِه وحَمَلةِ عَرْشــه من أيمـانٍ مغلَّظةٍ وعُهُودٍ مؤكَّده ، ومَواثِيقَ مشَــدَّده ، علىٰ أنك تسْمَع وتُصْغِي ، وتُطِيع ولا تَعْصِى ؛ وتعتَدِلُ ولا تَمِيل ، وتســتَقِيم ولا تَحِيد ؛ وتَفِي ولا تَغْدِر ، وتثبُتُ ولا تتغَيَّر ؛ فمتىٰ زِلْتَ عن هذه المَحَجَّة حاقرا لأمَانتِك ، ورافِعًا لدِيانَتِك ؛ فجحدْتَ اللهَ تعالىٰ رُبُوبِيَّته ، وأنِفْتَه وَحْدانِيَّته ؛ وقطعْتَ عِصْمةَ محمدٍ صلّى الله عليه وسلم وجذذتها ، ورميت طاعَتــه وراءَ ظهرِك ونَبَذْتَها ؛ ولَقِيتَ اللهَ يومَ الحشر إليه ، والعَرْض عليــه ، مُخالِفًا لأمْره ، وخائنًا لعَهْده ؛ ومقيماً علىٰ الإنكارِ له ؛ ومُصِرًّا علىٰ الإشراكِ به ؛ وكُلُّ ماحلَّله الله لك محرَّمٌ عليــك ، وكلُّ ماتملكه يومَ رُجُوعك عن بَذْلِك ، وآرتجاعِكَ ما أعطَيْتَه فى قولك : من مالٍ موجودٍ ومَذْخُور ، ومَصْنوعٍ ومَضْروب ، وسارِحٍ ومَرْبوط ، وسائِم ومعقُول ؛ وأرضٍ وضَــيْعه ، وعَقَار وعُقْــده ، ومملوكٍ وأَمَه ، صــدقةٌ علىٰ المَسَاكين ، محرَّمةٌ علىٰ مرّ السِّنين ؛ وكلُّ آمرأةٍ لك تملِكُ شَعَرها وبَشَرها ، وأُخْرىٰ تتزوَّجُها بعدها ، طالقٌ ثلاثًا بتاتًا ، طلاقَ الحَرَج والسُّنَّة لارجْعةَ فيــه ولا مَثْنِيَّة ؛ وعليك الحجُّ إلىٰ بيتِ الله الحرامِ الذى بمكَّةَ ثلاثين دَفْعــة حاسِرًا حافِيــا ، راجلًا ماشِــيا ، نَذْرا لازما ، ووَعْدا صادقا ؛ لايبَرِّئُك منها إلا القضاءُ لهــا ، والوفاءُ بها ؛ ولا قَبِلَ اللهُ منك تَوْبةً ولا رَجْعةً ؛ وخذَلَك يومَ الآستنصار بحَوْله ، وأسلَمَك عنــد الآعتصام بحبْله ؛ وهذه اليمينُ قولُك قلتَها قَوْلا فَصيحا ، وسرَدْتَها سَرْدا صحيحا ؛ وأخلصْتَ فيها سِرَّك إخلاصًا مُبينا ، وصدَقْتَ فيها عَزْمَك صِدْقا يَقِينا ؛ والنيةُ فيها نيةُ فلان أميرِ المؤمنين دُونَ نيَّتك ، والطَّوِيَّةُ [فيها طويَّتُه] دُونَ طوِيَّتك ؛ وأشهدت اللهَ علىٰ نَفْسك بذلك وكفىٰ باللهِ شَهِيدا ، يَوْمَ تَجِدُ كلُّ نفس عليها حافظًا ورَقِيبا .

Marfat.com

وهــذه نسخةُ بَيْعةٍ أُخْرىٰ من هذا الأُسْلوب ، أوردها آبنُ حَمْدُونَ فى تَذْكِرته ، وربّمــا وافقَ فيها بعضَ ألفاظ البيعة السابقةِ، وهى :

تُبايعُ الإمامَ أميرَ المؤمنين فلانا بيعةَ طَوْع وإيثــار ، وآعتِقادٍ وإضمار ، و إعلان و إسْرار ؛ و إخلاصٍ من طوِيّتك، وصِــدْقٍ من نِيّتك ؛ وآنشراحِ صــدرِك وصِحّة عزيمتِك ؛ طائعًا غيرَ مُكْرَه، ومُنْقادا غير مُجْبَر ؛ مُقِرًّا بفضلها، مُذْعِنــا بحقِّها ؛ معتَرِفا بركتها، ومعتــدًّا بحُسْن عائدتها ؛ وعالمًــا بمــا فيها وفى تَوْكيدها من صَلَاحِ الكافّة، وأجتماعِ الكلمــة [من] الخــاصّة والعامّه ؛ ولَمِّ الشَّعَث، وأَمْن العَواقِب ؛ وسُكُونِ الدَّهْماء، وعِزِّ الأوليــاء ، وقَمْعِ الأعداء ــ علىٰ أنَّ فلانا عبدُ الله وخليفتُه ، المفترَضُ طاعتُه ، والواجبُ علىٰ الأمة إقامتُه وولايتُه ؛ اللازمُ لهم القيامُ بحقّه ، والوفاءُ بعهْده ؛ لاتشُكُّ فيــه ، ولا ترتابُ به ، ولا تُداهِن فى أمره ولا تَميل . وأنك وَلِيُّ وليِّــه ، وعدُوُّ عدوّه : من خاصّ وعامّ، وقريبٍ وبعيــدٍ، وحاضرٍ وغائب ؛ متمسِّكٌ فى بيْعته بوَفَاء العهْد، وذِمّة العَقْد ؛ سريرتُك مثــلُ علانِيَتِك ، وظاهرُك فيه وَفْقُ باطنِك ــ علىٰ أنْ أعطيتَ اللهَ هــذه البَيعةَ من نَفْســك ، وتوكيدكَ إيّاها فى عُنُقــك ، لفلانٍ أمير المؤمنين عن سلامةٍ من قَلْبك ، وآســتِقامةٍ من عَزْمك ؛ وآستمرارٍ من هَوَاك ورَأْيك ــ علىٰ أن لاتتأوّلَ عليــه فيها ، ولا تَسْــعىٰ فى نقضِ شيءٍ منها ؛ ولا تقْــعدَ عن نَصْره فى الرَّخاء والشِّــدّة ، ولا تَدَعَ النصرَله فى كلِّ حالٍ راهنة وحادثة ؛ حتّىٰ تلقىٰ الله مُؤَدِّنا بهــا ، مُؤدّيا للأمانةِ فيها ؛ إذ كان الذين يُبــايعونَ وُلاةَ الأمر ، وخلفاءَ اللهِ فى الأرض ﴿ إنّمــا يُبايِعُــونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أيْدِيهِــمْ فَمَنْ نَكَثَ فإنّمــا يَنْكُثُ عَلىٰ نَفْسه ﴾ .

Marfat.com

عليْـكَ بهذه البيعـة ـ التى طَوّقْتَها عُنُقَك ، وبَسَطْتَ لهـا يَدَك ، وأعطيْتَ فيها صَفْقتك ، وما شُرِط عليكَ فيها : منْ وفاءٍ ومُوالاة ، ونُصْح ومشايَعَه ، وطاعةٍ وموافقـة وٱجتهاد ومتابعه ـ عهـدُ الله إنَّ عهـدَ الله كان مَسْئُولا . وما أخذ اللهُ تعالىٰ علىٰ أنبيائه ورُسُـلِه عليهم السلام ، وعلىٰ مَنْ أخَذَ من عبـاده ، وكِيداتِ مَوَاثِيقه ومُحْكَمَات عُهُوده ، وعلىٰ أن تَتَمَسَّكَ بها ولا تُبَدِّل ، وتستَقِيمَ ولا تَمِيل ؛ وإن نكثْتَ هـذه البيعةَ أو بدَّلت شَرْطا من شُرُوطها ، أو عَفَّيْت رسْمـا من رُسُومها ، أو غَيَّرت حُكْما من أحكامها ، معْلِنًا أو مُسِرًّا أو مُحتالا أو مُتأوِّلًا ؛ أو زِغْتَ عن السبيل التى يَسْلُكُها من لا يُحقِّر الأمانه ، ولا يستحِلُّ الغَدْر والخِيانه ، ولا يستجيزُ حَلَّ العقود ، فكلُّ ماتملِكُه من عينٍ أو وَرِق أو آنِيـه ، أو عَقَار أو سائِمة ، أو زَرْع ، أو صَرْع ؛ أوغير ذلك من صُنُوف الأملاك المعتدَّه ، والأموال المُدَّخَره ؛ صدقةٌ علىٰ المساكين ، محرَّمٌ عليك أن ترجع من ذٰلك إلىٰ شىء من مالك بحيلةٍ من الحِيَل ، علىٰ وَجْه من الوجوه ، وسببٍ من الأسْباب ؛ أو مَخْرَج من مَخَارج الأَيمـان ؛ وكلُّ ماتعتدّه فى بقِيَّـة عمرك من مالٍ يقِلُّ خَطَرُه أو يَجِـلُّ فتلك سـبيلُه إلىٰ أن تتوفَّاك مَنِيَّتُك أو يأتيك أجَلُك ؛ وكلُّ ٱمرأةٍ لكَ اليومَ (١) : وأخرىٰ تتزوّجها بعدها مدّةَ بقـائك طالقٌ ثلاثًا بتاتًا ، طلاقَ الحَرَج والسُّـنَّة لامَثْنَوِيَّةَ فيه ولا رجْعَـة ؛ وعليك المشىُ إلىٰ بيتِ الله الحرام ثلاثين حَجَّة حافيا ، حاسِرًا راجلا ؛ لا يَرْضىٰ اللهُ منك إلَّا بالوفاء بهـا ، ولا يقْبـلُ اللهُ منـك صَرْفا ولا عَدْلا ؛ وخَذلك يوم تحتاجُ إليـه ؛ وبَرَّأك من حَوْله وقُوَّته ، وألجأك إلىٰ حَوْلك وقُوَّتك ، والله عزَّ وجلَّ بذلك شهيدٌ ، وكفىٰ به شَهِيدا .

---

(١) فى الأصول "لكل مملوك لك اليوم [illegible]

* * *

وهــذه نسخة أُخْرىٰ من هــذا الأُسْـــلوب ، أوردها أبو الحسين الصـابى فى " غُرَر البَلَاغة " وهى :

تُبايِـعُ أميرَالمؤمنين بقُوّةٍ من بَصيرتك ، وصِحّة من سَرِيرَتِك ، وصَفاءٍ من عَقِيدتِك ، وصِدْقٍ من عَزِيمتك ، علىٰ الرِّضا [به] والوَفاء له ، والإخلاصِ فى طاعتِه ، والاِجتهادِ فى مُناصحتِه ، وعَقْد النيَّة علىٰ مُوالاته ، وبَذْل القُدْرة فى ممالاته ، وأن تكونَ لأنصارِه عَوْنا ، ولأوْليـائه حِزْبا ، ولأعدائه حَرْبا ، عارفينَ بمـا فى ذٰلك من الحَظِّ ، ومعترِفين بمـا يلزَمُ فيه من الحقّ ، ومحافِظين علىٰ ماحَرَس الملّةَ الإسلاميّه ، والدولةَ العبّاسيه ، ثبّت الله قواعِدَها ، وأحكم مَعاقِدَها ، وزادها آستِمْرارا علىٰ مَرِّ الدُّهور ، وآستِقْرارا علىٰ كَرِّ العُصُور ، وعِزّا علىٰ تنقُّل الأمور ، وآشتِدادا علىٰ تغلُّب المَقْدور ، فإن خالفْتُ ذٰلك مُسِرًّا أو مُعْلِنا ، وحُلْتُ عنه مُظْهِرا أو مُبْطِنا ، وحلَلْتُ عقُودَه ناكثًا أو ناقِضا ، وتأوّلتُ فيه مُحاوِلا للخُروج منه ، وآستثنيْتُ عليه طالبًا للرجوع عنه ، فبرِّأنِى اللهُ من حولِه وقُوّته ، وسلَبَنِى ماوَهبَ من فضْله ونِعمته ، ومنعنِى ماوعدَ من رأفتِه ورحمتِه ، وخَلّانى من يَدَيْه ، يومَ الفَزَع الأكبر لدَيْه ، وحنث كلّ يمين حلَفها المسـلمُون علىٰ قديم الأيّام وحديثِها ، والتّناهى فى تأكيدِها وتشديدِها ، وأعْرَوْها من لباس الشُّبْهه ، وأخْلَوْها من دَواعِى المخاتَلَه ، وهذه اليمينُ يمينى : أوردتُها علىٰ صِدْق من نيّتى ، وصحّـةٍ من عزيمـتِى ، وآتّفـاقٍ من سرّى وعَلَانِيَتى ، وسرَدْتُها سرْدا متتابِعا من غير فَصـل ، وتلفظت بها تلفُّظا من غير قطع ، والنيّةُ فيها نيّةُ فلان : علىٰ حُضُور منـه وغَيْب ، وبُعْـد وقُرْب ، وأُشْهِد الله تعالىٰ بمـا عقدْتُه علىٰ نفسى منها ، وكفىٰ بالله شهيدا علىٰ من أشْهده ، وحسيبًا علىٰ من آجترأ علىٰ إخفار عهْده ، ونقض عقده .

Marfat.com

قلت : فإن كان من تؤخذ عليـه المبايعة آثنين ، أُتِى فى المبايعة بصيغة التثنية ، أو ثلاثة فأكثر ، أُتِى بصيغة الجمع . ولم أقِفْ علىٰ كيفية وضْعِهم لذٰلك فى الكتابة ، والذى يظهر أن المبايعة كانتْ تكتَبُ علىٰ الصورة المتقـدمة ، ثم يكتُب المبايِعُون خطوطهم بصُدُورها عنهم ، كما يفعل الآنَ فى تحليف من يحلَّف من الأمراء وغيرهم من أرباب الوظائف بالمملكة المصرية والممـالك الشامية ، أو يُشْهَد عليهـم فى آخر البيعة بمعاقَدتِهم عليها ورضاهُم بها ونحو ذٰلك .

المـــذهب الثـانى

(ممـا يكتب فى بَيْعـات الخلفَـاء)

أن تُفْتتح المبـايعةُ بلفظ « من عبْدِ الله ووليِّـه فلانٍ أبى فلان الإمام الفُلَانى » إلىٰ أهل دَوْلته ، ونحو ذٰلك بالسَّلام عليهم ، ويُؤْتىٰ بما سَنَح من الكلام ؛ ثم يُقال : أمَّا بعدُ ، فالحمد لله ، ويؤتىٰ علىٰ وصْـفِه بشريف المَنَـاقبِ ، وآستحقاقِه للخلافة ، وآستِجْماعه لشُرُوطها ، وما يَجْرِى هذا المَجْرىٰ ؛ ثم يَنْخرِطُ فى سِلْك البيعة ، ويذكُر القـائِمَ بأخذها علىٰ الناس من سُلْطانٍ أو وزيرٍ عظـيم أو نحو ذٰلك ، ويذكُر من أمْر ولايةِ الخليفةِ ما فيـه آستجلابُ قلُوبِ الرعية والأخذُ بخواطرهم وما يَنْخـرط فى هذا السِّلْك .

وهذه نُسخةُ بَيْعةٍ من هذا الأُسْـلوب ، لولِىِّ عهْد بعد موْتِ العاهد ، كُتِب بها لبعض خُلَفاء الفاطميين ، ليس فيها تعرُّض لذكر الوزير القائِم بها ، وهى :

---

(١) لعله ونحو ذلك و يتبع ذلك الخ تأمل .

من عبدِ الله وليِّه «أبى فلان فلان بن فلان» الإمامِ الفلانىّ، بأمرِ الله تعالىٰ أميرِ المؤمنين، إلىٰ من يضُمُّه نطاقُ الدولة العَلَوية : من أُمَرائها وأعيانِها، وكُبَرائها وأوليائها، علىٰ آتّساع شُعُوبهم، وعساكِرها علىٰ آختلاف ضُرُوبِهم ؛ وقبائِل عَرَبِها القَيْسيَّة واليَمَنيَّة، وكافَّةِ من تشمَلُه أقطارُها من أجناس الرعيَّه : الأميرِ منهم والمأمُور، والمشهورِ منهم والمَغْمُور ؛ والأَسْودِ والأحمر، والأصْغَر والأكْبر ؛ وفَّقهُم الله وبارَكَ فيهم .

سلامٌ عليكم، فإنَّ أميرَ المؤمنين يحمَدُ إليكُمُ اللهَ الذى لا إلٰهَ إلّا هو، ويسألُه أن يُصَلِّى علىٰ محمدٍ خاتَمِ النبيِّين، وسيِّدِ المرسَلين، صلّىٰ اللهُ عليه وعلىٰ آله الطاهِرين، الأئمة المَهْدِيِّين، وسلَّم تسليما .

أما بعدُ، فالحمدُ لله مُولِى المَنِّ الجَسيم، ومُبْدِى الطَّوْل العَميم، ومانِح جزيلِ الأجْر بالصَّبْر العظيم ؛ مُفيدِ النعم المتشَعِّبة الفُنُون، ومُدْنِى المُهَج المتعالية لتناوُلِ المَنُون ؛ ومُبِيدِ الأعمارِ ومُفْنِيها، وناشِرِ الأمواتِ ومُحْيِيها ؛ والفاتح إذا آستَغْلَقتِ الأبْواب، والقائِل : ﴿ لكُلِّ أَجَلٍ كِتَاب ﴾ الذى لا يغَيِّر مُلْكَه مُرورُ الغِيَر، ولا يَصْرِف سلطانَهُ تصَرُّفُ القَدَر ؛ ولا يُدْرَك قِدَمُه وأزلِيَّته، ولا يَنْفَدُ بقاؤُه وسَرْمَدِيَّتُه ؛ مُسْلِم الأنام لِلحِمَام، ومُصْمِى الأنفُسِ بسِهامِ الآخْتِرام ؛ ومُورِدِ البشَر من المنيَّة مَنْهَلا ما فى رَنْقِه يكْرَعُون، ولُمْرِه المُشْرِق يتجرّعُون ؛ ومعزز ذلك بقوله : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ المَوْتِ ونَبْلُوكُمْ بالشَّرِّ والخَيْرِ فِتْنَةً وإلَيْنا تُرْجَعُونَ ﴾ .

والحمدُ لله الذى نَصَب الأنبياءَ لمَرَاشِده أعْلاما، وحَفِظ ببَعْثِهم من الحقِّ والهُدىٰ نِظاما ؛ وجعل نُبوّةَ جَدِّنا محمدٍ صلّىٰ الله عليه وسلم لنُبوّاتِهم ختاما، وعَضَّد بوَصِيِّه أبينا

امير المؤمنين علىّ بن أبى طالب كَمَالا للدِّين و إتْمـاما ، وٱستخلَص من ذُرّتهما أئمةً هادينَ إتْقانًا لصَـنْعتِه و إحْكاما ، وأقامَ الحُجَّـــة على الأُمَم بأنْ أقامَ لكلِّ زمانٍ منهم إماماً ، وعاقَبَ بَيْنَ أنوار الإمامةِ فإذا ٱنقبَضَ نُورٌ ٱنبَسَط نُور ، وتابـعَ ظُهورَ بُدُوره لِيُشْرِقَ طالعٌ إثْر غارِبٍ يغُور ، رحمـةً شاملةً للعـالَمين ، وحكمةً تامَّةً حتّى يَرِثَ اللهُ الأرضَ ومَنْ عليها وهو خيرُ الوارِثين ، ولم يُخْلِ نَبِيًّا مع ما شرَّفه [به] من تناوُلِ وَحْيه وتلَقِّيه ، ولا عَصَم إماما مع ٱختِصاصِـه بفُروعِ مَنْصِب الإمامة وترَقِّيه ، من لِقَـاء المنيَّه ، ووَدَاع الأَمنيَّه ، بل أجَّل لكلٍّ منهم أجَلًا مكتُوبا ، وفَسَّح له أمَدًا محصُورا ، سوبا ، لايَصْرِفُه عن وُصُوله فَضِيله ، ولا يَصِل إلىٰ تَجَاوُزِه بقُوّةٍ ولا حِيله ، قُدْرةٌ محكمة الأسـباب ، وعِبْرةٌ واضحةٌ لأُولِى الألباب ، وقضِـيَّةٌ أوضَحها فُرقانُه الذى أقَرَّ بإعجازه الجاحِدُون ، إذ يقول مخاطبا لنبيه : ﴿ وما جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الخَـالِدُونَ ﴾ .

والحمـدُ لله الذي مَنَـح أميرَ المؤمنين من خَصائِص الإمامةِ وأنْوارِها ، وحازَ له من ذَخائِرِها وأودَعَه من أَسْرارها ، ماخوّلَهُ فاخِرَ تُراثِها ، وأصار له شَرَفَ ميراثِها ، وجعله القائمَ بحقِّه ، والمرشِدَ لخلْقِه ، والماحِىَ بهُدَاه ليْلًا من الضَّلال بهيما ، والحاوِىَ بخلافته مجدًا لايزالُ ثناؤه عظِيما : ﴿ ذٰلِكَ الفَضْلُ مِنَ اللهِ وكَفىٰ بِاللهِ عَلِيما ﴾ .

يحمُده أميرُ المؤمنـين علىٰ أنْ أوضَحَ بآبائه الأئِمـةِ سُبُلَ الحقـائق ، فأصبحُوا خلفاءَ الخـالِقِ وأئمَّـةَ الخَـلَائق ، وخوّلَهُ ما ٱختصَّهم به من الإمامه ، ورنَّقَـه بها إلىٰ أشْمَخ منـازِلِ العُلَا وأرفَع مَواطِن الكَرَامه ، ويستمِدُّه شُـكْرا يُوازِى النِّعَمَ التى أثبَتَتْ [له] علىٰ سرير الخلافة وسِرِّها قَدَما ، وصَبْرا يُوازِنُ الفجيعة التى قَلَّ لها فيضُ المَـدَامع دَمَا .

Marfat.com

Marfat.com

المتظاهرة، والآلاء المتواليـة المتناصرة، القائل في محكم كتابه: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾، مدبر أرضه بخلفائه، الذين هم زينةٌ للدنيا وبهجة، وهادي خلقه بأوليائه، لئلا يكون للناس على الله حجة، فسبحان الذي هو للنعم سبيغ وبالكرم جدير، وإن تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير﴾.

يحمده أمير المؤمنين أن جعله خليفة دون أهل زمانه، وأوجب ثواب المستجيبين له بكفالته وضمانه، وجعلهم يوم الفزع الأكبر مكنوفين بحفظه مشمولين [illegible] وأوجبه الشكر على ما أسدى إليه من أمر هذه الأمة [illegible] الأئمة [illegible] من أرفع نائبة وأفظع ملمة.

وصلى الله على سيد رسوله الذي أخبر الأنبياء المرسلون [illegible] وتداولوا البشرى بما يستقبل من زمانه ونعته، وذكروه فيما أتوا به من كل [illegible] وأعترفوا بأنه أفضل من كل من [illegible] من ظهوره [illegible] في أشراق الأرض [illegible] لمن [illegible] شرعه [illegible] فكان لآية الكفر [illegible] سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة داعيا [illegible]

Marfat.com

في يوم مجازاته، وصدقه وعده فيما بوأه من النعيم المقيم، ﴿ذلك ذلك إن الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم﴾.

وعن أبينا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب [illegible]

[illegible]

[illegible] وخطب الناس في حجة الوداع [illegible] الكبار الأبرار، وعترتهم [illegible] الأخيار، وصلاة المسلمين وقدوتهم، وأسماء المؤمنين وأئمتهم الذين حكموا فأقسطوا وما قسطوا، وسلك الحاضرون منهم سنن أسلافهم الذين عاطوا، واقتفوا آثارهم في السياسة فما قصروا ولا فرطوا، ولم يزل كل منهم عاملاً من ذلك بما حضر أيامه، فاعلاً في أمر الدين ما رفع منارة ونشر أعلامه، حتى اختار الله له ما عنده، فنص على من أقامه الاستحقاق مقامه، وسلم عليهم أجمعين سلاماً لا انقضاء لأمده، ولا انقطاع لمدده، فنيل المطالب بكرمه وملكوت كل شيء بيده.

وإن الحق إن خفي حيناً فلا بد لهلاله من الإبدار وانبساط النور، وإن الشمس إن توارت بالحجاب فما أوشك عودتها إلى البزوغ والظهور، وإن حسن الصبر إلى أن يبلغ الكتاب أجله يؤمن من تدلية الشيطان بالغرور، قال الله عز وجل في كتابه الذي هدانا به: ﴿وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور﴾.

وإن الله تعالى لرأفته بمن أبدعه من خلقه وأنشأه، وأسبغ علمه في [illegible] الدار على ما أراده عز وجل وشاه، لا يخلي الأرض من [illegible] في الليل البهيم، ولا يدع الأمة بلا إمام يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم؛ فهو جل وعلا أعدل من أن يجعل جسد الإيمان من حلي الإمامة عاطلاً، أو يترك

Marfat.com

Marfat.com

Marfat.com

الأمرُ الواضحُ الجلي، وتساوى في علمه الشانئ والوَلِيّ، وعلم هو ما خصّ الله به أميرَ المؤمنين من الإمامة، وأزاله عن العُقُول من ضَبابٍ متكاثفٍ وغَمامة، وشمله به من فَضْله ورأفته، ونصَبَه فيه من مَنْصِب خلافته التي أيّدها بوليّه ووزيره، وعضّدها بصفيّه وظهيره، السيد الأجل أبي الفتح يانس الحافظيّ الذي جعله الله على اعتنائه بدَوْلة أمير المؤمنين من أوْضح الشواهد والدلائل، وصَرَف به عن مملكته محذورَ الصُّروف والغَوائل، وأقام منه لمُناصحة الخلافة مخلصا جمع فيه أسبابَ المَناقب والفضائل، وأيده بالتوفيق في قوله وفعله فأربى على الأواخر والأوائل، ودلّت سيرتُه الفاضلةُ على أنه قد عَمَر ما بينَ الله وبينَه، وحكمت سُنّته العادلةُ أن كلَّ مدحٍ لا يبلغُ ثناءَه وكلَّ وصفٍ لا يقع إلا دونه، والله يضاعف نعمه عنده ولديه، ويفتح لأمير المؤمنين مشارقَ الأرض ومغاربها على يديه، وهذا يُحقّق أن الإسلام قد أحدث له قُوّةً وتمكينا، وأن ذوي الإيمان قد ازدادوا إيمانا واستبصارا ويقينا، فيجب عليكم أمر المؤمنين [illegible] مجتهدين له في خدمة القائلين [illegible] متقربين إليه مناصحة تحظيكم عند الله سبحانه، عاملين بشرائط البيعة [illegible] الذين يتبعون في فعلهم، ويقع الإجماع بمثلهم، ولكم على أمير المؤمنين [illegible] وعن الصغائر متجاوزا كريما، وبالكافة رءوفا رفيقا، وعلى الأعمال عطوفا شفيقا، وأن يصفح عن المسيء ما لم يأتِ [illegible] ما يستخلص الضمائر، ويسبغ من الإنعام ما يقتضي نقاء السرائر، وأمير المؤمنين يسأل الله أن يعرّفكم بركة إمامته [illegible] خلافته، وأن يجعلها [illegible] المطالب، كافلةً لكافّتكم بسعادة المبادئ والعواقب، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

(١) هذا متعلق إذ قد تبين كما لا يخفى.

Marfat.com

Marfat.com

في ذات الله والتفاني فيه مظهرا في غاية القوة والبأس، وعاملوا بين أهليهم وأقربيهم
فيما بينهم ومنهم بأحسن الكفاية والعناية والاستقامة، وألزموهم الاتفاق والاتحاد
[illegible] الاختلاف والانشقاق والعناد، فذكرهم ذلك [illegible]
[illegible] أقاصي العصور، وشاهد الناس فواضل [illegible]
[illegible] ولا أقدم
[illegible]
والمغفرة بالرحمة، فحضر والده الإمام وأهل [illegible] وقبل [illegible]
[illegible]
[illegible] وفضلت الفرق بحسب [illegible] وتركت [illegible]
[illegible]
[illegible] وطلع بضوئه نور هذا الدين المحمدي، وهو النور الذي أضاء
البصائر والأبصار، وطلع على الآفاق فملأ الخافقين، وأضاءت أيامه السعيدة لمن
اهتدى، وكانت له الخلافة وعمل بما كلفه، وقام بالإمامة مثل ما قام بها الخلفاء
الراشدون سلفه، وذلك هو الخليفة الإمام أبو المؤمنين الرشيد بالله أمير المؤمنين
[illegible] وهو
[illegible] وهو أول الأمور وبداية المنشور، فورد في الخلافة، واستقبل
الإمامة برأيه، بحسب ما ألفوه، ونظم الأمور ونسقها، وصنع الحوزة أن تطرق
وتهاب أن تقهر أو تغلب.

Marfat.com

وهذه نسخة بيعة كتب بها أبو المطرف بن عميرة الأندلسي بأخذ البيعة على أهل شاطبة من الأندلس لأبي جعفر المستنصر بالله العباسي ، قام بعقدها أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود صاحب الأندلس ، ثم أخذ البيعة بعد ذلك عليهم لنفسه ، وأن يكون ابنه ولي عهده بعده ، وهي :

الحمد لله الذي جعل الأرض قرارا ، وأرسل السماء مدرارا ، وسخر ليلا ونهارا ، وقدر آجالا وأعمارا ، وخلق الخلق أطوارا ، وجعل لهم إرادة واختيارا ، وأوجد لهم تفكرا واعتبارا ، وتعاهدهم برحمته صغارا وكبارا .

نحمده حمد من يرجو له وقارا ، ويتبرأ من عانده استكبارا ، وأخلد في [illegible] واغترارا ، وصلى الله على سيدنا محمد الشريف نجارا ، السامي فخارا ، [illegible] شريعته للأمة منارا ، وأطفأ برسالته للشرك نارا ، حتى علا الإسلام مقدارا ، وعز جارا ودارا ، وأذعن الكفر اضطرارا ، واستسلم ذلة وصغارا ، فمضى وقد ملأ البسيطة أنوارا ، وعمها بدعوته أنجادا وأغوارا ، [illegible] وأتمارا ، فجزاه الله أفضل ما جزى نبيا مختارا ، ورسولا اجتباه اختصاصا [illegible] صلى الله عليه وعلى آله الطيبين آثارا واختبارا ، وعلى أصحابه الكرام [illegible] وأنصارا ، صلاة نواليها إعلانا وإسرارا ، ونرجو بها مغفرة ربنا إنه كان غفارا .

أما بعد ، فإن المستأثر بالدوام ، اللطيف بالأنام ، [illegible] [illegible] إلى التجاوز والتبارك [illegible]

---

(١) [illegible]

Marfat.com

جلَّ جلالُه بما تُخفي الصدورُ عالم ، وبالأمر بسم الله [illegible]

وأعضادُ الحقِّ المبين ، يجلُّون الأمرَ [illegible]

ويتفقَّهون في الأحكام وفي [illegible]

الأحبار ، ويطلبون الشبهة وهو [illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

Marfat.com

الجُدود ، بلغ الوقتُ المحدود ، وطلعت ببياض العدل الرايات السُّود ، تحتها سادات الناس ، وقادة موقف الباس ، وشهب اليوم الغماس ، ونجب البيت الكريم من بني العبّاس ، فأعادوا إلى الأمر رونقه ، ونفوا عنه [illegible] رنقه ، ورفعوا [illegible] المسلمين ، وأحيوا سُنَّة ابن عمهم سيد المرسلين ، فأصبحت الأمور مضبوطة ، والثغور محوطة ، والسُّبل آمنة ، والرعيَّة في ظلّ العدل والأمن ساكنة ، وكان الناس قبلهم قد ركبوا الصَّعب والذَّلول ، وامتطوا الحَزْن والسُّهول ، فوثقوا منهم بطاعتهم ، واستخلفوهم على [illegible] ، ذلك بأنهم [illegible] [illegible] [illegible] ، [illegible] [illegible] [illegible] الأمور [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] إليها ، فكيف لا يكون [illegible] [illegible] هذا التكليف المستند إلى الآثار [illegible] المستدلّ في أقضية المصالح المرعيّة ، إذ [illegible] من الأئمة المهتدين ، أبناء أمير المؤمنين وخليفة رب العالمين ، ابن عم سيدنا وسيد المرسلين ، صلوات الله عليهم أجمعين .

لمّا دعا الناس الحكمة الفلانية [illegible] إلا [illegible] التقويّة ، [illegible] [illegible] [illegible] سيدنا أمير المؤمنين [illegible] الإسلام [illegible] الأ[illegible] [illegible] [illegible] المتوكل على الله تعالى أبو العباس [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ابن يوسف بن [illegible] [illegible] [illegible] ، [illegible] ذلك [illegible] المقام الكريم ، متشمّرا عن ساعد التصميم ، ماضيًا على الحول مضاء الحسام القاضب ، ناهضًا لأمر الله ورضاه على غاية هذا الناصب ، مالت إليه الأجياد [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] بيعة وذريعة [illegible] ، [illegible] [illegible] أيده الله [illegible] [illegible] [illegible] وعلى أحسن [illegible] قطيعة للقائم بأمر الله سيدنا ومولانا الخليفة [illegible] [illegible] [illegible] جعفر

Marfat.com

أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلىٰ آله الخُلَفاء الراشدين؛ وكان له فى ذٰلك المَرامُ السَّعيد، والمَقامُ الحميد، والقَدَمُ[1] الذى رضِىَ إبْداءَه وإعادَتَه المُبْدِئُ المُعيد؛ وخاطب الدِّيوانَ العزيز النبوىَّ ـ خلَّد الله شَرَفه ـ متضرِّعا لوسائِلِ خِدْمته، متعرِّضا لعَواطِف رحْمَتِه؛ وبعثَ رسُولَه علىٰ أصْدق رجاءٍ فى القَبُول، وأثْبتِ أمَلٍ فى الإسْعاف بالمأمُول؛ وأثْناءَ هذه الإرادةِ القَويمه، والسَّعادةِ الكريمه؛ تفاوضَ أهلُ البِلاد فى توثيقِ عَقْدهم للسلطان فلان المشارِ إليه الذى هو حُكْم من أحكام الإجْماع المنعَقِد، وأصلٌ أفضىٰ إليه نظَرُ الناظِرِ وٱجتِهادُ المجتَهِد؛ إذ أجالُوا الأمْرَ فيما يَزِيدُه وَثاقَهْ، ويكْسُو وجْهَه علىٰ الأيَّام بِشْرا وطَلاقه؛ ويجعل القلوبَ مطمئِنَّةً برُسُوخه فى الأعْقاب، وثُبُوتِه علىٰ الأحْقاب؛ فلم يَرَوْا رأْيا أسَدّ، ولا عَمَلًا أحْصَفَ وأشَدّ؛ من أن يطْلُبُوه بعقْد البيعة لِٱبْنِه الواثِقِ بالله المعتصِم به أبى بكْرٍ محمدِ بنِ مجاهد الدين، سيف أمير المؤمنين، علىٰ أن يكونَ ولِىَّ عهدِهم مُدّةَ والِده مَدّ اللهُ فى حَياته؛ وأميرَهُم عند الأجَل الذى لابُدَّ من مُوافاتِه؛ فأمضىٰ لهم ذٰلك من ٱتِّفاقِهم، وأُثْبِتُوا علىٰ ماشرَطَتْه بيعتُه فى أعناقهم؛ وبعد ذلك أتىٰ صولةُ الإسلام، وصِلةُ دار السلام؛ وورد رسول مَثابَة الجلاله، ونِيابَة الرِّساله؛ ومُلْتَزَم المَلائِك، ومعْتَصَم المَمالك؛ ومعه الكتابُ الذى هو نصٌّ أغنىٰ عن القِياس، بل هو نورٌ يَمْشِى به فى الناس؛ وأدّىٰ إلىٰ السلطان فلان المشارِ إليه من تشريفِ الدِّيوان العزيز النبوىِّ ماوَسَمَه من الفَخار بأجَلِّ وَسْمِه، وقلَّده السيْفَ الصارمَ وسَمَّاه باسْمِه، فتلاقىٰ السيْفان المضْرُوبُ والضارِب، وٱشْتَبه الوَصْفانِ الماضى والقاضِبْ؛ وبرزَتْ تلك الخِلَعُ فابْيضَّ وجْهُ الإسلام من سَوادها، ووُضِع الكتابُ فكادتِ المَنابِرُ تَسْعىٰ إليه شوقًا من أعْوادها؛ وقرئت وَصايَا الإمام، علىٰ الأنام؛ فعلِمُوا أنها من تُراثِ الرِّساله،

(١) ذكر القدم لأنه بمعنى السبق تأمل.

Marfat.com

وقالوا : كافِلُ الإسلام جدّدَ له بهذا الصُّقْع الغربيّ حُكْمَ الكَفَاله ؛ وسَمِعُوا من التقدُّم بإنصافهم ، والتهمُّم بمَوَاسِطهم وأطْرافهم ؛ جُمَلًا عَفَّروا لها الجِبَاهَ جُودًا بالجهد ، وسَجَدُوا للشُّكْر والحمد ؛ فأدركُوا من بركة المَشَاهِد أثبتَ شَرَفٍ وأبْقاه ، ورأَوْا حقيقةَ ما كادتِ الأوْهامُ تَزُولُ عن مَرْقاه ؛ وٱزْدادوا يقينًا بفضل ما صارُوا إليه ، ورأَوْا عِيَانًا بمُرْتَجَى ما بايَعُوا عليه ؛ فتوافَتْ طوائفُهم المتبوعه ، وجماهيرُهم المجموعه ، بِدَارًا إلى المَرَاضِي الشَّريفه ، وبناءً على وَصايَا عَهْدِ الخَليفه ، أن يُجَدِّدوا البَيْعةَ لمجاهِدِ الدِّين ، سيفِ أميرِ المؤمنين ؛ تولّى الله عَضُدَه ؛ ولٱبنِه الواثِق بالله المعتصِم به أنْهضه اللهُ بإمْرتِه بعْدَه ؛ ولم تَعْدُ أن تكونَ الزِّيادةُ الطارئةُ شَرْطًا في تقْرير الإمْرة المؤدَّاة وإثْباتِها ، أو جاريةً مَجْرى السُّنَن التي يُؤْمَرُ المصَلِّي بالإعادةِ عند قرائها ، فأعادوا بَيْعته أداءً للفَريضة ورجاءً للفَضيله ؛ وٱستَنَدُوا إلى الإشارات الجليله ، بعدَ الاستخارات الطويله ؛ ورأَوْا أنْ يأخُذوا بها عادةَ البَيْعات العبَّاسيَّه ، واتخاذَ حُكْمِ الأصل طريقَ الإلْحاقات القِياسيَّه ؛ فبايَعُوا على تذكُّرٍ بيعةً أكَّدوها بالعُهُود المستحْفَظه ، ووثَّقوها بالأيمانِ المعَظَّمه ؛ وبادَرُوا بها نِداءَ مُنادِيهم ، وأعطَوْا على الإصْفاقِ بها صَفْقةَ أيْديهم .

ولمّا ٱنتهى ذلك إلى المَلَإِ من أهل فلانةَ وجِهاتِها ، رأَوْا أن يَحْلِفَ من سَبَق ، ويَصْدُقوا النِّيَّة مع مَنْ صَدَق ، ويُعْقِدُوا ما عَقَدُوه على ما صَرَّح به العَهْدُ الشريف ونَطَق ؛ فحضر منهم العلماءُ والصُّلحاءُ ، والأجنادُ والوُزَراءُ والفُقهاءُ ، والكافَّةُ على تَمَايُزِهم في المَرَاتب ، وتَفَاوُتِهم في المَنَاصب ، وٱخْتِلافِهم في المواطن والمَكَاسب ؛ فأمْضَوْها بيعةً كريمةَ المَقاصد ، سليمةَ المَعَاقِد ؛ عَهْدُها مُحْكَم ، وعَقْدُها مُبْرَم ؛ ومُوجَبُها طاعةٌ وسَمْع ، والتقيُّد بها سُنَّة وشَرْع ؛ ويَعْمُرونَ بها أسْرارَهم ، ويُفْنُون عليها أعمارَهم ؛ ويَدِينُون بها في عُسْر ويُسْر ، وربْح وخُسْر ، وضيق ورَفاهيَه ، ومحبَّة

Marfat.com

وكَرَاهِيَه؛ تبرَّعُوا بذٰلك كلِّه طَوْعا، وٱستوْفَوْه فصْلًا فَصْلًا ونَوْعا نَوْعا؛ وعاهدُوا عليها الذى يعلم السِّرَّ وأخْفىٰ، وأضْمَرُوا منها علىٰ ما أبَرَّ علىٰ الظاهر وأوْفىٰ؛ وتقبَّلُوا من الوَفَاء به ماوصف الله به خليلَه إذ قال: ﴿وإبْراهِيمَ الَّذِى وَفَّىٰ﴾؛ وأقسموا بالله الذى لا إلٰهَ إلا هو عالمُ الغيب والشهادة العزيزُ الرحيم، وبما أخَذَه علىٰ أنبيائه الكرام من العُهُود المؤكَّده، والمَوَاثيقِ المُشَدَّده؛ علىٰ أنهم إن حادُوا عن هذه السبيل، وٱنقادُوا لداعِى التحْريف والتَّبْديل؛ فهُم بُرَآءُ من حول الله وقوته إلىٰ حَوْلهم وقُوَّتهم، تاركون ذِمَّته الوافيةَ لذِمَّتهم؛ والأيمانُ كلها لازمةٌ لهم علىٰ مذهب إمامِ دار الهجرة، وطلاقُ كل ٱمرأةٍ فى مِلْكِ كل واحدٍ منهم لازمٌ لهم ثلاثا؛ وأيُّما ٱمرأةٍ تزوَّجها فى البلاد الفلانيـة فطلاقُها لازمٌ له؛ كلَّما تزوَّجَ واحدٌ منهن واحدةً خرجتْ طالقا ثلاثا؛ وعلىٰ كلِّ واحدٍ منهم المشىُ إلىٰ بيتِ الله الحرام علىٰ قدمَيْه، مُحْرِمًا من مَنْزِله بحَجَّةٍ كفَّارةٌ لاتُجْزِئ عن حَجَّة الإسلام؛ وعبيدهم وأرِقَّاؤهم عُتَقاءُ لاحقُونَ بأحرار المسلمين؛ وجميعُ أموالِهم عَيْنا وعَرْضا، حَيوانًا وأرْضا، وسائرُ مايَحْوِيه المُتملِّكُ كُلًّا وبعضا، صدقةٌ لبيتِ مال المسلمين؛ حاشىٰ عَشَرَة دنانير، كلُّ ذٰلك علىٰ أشدِّ مذاهب الفَتْوىٰ، وألزمها لكلمةِ التَّقْوىٰ؛ وأبْعدِها من مخالفةِ الهَوىٰ والظاهر الفَحْوىٰ؛ أرادُوا بذٰلك رضا الخلافة الفلانيـة والفلانية (بلقبى السلطنة) للسلطان وولده المأخُوذِ لهما البيعةُ بعد بَيْعته، وأشهدُوا اللهَ علىٰ أنفسهم، وكفىٰ بذلك ٱلتزاما وٱلْتِزاما، وشَدًّا لما أمَر به وإحْكاما: و﴿مَنْ نَكَثَ فَإنَّما يَنْكُثُ علىٰ نَفْسِه﴾ ﴿ومَنْ يفْعَلْ ذٰلِكَ يَلْقَ أثَاما﴾. وهم يرفعُون دعاءَهم إلىٰ [illegible] تضرُّعا وٱستِسْلاما، ويسألُونه عِصمةً وكفايةً ٱفْتِتاحا وٱخْتِتاما؛ اللهم إنَّا قد أنفقنا [illegible] وٱهْتِماما، وقضَيْنا حقَّه إكمالًا وإتمامًا، وأسلَمْنا وجهنا [illegible] إسلاما؛ فعرِّفْنا من خيره وبركتِه نَمَاءً ودوَاما، وٱكْلَأْنا بعينك حركةً وسكونا ويقظةً ومَنَاما:

و ﴿ هَبْ لَنَـا مِنْ أزْواجِنَا وذُرِّيَّاتِنا قُرَّةَ أعْيُنٍ وٱجْعَلْنا للمتَّقِينَ إماما ﴾ إنك أنتَ اللهُ منتهىٰ الرَّغَبات، ومجيبُ الدَّعَوات، وإلٰهُ الأرض والسَّمٰوات .

وهـذه نسخةُ بيعة مرتَّبة علىٰ موتِ خليفة، أنشأتُها علىٰ هـذه الطريقة لموافقتِها رَأْى كُتَّاب الزمان فى ٱفتتاح عُهُود الملوك عن الخلفاء بالحمـدُ لله كما سيأتى بيانه فى موضـعه إن شاء الله تعالىٰ ؛ وتعرّضت فيها إلىٰ قيامِ سـلطانٍ بعقْدِها : لمطابقة ذٰلك لحال الزَّمان، وهى :

الحمدُ للهِ الذى جعَـلَ الأُمَّةَ المحمدية أبذَخَ الأُمَمِ شَرفا ، وأكْرَمها نِجارًا وأفضَلَها سَلَفا ؛ وجعل رُتْبة الخلافة أعلىٰ الرُّتَب رتبةً وأعزَّها كَنَفا ، وخصَّ الشجرةَ الطيِّبة من قريش بأنْ جعـل منهم الأئِمـةَ الخُلَفا ؛ وآثر الأُسْرةَ العبَّاسيَّة منها بذٰلك ، دعوةٌ سبقَتْ من ٱبن عمِّهم المُصْطفىٰ ، وحفِظ بهم نِظامَها علىٰ الدَّوام فجعـل ممن سلَفَ منهم خَلَفا .

نحمَدُه علىٰ أنْ هيَّأَ من مقدِّمات الرَّشَد ماطاب الزَّمانُ به وصَفَا ، وجدَّدَ من رُسُوم الإمامة بخـير إمامٍ مادَرَس منها وعفَا ؛ وأقام للمسلمين إمامًا تأرَّج الجوُّ بنَشْره فأصبح الوجُودُ بعَرْفه معترِفا .

ونشهدُ أنْ لا إلٰهَ إلَّا الله وحده لاشريكَ له شهادةَ مخلص تمسَّـكَ بعهْدها فوَفىٰ ، وأعطاها صَـفْقةَ يده للمبايَعـةِ فلا يَبْغِى عنها مَصْرِفا ؛ وأنَّ محمدًا عبـدُه ورسولُه الذى تداركَ اللهُ به العالَمَ بعد أنْ أشْفىٰ فشَفىٰ ؛ ونَسخَتْ آيةُ دينِـه الأديانَ وجَلَا بشِرْعته المُنيرة من ظُلْمة الجهل سَدَفا ؛ وجَعَل مُبايعَه مُبايِعا للهِ يأخُذُه بالنَّكْث ويُوفِّيه أجْرَه على الوفاء صلَّى الله عليـه وعلىٰ آلهِ الأطهار وعِتْرتِه الشُّرَفا ؛ ورضى اللهُ عن أصحـابه

Marfat.com

الذين ليس منهم مَنْ عاهد اللهَ فَغَدر ولا وَادَّ فى الله فجَفَا، خصوصًا مَنْ جاء بالصِّدْق وصَدَّق به فكان له قرابةٌ وصَفْوةَ الصَّفا ؛ والمرجوعَ إليه فى البَيْعة يوم السَّقيفة بعدما ٱشْرأَبَّت نحوَها نفُوسٌ كادتْ تذُوبُ عليها أسَفًا ؛ والقائمَ فى قتال أهلِ الرِّدَّة من بنى حنيفةَ حتّى ٱستقامُوا علىٰ الحنيفيَّة السَّمْحةِ حُنَفا . ومَنِ ٱستحالَ دَلْوُ الخلافة فى يَدِه غَرْبا فكان أفْيَدَ عَبْقَرِىّ قامَ بأمْرِها فكَفىٰ، وعمَّتْ فتُوحُه الأمصارَ وحُمِلَتْ إليه أموالُهَا فلم يُمْسِكها إقتارًا ولم يُبَذِّر فيها سَرَفا . ومَنْ كان فضْلُه لسَهْم الٱختيار من بيْنِ أصحابِ الشُّورىٰ هَدَفا ؛ وجمع الناسَ فى القُرءان علىٰ صَحِيفةٍ واحدةٍ وكانتْ قبْلَ ذٰلك صُحُفا . ومَنْ سرىٰ إليه سِرُّ : "أَمَا تَرْضىٰ أنْ تكُونَ منِّى بمنزلة هارُون من مُوسىٰ" فغَدَا يجُرّ من ذَيْل الفَخَار سَجْفا ؛ وٱستولىٰ علىٰ المَكَارِم من كلِّ جانبٍ فحازَ أطْرافَها طَرَفًا طَرَفا ، وعلىٰ سائر الخلَفاء الراشدين بعدهم ممَّن سلَك سبيلَ الحق ولطريق الهُدىٰ ٱقْتفىٰ ؛ صلاةً ورِضْوانًا يُذْهِبان الداءَ العُضَالَ من وَخَامة الغَدْر ويَجْلُبان الشِّفا ، ويرفَعان قدْرَ صاحبهما فى الدنيا ويُبَوِّئانِ منتحِلَهما من جَنّات لنعيم غُرَفا .

أمَّا بعدُ، فإنَّ عَقْد الإمامة لمن يقُومُ بأمْر الأمَّة واجبٌ بالْإجماع ، مستندٌ لأقوى دليلٍ تنقَطِع دُونَ نقْضه الأطْماع ، وتنْبُو عن سَماع ما يخالِفُه الأسْماع ؛ إذ العبادُ مجبولون علىٰ التبايُنِ والتغايُر ، مطْبُوعون علىٰ التحَالُف والتناصُر ؛ [مضطرُّون إلىٰ التَّعاوُنِ والتَّجاوُر ، مفْتقرُون إلىٰ التعاضُد والتَّوَازُر (١)] ؛ فلا بُدَّ من [illegible] من التظالُم ، ويحمِلُهم علىٰ التناصُف فى التداعى والتحَاكُم ؛ ويُقِيم [illegible] المَحارمُ عن الٱنْتهاك ، وتُحْفظ الانساب عن الٱختلاط والٱشْتراك ؛ ويَمِّن بيضة

(١) زائد فى بعض النسخ .

الإسـلام فيَمنَعُ أن تُطرَق ، ويُصونُ الثُّغورَ أن يُتوصَّل إليها أو يُتطرَّق : ليَعِزَّ الإسلامُ دارا ، ويَطمئِنَّ المستخفِي ليلا ويأمَنَ السارِبُ نهارا ؛ ويَذُبُّ عن الحُرَم فتُحترَم ، ويَذُودُ عن المنكَرات فلا تُغشَى بل تُصطَلَم ؛ ويُجهِّز الجيوش فتَنكَأُ العدُوَّ ، وتُغير على بلاد الكُفر فتمنَعُهم القَرار والهُدُوء ، ويُرغِمُ أنفَ الفئـة الباغية وبَقْمَعُها ، ويُدْغِمُ الطائفةَ المبتـدِعةَ ويَرُدَّعها ، ويأخُذُ أموالَ بيتِ المـال بحقِّها فيُطـاوَع ، ويصرفها إلى مستحقِّها فلا يُنـازَع ـ لاجَرَم اعتُبِرَ للقيام بهـا أكمَلُ الشُّروط وأتَمُّ الصِّفات ، وأكرمُ الشِّيَم وأحسَنُ السِّمات .

وكان السـيدُ الأعظمُ الإمامُ النبوىّ ، سليلُ الخلافه ، ووَلِيُّ الإمامه ، أبو فلان فلان العبّاسىّ المتوكِّل على الله « مثلا » أميرُ المؤمنين ، سَلَكَ الله تعالى به جَدَدَ آبائه الراشدين ؛ هو الذى جمع شروطَها فوَفَّاها ، وأحاطَ منها بصِفاتِ الكمالِ واستَوفاها ؛ ورامَتْ به أدنى مَراتِبِها فبلَغَتْ إلى أعْياها ، وتَسوَّر مَعاليَها فرقِىَ إلى أعلاها ، واتَّخذَ بهـا فكان صُورتَها ومَعْناها ـ وكانتِ الإمامةُ قد تأيَّمت ممن يقومُ بأعبائها ، وعَرِيَت خُطَّابُها لقِلَّة أكفائها ، فلم تُلْفِ لهـا بَعْلا يكونُ لها قَرِينا ، ولا كُفْئا تَخطُبه يكُونُ لديها مَكِينا ، إلّا الإمامَ الفلانىَّ المشار إليه ، فدعَتْـه لخِطْبتها وهى بيتُ عِرْسـه : ﴿ وَرَاوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ فأجاب خِطْبَتَها ، ولَبَّى دَعْوتَها ، لتحقُّقِه رَغْبتَها إليـه ، وعِلْمِه بوجُوب إجابتِها عليـه ، إذ هو شِـبْلُها الناشئُ بغابِها ، وغَيْثُها المستَمْطَر من سَحابها ، بل هو أسَـدُها الهَصُور ، وقُطْبُ فَلَكِها الذى عليه تَدُور ، ومَعْقِلُها الأمنَعُ الحَصين ، وعِقْدُها الأنْفَسُ الثَّمين ، وفارِسُها الأرْوعُ وليْثُها الشَّهِير ، وابنُ جَدَّتِها الساقطةُ منه على الخَبِير ، وتِلادُها العليمُ بأحْوالها ، والجَديرُ بمعرفة أقْوالها وأفعالها ، وتَرْجُمانها المتكلِّم بلِسانِها ، وعالِمُها المتفنِّنُ فى أفْنانها ، وطبِيبُها العارفُ بطِبِّها ، ومُنْجِدُها الكاشِفُ لكُرْبها

Marfat.com

وحين بلغت من القصد سُولَها، ونالت بالإجابة منه مأمُولَها، وحَرُم على غيره أن يسُومَها لذلك تَلْويحا، أو يُعَرِّجَ على خِطْبتها تعريضا وتَصْريحا، احتاجت إلى وَلِيّ يُوجِب عَقْدها، وشهودٍ تحفَظُ عَهْدَها؛ فعِنْدها قام السلطانُ الأعظَمُ الملِكُ الفلانيّ (بالألقاب السلطانية إلى آخرها) خلَّد الله سلْطانَه، ونصَر جُنودَه وجُيوشَه وأعْوانَه؛ فانتصَبَ لها وَلِيّا، وأقامَ يفكِّر فى أمرها مَلِيًّا؛ فلم يجِدْ أحقَّ بها منه فتجَنَّبَ عَضَلَها، فلم تَكُنْ تصْلُح إلَّا له ولم يَكُنْ يَصْلُح إلَّا لهَا؛ فجَمَع أهلَ الحلِّ والعَقْد، المعتَبَرين للاعتبار والعارفين بالنَّقْد: من القُضاة والعُلَماء، وأهل الخَيْر والصُّلَحاء، وأرباب الرأْى والنُّصَحاء؛ فاستشارهم فى ذلك فصَوَّبُوه، ولم يَرَوْا العُدُولَ عنه إلى غيره بوجْهٍ من الوُجُوه؛ فاستخار الله تعالى وبايَعَه، فتَبِعه أهلُ الاختيار فبايَعُوا، وانْقادُوا لحُكْمه وطاوَعُوا؛ فقابل عَقْدَها بالقَبُول بمَحْضَر من القُضاة والشُّهود فلزِمَتْ، ومضَى حُكْمُها على الصحة وانبرَمَتْ. ولمَّا تمَّ عَقْدُها، وطلَع بصُبْح اليُمْن سَعْدُها، التمس المَقامُ الشريف السلطانيّ المَلَكيّ الفلانيّ المشارُ إليه أعلى الله شرف سلْطانه ورَفَع مَحَلَّه، وقَرَن بالتوفيق فى كلِّ أمْرٍ عَقَدَه وحَلَّه، أنْ يسأَلَهُ عَهْدَها الوَفِيّ، ويَرِدَ منها مَوْرِدَها الصَّفِيّ: ليرْفَع بذلك عن أهل الدِّين حُجُبا، ويَزْدادَ من البيتِ النبويّ قُرْبا؛ فتعرَّضَ لنَفَحاتها من مَقَرَّاتها، وتطَلَّب بَرَكاتِها من مَظِنَّاتها؛ ورَغِب إلى أميرالمؤمنين، وابنِ عم سيد المرسلين صلواتُ الله عليهم أجمعين، أن يجدِّدَ له بعَهْد السلطنة الشريفة عَقْدا، ويأخُذَ له على أهل البَيْعة بذلك عَهْدا؛ ويستَحْلِفَهم على الوَفاء لها بما عاهَدُوا، والوُقوف عند مابايَعُوا عليه وعاقَدُوا: ليَقْتَرِن السَّعدان فيَعُمّ نوءهما، ويجتَمِع النَّيِّران فيَبْهَر ضَوْءُهما؛ فلَبَّاه تلبيةَ راغب، وأجابه إجابةَ مطلوبٍ وإن كان هو الطالِب؛ وعَهِد إليه فى كلِّ ما تقتضِيه أحكامُ إمامته فى الأمة عُموماً وشُيُوعا، وفوَّضَ له حُكْم الممالك الإسْلاميَّة جميعا؛ وجعَلَ إليه أمْرَ السلطنة المعظَّمة بكلِّ

Marfat.com

نِطَاق، وألقىٰ إليه مقاليدها وصَرَّفه فيها علىٰ الإطلاق ؛ وأقامه فى الأمة لعَهْد الخلافة وَصِيًّا، وجعله للإمامة بتَفْويض الأمْرِ إليه وليًّا ؛ ونَشَر عليه لواءَ المُلْك وقلَّده سيْفه العَضْب ، وألبَسَــه الخِلعةَ السَّوداء فابيَضَّ من سَوادِها وجْهُ الشرقِ والغَرْب ؛ وكَتَب له بذلك عهْدًا كَبَتَ عدُوَّه، ووزاد شَرَفه وضاعَفَ سُمُوَّه ؛ وطُولِب أهـلُ البيعة بالتَّوثيق علىٰ البَيْعتين بالأيمـان فأذعَنُوا ، واستُحْلِفُوا علىٰ الوَفَاء فبـالَغُوا فى الأيمـانِ وأمْعَنُوا ؛ وأقسـمُوا بالله جَهْد أيمـانهم ، بعـد أن أشْهَدُوا اللهَ عليهم فى إسْرارهم وإعْلانِهم ؛ وأعطَوُا المواثيـقَ المغلَّظةَ المشـدَّدة ، وحَلَفوا بالأيمـانِ المُؤكَّدة المعَقَّدة، علىٰ أنهم إن أعْرَضُوا عن ذلك، أو أدْبَرُوا، وبدَّلوا فيه أو غيَّرُوا، أو عَرَّجُوا عن سبيله أو حادُوا، أو نَقَصُوا منه أو زادُوا ؛ فكُلُّ منهم بَرِىء من حَوْل الله وقوَّته إلىٰ حوْلِ نفْسه وقوَّته، وخارجٌ من ذِمَّة الحصينةِ إلىٰ ذِمَّته ؛ وكُلُّ امرأةٍ فى نكاحه أو يتزوَّجها فى المستقبل فهى طالقٌ ثلاثا بَتاتًا، وكُلَّما راجعها فهى طالقٌ طالقًا لا يقْتضى إقامة ولا ثَباتًا ؛ وكُلُّ مملوكٍ فى ملْكه أو يملكه فى المستقبل حُرٌّ لاحقٌ بأحْرار المسلمين، وكُلُّ ما مَلَكه أو يَمْلكه من جَمَاد وحيوانٍ صدقةٌ عليه للفُقَراء والمساكين ؛ وعليه الحجُّ إلىٰ بيت الله الحرام، والوقوفُ بعرفَةَ وسائر المَشَاعِر العِظَام ؛ مُحْرِمًا من دُوَيْرة أهـلِه ماشيًا، حاسرًا عن رأسه وإن كان به أذًى حافيًا ؛ يأتى بذلك فى ثلاثين حَجَّة متتابعةً علىٰ التمام، لاتُجْزِئه واحدةٌ منها عن حَجَّة الإسلام ؛ وإهـداءُ مائةِ بدنةٍ للبيت العتيق كُلَّ سنةٍ علىٰ الدَّوام، وعليه صومُ جميع الدَّهْر إلَّا المَنْهِىَّ عنـه من الأيام، وأنْ يفُكَّ ألفَ رقبـةٍ مؤمنةٍ من أسْر الكفر فى كُلِّ عام ؛ بيْنَ كُلِّ منهم فى ذلك علىٰ نيَّـة أمير المؤمنين ، وسلطان المسلمين ، فى سِرِّه وجَهْره وأوَّلِه وآخره، لانيَّـةَ للحـالف فى ذلك فى باطن الأمر ولا فى ظاهره، لا يُوَدِّى فى ذلك ولا يستثْنِى ، ولا يتأوَّلُ ولا يستفْتِى ؛ ولا يَسْعىٰ فى نقْضها، ولا يخالفُ فيها

Marfat.com

ولا فى بعضها؛ متى جَنَح إلى شىء من ذلك كان آثما، وما تقدّم من تعقيد الأيمان له لازِمًا؛ لا يقبلُ اللهُ منه صَرْفا ولا عَدْلا، ولا يُجزئُه عن ذلك كفّارةٌ أصْلا؛ كلُّ ذلك على أشدّ المذاهب بالتخصيص، وأبعدها عن التساهل والترخيص؛ وأمْضَوْها بيعةً ميمُونه، باليُمن مبتدأةً بالنُّجْح مقرونه؛ وأشهدُوا عليهم بذلك مَنْ حضر مجلسَ العقد من الأئمة الأعلام، والشُّهود والحُكّام؛ وجعلُوا اللهَ تعالى على ما يقولُون وكيلا، فاستحقّ عليهم الوفاءُ بقوله عزّت قدرتُه: ﴿ وأَوْفُوا بعهدِ اللهِ إذا عاهَدْتُمْ ولا تَنْقُضُوا الأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكيدها وقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عليكُمْ كَفيلا ﴾. وهم يرغبُون إلى الله تعالى أن يُضاعف لهم بحُسْن نيّتهم الأُجُور، ويلجئُون إليه أن يجعَل أئمتهم ممّن أشار تعالى إليه بقوله: ﴿ الَّذينَ إنْ مَكَّنّاهُمْ فى الأَرْضِ أقامُوا الصَّلاةَ وآتَوُا الزَّكاةَ وأَمَرُوا بالمَعْرُوفِ ونَهَوْا عن المُنْكَرِ ولله عاقبةُ الأُمُور ﴾. إن شاء الله تعالى.

* * *

وهذه نسخةُ بيعةٍ مرتّبة على خَلْع خليفةٍ، أنشأتُها على هذه الطريقة أيضا، وتعرّضْت فيها لذِكر السلطان القائم بها، على ما تقدّم فى البيعة المرتّبة على موت خليفةٍ، وهى:

الحمدُ لله الذى جعل بيتَ الخلافة مَثابةً للناس وأَمْنا، وأقام سُورَ الإمامة وقايةً للأنام وحِصْنا، وشَدّ لها بالعِصابة القُرَشيّة أَزْرا وعَضَدا منها بالعُصْبة الهاشميّة، وأغاثَ الخلْقَ بإمامٍ هُدًى حَسُنَ سِيَرُه وصفَا سريرةً فراقَ صُورةً ورقّ معْنًى، وجمع قلُوبَهم عليه فلم يستنكِفْ عن الانتماء إليه أعلًى ولا أدْنى؛ ورفع جِلْبابَها عمّن شُغِل بغيرها فلم يُعِرْها نَظَرا ولم يُصْغِ لها أُذُنا، وصَرَف وجْهَها عمّن أساء فيها تصرُّفا فلم يرَ بها رأْسا ولم يَعْمُرْ لها مَغْنًى.

نحمـدُه على نِعَم حَلَّت للنفوس حين حَلَّت ، ومِنَنٍ جلَتِ الخطوبَ حينَ جَلَّت ؛ ومسارٌ سَرَتْ إلى القلوب فسَرَّت ؛ ومَبـارٌّ أقرَّتِ العُيون فقرَّتْ ؛ وعوارِفَ أمَّتِ الخليقةَ فتوالتْ وما وَلَّت ، وقدمِ صِـدْقٍ ثبتَتْ إن شاء الله فى الخلافة فما تزلزلَتْ ولا زَلَّتْ .

ونشهدُ أن لا إلهَ إلا الله وحدَه لاشريكَ له شهادةٌ تكونُ لنـا من دَرَكِ الشُّكُوك كالِئـه ، ولِمَهاوِى الشُّبَهِ دارِئه ، وللمَقاصد الجميـلةِ حارِيه ، ولشُقَّة الزَّيْغ والارتيابِ طاوِيَه ؛ وأنَّ محمدًا عبـدُه ورسولُه الذى نَصَح الأمَّة إذ بلَّغ فشفى عَلِيلَها ، وأوردَها من مَناهِل الرَّشَـد ما أطفأ وَهَجَها وبَرَّد غَلِيلَها ، وأوضَحَ لهم مَناهِجَ الحقِّ ودعاهُمْ إليها ، وأبانَ لهم سُبُلَ الهِدايةِ : ﴿ فمَنِ اهتَدَى فإنَّما يَهْتَدِى لِنَفْسِـهِ ومَنْ ضَـلَّ فإنَّمـا يَضِلُّ عليها ﴾ صلَّى الله عليه وعلى آلِهِ أئمةِ الخيرِ وخَيْرِ الأئمَّه ، ورضِى عن أصحابه أولياءِ العَدْل وعُدُولِ الأُمَّه ؛ صلاةً ورِضْوانًا يُعمَّان سائرهم ، ويشْمَلان أوَّلَهم وآخرَهم ؛ سِيَّما الصديقِ الفائزِ بأعلى الرُّتبتين صِدْقًا وتَصْدِيقًا ، والحائزِ قَصَبَ السبق فى الفضيلتَيْن عِلْمًا وتحقيقًا ، ومَنْ عدلَ الأنصارُ إليه عن سَعْد بن عُبادةَ بعد ما أجمَعُوا على تَقْدِيمه ، وبادَرَ المهاجِرُون إلى بَيْعته اعترافًا بتَفْضِيله وتَكْرِيمه . والفارُوقِ الشديدِ فى الله بأسًا واللَّيِّنِ فى الله جانبًا ، والمُوفِى للخلافة حَقًّا والمؤدِّى للإمامةِ واجِبًا ، والقائمِ فى نُصْرة الدِّين حَقَّ القيـام حتَّى عمَّت فتُوحُه الأمصار مشارقَ ومَغاربًا ، وأطاعتْـه العناصرُ الأربعة : إذْ كان لله طائعًا ومِنَ الله خائفًا وإلى الله راغِبًا . وذِى النُّورَيْن المعوَّل عليـه من بينِ سائرِ أصحاب الشُّورى تَنْوِيهـا بقَـدْره ، والمخصوص بالاختيار تفخيمًا لأمْره ؛ من حُصِر فى بَيْتـه فلم يمنَعْه ذلك عن تِلاوةِ كتاب الله وذِكْره ، وشاهد سُيوفَ قاتِليه عِيانًا فقابَلَ فَتَكاتِها بجميلِ صَـبْره . وأبى الحسن الذى أعْرَضَ عن الخلافة حينَ سُئِلَها ، واستعفى منها بعْدَ ما اضْطُرَّ إليها وقَبِلها ؛ وكُشف له عن حقيقة

Marfat.com

الدنيا فما أمّ قبلتها بقلبه ولا ولّى وجهه قبلها، وصرّح بمقاطعتها بقوله : « ياصفراءُ غُرّى غيرى يابيضاءُ غُرّى غيرى » لمّا وصلها من وصلها ؛ وسائرِ الخلفاء الراشدين بعدهم ؛ الناهجين نهجهم والواردين وردهم .

أما بعدُ، فإنّ للإمامة شروطًا يجبُ اعتبارها فى الإمام، ولوازمَ لايفتقر قوامُها فى الابتداء ولا فى الدّوام، وأوصافًا يتعيّن إعمالها. وآدابًا لايسَعُ إهمالها ؛ من أهمّها العدالةُ التى ملاكُها التّقوى، وأساسُها مراقبةُ الله تعالى فى السرّ والنّجوى ؛ وبها تقعُ المَهيبةُ لصاحبها فيُجَلّ، وتميلُ النّفوس إليها فلا تمل ؛ فهى المَلَكةُ الداعيةُ إلى تَرْك الكبائر واجتنابها، والزاجرةُ عن الإصرار على الصّغائر وارتكابها ؛ والباعثةُ على مخالفة النفس ونهيها عن الشّهوات، والصارفةُ عن انتهاك حُرُمات الله التى هى أعظمُ الحُرُمات ؛ والموجبةُ للتعفّف عن المحارم، والحاملةُ على تجنّب الظّلامات وردّ المظالم. والشّجاعةُ التى بها حمايةُ البَيْضة والذّبّ عنها، والاستظهارُ بالغزو على نكاية الطائفة الكافرة والغضّ منها ؛ والقوّةُ بالشوكة على تنفيذ الأوامر وإمضائها، وإقامة الحدود واستيفائها، ونشرِ كلمة الحق وإعلائها، ودحْضِ كلمة الباطل وإخفائها، وقطعِ مادّة الفساد وحسْم أدوائها، والرأىُ المؤدّى إلى السياسة وحُسْن التدبير، والمُغْنى فى كثيرٍ من الأماكن عن مزيد الحيلة والتشمير ؛ والمعينُ فى خُدَع الحرب ومكايده، والمُشْعِف فى مَصادر كلّ أمر ومواردِه .

هذا وقد جعلَنا اللهُ أمّةً وسَطا، ووعَظَنا بمن سَلَف من الأمم ممن تمرّد وعَتا أو نجبرَ وسَطًا ؛ وعصَمَ أمّتنا أن تجتمعَ على الضّلال، وصانَ جَمْعنا عن الخَطَل فى الفعال والمَقال ؛ وندَبَنا إلى الأمْر بالمعروف والنهْى عن المنكر، وسوّغَ لأئمّتنا الاجتهادَ فى النوازل والأحكام فاجْتهادُهم لايُنْكَر، خصوصًا فى شأن الإمامة التى هى

Marfat.com

آكدُ أسباب المَعالم الدينيّة وأقواها ، وأرفعُ المناصب الدُّنيويّة وأعلاها ، وأعزُّ الرُّتَب رُتبةً وأغلاها ، وأحقُّها بالنظر في أمرِها وأولاها . وكان القائمُ بأمر المسلمين الآنَ فلانُ بنُ فلان الفلانيّ ممَّن حادَ عن الصِّراط المستقيم ، وسلَكَ غيرَ النَّهج القويم ؛ ومالَ عن سَنَن الخُلَفاء الراشدين فأدركه الزَّلَل . وتارفَ المَأثَمَ فعادَ بالخَلَل . فعاث في الأرض فَسادا ، وخالَفَ الرَّشدَ عِنادا ، ومالَ إلى الغَيِّ اعتِيادا ، وأسلَمَ إلى الهوى قِيادا ، قد انتقَلَ عن طَوْر الخلافة ، وعزيز الإنافة ، إلى طَوْر العامّة ناقصِ بصفاتهم ، وائتَسَم بسِماتهم ، فمُنكَرٌ يجب عليه إنكارُه قد باشَره ، وصديقٌ سوء يتعيّن عليه إبعادُه قد وازَره وظاهَره ، إنْ سلك فسبيلَ الشَّهوة والارتياب ، أو قصَدَ أمرا نحا فيه غيرَ الصَّواب ، منهمِكٌ على شهواته ، متهكِّمٌ على لذّاته ، متشاغلٌ عن الأمّة بأمر بنيه وبناته ، الجَبْنُ رأسُ ماله ، وعدَمُ الرأي ثوبُه في أفعاله وأقواله ، قد قنِع من الخلافة باسمِها ، ورضِيَ من الإمامة برسمِها ، وظَنَّ أنّ السُّودَدَ لُبس السَّواد ، فمال إلى الخَلَف ، وتوهَّم أنّ القاطعَ الخِصَمَ يقطع النظر عن السَّلَف .

ولمّا اطّلع الناسُ على هذه المنكَرات ، وعرَفوه بهذه السِّمات ، وتحقّقوه فيه هذه الوَصمات ، تجرّأوا في حقّه وأجمعوا على خلعه وإزالته ، فلجئوا إلى السلطان الأعظم المالك الفلانيّ (بالألقاب السلطانية إلى آخرها) نصره الله وأيّده ، وأعلى جدودَه وأرغم على عُداة الله حدودَه ، فعرضوا الأمرَ في ذلك إليه ، وألقَوا الحكمَ عليه ، بمشهد أهلِ الحلّ والعقد ممّن تصلُح به الإمامة ، وتنعقد ، فاستفتَوا الله تعالى وأطاعوه في إرشادهم ، وخرجوا عن عهدة ما تعيّن عليهم ، وجرَوا على سنن الحقّ في مخالفته ، وتجريد السَّيف من القِراب ، وطَوَوا حكمَ ما عنه أكلّ السلف للكتاب ، وعدَلوا عن حمل السَّلَف ، وانطووا على حمل السَّيف والقطع . ألفى الناسُ إماما يقوم بأمور الإمامة فيرضاه ، بجمع شروطها ويستوفيها ، فلم يجدوا سبيلا ،

Marfat.com

ولا بِهَا أحقّ وأوْلىٰ ، وأوفىٰ بها وأَمْلىٰ ، من السيِّد الأعظم الإمام النبوى سليل الخلافة ، وولىّ الإمامة أبى فلانٍ فلان العباسىّ الطائع لله « مثلا » أمير المؤمنين . لازال شرفُه باذِخا ، وعِرْنِينُه الشريفُ شامِخا ، وعهْدُ ولايته لعهدِ كلّ ولايةٍ ناسِخا ، فسامُوه بيْعَتها فلَبّى ، وشامُوا بَرْقَه لولايتها فأجابَ وما تأبّى ، مِلْمًّا منه بأنها تهيَّأتْ عليه ، وانحصرتْ فيه فلم تَجِدْ أعلىٰ منه فتَعدِلَ إليه ؛ إذ هو ابنُ بَجْدتها ، وفارسُ نَجْدتها ، ومُزِيلُ غُمَّتها ، وكاشفُ كُرْبتها ؛ ومُجْلِى غَيَاهِبها ، ومُحْمِدُ عواقبها ، وموضِّحُ مذاهبها ؛ وحاكُمها المَكين ، بل رشيدُها الأَمين ؛ فنهضَ المقامُ الشريف السلطانىّ المَلَكىّ الفلانىّ المشارُ إليه : قَرَن اللهُ مقاصِدَه الشريفةَ بالنَّجاح ، وأعمالَه الصالحةَ بالفَلَاح ؛ وبَدَر إلىٰ بيعته فبايَعْ ، وأُتمَّ به مَنْ حَضَر من أهل الحَلِّ والعَقْد فتابَعْ ، وقابل عَقْدَها بالقَبُول فمضىٰ ، ولزِم حُكْمُها وانقضىٰ ؛ واتّصل ذلك بسائر الرعيَّة فانْقادُوا ، وعلِمُوا صوابَهُ فمَشَوْا علىٰ سَنَنِه وما حادُوا ؛ وشاع خبرُ ذلك فى الأمصار ، وطارتْ به مَخَلَّقاتُ البشائر إلىٰ سائر الأَقْطار ، فتعرَّفُوا منه اليُمْنَ فسارَعُوا إلىٰ امتثاله ، ونحقَّقُوا صِحَّتَه وثباتَه بعد اضْطرابه واعتِلاله ؛ واستعاذُوا من نَقْصٍ يُصيبه بعد تمامه لهذا الخليفةِ وكماله ؛ فعندها أبانت الخلافةُ العبَّاسيةُ عن طِيبِ عُنصُرها ، وجميلِ وفائِها وكريمِ مَظْهَرِها ؛ وجادَتْ بجزيل الامْتِنان ، وتلا لسانُ كَرَمِها الوَفِىّ مِلْءَ وَلِيِّها الصادق : ﴿هَلْ جزاءُ الْإِحْسانِ إِلَّا الْإِحْسان﴾ فعقَد له بالسَّلْطنة الشريفة عُقْدا ، وطوَّق جِيدَه بتفويضها إليه عِقْدا ؛ وجعله وَصِيَّه فى الدِّين ، ووَلِيَّه فى أمر المسلمين ؛ وقلَّده أمْرَ الممالك الإسلامية وألقىٰ إليه مقاليدَها ومَلَكَها ، وله مَوَاعِيدَها ؛ وعقَد له لِواءَها ونشَر عليه أعلامَها ، وصرَّفه فيها بما يُطلِعُ الرشدَ وفوَّض إليه أحْكامَها ؛ وألبسه الخِلْعةَ السَّوْداء فكانت لسؤدده شِعارا ، وأسبغ عليه رداءَها فكان له دِثَارا ؛ وكتَبَ له العهدَ فسوَّىٰ المَعاهدَ ثَوْبُ الهدىٰ ولَمِّ الأنامُ

Marfat.com

بذكره فاطمأنّت البلادُ والعِباد ، وعِنْـد ما تَمّ هذا الفَصْل ، وتقرّر هـذا الأَصْل ، وأمِنت الرَّعايا بما آتاهمُ اللهُ من فضـله فَرِحين ، وبنعمتِـه مستَبْشِرين ، طُولِبَ أهلُ البَيْعة بما يحملُهم على الوفاء ، ويمنَعُهم من التكدير بعد الصَّفاء : من توثيق عَقْـدها بتأكيد أيمـانها ، والإقامة على الطاعة لخليفتها وسُلْطانها ، فبادَرُوا إلى ذلك مسرعين ، وإلى داعيـه مُبْطئين ، وبالغُوا فى المَواثيق وأكّدوها ، وشـدّدوا فى الأيمـان وعقّدوها ، وأقسَمُوا بالله الذى لا إلهَ إلّا هو عالِمُ الغَيْب والشّهادة ، عالِمِ خائنة الأعيُن وما تُخْفِى الصُّدور فى البَدْء والإعادة ، على الوَفاء لها والمُوالاة ، والنُّصْح والنُّصافاة ، والمُوافقة والمُشايعة ، والطاعة والمُتابعة ، يُوالُون مَنْ والاهما ، ويُعادون مَنْ عاداهما ، لا يَعْدِلون عن مُناصحتها عند المَلِمّ المُدْلِع ، ولا يَرْقُبون فى عاقِبتها إلّا ولا ذِمّة ، مبادِرين فى ذلك على سَنَن الدَّوام والاستمرار ، والثّبوت واللُّزوم والاستقرار ، على أنّ من بادَر منهم من ذلك شَرْطا أو نَكَثَ له عَهْدا ، أو حاد عن طريقه أو نَثَر حُكْما ، أو سلك فى ذلك غيرَ سبيل الأمانة ، أو استحلّ الغَدْر وأظهر الخيانة ، قليلا أو كثيرا فى كلّ أو بعض ، متأوّلا أو محتالا لإبطاله أو نقضه ، وأيّ مؤمن من جميع أهل المِلّة فوّته الوافيه ، وذمّته الشديدة وذمّته الوافيه ، إلى حول نفسه وقوّته ، وكلّ امرأة فى عصمته إلى أن يتزوّجها مدّة حياته طالق ثلاثا بصريح لفظه لا يتوقف نيّاته ، ولا يَفْرُق فيه بين سُنّة ولا بدعة وإن رجعه عيبا ولا مَنّا به ، وكلّ مملوك فى ملكه أو يملكه فى بقيّة عُمْره من ذكر أو أنثى من أموال المسلمين ، فكلّ ما هو على ملكه أو يملكه فى بقيّة عُمْره إلى آخر أيّامه من حين أو عمّر الله له المُقام بين المساكين ، وعليه الحجّ إلى بيت الله الحرام ثلاثين حجّة بثلاثين عُمْرة راجلا حافيا حاسرا ، لا يقبل الله منه غير الوفاء بها بالغا ولا ظاهرا ، وإعطاء مائة بدنة فى كلّ حجّة منها فى عُسْرته ويُسْرته ، لا تُجْزئه

واحدةٌ منها عن حَجّة الإسلام وعُمْرته ؛ وصومُ الدهر خلا المنهيّ عنه من أيّام السّنه ، وصلاةُ ألفِ ركعةٍ فى كل ليلةٍ لا يُباح له دُونَ أدائها غَمْض ولا سِنَه ؛ لا يقبلُ الله منه صَرْفًا ولا عَدْلا ، ولا يُؤْجَر على شيءٍ من ذلك قَوْلا ولا فِعْلا ؛ متى ورَّى فى ذلك أو ٱستثنى ، أو تأوّلَ أو ٱستفتى ، كان الحنثُ عليه عائدا ، وله إلى دار البوار قائدًا ؛ معتمدًا فى ذلك أشدّ المَذاهب فى بِدْعه وعلانيته ، على نيّة المستحلف به دُونَ نيّته ؛ وأمضوها بيعةً محكمةَ المَبانى ثابتةَ القَواعد ، كريمةَ المَساعى جميلةَ المقاصد ؛ طيّبةَ الجَنَى جليلةَ العوائد ، قاطعةَ البراهين ظاهرةَ الشّواهد ؛ وأشهدوا على أنفسهم بذلك مَنْ حضر مجلسَ هذا العَقْد من قُضاة الإسلام وعُلَمائه ، وأئمة الدّين وفُقَهائه ؛ بعد أن أشهدوا الله عليهم وكفى بالله شهيدا ، وكفى به خائنين خَصيما : ﴿ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . والله تعالى يجعل ٱنتقالهم من أدنى إلى أعلى ، ومن يُسْرى إلى يُمْنى ؛ ويحقّق لهم بمن ٱستخلفه عليهم وَعْدَه الصادقَ بقوله تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ . إن شاء الله تعالى .

Marfat.com

المـــــذهب الرابع

(مما يُكتب فى بَيْعات الخلفاء أن يفتتح البيعةَ بلفظ : هذه بيعة ، ويَصفها ويذكر ماينايبُ ، ثم يعزّى بالخليفة الميِّت ، ويهنّئ بالخليفة المستقر ، ويذكر فى حقّ كلّ منهما مايَليق به من الوَصْف على نحو مما تقدم)

وهذه نسخةُ بيعةٍ أنشأها المَقَرّ الشّهابىُّ بنُ فضل الله ، على مارأيته فى " الجواهر الملتقطة " المجموعة من كلامه ، للإمام الحاكم بأمر الله « أبى العبّاس » « أحمد بن أبى الرَّبيع سُلَيمان » [المستكفى بالله] ابنِ الإمام الحاكم بأمر الله ، بعد موتِ أبيه .

وذكر القاضى تقىُّ الدين بن ناظِر الجيش فى " دُسْتُوره " أنه إنما عَمِلها تجربةً لخاطره ، وهى مُرتَّبة على موتِ خليفة .

ونصها بعد البسملة الشريفة :

(إنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إنَّما يُبَايِعُونَ اللهَ يَدُ اللهِ فَوْقَ أيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللهَ فَسَيُؤْتِيهِ أجْرًا عَظِيمًا) .

هـذه بيعةُ رِضْوان وبَيْعةُ إحْسان ، وبيعةُ رِضًا تشْهَدُها الجماعة ويَشْهد عليها الرحمن ؛ بيعةٌ يَلزَم طائرُها العُنُق ، وتَحُوم بشائرُها على الأفُق ، وتحمِلُ أنباءَها البَوارِقُ والبِحار مشحونةَ الطُّرُق ؛ بيعةٌ تصْلُح لِنَسْجها الأُمَّه ، وتُمنَح بسَبَبها النِّعمه ، وتُؤلَّف بها الأسباب وتجعل بَيْنَهم مودَّةً ورَحْمه ؛ بيعةٌ تَجْرى بها الأرزاق ، وتتزاحم [illegible]

---

(١) كذا فى تاريخ أبى الفدا. وابن إياس والعبر أيضا ، ووقع فى ج ٣ ص ٢٦٥ من هذا المؤلف أن لقبه المستعصم بالصواب ماهنا .

(٢) أى امتحانا لفكره .

Marfat.com

الكواكبِ علىٰ حَوْض المَجرّة للوِفَاق ؛ بيعةٌ سعيدةٌ مَيْمونه ، بَيْعةٌ شريفة بها السلامةُ فى الدِّين والدنيا مضْمُونه ؛ بيعةٌ صحيحةٌ شرعيّه ، بيعةٌ ملحوظةٌ مرعِيّه ؛ بيعةٌ تُسابق إليها كلُّ نيّة وتُطاوع كلُّ طوِيّه ، وتُجْمِع عليها أشتاتُ البَرِيّه ؛ بيعةٌ يَستَهِلُّ بها الغَمَام ، ويتهَلَّل البَدْر التَّمام ؛ بيعةٌ متّفَق علىٰ الإجماع علَيْها ، والإجتماعِ لِبَسْط الأيْدِى إليها ؛ آنعقَدَ عليها الإجماع ، وآنعقدتْ صِحّتها بمن سَمِع للهِ وأطاع ، وبذَلَ فى تَمامها كلَّ آمرى ماآستَطَاع ، وحصل عليها آتّفاقُ الأبصار والأسماع ، ووصل بها الحقُّ إلىٰ مستَحِقّه وأقرَّ الخصمُ وآنقَطَع النِّزاع ؛ وتضمّنها كتابٌ كريم يشهَدُه المقرّبُونَ ، ويتلَقّاه الأئمة الأقرَبُون .

﴿ الحمدُ للهِ الّذِى هَدَانا لِهٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أنْ هَدَانَا الله ﴾ : ﴿ ذٰلِكَ مِنْ فَضْلِ اللهِ عَلَيْنَا وَعَلىٰ النَّاسِ ﴾ . وإلَيْنا ولله الحمدُ وإلىٰ بَنِى العَبّاس . أجمعَ علىٰ هذه البيعة أربابُ العَقْد والحلّ ، وأصحابُ الكلام فيما قَلّ وجَلّ ؛ وولاةُ الأمور والأحْكام ، وأربابُ المَناصِب والحُكّام ؛ وحَمَلَةُ العِلْم والأعلام ، وحُماةُ السُّيُوف والأقلام ، وأكابِرُ بنِى عَبْد مَنَاف ، ومِن آنخفَض قَدْرُه وأناف ؛ وسَرَواتُ قُرَيْش ووُجُوه بنى هاشم والبقيّةُ الطاهرةُ من بنى العباس ، وخاصّةُ الأئمةِ وعامّةُ الناس ؛ بيعةٌ تُرسَىٰ[1] بالحرمين خِيامُها ، وتَخْفِق علىٰ المأزِمَيْنِ أعلامُها ، وتتعرّف عرفاتُ ببركاتِها وتُعْرَفُ بِمنًى أيّامُها ؛ ويُؤمّن عليها يومَ الحجّ الأكبر ، وتؤمّ مابين الرُّكْن والمقام والمِنْبَر ؛ ولا يُبتغىٰ بها إلا وجهُ الله الكريم ، وفضْلُه العميم ؛ لم يبق صاحبُ سَبْق ولا عَلَم ، ولا ضارِبٌ بسيف ولا كاتِبٌ بقَلَم ؛ ولا رَبُّ حُكْم ولا قضاء ، ولا مَن يُرجَع إليه فى آتفاقٍ ولا إمضاء ؛ ولا إمامُ مسْجِد ولا خطيب ، ولا ذو فُتْيا يُسْأَل

(١) لعله ترى بالحرمين تأمل .

(٢) فى الأصل سبف وهى تصحيف

Marfat.com

فيُجيب، ولا مَنْ بينَ جَنبَتِي المساجد ولا من تضُمُّهم اجنِحةُ المَحـارِيب ، ولا مَنْ يجتَهِد فى رأْيٍ فيُخْطِئُ أو يُصيب ؛ ولامتحدِّثٌ بحديث، ولا متكلِّم بقديم وحديث؛ ولا معروفٌ بدِينٍ وصَلَاح، ولا فُرسانُ حرب وكِفَاح ؛ ولا راشِقٌ بسِهَام ولا طاعنٌ بِرِماح، ولا ضاربٌ بصفَاح، ولا ساعٍ علىٰ قدَم ولا طائرٌ بغيْر جَنَاح ؛ ولا مخـالِطٌ للناس ولا قاعدٌ فى عُزْله ، ولا جمعُ كَثْرة ولا قِلَّه ؛ ولا مَنْ يستقِلُّ بالحَوزاء لِواؤُه، ولا يقِلُّ فوْقَ الفرقد ثَوَاؤُه ؛ ولا بادٍ ولا حاضِر، ولا مُقِيمٌ ولا سائر؛ ولا أوَّلٌ ولا آخِر، ولا مُسِرٌّ فى باطن ولا مُعْلِنٌ فى ظاهر ؛ ولا عرَبٌ ولا عَجَم، ولا راعِى إبل ولا غَنَم؛ ولا صاحبُ أناةٍ ولا إبْدار، ولا ساكنٌ فى حضَر وباديةٍ بِدَار ؛ ولا صاحبُ عَمَـد ولا جِدَار ، ولا ملَجَّجٌ فى البِحار الزاخرةِ والبرَارِىِّ القِـفَار ؛ ولا من يتوَقَّلُ صَهَواتِ الخيل، ولا منْ يُسْبِل علىٰ العَجَاجة الذيل ، ولا من تطْلُع عليـه شمسُ النهار ونُجُوم الليل ؛ ولا من تُظِلُّه السماء وتُقِلُّه الأرض ، ولا مَنْ تدُلُّ عليه الأسماء علىٰ آختلافها وترتفِعُ درجاتُ بعضِهم علىٰ بعض ؛ حتَّى آمَنَ بهذه البَيْعة وأمَّنَ عليها، ومَنَّ اللهُ عليا وهداه إليها ؛ وأقرَّ بها وصدَّق ، وغَضَّ لهـا بصَرَه خاشـعًا وأطرق ؛ ومدَّ إليها يَدَه بالمُبَايَعه، ومُعتَقَدَه بالمُتَابعه ؛ رضِىَ بها وآرْتضاها، وأجاز حُكْمَها علىٰ نَفْسه وأمضاها؛ ودخل تحتَ طاعتِهـا وعَمِـل بمقتضاها : ﴿ وقُضِىَ بَيْنَهُـمْ بِالحَقِّ وَقِيـلَ الحَمْدُ لِلّٰهِ رَبِّ العالَمِينَ ﴾ .

والحمدُ لله الذى نصب الحاكم ليَحْكُم بين عِبَاده وهو أحكَمُ الحاكِمين ، والحمدُ لله الذى أخَذَ حقَّ آل بيتِ نبيِّه من أيْدى الظالمين ؛ والحمدُ لله ربِّ العالمين، ثم الحمدُ لله ربِّ العالمين، ثم الحمدُ لله ربِّ العالمين، والحمدُ لله رب العالمين .

وإنه لمَّا آستأثر اللهُ بعبْدِه سُليمانَ أبِى الرَّبيع الإمامِ المستكْفى بالله أميرِ المؤمنين ـ كَرَّم اللهُ مثواه ـ وعَوَّضه عن دار السَّلام بدار السَّـلَام ، ونقله فزَكَّى بدَنَهُ عن

Marfat.com

شهادة السَّلام بشهادة الإسْلام؛ حيثُ آثَره ربُّه بقُرْبه، ومَهَّد لجنبه، وأقدمه على ما أقدمه مَنْ يرجُوه لعمَله وكَسْبه، وخار له فى جِوَاره رَفِيقا، وجعل له على صالح سَلَفِه طرِيقًا؛ وأنزله ﴿ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ من النَّبِيِّينَ والصِّدِّيقِينَ والشُّهَدَاءِ والصَّالِحِينَ وحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقا ﴾. اللهُ أكبَرُ ليومه لولا مخلَّفه كادَتْ تَضِيقُ الأرضُ بما رَحُبَت، وتُجْزَى كلُّ نفس بما كَسَبَتْ؛ وتُنْبَأ كلُّ سريرةٍ بما أدَّخرتْ وما خَبَّتْ؛ لقد آضْطَرم سعِيرٌ، إلا أنَّه فى الجَوَانح، لقد آضْطرب مِنبَرٌ وسريرٌ، لولا خلَفُه الصالح، لقد آضْطَرب مأمورٌ وأميرٌ، لولا الفِكرُ بعْدَهُ فى عاقِبة المَصالح؛ لقد غاضَتِ البِحار، لقد غابَتِ الأَنْوار، لقد غالب البُدُور ما يلْحَقُ الأهِلَّةَ من المِحَاق ويُدْرِك البَدْرَ من السِّرار؛ نُسِفَتِ الجبالُ نَسْفا، وخبَتْ مَصابِيحُ النُّجوم وكادَتْ تُطْفَى : ﴿ وجاءَ رَبُّكَ والمَلَكُ صَفًّا صَفّا ﴾ . لقد جَمَعتِ الدنيا أطرافَها وأزمَعَتْ على المَسِير، وجُمِعت الأمَّةُ لهَوْل المَصِير، وزاغَتْ يومَ موْته الأبْصار : ﴿ إنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِير ﴾ . وبقِيَتِ الألبابُ حَيارَى، ووقَفَتْ تارةً تُصَدِّق وتارةً تُمَارَى؛ لا تعْرِف قَرَارا، ولا على الأرض آستِقْرارا : ﴿ إنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعةِ شَيْءٌ عَظِيم يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعةٍ عَمَّا أرضعَتْ وتَضَعُ كُلُّ ذاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وتَرَى الناسَ سُكَارَى وما هُمْ بِسُكَارَى ﴾ .

ولم يكن فى النَّسَب العباسىّ ولا فى جميع من فى الوُجُود، لولا البيتِ المسترْشِدىّ ولا فى غيره من بيوت الخلفاء من بَنَايَا آباءٍ لهم وجُدُود، ولا مَنْ تلِدُه أُخْرَى الليالى وهى عاقِرٌ غيرُ وَلُود : من تسَلَّم إليه أمّةُ محمد صلى الله عليه وسلم [illegible] ملوكُها؛ إلا واحدٌ وأين ذلك الواحد؟ هو والله من انحصر فيه آستحقاقُ ميراث آبائه الأطهار، وتُراث أجداده ولا شىء هو إلا ما آشتمل عليه رِداءُ الليل والنَّهار، وشَوْبَرِىُّ المتصل بقبره، وولدُ الإمام الناهِب لصُلْبه، المجمَعُ على أنه فى الأنام،

Marfat.com

فردُ الأيّام، وواحدٌ وهكذا فى الوُجُود الإمام ؛ وأنه الحائزُ لما زُرِرَتْ عليه جُيوبُ المَشارِق والمَغارِب، والفائزُ بملك مابين الشارق والغارب ؛ الراقى فى صَفِيح السماء هذه الذُّرْوةَ المنيفه، الباقى بعدَ الأئمةِ الماضينَ رضى الله عنهم ونِعْم الخَلِيفه ؛ المجتمعُ فيه شروطُ الإمامه ، المتّضح لله وهو من بيتٍ لا يزال المُلْك فيهم إلىٰ يومِ القيامه ؛ الذى تَصَفَّح السَّحابَ نائلُه ، والذى لا يغُرُّه عاذرُه ولا يُغَيِّره عاذِلُه ؛ والذى :

تعوّدَ بَسْطَ الكفِّ حتّى لو أنّه * ثَناها لقَبْض لم تُطِعْه أنامِلُه

والذى :

لا هُوَ فى الدُّنيا مُضِيعٌ نصيبَه * ولا وَرِقُ الدُّنيا عن الدِّين شاغِلُه

والذى ما ارتقىٰ صَهْوة المِنْبَر بحضرة سلطان زمانِه إلّا قال ناصرُه وقام قائمه ؛ ولا قعدَ علىٰ سرير الخلافة إلّا وعُرِفَ بأنّه ما خاب مستكفيه ولا غاب حاكمُه ؛ نائبُ الله فى أرضه ، والقائمُ بمَقام رسول الله صلّى الله عليه وسلم وخليفتُه وابن عمّه ، وتابعُ عملِه الصالح ووارثُ علْمه ، سيدنا ومولانا عبدُالله وليُّه «أحمد أبو العبّاس» الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، أيّدَ الله تعالىٰ ببقائه الدِّين ، وطوّق بسَيْفه [رقاب] المُلْحدين ، وكبتَ تحتَ لِوائه المعتَدين ، وكتَب له النصرَ إلىٰ يوم الدين ؛ وكَفَّ بجِهاده طوائفَ المُفْسدين ، وأعاذَ به الأرضَ ممّن لا يَدين بِدين ؛ وأعاد بعَدْله أيامَ آبائه الخلفاءِ الراشدين والأئمة المَهْديين ؛ الذين قضَوْا بالحق وبه كانُوا يَعْدلون ، وعليه كانُوا يعمَلُون ؛ ونَصَر أنصارَه ، وقدَّر اقتِداره ؛ وأسكن فى قلوب الرعيّة سكينتَه ووقارَه ، ومكّن له فى الوُجود وجمعَ له أقطارَه .

ولمّا انتقل إلى الله ذلك السيّدُ ولَحِق بدار الحقّ أسْلافَه ، ونُقِل إلىٰ سرير الجنة عن سرير الخلافه ؛ وخَلا العصْرُ من إمام يُمْسك ما بقىَ من نَهارِه ، وخليفة يُغالب

Marfat.com

مُرْبَدّ الليل بأنْواره ، ووارثِ بنى بمثله ومثلِ أبيه ٱستغنىٰ الوجُود بعد ابن عمه خاتم الأنبياء صلّى الله عليه وسلم عن نبىٍّ مقتَفٍ علىٰ آثارِه ؛ ونَسِىَ ولم يَعْهَدْ فلم يبقَ إذ لم يُوجَد النصُّ إلّا الإجماع ، وعليه كانت الخلافةُ بعدَ رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا نِزَاع ، ٱقتضتِ المصلحةُ الجامعةُ عَقْدَ مجلسٍ كلُّ طَرْف به معْقُود ، وعَقْدَ بيعةٍ عليها اللهُ والملائكةُ شهُود ، وجُمِع الناسُ له ﴿ ذٰلِكَ يَوْمٌ مَجْمُوع له الناسُ وذٰلِك يومٌ مَشْهُود ﴾ . فحضَر من لم يُعْبَأ بعده بمن تخلّف ، ولم يُرْبَأ[1] معه وقد مدّ يدَه طائعا بمن مَدَّها وقد تكلّف ، وٱجتمعُوا علىٰ رأْيٍ واحدٍ وٱستخارُوا الله تعالىٰ فيه فخَار ، وناهِيكَ بذٰلك من مُخْتار ؛ وأُخِذَتْ يمينٌ تُمَدُّ إليها الأَيْمان ، ويُشَدّ بها الإيمان ؛ وتعطىٰ عليها المَوَاثِيق ، وتُعرَض أمانتُها علىٰ كلِّ فريق ؛ حتّى تقلّد كلُّ من حضر فى عُنُقه هذه الأمانَهْ ، وحطّ يدَه علىٰ المصحف الكريم وحَلَفَ بالله العظيم وأتمّ أيمانَه ؛ ولم يَقْطَع ولم يستثْن ولم يتردّد ؛ ومن قَطَع من غير قصدٍ أعاد وجَدّد ؛ وقد نَوَى [illegible] حلف أنّ النيةَ فى يمينه نيّةُ من عُقِدت هذه البيعةُ له ونيةُ من حَلَف له ، وتذمّم بالوفَاء فى ذمّته وتكفّله ؛ علىٰ عادةِ أيمان البيعة بشُروطها وأحكامِها المردّده ، وأقسامِها المؤكّده ؛ بأن يبذُل لهذا الإمام المفترضة طاعتُه الطاعه ؛ ولا يُفارقَ الجمهورَ ولا يُظْهِرَ عن الجماعة ٱنْجِماعَه ؛ وغير ذٰلك مما تضمّنته نُسَخ الأيمان المكتتبُ فيها أسماءُ من حلف عليها مما هو مكتوبٌ بخُطوط من يكتُب منهم ، وخطوط العُدُول الثّقات عمّن لم يكْتُبْ وأذنوا لمن يكتب عنهم ؛ حسَبَ مايشهَدُ به بعضُهم علىٰ بعض ، ويتصادقُ عليه أهلُ السماء والأرض ؛ بيعةٌ تمّ بمشيئة الله تمامُها ، وعَمّ بالصَّوْب الغَدَق غَمَامُها ؛ ﴿ وقالوا الحمدُ لِلهِ الذى أذْهَبَ عنّا الحَزَن ﴾ . ووهبَ لنا الحسَن ؛ ثم الحمدُ لله الكافى عبْدَه ، الوافِى وَعْدَه ، المُوافى لمن يُضاعِفُ علىٰ كل

(١) أى لم يبال به ولم يكترث . انظر اللسان والقاموس .

Marfat.com

مَوْهِبة حَمْدَه؛ ثم الحمدُ لله على نِعمٍ يرغَبُ أميرُ المؤمنين فى ٱزْدِيادها، ويرهَبُ إلّا أن يقاتِلَ أعداءَ الله بأمدادها؛ ويرأَبُ بها ما آثر فيما أثر ممـاليكه (؟) ما بانَ من مُباينةِ أضـــدادِها.

نحمدُه والحمد لله، ثم الحمدُ لله كلمةٌ لا نَمَلُّ من تَرْدادها، ولا نَبْخَل بمـا يُفوّق السِّهامَ من سَدَادها، ولا نَظلُّ إلّا على ما يوجب كثرةَ أعْدادِها، وتيسير إقرار على أورادِها؛ ونشهدُ أنْ لا إله إلا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً يتقايسُ دَمُ الشهداء ومَدُّ مِدادها، ويتنافَسُ طُرَرُ الشَّباب وغُرَرُ السَّحاب على ٱستمدادها؛ ويتحانَسُ رُقومُها المُدَبَّجة وما تلبَسه الدولةُ العباسيَّة من شِعَارها، والليالى من دِثَارِها، والأعداءُ من حِدادها؛ ونشهدُ أنَّ سيدنا محمدا عبدُه ورسولُه صلّى الله عليه وسلم وعلى جماعةِ آلِهِ مَنْ سَفَل من أبنائها ومن سَلَف من أجدادِها؛ ورضى اللهُ عن الصحابة أجمعين، والتابعين لهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

وبعـدُ، فإنّ أمير المؤمنين لِمَـا أكْسبه الله تعالى من ميراث النُّبوة ما كان لجَدّه، ووَهَبه من الملك السُّلَيْمانىّ عن أبيه ما لا ينْبغى لأحدٍ من بعده، وعَلَّمه مَنْطِقَ الطير بما تتحمَّلُه حمائمُ البطائق من بَدائع البيـان، وسَخَّر له من البريد على مُتُون الخيـل ما سَخَّر من الرِّيح لسليمان، وآتاه من خاتم الأنبياء ما أمدّه به أبوه سـليمان وتَصَرَّف، وأعطاه من الفَخار ما أطاعه به كلُّ مخلوق ولم يتخلَّف، وجعل له من لِبَاس بنى العَبَّاس ما يقضى له سوادُه بسُؤْدُد الأجداد، وينفُضُ على كَحَل الهُدْب ما فَضَل عن سُوَيْداء القلب وسَوَاد البصر من السَّواد، ويَمُدُّ ظلَّه على الأرض فكلُّ مَكانٍ حَلَّه دارُ مُلْك وكلُّ مدينـةٍ بَغْداد، وهو فى لَيْـله السَّجَّاد، وفى نهـاره العَسْكرىُّ وفى كرمه جَعْفَرٌ الجَوَاد، يُديم الٱبتهالَ إلى الله تعالى فى توفيقه، والٱبتهاجَ بما يُغِصُّ كلَّ عدُوٍّ بريقه؛ ويَبْدَأ يومَ هذه المُبايعة بما هو الأهمُّ من مَصَالح الإسلام، وصالح الأعمال ممـا يتحلّى

Marfat.com

به الإمام؛ ويُقدِّمُ التقوىٰ أمامَه، ويقْرُن عليها أحكامَه؛ ويتَّبع الشرعَ الشريفَ ويَقف عنده ويُوقِفُ الناس، ومَنْ لايحْمِلُ أمرَه طائعًا علىٰ العين حملَهُ بالسَّيْف غَصْبا علىٰ الرَّاس؛ ويعجِّلُ أميرُ المؤمنين بما يَشْفِي به النُّفوس، ويُزِيل به كَيْدَ الشيطان إنه يَئُوس، ويأخُذُ بقلوب الرَّعايا وهو غنيٌّ عن هذا ولٰكِنْ يَسُوس؛ وأميرُ المؤمنين يُشْهِد الله وخليقَتَه عليه أنه أقرَّ كلَّ ٱمْرِئٍ من وُلاة الأمور الإسلاميَّة علىٰ حاله، وٱستمَرّ به فى مَقِيله تحتَ كَنَف ظِلَاله؛ علىٰ ٱختِلاف طبَقَات وُلَاة الأمور، وتفرُّقِهم فى الممالك والثُّغُور؛ برًّا وبَحْرا، سَهْلا ووَعْرا، وشَرْقا وغَرْبا، وبُعْدا وقُرْبا؛ وكُلَّ جليلٍ وحَقِير، وقَليلٍ وكثِير؛ وصَغِير وكبِير، ومَلِك ومملُوكٍ وأمير، وجُنْدىٍّ يَبْرُق له سيْفٌ شَهِير، ورُمْحٌ طَرِير؛ ومَنْ معَ هٰؤلاء من وُزَراءَ وقضاةٍ وكُتَّاب، ومَنْ له يدٌ تبقىٰ فى إنشاءٍ وتحقيقِ حِساب؛ ومَنْ يتحدّثُ فى بَرِيد وخَرَاج، ومن يُحتاجُ إليه ومن لا يُحْتاج؛ ومَنْ فى الدُّروس والمَدَارس والرُّبُط والزَّوَايا والخَوَانق، ومَنْ له أعظَمُ التعلُّقات وأدْنىٰ العلائق؛ وسائرَ أربابِ المراتِب، وأصْحابِ الرَّواتب؛ ومَنْ له فى مال الله رِزْقٌ مقْسوم، وحقٌّ مجهولٌ أو معْلُوم؛ وٱستِمْرارَ كلِّ أمْرٍ علىٰ ماهو عليه، حتّى يستخيرَ اللهَ ويتبيَّنَ له مابين يَدَيْه؛ فما زاد تأهيلُه، زاد تفضيلُه؛ وإلَّا فأميرُ المؤمنين لايُرِيد سِوىٰ وجْهِ الله، ولا يُحابِي أحدًا فى دِين، ولا يُحامى [عن] أحد فى حقّ؛ فإن المُحاماةَ فى الحقِّ مداجاةٌ علىٰ المسلمين، وكلُّ ما هو مستمِرٌّ إلىٰ الآنَ، مستقِرٌّ علىٰ حُكْم الله مما فَهَّمه الله له وفَهَّمه سليمان لا يغيرُ أميرُ المؤمنين فى ذٰلك ولا فى بعضه، معتبر مستمرٌّ بما شكَرَ اللهَ علىٰ نعمه وهكذا يُجازىٰ من شَكَر، ولا يكدِّر علىٰ أحدٍ موْرِدا نَزَّه اللهُ به نِعمَه الصافيةَ عن الكَدَر؛ ولا يتأوَّلُ فى ذٰلك متأوِّلٌ ولا من فَجَر النعمةَ أو كَفَر، ولا يتعلَّل متعلِّل فإنَّ أمير المؤمنين يعُوذُ بالله ويُعيذ أيَّامه من الغيرَ؛ وأمَرَ أميرُ المؤمنين ـ علىٰ اللهُ أمره ـ

Marfat.com

أن يُعْلِنَ الخطبـاءُ بذكرِه وذكرِ سـلطان زمانه علىٰ المَنَـابرِ فى الآفاق، وأن تُضْرَبَ باسمهما النُّقُودُ المتعامَلُ بها علىٰ الإطْلاق ؛ ويُبْتَهج بالدعاء لهما عطْف الليل والنهار، ويُصَرَّحَ منه بمـا يُشْرق به وجهُ الدِّرْهم والدِّينار؛ وتُباهِى به المنابرُ ودورُ الضرب : هاتيك تَرفَعُ اسمَهما علىٰ أسرَّة مُهُودها، وهذه علىٰ أساريرِ نُقُودها؛ وهذه تقامُ بسببها الصَّلاة، وتلك تُدامُ بها الصَّلات ؛ وكِلَاهما تُستمالُ به القلُوب، ولا يُلَام علىٰ ماتَعِيه الآذانُ وتُوعِيه الجُيُوب ؛ وما منهما إلَّا من تُحْدِق بجِواره الأحْداق، وتميلُ إليه الأعناق ؛ وتُبْلِغ به المقاصد، ويقوىٰ بهما المُعاضِد ؛ وكلاهمـا أمرُه مطاعٌ، من غير نزاع ؛ وإذا لمعَتْ أزِمَّةُ الخُطَب طار للذَّهَب شُعَاع ؛ ولولاهمـا ما اجتمع جمعٌ ولا انْضَمّ ؛ ولا عرفَ الأنَامُ بمنْ تأتَمّ ؛ فالخُطَب والذهبُ معناهمـا واحد، وبهما يذكُر اللهَ قُيَّامُ(١) المساجد ؛ ولَوْلا الأعمال، ما بُذِلت الأمْوال، ولوْلا الأموال، ماوُلِّيت الأعمال ؛ ولأجْل ما بينهما من هذه النِّسبه، قيل إنَّ الملِكَ له السِّكَّة والخُطْبه ؛ وقد أسمع أميرُ المؤمنين فى هذا الجمع المشْهُود مايتناقَلُه كلُّ خطِيب ، ويتداوَلُه كلُّ بعيد وقريب ؛ وإنَّ الله أمر بأوامر ونهىٰ عن نَواهٍ وهو رقِيب ؛ وتستفْزِعُ الأولياءُ لهـا السَّجايا، وتتضَرَّعُ الخطباءُ فيها بنُعوت الوَصَايا ؛ وتكَمِّلُ بها المَزَايا، ويتكلَّم بها الواعظُ ويُخْرِج من المشايخ الخَبَايا من الزَّوايا ؛ وتَسْمُرُ بها السُّمَّار ويتمّ الحادِى والمَلَّاح، ويُروق شَجْرُها فى الليل المُقْمِر ويُرَقِّمُ علىٰ جَنْب الصَّباح ؛ وتُعَطِّر بها مكةُ بطْحاءَها وتحيا بحديثها قُباه ، ويلقِّنُها كلُّ أبٍ فَهِم ابنه ويسأل كلُّ ابنٍ أن يُجِيب أباه ؛ وهو لكم أيُّها الناسُ من أمير المؤمنين رُشْـد وعليكم بَيِّنه ، وإليكم مادعاكُمْ به إلىٰ سبيل ربِّه من الحِكْمة والمَوْعِظة الحَسَنه ؛ ولأمير المؤمنين عليكم الطاعةُ ولولا قيامُ الرَّعايا بها ما قَبِل اللهُ أعمالها ، ولا أمسَكَ بها البحر ودحا الأرضَ وأرسىٰ جبالَهَا ؛ ولا انتقَى

(١) كذا ضبط فى بعض النسخ ولعل الصواب قيّام ، أو قوّام . تأمل .

Marfat.com

الآراءُ على من يستحقّ وجاءتْ إليه الخلافةُ تجُرّ أذيالَها ، وأخذها دُونَ بنى أبيه ولم تكُنْ تصلُح إلّا له ولم يكُنْ يصلُح إلّا لها ؛ وقد كفاكم أميرُ المؤمنين السُّؤال بما فتَح لكم من أبواب الأرْزاق ، وأسباب الإرْتفاق ؛ وأحسن لكم على وفاقكم وعلّمكم مكارِمَ الأخْلاق ، وأجراكم على عوائِدِكم ولم يُمْسِك خَشْيةَ الإمْلاق ؛ ولم يَبْقَ على أمير المؤمنين إلّا أن يسيرَ فيكم بكتاب الله وسنة رسوله صلّى الله عليه وسلم ، ويعمَلَ بما ينتفِعُ به مَنْ يجيء ـ أطال الله بقاء أمير المؤمنين ـ من بعده ، ويَزيدَ على كل من تقدّمَ ، ويُقيمَ فروضَ الحج والجهاد ، ويُلزِمَ الرعايا بعَدْله الشامل فى مِهاد ، وأمير المؤمنين يُقيمُ على عباده مَوْسِمَ الحجّ فى كل عام ، ويشمَلُ سُكّانَ الحرمين الشريفين وسَدَنةَ بيتِ الله الحرام ، ويُهوِّنُ السبيلَ على عادته ويرجو أن يعُودَ إلى حاله الأول فى سالف الأيّام ، ويتفقّدُ فى هذين المَسْجِدين بحُرِه الزاخر ويُرسِلُ إلى ثالثهما بيتِ المقدّس ساكِبَ الغمام ، ويقُومُ بقَوْمة قُبور الأنبياء ـ صلوات الله عليهم ـ أينَ كانُوا وأكرَمَهم فى الشام ، والجمعُ والجماعاتُ هى فيكم على قديم سُنّتها وقَويم سَنَنِها ، وستزيدُ فى أيّام أمير المؤمنين بمن انضمّ إليه ، وما يتسلّمُه من بلاد الكُفّار ويُسلِم على يديه .

وأمّا الجهاد ، فيكتفى بالجهاد القائم عن أمير المؤمنين بأمُوره ، المُقيمِ عنه جميعَ ماوراء سَريره ، وأمير المؤمنين قد وكّل إليه ـ خلّد الله سلطانه ـ عداةَ الأمم ، وفلّل سيفَه الراعب بوارِقَه ليَسُلّ واجبَه على الأعداء [ولا] سيّما غُلاتَه عليهم فى المسالم ، ويؤكّد أمير المؤمنين فى ارتجاع ما غلب عليه العدا ، وانتزاع إعلاقِ [ما] يتسلّمه من بلاد الإسلام فإنّه حقّه وإنْ طال عليه المَدى ، وقد فهم الوصيةَ بأنْ يُراعِىَ غزوَ العدوّ المخذول برًّا وبحرًا ، ولا يكُفّ عمّن يقتُلُه به منهم قتلًا وأسرًا ، ولا يفُكّ أغلالًا ولا إصرًا ، ولا يُنَمّلُ يرسل عليهم فى البحر غِرْبانًا ، وفى البرّ من الخيل عقبانًا ، يحمِل

فيهما كلَّ فارسٍ صَقْرا، ويحمى الممالكَ ممن يحوزُ أطرافها بإقدام، ويتخوّلُ أكنافها الأقْدام؛ وينظُر فى مصالح القلاع والحُصُون والثُّغور، وما يُحتاج إليه من آلات القتال، وما تُجْتاح به الأعداءُ ويعجِزُ عنه المُحْتال؛ وأمّهاتِ الممالك التى هى مَرابطُ البُنُود، ومَرابضُ الأُسُود، والجَناحُ الممدود؛ وينتقدُ أحوالَهم بالعَرْض، بما لهم من خَيْل تُعقد [بالعجاج] ما بين السماء والأرض؛ ومالهم من زَرَد مصُون، وبَيْض مَسْمها ذائبُ ذهب فكأنّها بيضٌ مكنون، وسيوف تَقرِضُ الجماجم، ورماح لكثرة طعنها من الدّماء خواضب، وسهام تُرسل للقنص وتفارقها فتعِنّ حنينَ مشارف، وتزجر القوس زجْرةَ مغاضب.

وقد نفّذ جملةً أرادَ أميرُ المؤمنين بها تطييبَ قلوبكم، وإطالةَ ذيل التخويل عليكم، وإدرارَ أموالكم وأعراضكم فى حمايته لا مُتباع الشرع المطهّر، وتمهيدُ الإحسان إليكم على مقتضاه ما يختفى منكم ويظهر.

وأما بقيّات الأمور فقد علِمتم بأنّ [من] عقلَه من أمير المؤمنين غِنًى عن شرح البيان والذكرى، وبقى من لا يشتغل بطلب مزيد كلام وفى ولاة الأمور وزراء الجمهور، ومن هو بسعادته محلّه، وبمداد أسنّته وسُمْر قنّه، وبأنّ من هو منكم معشر الرعايا فى ظلّه، وأنتم على تفاوت مقاديركم فى رأى أمير المؤمنين من عقولكم وأنتم وهم فيما منكم إلّا من [ثقة] أمير المؤمنين تحتوى فى الحق على خاصّته، ويتظاهر بما هو واجب فرضه بسعيه [الحق] فى عامّته، وكلّكم سواء فى الحق عند أمير المؤمنين وله عليكم أداءُ النصيحة وإطالةُ الطاعة بتمريره صحيحه؛ وقد دخل كلّ منكم فى كنف أمير المؤمنين ... عقد بيعته ... والتزم ... بيعته، فألزم نفسه ... وكفّته، وليستعمل كلّ منكم فى الوفاء ... اتّسع به علمًا ... وليثق أوثق بما ... عليه الله فسيُثيبه أجرًا عظيمًا.

Marfat.com

هذا قولُ أميرِ المؤمنين، وعلىٰ هذا عُهِد إليه وبه يَعْهَد، وماسوىٰ هذا فهو فُجُور لا يُشْهَد به عليه ولا يَشْهَد؛ وهو يعملُ فى ذلك كلِّه ما تُحْمَد عاقبتُه من الأعمال، ويحمِلُ منه ما يصْلُح به الحال والمآل؛ وأميرُ المؤمنين يستغفرُ اللهَ علىٰ كل حال، ويستعيذُ بالله من الإهْمال؛ ويَخْتِمُ أميرُ المؤمنين قولَه بما أمر اللهُ به من العدل والإحسان، ويحمَدُ الله وهو من الخلق «أحمَد» وقد آتاه اللهُ مُلْكَ سليمان؛ والله تعالىٰ يمتِّع أميرَ المؤمنين بما وَهَبه، ويملِّكه أقطارَ الأرض ويُورِثه بعد العُمُر الطويل عقِبَه؛ ولا يزال علىٰ أَسِرَّة العَلْياء قُعودُه، ولباسُ الخلافة به أبَّهة الجلالة كأنَّه مامات منصورُه ولا رَدَى مَهْدِيُّه ولا ذهب رَشِيدُه(١).

المقصد السادس

(فيما يكتب فى آخر البَيْعة)

إذا انتهىٰ إلىٰ آخر البَيْعة، شرع فى كتابة الخواتم علىٰ ما تقدَّم، فيكتُب: "إن شاء الله تعالىٰ" ثم يكتب التاريخ، ثم الذى يقتضيه قياسُ العُهُود أنه يكتب المستَنَد عن الخليفة فيكتب «بالإذن العالى المولَوِىّ الإمامىّ النبوىّ المتوكِّلىّ - مثلا - أعلاه الله تعالىٰ» وكأنَّ الخليفة الذى عُقدت له البيعةُ هو الذى أذِن فى كتابتها.

قلت: ولو أُسْقِط المستَنَدُ فى البيعات فلا حرج بخلاف العُهُود: لأنها صادرة عن مُولٍّ وهو العاهد، فحُسن إضافة المستَنَد إليه، بخلاف البيعة فإنها إنما تصدر عن أهل الحَلِّ والعَقْد كما تقدَّم. ويُكتفىٰ فى المستَنَد عنهم بكتابة خُطُوطهم فى آخر

---

(١) هذه المعاهدة من قلم القاضى الفاضل ليست لابسة حلل بلاغته ولا متسربلة جلابيب فصاحته فهى تجربة لم تنقح ومسودّة لم تصحح كما أشار إليه ابن ناظر الجيوش فليتنبه.

Marfat.com

البيعة كما سيأتى ؛ ثم بعـد كتابة المسنَنَد ـ إن كُتِب ـ تُكتَب الحمدلةُ والصلاةُ على النبىّ صلّى الله عليه وسلم والحَسْبلة ، على ما تقـدّم فى الكلام على الفَوَاتح والخَوَاتم فى مقدّمة الكتاب .

ثم يكْتُب مَنْ بايع من أهل الحلّ والعقْد والشهود على البَيْعة .

فأما مَنْ تَوَلّى عقْـدَ البيعة من أهل الحلّ والعقْد فيكتب : « بايعْته على ذلك ، وكتب فلانُ بنُ فلان » ويدعو فى خلال ذلك قبل اسمه بمـا يناسب : مثل أن يقال « بايعْتُـه على ذلك قدّس الله خلافَتَه » أو « زاد الله فى شَرَفه » أو « زاد الله فى اعْتِلائه » وما أشبه ذلك .

وأما الشهود على البَيْعة فالواجب أن يكتُب كلٌّ منهـم : « حضَرْتُ جَرَيانَ عقد البَيْعة المذكورة ، وكتب فلانُ بنُ فلان » كما يكتب الشاهد بجَرَيان عقْـد النكاح ونحوه ، ولا بأس أن يدعُو فى رسم شهادته قبل كتابة اسمه بما يناسب : مثل « قَرَنَها الله تعالى باليُمْن أو بالسعادة » أو « عرّف الله المسلمين بركَتَها » وما أشبه ذلك .

المقصـــد السابع

(فى قَطْع الورق الذى تُكتب فيه البيعةُ ، والقلم الذى تُكتَب به ، وكيفيّـة كتابتها ، وصورة وضْـعها)

واعلم أنّ البَيْعات لم تكن متداولة الاستعمال لقلّة وُقُوعها ، فلم يكن لها قَطْع ورق ، ولا تصاريف متعارَف فيتبع ، ولكنه يُؤْخَذ فيها بالقياس وعموم الألفاظ .

فأمّا قطع ورقها فقد تقدّم فى الكلام على مقادير قَطْع الورق نَقْلا عن محمد بن عمر المدائنىّ فى كتاب "القلم والدواة" أنّ قطع البغدادىّ الكامل للخلفاء والملوك . ومقتضى

ذلك أنّ البيعات تُكتَب فيه ، وهو قياسُ ماذكره الفَتح الشهابىّ بنُ فضل الله فى "التعريف" من أنّ للعهود قطْعَ البغدادىّ الكامل على ماسيأتى ذكره .

قلت : لكن سياتى فى الكلام على عُهود الخلفاء أنها الآنَ قد صارت تُكتَبُ فى قطع الشامى الكامل ، وبينَهما فى العَرْض والطُّول بَوْن كبير على ما تقدّم بيانُه فى الكلام على قَطْع الورق ؛ وحينئذٍ فينبَغى أن تكونَ كتابةُ البَيْعات فى قَطْع الشامى مناسبةً لما تُكتَبُ فيه عهودُ الخلفاء الآنَ .

وأمّا القلم الذى يُكتب به فبحَسَب الورق الذى يُكتَب فيه : فإن كُتبت البيعةُ فى قطع البَغْدادىّ، كانت الكتابةُ بقلَم مختصَر الطُّومار إذْ هو المناسبُ له ؛ وإن كُتِبتْ فى قطع الشامىّ، كانت الكتابةُ بقلَم الثلُث الثقيل إذ هو المناسبُ له .

وأما كيفيّة الكتابة وصورةُ وضعها، فقياسُ ماهو متداوَل فى كتابة العُهود وغيرها، أنه يبتدأُ بكتابة الطُّرّة فى أول الدَّرْج بالقلم الذى تُكتَب به البيعةُ سُطورا متلاصقةً لا خُلوَّ بينها ، ممتدّةً فى عَرْض الدَّرْج من أوّله إلى آخره من غير هامش . ثم إن كانت الكتابة فى قطع البغدادىّ الكامل ، جرى فيه على القاعدة المتداوَلة فى عُهود الملوك عن الخلفاء على ماسيأتى ذكره ؛ ويترُكُ بعد الوصل الذى فيه الطُّرّةُ ستة أوصال بياضًا من غير كتابة : لتصير بوصل الطرّة سبعةَ أوصال ؛ ثم يكتُب البسملة فى أول الوصل الثامن بحيث تكون أعالى ألِفاته تكاد تلحقُ الوصل الذى فيه الطرّة بهامش عريض عن يمينه قدرَ أربعة أصابعَ أو خمسة مطلقةً ؛ ثم يكتب تحت البسملة سطرا من أوّل البيعة ملاصقًا لها ؛ ثم يخلّى مكانَ بيت العلامة قدرَ شبر جريا على قاعدة العُهود وإن لم تكن علامةٌ تُكتب ، كما يخلّى بيتُ العلامة فى بعض المكاتبات ولا يكتَبُ فيه شىء ؛ ثم يكتب السطر الثانى تحت بيت العلامة على

Marfat.com

سَمْت السـطر الذى تحتَ البسملة فى بقيَّـة الوصل الذى فيـه البسملةُ؛ ويحْرِص أن تكون نهايةُ السجعة الأُولىٰ فى أثناء السطر الأوّل أو الثانى ؛ ثم يسترسل فى كتابة بقيَّـة البيعة ويجعل بين كل سطرين قدْرَ رُبُع ذراع بذراع القُماش كما سيأتى فى العهود ؛ ويستصْحِب ذٰلك إلىٰ آخر البيعـةِ ، فإذا انتهىٰ إلىٰ آخرها كتب "إن شاء الله تعالىٰ" ثم التاريخ، ثم المستند ، ثم الحَمْدلةَ والصلاةَ علىٰ النبىّ صلى الله عليه وسلم ، والحَسْبلةَ ، علىٰ ما تقدّم بيانه فى الفواتح والخواتم فى مقـدّمة الكتاب ؛ ثم يكتُبُ من بايعَ من أهل الحَلِّ والعقد خُطوطَهم ، ثم الشهودُ علىٰ البيعة بعدهم .

وإن كانت الكتابة فى القطع الشامىّ ، فينبغى أن ينقُصَ عددُ أوصـال البياض الذى بين الطرّة والبسملة وصلين فتكون خمسة ؛ وينقص الهامش فيكون قدْرَ ثلاثة أصابع علىٰ ما يقتضيه قانونُ الكتابة .

وهذه صورة وضعه فى الورق ممثّلا لهـا بالطرّةِ التى أنشأتُها لذٰلك ، والبيعة الثانية من البيعتين اللتين أنشأتُهما

بياض بأعلىٰ الدرج بقـــدر إصـــبع

الطرة

هذه بَيْعةٌ ميمُونه ، باليُمْن مبتَدَاة بالسـعد مَقْرونه ؛ لمولانا السـيدِ الجليل الإمام النبوىّ المتوكِّل علىٰ الله أبى عبـدِ الله محمدٍ أمير المؤمنين ، ابن الإمام المعتضِـدِ بالله أبى الفتح أبى بَكْر العبَّاسىّ : زاد اللهُ تعالىٰ شرفَه علُوّا ، وفخاره سُمُوّا . قام بعَـقْدها السلطانُ السيدُ الأعظم ، والشاهنشاه المعظَّم ، الملكُ الظاهر أبو سعيد برقُوق ، خلَّد الله تعالىٰ سـلطانَه ، ونصر جُيُوشَه وأعوانه ؛ بمجمَعٍ من أهـل الحلِّ والعَقْد ، والاعتبار والنقد : من القُضَاة والعلماء والأمراء ، ووجوه الناس والوزراء والصُّلَحاء والنُّصَحاء ؛ وإمضائها علىٰ السَّداد ، والنُّجْح والرشاد .

ابتداء العرض

انتهاء العرض

علىٰ ما شرح فيه

بياض ستة أوصال

بسم الله الرحمن الرحيم

هامش الحمدُ لله الذى جعلَ بيتَ الخلافة مَثَابةً للناس وأمْنا وأقام

بيت العلامة

تقدير شبر

سُورَ الإمامة وِقَايةً للأنام وحِصْنا ؛ وشدّ منها بالعِصَابة

تقدير ربع ذراع

القُرشيَّة أزْرا وشاد منها بالعُصْبة العبَّاسيّة رُكْنا . وأغاث

تقدير ربع ذراع

الخلقَ بإمامِ هُدًى حَسُن سِيرةً وصَفَا سريرةً فراقَ صورةً ورقَّ معنى .

ثم يأتى على الكلام إلى آخر البيعة على هذا النَّمط إلى أن ينتهى إلى

قوله : والله تعالى يجعَلُ آنتقالهم من أدْنى إلى أعلى ومن يُسْرى إلى يمنى ،

ويحقِّق لهم بمن آستخلَفَه عليهم وعْدَه الصادقَ بقوله تعالى : ﴿ وعَدَ اللهُ

Marfat.com

هامش الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾ .

إن شاء الله تعالى

كتب في الثاني من جمادى الأولى مثلا

سنة إحدى وتسعين وسبعمائة

بالإذن العالي المولوي الإمامي النبوي المتوكلي مثلا

أعـــلاه الله تعالى

الحمدُ لله وحده ، وصلواتُه على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه

حسبُنا اللهُ ونعم الوكيل

بايعته على ذلك	بايعته على ذلك	بايعته على ذلك
قدس الله تعالى خلافته	زاد الله تعالى في شرفه	زاد الله تعالى في اعتلائه
وكتب	وكتب	وكتب
فلان بن فلان	فلان بن فلان	فلان بن فلان

صورة خط المبايعين للخليفة من أهل الحل والعقد

Marfat.com

صورة خط الشهود على البيعة

حضرت	حضرت	حضرت
جَرَيان عقد	جَرَيان عقد	جَرَيان عقد
البيعةِ المذكورة	البيعةِ المذكورة	البيعةِ المذكورة
قرَنَهـا الله تعـالىٰ	قـرَنَهَا الله تعـالىٰ	عَرَّف اللهُ المسلمين
باليُمْن والبركة	بالسَّـداد	بركتَهـا
وكتب	وكتب	وكتب
فلان بن فلان	فلان بن فلان	فلان بن فلان

النـــوع الثـانى

(من البَيْعات ، بيعاتُ المـلوك)

وٱعلم أنَّ المقرّ الشِّهابىّ بنَ فضل الله قد ذكر فى "التعريف" : أنَّ مَنْ قام من الملوك بغير عهد ممن قَبْـله لم تجر العادةُ بأن تُكتَب لهم مبايعةٌ ؛ وكأنَّه يريد ٱصطلاحَ بلاد المَشْرِقِ والديار المِصْرية ؛ أما بلادُ المغرب فقد جرتْ عادة مصطَلَحهم بكتابة البَيْعات لملُوكهم ، وذٰلك أنه ليس عندهم خليفةٌ يَدِينون له ، يتقلَّدون المُلْكَ بالعـهد منه . بل جُلُّهم أو كلُّهم يدَّعى الخلافةَ فهم يكتُبون البيعاتِ لهذا المعنىٰ .

وهذه نسخةُ بيعةٍ من هـذا النوع ، كُتِب بها للسـلطان أبى عبد الله محمد بن السلطان أبى الحَجَّاج بن نَصْر بن الأحمر الأنصارىّ ، صاحبِ حمراء غَرْناطةَ من الأندَلُس ، مفتتحةٌ بخُطبة علىٰ قاعدتهم فى بَيْعات الخلفاء علىٰ ماتقدّم ذكره ؛ وربما تكرَّر الحمدُ فيها دلالةً علىٰ عِظَم النعمة . من إنشاء الوزير أبى عبدالله محمدِ بنِ الخطيب صاحب ديوان إنشائه ، علىٰ مارأيتُه فى ديوان ترسُّله ، وهى :

الحمدُ للهِ الذى جلَّ شانا، وعَزَّ سُلطانا ؛ وأقام علىٰ رُبُوبِيَّته الواجبةِ فى كلِّ شىء خَلَقه بُرهانا، الواجبِ الوجودِ ضرورةً إذ كان وُجودُ ماسِـواه إمْكانا؛ الحىِّ القَيُّومِ حياةً أبديَّةً سَرْمدِيَّةً منزَّهة عن الابتداء والانتهاء [فلا تَعْرِف وَقْتا ولا تستَدْعِى زمَانا؛ العلـيمِ الذى يعْـلَمَ السِّرَّ وأخفىٰ](١) فلا يعزُبُ عن علْمه مِثقـالُ ذَرَّة فى الأرض ولا فى السماء إلَّا أحاط بها علْمـا وأدركها عِيَانا؛ القـديرِ الذى ألْقتِ الموجُوداتُ كلُّها إلىٰ عَظَمتـه يَدَ الخُضُوع آستِسْلاما له وإذْعانا . المُريدِ الذى بمشـيئتِه تصريفُ الأقدار، وآختلافُ الليلِ والنَّهار ، فإن منَع منَع عَدْلا وإن مَنَح منَح إحسانا ؛ شَهِد تداوُلُ المُلوك بدَوَام مُلْكه ودلَّ حدُوثُ ماسـواه علىٰ قِدَمه ، وأثنتْ ألْسِـنَةُ الحىّ والجمـادِ علىٰ مَواهبه وقِسَـمه ، وفاضَ علىٰ عَوَالم السماء والأرض بحرُ جُوده العميم النَّوال من قَبْل السؤال وكَرمه ، وإنْ مِنْ شَىْء إلا يُسَبِّح بحمده ويُثْنِى علىٰ نِعَمه سرا وإعلانا ، فهو اللهُ الذى لاإلٰهَ إلَّا هو ليس فى الوجود إلَّا فعلُه ، ألَا لَهُ الخَلْقُ والأمْرُ وإليه يَرْجِعُ الأمْرُ كُلُّه، وَسِعَ الأكوانَ علىٰ تباينها فَضْلُه ، وقدَّر المواهِبَ والمقاسِمَ عدلُه ، مَنْعا ومَنْحا وزيادةً ونُقصانا .

والحمدُ لله الذى بيده الآختراعُ والإنشاء ، مالكِ الملك يُؤتِى المُلْكَ مَنْ يَشَاء ويَنْزِع الملك ممَّن يَشَاء، سبَقَ فى مكنُون غيبه القَضاء، وخَفِيتْ عن خلقه الأسبابُ وعَميتْ عليهم الأنباء، وعجزَتْ عقُولُهم أن تُدْرِك منها كُنْهًا أو تكْشف منها بَيَانا .

والحمدُ لله الذى رفَعَ قُبَّة السماء ما آتَّخَذ لها عِمَادا ، وجعل الأرضَ فِراشًا ومِهَادا، وخلق الجِبالَ الراسـيَةَ أوْتادا ؛ ورتَّب أوضاعَها أجنـاسا متفاضلة، وأنواعًا متباينةً مُتقابِلة : فحيوَانًا ونباتًا وجمادًا ؛ وأقام فيها علىٰ حكمةِ الإبداع دلائلَ باهِرةَ الشُّعَاع

(١) الزيادة من ريحانة الكتاب لآبن الخطيب (ص ٤٨ ج ١) .

Marfat.com

وأشهادا ، وجعل الليـلَ والنهـارَ خِلْفَةً والشمسَ والقَمر حُسْبانا . وقدّر السياسـةَ سـياجا لعالَمِ الإنسان يضُمُّ منـه ما آنتَشَر ، ويَطْوِى من تعدِّيه ما نشر ، ويحمِلُه على الآداب التى تُرشِـدُه إذا ضَـلَّ وتُقِيمه إذا عَثَر ، وتجـبُرُه على أن يلتزم السُّنَنَ ويتَّبع الأَثَر ، لُطْفا منه شَمِلَ البَشَر وحَنَانا .

ولمـا عَمَر الأرضَ بهذا الجنس الذى فضَّله وشَرَّفه ، ووهَبَ له العقْلَ الذى تفكَّر به فى حكمته حتّى عَرَفه ، وبمـا يجبُ لرُبُوبيّته الواجبـةِ وصَفَه ، جعلهم درجاتٍ بعضُها فوقَ بعض فَقْرا وغِنًى وطاعةً وعِصْـيانا . وآختار منهم سَـفَرةَ الوحْى وحملةَ الآيات ، وأرسـل فيهم الرُّسُل بالمعْجزات ، وعَرَّفهم بمـا كَلَّفهم من الأعمـال المفْتَرَضات : ﴿لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَـا عَمِلُوا وَيَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ . يومَ آعتِبار الأعمالِ وآعتِبار الحَسَنات ، ونَصَب العدْلَ والمُجازاةَ فى يوم العَرْض عليه قسْطاسًا ومِيزَانا .

نَحمـدُه وله الحمـدُ فى الأُولى والآخِره ، ونُثْنِى على مَواهبه الجَمَّـة وآلائِه الوافِره ، ونُمَدِّد يَدَ الضَّراعة ، فى مَوْقِف الرَّجاء والطَّمَاعة ، إلى المَزيد من مِنَنه الهامِيَة الهامِرَهْ ، ونسألُه دَوامَ لُطْفِه الخـافِيةِ وعِصَمِه الظاهره ، وآتِّصالَ نِعمِه التى لا نَزالُ نتعرَّفُها مَثْنَى ووُحْدانَا . ونشهدُ أنَّه اللهُ الذى لا إلٰهَ إلَّا هو وحدَه لا شريكَ له . [شهـادَةً نجِدُها فى المَعاد عُدَّةً واقيه ، ووسيلةً للأعمـال الصالحة إليه راقِيَـه ، وذخيرةً صالحةً باقيه ، ونُورا يَسعى بين أيْدينا ويكونُ على الرضا والقبول فينا عُنْوانا[1]] . ونشهد أنَّ سـيدنا ومولانا محمّدًا النبىَّ العربىَّ القرشىَّ الهـاشمىّ عبـدُه ورسوله الذى آصـطفاه وآختاره ، ورَفَع بين النبيِّين والمرسلين مِقْـدارَه ، وطهَّر قلبه وقَدَّس أسْرارَه ، وبلَّغه

(١) الزيادة من ريحانة الكتاب ص ٤٩ .

Marfat.com

من رِضَـاه آختِيارَه ، وأعطاه لِواءَ الشفاعة يَقْفُو آدَمُ ومَنْ بعـده من الأنبياءِ الكِرام آثارَه ، وجعله أقْرَبَ الرُّسُل مكانَةً وأرفَعَهم مكانَا . رسولُ الرحمـه ، ونُورُ الظُّلْمه ، وإمامُ الرسُل الأئِمَّـه ، الذى جمع له بين مَزِيَّةَ السَّبْق ومزية التَّتِمَّه ، وجعل طاعته من العذَابِ المقِيم أمانَا . صاحبُ الشَّفاعة التى تؤَمَّل ، والوسـيلةِ التى إلىٰ الله بهـا يُتَوسَّل ، والدرجةِ التى لم يُؤْتَها الملَكُ المقرَّب ولا النبىُّ المُرْسَل ، والرتبةِ التى لم يُعْطِها اللهُ سواه إنسانَا . انتخَبَه من أشرفِ العَرَب أُمًّا وأبَا ، وأزكىٰ البرِيَّة طينـةً وأرفَعها نسَبَا ، وآبتعَثَه إلىٰ كافَّة الخلق عَجَمًا وعَرَبًا ، ومَلَأ بنُور دعوتِهِ البسيطةَ جنُوبا وشَمَالا ومَشْرِقا ومَغْرِبا ، وأنزل عليه كتابَهُ الذى آمنَتْ به الجِنُّ لَمَّا سمِعَتْه وقالوا ﴿ إنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ . تمامًا علىٰ الذى أحسَنَ وتفصيلًا لكلِّ شىء وتِبْيانا . فصدَعَ صلَّى الله عليه وسـلم بأمْرِ من آختار ذاتَهُ الطاهرةَ وآصـطَفَاها ، وأدَّى أمانَةَ الله ووَفَّاها ، ورأىٰ الخلائِقَ علىٰ شفىٰ المَتَالف فتلَافَاها ، وتَتَبَّع أدواءَ الضَّلال فشَفَاها ، ومَحَا مَعالِمَ الجهـل وعَفَّاها ، وشادَ للخلقِ فى الحقِّ بُنْيانا . مؤيَّدا بالمُعْجِزات التى حُجَجُها تُقْبَل وتُسَـلَّم : فمن جذْع لِفراقِه يتألَّم ، وجَمَـادٍ بِصدْق نُبُوَّتِه يتَكَلَّم ، وجيش شَكَا الظَّمَأَ ففَجَّر لدَيْه المَعِين منه بَنَـانا . وأىُّ مُعْجِزةٍ كـكتاب الله الذى لاتنقضِى عجائبُه ، فهو اليَمُّ والعُلومُ النافعةُ كلُّها مَذانِبُه ، وأُفُق الحق الذى تَهْدِى فى ظُلُمات البرِّ والبحر كواكِبُه ، والحُجَّةُ البالغةُ التى أصبحَتْ بين الحق والباطل فُرْقانا . فأَشْرقتِ الأرضُ بنُور ربِّها وآياته ، وتَمَّت كلمةُ الله صِدْقًا وعَدْلا لامُبَدِّلَ لكَلِماته ، وبلغ مُلْكُ أُمَّتـه مازُوى له من أقْطار المعمُور وجِهاتِه ، حتَّى عَمَر من أكناف البسـيطةِ ، وأرياف البِحار المحيطة ، وِهَادا وكُثْبانا . ونُقِلَتْ كنُوزُ كِسْرىٰ بعِزِّ دعوته الغالبـه ، وظَفِرتْ بفَلْج الحِصام أيْدى عزائِمِها المُطالِبه ، وأصـبح إيوانُ فارسَ مَجَرَّ رِمَاح العَرَب العاربه ، وقَذفَتْ جُنودَ قيصَرَ من ذوابِلِها بالشُّهُب الثاقِبه ، حتَّى فَرَّ عن مَدَرتِه الطيِّبة

Marfat.com

آئبا بالصَّفْقة الخائبه، وخلَصَتْ إلىٰ فُسْطاطِ مصر بكتائبها المُتعاقِبه، فلا تسمَعُ الآذانُ فى إقامتِهم إلَّا إقامةً وأذَانا . ولا دليلَ أظهَرُ من هـذا القُطْر الأندَلُسِىّ الغريبِ الذى خلَّصتْ إليه سُيوفُها أثْباجَ البِحار، علىٰ بُعْد المَرَاحل ونُزُوح الدِّيار، وتكاثُفِ العمَالات وٱختلافِ الأَمْصار، ومُنْقَطَع العِمَارة بأقصىٰ الشَّمال ومَحَطِّ السُّفَّار، طلعَتْ عليه كلمةُ الله طُلُوعَ النهار، وٱستوطنَتْه قبائلُ العرب الأحرار، وأرغَمتْ فيه أُنُوفَ الكُفَّار، ضِراباً فى سبيلِ اللهِ وطِعانا .

ولَمَّا ٱستقام الدِّين، وتَمَّ معالِمَ الإيمان الرسُولُ الأمِين، وظَهَر الحقُّ المُبِين، وراقَ من وَجْه المِلَّة الحنيفِيَّة السَّمْحةِ الجَبِين، وأخذ المَسَالكَ والمآخِذَ الإفصاحُ والتبيين، وتقرّرتِ المستَنَداتُ المعتَمَداتُ سُنَّةً وقرآنا، أشعره الوحْىُ بالرِّحْلة عن هذه الدار، والٱنتقالِ إلىٰ محلِّ الكرامة ودارِ القَرار، وخَيَّره المَلَكُ فاختار الرَّفيقَ الأعلىٰ مُوفَّقا إلىٰ كرم الٱختيار، [و]وجَدَ صَحْبُه رضى الله عنهم فى الٱستِخْلاف بعده والإيثارِ حُجَجا مُشْرِقةَ الأنوار، أطلَقَتْ بالحقِّ يدًا وأنطقَتْ بالصِّدْق لسانا . صلَّى الله عليه وعلىٰ آله وصَحابته، وأُسْرته الطاهرةِ وعِصَابته، وأنصارِه وأصهارِه وقَرَابتِه، الذين كانوا فى مُعاضَدَته إخْوانا، وعلىٰ إعْلاء إمْرة الحقِّ أَعْوانا . نُجومِ المِلَّة وأقمارِها، وغُيوثِها الهاميةِ وبِحَارِها، وسُيوفِ الله التى لاتنْبُو شِفَارُها، وأعلامِ الهدىٰ التى لاتَبْلىٰ آثارُها، ودَعائم الدِّين التى رَفَعَتْ منه علىٰ البِرِّ والتقوىٰ أركانا .

وحَيَّا اللهُ وجُوهَ حَىِّ الأنصار بالنعيم والنَّضْره، أُولِى البأْس عند الحَفِيظة والنَّصْر عند القُدْره، الراضُون أن يذهَبَ الناسُ بالشاةِ والبعيرِ ويذْهَبُوا برسولِ الله صلى الله عليه وسلم فنِعْمَتِ المَنْقبةُ والأُثْره، الحائزُون ببيعةِ الرِّضوان فضْلًا من الله ورضوانا . ووُزَراؤُه وظُهراؤُه فى كل أمر، وخالصتُه يومَ أُحُد وبَدْر، لم يزالوا صدْرا فى كلِّ

Marfat.com

قَلْب وقَلْبا فى كلّ صدر ، يَصْلَوْن دُونَه كلّ جمر، ويَفْدُونَه بنفوسهم فى كل سِرّ وجهر، ويعمَلُون فى إعلاء دينه بيضًا عِضَابًا وسُمْرا لِدَانا . صلاةً لا تزالُ سحائبُها ثَرّه ، وتحيةً دائمةً مستمِرّه ، ما لَهِجت الألسُنُ بثنائهم ، ورقَصَتِ المَفاخِرُ على عَلْيائهم ، وتُعُلِّمت المواهبُ من آلائهم ، وقَصُرت المحامدُ على مُسمَّياتهم وأَسْمائهم ، وكان حُبُّهم على الفَوْز بالجنة ضَمَانا .

ونسألك اللهم لهذا الأمْر النَّصْرِىّ الذى سَبَبُه بسببهم موْصُول ، وهم لفُرُوعه السامية أُصُول ، فيالَهَا من نُصُول خلَقَتها نُصُول ، أنجزَتْ وعْدَ النصر وهو ممْطُول ، وأحيت رُبُوعَ الإيمان وهى طُلُول ، نَصْرا عزيزًا وفَتْحا مبينا ، وتأْييدًا على أعدائك وتمكينا ، ومُلْكا يبقى فى الأعقاب وأعقاب الأعقاب وسُلطانا . وأعِنَّا اللهمّ على ما أوجبتَ له من مفروض الطاعه ، وتأدية الحقّ بجَهْد الاستطاعه ، وأعْصِمْنا بإيالته العادلة من الإضاعه ، وآحملْنا من مَرْضاته على سَنَنِ السُّنّة والجماعه ، وآجعلْها كافّةً بقيةً إلى قيام الساعه ﴿ وآعفُ عنّا وآغفِرْ لَنَا وآرْحَمْنا أنْتَ مَوْلانا ﴾ .

أما بعد ، فإنّ أشرفَ ما أفنَيْتَ به من تحميد الله وتمجيده ، والثناء الذى تتعطّرُ الأنْديةُ بتَرْديده ، فإنّ من الشعر الذى يَعْضُده الوجودُ ويؤيّده ، والمعلوم الذى هو كالشمس ضَلّ من ينكره أو يتشكّك فيه ، والدالّ بكلّ قُطْر تَرْويه رُواةُ الأنباء وتُسْنِده ، ماعليه هذا المُلْك النَّضِر من بهاء الفَصاحة المُنْتمى ، الذى يُصيبُ سَنا كلمة الحقّ إذا رمى ، ويَعُمّ العبادَ والبلادَ فيُثْمِر فيهما نَمى : من أَصالة الأعراق ، وكَرَم الأخْلاق ، والفضل الباهر الإشراق ، والجهاد الذى هو سَمَر الرَّكْب وحديث الرِّفاق ، وأنّ قَوْمه الملوكَ الكرام إن فُوخروا بسيّد ذكَرُوا سعدَ بن عُبادة ومجْدَه ، أو كُوثِروا بعدد غَلَبوا بالله وحْدَه ، أو آستُنْصروا فزَحْفُهم كلّ شدّه ، وآستظْهَروا بـ [عزمهم] الموْهُوب ،

(١) من ريحانة الكتاب .

Marfat.com

وصَبْرهم على الخطوب، بكلّ عَدَد وعُدّه ؛ دارُهم الثغرُ الأقصى ونِعمَتِ الدّار ، وشِعارُهم «لا غالِبَ إلّا اللهُ» ونِعْمَ الشِّعار ؛ زُهّادٌ إذا ذُكِر الدِّين ، أُسُودٌ إذا حَمِيت المَيَادين ؛ جبالٌ إذا زحَفَت الصُّفوف ، بُدُورٌ إذا أظلَمَتِ الزُّحُوف ؛ غيوثٌ إذا مُنِع المعرُوف ، أفرادٌ إذا ذُكِرت الأُلُوف ؛ إنْ بُوِيعوا فالملائكةُ وُفُود [وحملةُ العِلْم][1] وحملةُ السِّلاح شُهُود ؛ وإن وَلَدُوا فالسُّيوفُ تمائمُ والسُّروج مُهُود ، وإن أُصْحِرُوا للعدُوّ فالظِّلال بُنُود ، وجُنودُ السبع الطِّباقِ جُنُود ، وإن أظلم الليلُ أسهَرُوا جُفُونَهم فى حياطة المسلمين والجُفُونُ رُقُود .

وإنّ هذا القُطرَ الذى آنتهى سَيْلُ الفتح الأوّلِ إلى ناحيته ، وأُجِيلتْ قِداحُ الفوز بالدّعوة الحنيفيّة على الأقطار فأخذ الإسلامُ بناصِيَته ؛ كان من فَتْحه الأوّل ماقد عُلِم ، حَسَبَ ماسُطِّر ورُسِم ؛ وإنّ موسى بنَ نُصَير وفتَاه ، حَلّ من فُرْضة جَازه مَحَلّ موسى وفتَاه ؛ وحلّ الإسلامُ منه دارَ قَرار ، وخِطّةً خليقةً بارْتياد وآخْتيار ؛ وبلدًا لايُحصى خَيْره ، ولا يَفْضُلُه بشيءٍ من المزيّة ماعدا الحَرَمين غَيْرُه ؛ وآمتدّت الأيّامُ حتّى تأنّس العدُوّ لرَوْعته ، وخَفّ عليه ماكان من صَرْعته ؛ وقدَحَ فأورى ، وأعضل داؤُه وآستَشْرى ، وصارتِ الصُّغْرى التى كانت الكُبْرى ؛ فلولا أنّ الله عَمَدَ الدِّين منهم بالعُمْدة الوَثيقه ، حُماةِ الحقيقه ، وأئمةِ الخليقَهْ ، وسُلالةِ مفتَتِحى اليمامةِ ومفتَتِحى الحَديقه ، لأجهز النصل ، وآجتُثّ من الدِّين الفرْعُ والأصْل ؛ لكنّهم آنتَدبوا إلى إمساك الدِّين بها آبتِدابا ، ووصَلُوا للإسلام أسْبابًا ؛ وتناوَلَها منهم صَقْرُ قَبيلِ الخَزْرَجْ ، ذُوالحُسام المُضَرَّج ، والثناء المؤَرَّج ؛ أبو عبدِ الله الغالب بالله محمد آبن يوسف بن نصر أمير المسلمين ، المنتَدَب لإقامة سنّة سيد المرسلين ، قُدوةُ الملوك المجاهدين : نَضّر الله وجهه وتقبّل جِهاده ، وشكَر دِفاعَه عن حوزة الإسلام

(١) من ريحانة الكتّاب .

[وجِلَادَه ؛ فأقشَعتِ الظُّلمــه ، وتمـاسَكت الأُمّه ؛ وكفّ العــدُوّ وأقصَر ، ورأىٰ الإســلامُ بمَنِ آستَنْصر ، وآستَبْصَر فى الطاعة (١)] من آستَبْصَر ؛ وهبَّتْ بنصرِ الله العَزائم ، وكثُرتْ علىٰ العــدُوِ الهَــزائم ؛ وتوارَثُوا مُلْكَها ولَدًا عَنَ أب ، مســتنِدين إلىٰ عَدْل وبَذْل وبَسَالة وجَلَالة وحَسَب ؛ تتَّضِح فى أُفُق الجَلال نجومُ سِيَرِهم هاديةً للسائرين ، وتفرَق من سَطَواتهم فى الله أُسودُ العَرِين ؛ إلىٰ أن قام بالأمر وُسْطىٰ سِــلْكهم ، وبركةُ مُلْكهم ؛ الخليفــةُ الواجبُ الطاعة بالحق علىٰ الخَــلْق ، الشهيرُ الجــلالةِ والبَسَالة فى الغرْب والشَّرْق ، أميرُ المسلمين بواجِبِ الحق ؛ ساحبُ أذيال العَفَاف والطَّهاره ، السعيدُ الإيالة والإماره ، البعيدُ الغــارَه ؛ مَنْ ذُعِر العدوُّ لبَأْس حُسَامه ، وذُخِر الفتحُ الهنِيُّ لأيَّامه ؛ صدرُ الملوك المجاهدين ، وكبيرُ الخلفاءِ العادلين ، البعيدُ المَدىٰ فى حِمايةِ الدِّين ؛ السعيدُ الشهيد ، أبُو الوليد ، آبن المَوْلى الهمامِ الأوحد ، الرفيــع الممَجَّد ؛ الطاهرِ الظاهرِ الأعْلىٰ ، الرئيسِ الكبير الجليل المقــدّس الأرضىٰ ؛ « أبى سعيد » بن أبى الوليد ، بن نصر . فأحيا رحمه اللهُ معالِمَ الكِتَابِ والســنَّة ، وجلَّى بنُور عدْله غياهِبَ الدُّجُنَّه ؛ وأعزَّ الإسلامَ وحَمَاه ، ورمىٰ ثُغْرة الكُفْر فأصْماه ؛ قدّس الله رُوحَه الطيِّب ، وسقىٰ لحــدَه من الرحمــة الغَمَامَ الصيِّب ؛ وأورث المُلْكَ الجهادىَّ من ولده خيْرَ ملِك قُبِّلتْ منه كَفّ . وآســتدار به موكِبٌ للجهاد مُلْتفّ ؛ وشَمخ بخِدْمته أَنْف ، وسَمَا إلىٰ مشاهدته طَرْف ؛ وتأرَّج من ذكره عَرْف ، وجرىٰ إلىٰ بابه حَرْف ؛ مولانا الملِكَ الهُمام ، الخليفةَ الإمام ؛ من أشْرقَ بنُور إيَالته الإسلام ، وتشرَّفتْ بوجوده الليــالِى والأيَّام ؛ بَدْرُ المُلْك وشمْسُه ، وسِرُّ الزمان الذى قَصُر عن يومه أمْسُــه ؛ الذى آشتهر عدْلُه ، وبَهَر فضْلُه ، وظهرتْ عليه عِنــايةُ ربِّه ، وكان الخضوع له فى سَلْمه وحَرْبه ؛ مولانا أميرُ المسلمين ، وقُدوةُ الملوك المجاهدين والأئمّةِ

(١) الزيادة عن ريحانة الكتاب لأبى الخطيب وهى لازمة لاستقامة الكلام .

Marfat.com

العارفين ، السعيدُ ، الشهيدُ ، الطاهرُ ، الظاهِر ، الأوحدُ الهُمام ، الخليفة الإمام (أبو الحَجَّاج) رفعَ الله درجتَه فى أوليـائه ، وحَشَره مع الذين أنْعم عليهم من أنبيائِه وشُهَدائه ، فوضَحت المَسالِكُ وبانَتْ ، وأشرقتِ المعاهدُ وآزْدانتْ ، وشَمِل الصُّـنعُ الإلٰهىّ واللُّطف الخفىّ أقطارَ هـــذه الأمة حيث كانَتْ . ولمـا آختار اللهُ له ماعنده ، و بلَغَ الأمدَ الذى قدّره سبحانه لحياته وَحَدَّه ، وقَبَضه إليه مستغفِرا لذنبه ، مطمئنًّا فى الحـالة التى أقربُ ما يكون العبـدُ فيها من رَبِّه ، كانمـا تأهَّب للشهادةِ [فاختار] مكانَها و زمانَها ، وطهَّر بالصوم نَفْسه التى كَرَّم اللهُ شانها ، وطيَّب رَوْحها ورَيْحانَها ، فوقعت آراءُ أرباب الشُّورىٰ التى تِصـحُّ الإمامة باتِّفاقها ، وتنعقدُ بعَقْد مِيثاقِها : من أعلام العلم بقاعدة [مُلْكه] غَرْناطة حرسها اللهُ تعالىٰ التى غيْرُها لها تَبَع ، وحُمَاةِ الإسلام الذين فى آرائهم للدين والدنيا منْتفَع ، وخُلْصانِ الثِّقات ، ووُجُوه الطَّبَقات ، علىٰ مبايعة وارثِ مُلْكه بحقِّه ، الحائز فى مَيْدان الكمال و إحراز ماللإمامة من الشروط وانِحلَال خَصْـل سَبْقه ، كبـيرِ وَلَده ، وسابقِ أمَده ، ووارثِ مُلْكه ، ووُسْطىٰ سِلْكه ، وعِمَادِ فُسْطاطه ، وبَدْرِ الهالة من بِسَاطه ، مولانا قمرِ العَلْياء ، ودُرَّةِ الخُلَفاء ، وفَرْعِ الشجرة التى أصلُها ثابتٌ وفَرْعُها فى السماء ، الذى ظهرَتْ عليه مخايِلُ المُلْكِ ناشئا ووليدا ، وآستشْعرتِ الأقطارُ به وهو فى المَهْد أمانًا وتمهيدا ، وآستشرف الدِّينُ الحنيفُ فأَتلعَ جِيـدا ، وآستأنَفَ شبابًا جديدا ، ناصِرِ الحقِّ ، وغِياثِ الخلْق ، الذى تميَّز بالسكينة والوَقَار ، والحياءِ المُنْسدِل الأسْتار ، والبَسالةِ المرهُوبةِ الشِّفار ، والجُود المُنْسكب الأمطار ، والعـدلِ المُشْرِق الأنوار ، وجمَعَ الله فيه شُروطَ الإمامة والآختيار ، مولانا ، وعُمْدة ديننا ودُنْيانا ، السلطان الفاضل ، والإمام العادل ، والهمام الباسل ، الكريم الشمائل ، شمسِ الملك وبَدْرِه ، وعَيْنِ الزمانِ وصَدْرِه ، أميرِ المسلمين ، وقُرّة أعين المؤمنين ، أبُو عَبْد الله : وصـلَ الله أسبابَ سَـعْده ، كما حَلَّى أجيـادَ

Marfat.com

المنابر بالدُّعاء لمَجْده؛ وجعل جُنودَ السماء من جُنْده، ونَصَره بنَصْره العزيز فما النَّصرُ إلا مِن عِنْده؛ ورأَوْا أن قد ظَفِرتْ بالعُروة الوُثْقىٰ أيديهم، وأمِنَ فى ظلِّ الله رائحُهم وغادِيهم، ودلَّت علىٰ حُسْن الخواتم مَبَادِيهم؛ فتبادَرُوا وٱنثالُوا، وتبَخْتَرُوا فى ملابِس الأَمْن وٱختالُوا؛ وهَبُّوا إلىٰ بَيْعتِه تطيرُ بهم أجنِحةُ السُّرور، ويُعْلِن ٱنطلاقُ وُجُوهِهم بٱنْشِراح الصُّدور؛ وٱجتمع منهم طوائفُ الخاصَّة والجُمْهور: ما بين الشريف والمَشْروف، والرُّؤساءِ أُولى المَنْصِب المعْروف؛ وحَمَلةِ العلم وحملةِ السُّيوف، والأُمَناء ومَنْ لَدَيْهم من الأُلُوف، وسائرِ الكافَّة أُولِى البِدَار لمثْلِها والخُفُوف؛ فعقَدُوا له البيعةَ الوثيقةَ الأَسَاس، السعيدةَ بفضلِ اللهِ علىٰ الناس، البرىءَ عهْدُها من الآرتيابِ والآلْتِباس؛ الحائزةَ شُروطَ الكمال، الماحيةَ بنُور البيان ظُلَمَ الإشْكال؛ الضَّمِينةَ حُسن العُقْبىٰ ونُجْحَ المآل، علىٰ ما بُويِع عليه رسولُ الله صلَّى الله عليه وسلم ومَنْ له من الصَّحابة والآل؛ وعلىٰ السَّمْع والطاعه، ومُلازَمة السنَّة والجَمَاعه؛ فأيديهم فى السَّلْم والحَرْب رِدْءٌ لِيَدِهِ، وطاعتُهم إليه خالصةٌ فى يومِهِ وغَدِه، وأهواؤُهم متَّفِقة فى حالَىِ الشِّدَّة والرَّخاء، وعقُودهم محفوظةٌ علىٰ تداوُلِ السَّرَّاء والضَّرَّاء؛ أشهَدُوا عليها الله وكفىٰ باللهِ شهيدا، وأعطَوْا صَفَقات أيمانهم تثْبيتا للوفَاء بها وتأكيدا، وجعلوا منها فى أعناقهم ميثاقًا وثيقًا وعهدًا شديدا؛ والله عز وجل يقول: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾، ومن أصْدَقُ من اللهِ وَعْدا أو وَعِيدا. وهم قد بسَطُوا أيديَهم يستَنْزِلُون رحمةَ الله بالإخلاص والإنابه، وصرَفُوا وجُوهَهم إلىٰ من أمَرَهم بالدعاء ووعدَهم بالإجابَه؛ يسألونه خيْرَ ما يقضيه، والصبْرَ علىٰ ما يُرْضيه.

اللهمَّ بابَكَ عند تقلُّب الأحوالِ عَرَفْنا، ومن بحرِ نِعَمِك العميمةِ ٱغْترفْنا، وعفْوُك سَتَرَ من عُيُوبنا كلَّ ما ٱجترحْنا وٱقترفْنا؛ ومن فَضْلك أغنَيْتَنا، وبعينِك التى

Marfat.com

لاتتَامُ حرسْتَنا وحميْتَنا [فانصُرْ حَيَّنا وآرحم ميِّتنا][(١)] وأوْزِعْنا شُكْر ما أوليتنا، وآجعل لَنَا الخَيْرَ والخِيرَةَ فيما إليه هديْتَنا .

اللهُمَّ إنَّ قطرنا من مادَّة الإسلام بعيد ، وقد أحدق بنا بحرٌ زاخرٌ وعدوٌّ شديد ، وفينا أيِّم وضعيف وهَرِمٌ ووَلِيد [وأنتَ مولانا ونحنُ عبيد .

اللهم مَنْ بايَعْنا فى هذا العقد] فأسعِدْنا بمبايعتِه وطاعتِه، وكن له حيْثُ لا يكونُ لنفسه بعد آستنفادِ جُهْده فى التحفُّظ واستِطاعتِه، وكُفَّ عنه كَفَّ عدوّك وعدُوِّه كُلَّما هبَّت به رياح طَمَاعتِه ؛ يامَن يُفْرِده العبدُ بضراعتِه، ويعُوذُ بحِفْظه من إضاعتِه .

اللهمَّ أدَعَنَّا حقَّــه فإنا لانقوىٰ علىٰ ادائِه، وتولَّ عنَّــا شكر ماحَمِدناه من سِــيرته وسيرة آبائِه، وآحمِلْه من توفيقك علىٰ سَوَائِه .

اللهمَّ إنَّا إليه ناظرُون، وعن أمرِه صادِرُون، ولإنجاز وعدِك فى نصر من يَنْصُرك منتظِرُون ؛ فأعِنْه علىٰ ماقلَّدتَه، وأنجز لدينا علىٰ يدَيْه ماوعَدْته ؛ فمــا فَقَــد شيئا مَنْ وَجَدك، ولا خاب من قَصَدَك، ولا ضَلَّ من آعتَمَدك، آمين آمين يارَبَّ العالمين .

وكتب الملأُ المذكورون أسماءَهم بخطوط أيديهم فى هذا الكتاب ، شاهدةً لهم بمــا آلتزموه دُنيا ودِينا ، وسلَكُوا [منه] سبيلًا مُبِينا ؛ وذٰلك فى الثــانى والعشرين لشوّال من عامِ خمسٍ وخمسين وسبعمائة .

قلت : وقد أخبر آخِرَ هــذه البيعة بأن المبايعين للســلطان تُؤخَذُ خُطُوطُ أيديهم فى كتاب البيعة شاهدة عليهم بمــا بايعوا عليــه . والظاهر أن كتابةَ البيعة [illegible] كما فى مكاتباتهم فى طُومارٍ واحدٍ كبيرٍ متضايق السُّطور، وأنه ليس له طرَّة بأعلاه كما فى كتابة المصريين .

---

(١) الزيادة عن ريحانة الكتاب لابن الخطيب .

Marfat.com

البـاب الثـالث

من المقـالة الخامسة فى العُهُود، وفيه فصلان

الفصـــــل الأوّلُ

(فى معنى العَهْد)

العَهْدُ لفظٌ مشتَرَك يقع فى اللغة علىٰ ستة معانٍ :

أحدها ــ الأمَانُ . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ﴾

الثـانى ــ اليَمينُ . ومنه قوله تعالىٰ : ﴿ وأَوْفُوا بِعَهْـدِ اللهِ إِذا عاهَدْتُمْ ﴾ .

الثالث ــ الحِفَاظ . ومنه قولُه صـلّى الله عليه وسـلم : " حُسْنُ العَـهْدِ مِنَ الإيمـان " .

الرابع ــ الذِّمَّة . ومنه قولُه صـلّى اللهُ عليه وسـلم " لا يُقْتَل مُسْـلِمٌ بكافر ولا ذُو عَهْدٍ فى عَهْده " .

الخامس ــ الزّمان . ومنه قولهم : " كان ذٰلك علىٰ عَهْدِ فلان " .

السادس ــ الوَصِـيَّة . ومنه قوله تعـالىٰ : ﴿ ولَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْـلُ فَنَسِيَ ﴾ وهو المراد هنا .

(١)

قال الجَوْهرىّ : ومنه اشْتُقَّ العهدُ الذى يُكْتَب للوُلَاة .

---

(١) بهامش الاصل هنا حاشية نصها «وهم سابع» . وهو يوهم فى الدعاء للملك بعد موته : سق الله عهده برحمته أى مكانه المدفون فيه يسق بالرحمة . فصح أن يعلق على الزمان والمكان .

Marfat.com

الفصـــــل الثـانى

(فى بيانِ أنواعِ العُهُـــود ، وهى ثلاثةُ أنواع)

النـــــوعُ الأوّل

(عهودُ الخُلَفاء عن الخُلَفاء ، ويتعلَّق النظرُ به من ثمـانيةِ أوجُه)

الوجـــــهُ الأوّل

(فى أصـــل مشروعِيَّتِهـا)

والأصـلُ فى ذٰلك ماثبت فى الصحيحين من حديثِ آبنِ عمرَ رضى الله عنهما، أنه قيل لعُمَرَ عِنْد موته "ألا تَعْهَدُ؟ فقال: أأتحمَّلُ أمْرَكُمْ حَيًّا ومَيِّتًا؟ إنْ أَستَخْلِفْ فقد آستَخْلَفَ مَنْ هو خَيْرٌ مِنِّى، [يعنى أبا بكر](١): وإنْ أتْرُكْ فقد تَرَكَ مَنْ هُو خَيْرٌ منِّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم" . فأثبتَ آستخلافَ أبى بكر رضَى الله عنه بذٰلك، مشيرًا إلىٰ مارُوِى : "أنَّه لما آشْتَدَّ بأبى بكر الصدّيقِ رضى الله عنه الوَجَعُ، أرسلَ إلىٰ علىّ وعُثْمانَ ورجالٍ من المهاجِرِين والأنصارِ، فقال : قد حَضَر ما تَرَوْن، ولا بُدّ من قائمٍ بأمْرِكم ، فإن شِئْتم آستَخَرْتُم لأنْفُسكم، وإن شِئْتم آستَخَرْتُ لكم . قالوا : بل آختَرْ لنا، فأمَرَ عثمانَ فكتبَ عهْدَ عمرَ بنِ الخطاب رضى الله عنه (علىٰ ماسيأتى ذكره) ـفقال عمر : لا أُطِيقُ القِيامَ بأمُور الناسـ فقال أبو بكر هاتُوا سَيْفى ! وتهدّدَه فانقاد عمرُ، ثم دخل عليه طلحةُ فعاتَبَه علىٰ آستخلافِ عُمرَ . فقال : إنَّ عُمرَ واللهِ خيرٌ لكم وأنتم شَرٌّ له ، واللهِ لو وَلَّيتُكَ لجعلْتَ أَنْفَكَ فى قَفَاك، ولرَفَعْتَ نفْسَك فوقَ قَدْرها حتّى يكونَ اللهُ هو الذى يَضَعُها . أتيتَنِى وقد وكَفَتْ عيْنُك ، تريدُ أن تَفْتِنَنى عن دينى

(١) الزيادة من صحيح مسلم (ج ٢ ص ٨٠) .

Marfat.com

وتَرُدَّنِى عن رَأْيِى، قُمْ لاأقامَ اللهُ رِجْلَك، واللهِ لئن بلَغَنِى أنك غَمَصْتَه وذكرته بسُوءٍ لأُلْحِقَنَّك بحَمَضَات قُنَّةٍ حيثُ كُنْتُم تُسْقَوْن ولا تَرْوَوْن، وتَرْعَوْن ولا تَشْبَعون، وأنتم بذلك بَجِحُون راضُون، فقام طلحةُ فخرج " .

قال العسكرىّ : الحَمَضات جمع حَمْضة ضَرْبٌ من النَّبْت، والقُنَّة أعلى الجبل .

قال الماوردىّ : وكان آستخلافُ أبى بكر رضى الله عنه عُمَرَ بآتّفاقٍ من الصحابة من غير نكيرٍ فكان إجماعا .

وقد عهِدَ عمرُ رضى الله عنه إلى ستةٍ، وهم عثمانُ، وعلىٌّ، وطلحةُ، والزُّبيرُ، وعبدُ الرحمن بنُ عوف، وسعدُ بن أبى وقّاص؛ وتركها شُورَى بينهم، فدخلُوا فيها وهم أعيانُ العصر وأشرافُ الصَّحابة رِضوانُ الله عليهم .

الوجـــــه الثـانى

(فى معـــنى الأســـتخلاف)

قال البغَوىّ رحمه الله فى كتابه " التهذيب " فى الفقه : الآستِخْلافُ أن يجعلَه خليفةً فى حيـاته ثم يخْلُفَه بعده . قال : ولو أوصى بالإمامةِ فوجهان[1] : لأنّه يخرُج بالموت عن الوِلَاية فلا يصِحُّ منه تولِيـةُ الغير . وآستشكلَ الرافعىُّ رحمه الله هـذا التوجيهَ بكلّ وصـية؛ وبأنَّ ماذكره من جعله خليفةً بعده : إن أُرِيد به آستنابتُه فلا يكون ذلك عَهْدا إليه بالإمامة . وإن أُرِيد جعلُه إماما فى الحـال، فهو : إمَّا خلْعُ نفس العاهد، وإمَّا آجتماع إمامين فى وقت واحد . وإن أريد جعله خليفة أو إماما بعد موته فهو الوصية من غير فرق .

---

(١) أى وأصحهما عنده عدم الجواز . بدليل التعليل .

Marfat.com

قلت : وهـذا جُنوحٌ من الرافعىّ رحمه الله إلىٰ صِحَّة الخلافة بالوصـيَّة أيضا ، كما تصح بالاِستِخْلاف (١) .

الوجـــــه الثـالث

(فيما يجبُ علىٰ الكاتب مراعاتُه)

وآعلم أنه يجبُ علىٰ الكاتب أن يُراعِىَ فى كتابة العهد بالخلافة أُمورا :

منهـا — بَراعةُ الاِستهلال بذكر مايتَّفِق له : من معنىٰ الخلافة والإمامة وآشتقاقِهما ، ومحالِ الوِلاية ، ولقبِ العاهِد والمعهُود إليه ، ولقبِ الخلافة ، إلىٰ غير ذٰلك مما سبق بيانُه فى الكلام علىٰ البَيْعات .

ومنها — أن يُنَبِّه علىٰ شَرَف رُتْبة الخلافة ، وعُلُوّ قدرها ، ورِفعة شأنها ، ومَيس الحاجةِ إلىٰ الإمام ، ودِعَاية الضرورة إليه ، ونحو ذلك مما سبق فى البيعات أيضا .

ومنها — أن يُنَبِّه علىٰ آجتماعِ شروطِ الإمامة فى المعهُود إليـه من حِينِ صـدور العهد بهـا من العاهد ، فقد قال المـاوردىّ : إنه تُعتبَر شروط الإمامة فى المعهُود إليه من وَقْت العهد ، حتّٰى لو كان المعهودُ إليـه صغيراً أو فاسقًا وقْتَ العهد و بالغًا [عَدْلا] عند الموت ، لم تَصِحّ خلافتُـه حتّٰى يستأنِفَ أهلُ الاِختيارِ بَيْعتَه . قال الرافعىّ رحمه الله : وقد يُتَوقَّف فى هذا . قال النووىّ رحمه الله فى " الروضة " : لاتَوقُّفَ . والصواب ماقاله المـاوردىّ .

ومنها — أن يُنَبِّه علىٰ آجتهاد العاهِد وتروِّى نظره فى حقِّيَّة المعهود إليـه ، فقد قال الماوردىّ : وإذا أراد الإمامُ أن يَعْهَد بالإمامة ، فعليه أن يُجْهِد رأيَهُ فى الأَحَقّ بها ، والأقْوىٰ بشُروطها ؛ فإذا تعيَّن له الاِجتهاد فى أحد ، عَهِد إليه .

---

(١) فى الأصول كما لاتصح الخ والظاهر أن « لا » زائدة من الناسخ تأمل .

Marfat.com

ومنها ــ أن يُشِـير إلىٰ تقدُّم الاسـتخارة علىٰ العهْد ، وأنَّ آستخارتَه أدَّتْه إلىٰ المعهود إليه ؛ فإنَّ الاستخارةَ أمرٌ مطلوب فى كل أمر ، خصوصًا أمْرَ المسلمين وعُمومَ الولايةِ عليهم ، فإنَّ آختيارَ الله للخلق خيرٌ من آختيارهم لأنفُسِهم ، والله يقُولُ الحقَّ وهو يَهْدِى السَّبِيل .

ومنها ــ أن يَنبِّه على أنَّ عهدَه إليــه بعد مَشُورة أهل الاختيار ومراجَعتِهم فى ذٰلك ، وتصويبِهم له ، خروجًا من الخلاف . فقد حكىٰ الرافعىُّ رحمه الله وجهين فيما إذا كان المعهودُ إليه أجنبيًّا من العاهد ليس بوَلَد ولا والِدٍ : هل يجوزُ أن يَنْفَرِد بعقْد البيعةِله وتفويضِ العهْدِ إليه ولا يستشِيرَ فيه أحدا؟ أصحُّهما الجوازُ: لأنَّ العهدَ إلىٰ عمر رضى الله عنه لم يُوقَفْ علىٰ رضا الصحابة رضوان الله عليهم ، ولأنَّ الإمام أحقُّ بها ، فكان آختيارُه فيها أمْضىٰ ، وقولُه فيها أنفَذ .

وحكىٰ المـاوردىّ فى جواز آنفراد العاهدِ بالبيعة فيما إذا كان المعهودُ إليه والدًا أو ولدا ثلاثةَ مذاهب :

أحدهـا ــ ماآقتصر الرافعىُّ رحمــه الله علىٰ نسبتِه إلىٰ المـاوردىِّ ، ومقتضى كلامه ترجيحُه : أنه يجوزُ الآنفرادُ بعقْدِها للوَلَد والوالد جميعا : لأنه أميرٌ للأمة نافذُ الأمر لهم وعليهم ؛ فغُلِّب حكمُ المَنْصِب علىٰ حكم النسب ؛ ولم يجعلْ للتُّهَمة طريقًا علىٰ أمانته ، ولا سبيلًا إلىٰ معارَضَته .

والثـانى ــ أنه لايجوزُ آنفرادُه بها لوَلَد ولا والد حتَّىٰ يُشاوِرَ فيه أهلَ الاختيار فيرَوْنه أهْلا لها ، فيصحُّ منه حينئذ عَقْدُ البيعة : لأن ذٰلك [منه] تزكيةٌ [له] تجرِى مَجْرىٰ الشهادة ، وتقليدُه علىٰ الأمة يجرى مَجْرىٰ الحكم ؛ والشهادةُ والحكمُ ممتنِعان من الولد والوالد للتُّهَمة ، لمـا جُبِل عليه من المَيْل إليهما .

Marfat.com

والثالث — أنه يجوز أنْ ينفرِد بعقْد البيعة لوالده دُونَ وَلَده : لأنَّ الطبع إلىٰ الوَلَد أميل ؛ فأما عقْدُها لأخيه وغيره من الأقارِب والمناسِبين فكعَقْدها للأجانب فى جواز الٱنفِرادِ بها .

ومنها — أن يَنَبِّه علىٰ العلم بحياة المعْهُود إليه ووجُوده إن كان غائبا . فقد قال الماوردىّ : إنه لو عَهِد إلىٰ غائبٍ مجهولِ الحياةِ لم يصِحَّ عهدُه، وإن كان معلومَ الحياة صح، ويكونُ موقُوفا علىٰ قُدُومه .

ومنها — أن يَنَبِّه علىٰ أن المعْهُود إليه منصوصٌ عليه بمُفْرده، أو وقع العهْدُ شُورىٰ فى جماعةٍ وأفضتِ الخلافةُ إلىٰ واحدٍ منهم بإخراج الباقين أنفُسَهم منها ، أو ٱختيارِ أهل الحَلِّ والعقْد أحدَهُم : إذ يجوز للخليفة أن يَعْهَد إلىٰ ٱثنين فأكثَرَ من غير تقديم البعضِ علىٰ البعض؛ ويختارُ أهلُ الٱختيارِ بعد موته واحدًا ممن عهد إليه : فإنَّ عمرَ ٱبن الخطاب رضى الله عنه جعلها شُورىٰ فى ستة، فقال : الأمْرُ إلىٰ علىّ وبإزائه الزُّبيرُ بنُ العوّام؛ وإلىٰ عُثمانَ وبإزائه عبدُ الرحمٰن بنُ عوف ؛ وإلىٰ طَلْحةَ وبإزائه سعدُ بن أبى وَقَّاص . فلما تُوفِّى عمرُ رضى الله عنه، جعل الزبيرُ أمْرَه إلىٰ علىّ ، وجعل طلحةُ أمْرَه إلىٰ عثمانَ، وجعل سعدٌ أمره إلىٰ عبد الرحمن بنِ عَوْف؛ فخرج منها ثلاثةٌ، وبقيت شُورىٰ[1] فى عُثْمان وعلىّ؛ ثم بايَعَ علىٌّ عثمانَ . والمعنىٰ فى الشُّورىٰ انه لايجوز أن تُجعلَ الإمامةُ بعد العاهد فى غير المعهودِ إليهم .

ومنها — أن يُنَبِّه علىٰ عَدَد المعهود إليهم وترتيبهم إن كان قد [illegible] فى أكثَرَ من واحد . إذ يجوز أن يَعْهَد إلىٰ ٱثنين فأكثَرَ [illegible] . فلو رتَّب

(١) أى بعد أن أخرج عبد الرحمن منها نفسه . وفى كتاب الأحكام السلطانية للماوردى فصارت الشورى بعد الستة فى هؤلاء الثلاثة وخرج منها أولئك الثلاثة ... ... ثم بعد الثلاثة فى ٱثنين علىّ وعثمان

الخلافةَ فى ثلاثة مثلا ـ فقال : الخليفةُ بعدى فلان ، فاذا مات ، فالخليفةُ بعدَه فلان ؛ [فإذا مات فالخليفة بعده فلان](١) كانت الخلافة منتقلة إليهم علىٰ مارَتَّبها . ففى صحيح البخارىّ من رواية ٱبنِ عمرَ رضى الله عنهما " أنَّ رسـولَ الله صلّى الله عليه وسـلم ٱستَخْلَفَ علىٰ جَيْشِ مُؤْتَةَ زَيْدَ بنَ حارثَةَ ـ وقال : إن أُصِيبَ فجَعْفَرُ بن أبى طالِب ، فإن أُصِيبَ فعبدُ الله بنُ رَوَاحَةَ ، فإن أُصِيبَ فلْيَرْتَضِ المسلمون رجُلا ، فتقدّم زيدٌ فقُتِل ، فأخذَ الرايةَ جعفرٌ وتقدّم فقُتِل ، فأخذَ الرايةَ عبدُالله بنُ رَوَاحةَ وتقدّم فَقُتِل ، فاختار المسلمونَ بعـده خالدَ بن الوليد " . قال المـاوردىّ : وإذا جاز ذلك فى الإمارة جاز مثلُه فى الخلافة . قال : وقد عَمِل بذلك فى الدولتين مَنْ لم يُنْكِر عليه أحدٌ من علماء العصر :

فعهد سليمانُ بنُ عبد الملك إلىٰ عمرَ بنِ عبد العزيز ، ثم بعـده إلىٰ يَزِيدَ بن عبد الملك ، وأقرّه عليه مَنْ عاصره من الناس ، ومَنْ لا تأخذُه فى الله لومةُ لائم .

ورتّبها الرشـيدُ فى ثلاثةٍ من بَنِيه : الأمينِ ، ثم المأمون ، ثم المؤتَمَن ، من غير مَشُورةٍ من عاصره من فُضَلاء العلماء .(٢)

ولو قال العاهد : عهدت إلىٰ فلان ، فإن مات فلانٌ بعد إفضاء الخلافةِ إليـه ، فالخليفة بعده فلان ، [illegible] الثانى ، ولم ينعقِدْ عهْدُه بها : لأنه لم يَعْهَدْ إليه فى الحال [illegible] عهده بعد إفضاء الخلافةِ إلىٰ الأول ، وقد يموت قبل إفضائها إليه [illegible] مُتَبَرِّما .

Marfat.com

لم يجُزْ : لأنَّ الخلافة لا تستقرُّ إلا بعدَ موت المستخلِف . وكذا لو قال : جعلتُه ولىّ عهدٍ إذا أفضتِ الخلافةُ إلىّ لم يجُزْ: لأنه ليس فى الحال بخليفة ، فلم يصحَّ عهدُه بالخلافة .

ومنها — أن يُنبِّه على قَبُول المعهود إليه العَهْدَ ، فإنه إذا عهد الإمامُ بالخلافة إلى مَنْ يصحُّ العهدُ إليه على الشُّروط المعتبَرة فيه ، كان العهدُ موقُوفا على قَبُول المعهُودِ إليه : فإن قَبِل صحَّ العهدُ وإلَّا فلا ، حتَّى لو امتَنَع من القَبُول بُويع غيره . والعبرةُ فى زمَن القَبُول بما بين عَهْد العاهد ومَوْته على الأصحِّ ، لتنتقلَ عنه الإمامةُ إلى المعهُود إليه مستقرَّةً بالقَبُول المتقدِّم . وقيل : إنما يكون القَبُول بعد موت العاهد : لأنه الوقتُ الذى يَصحُّ فيه نظرُ المعهودِ إليه .

ومنها — أن يُورِد من وَصايَا العاهد للمعهود إليه ما يَليق به . وقد ذكر الماوردىُّ أنَّ الذى يلزَمُه من أمور الأمة عَشَرةُ أشياءَ :

أحدها — حِفظُ الدِّين على أصوله المستقِرَّة ، وما أجمع عليه سلَفُ الأمة ، وأنه إن نجم مبتدِعٌ أو زاغ ذُو شُبْهة عنه ، أوضح له الحجَّةَ ، وبيَّن له الصَّواب ، وأخذه بما يلزمه من الحُقُوق والحُدُود : ليكون الدِّين محروسا من الخَلَل ، والأمة ممنوعةً من الزَّلَل .

الثانى — تنفيذُ الأحكام بين المتشاجِرين ، وقطعُ الخصام بين المتنازعين ، حتَّى تعُمَّ النَّصفةُ فلا يتعدَّى ظالم ولا يضعُف مظلُوم .

الثالث — حمايةُ البَيْضة والذَّبِّ عن الحَرِيم ، ليتصرَّف الناس فى المعايش ، وينتشروا فى الأسفار آمنين من نفُوس وأموال .

Marfat.com

الرابـع — إقامةُ الحُـدود لتُصانَ محارِمَ الله تعالىٰ عن الانْتهاك ، وتُحْفَظَ حقُوقُ عباده من الإتْلاف والاسْتِهْلاك .

الخامس — تحصينُ الثُّغُور بالعُدّة المانِعه ، والقُوّة الدافِعه ، حتّى لا يظْفَر الأعداءُ بِغِرّة ينتهِكُون بها مَحْرما ، أو يَسْفِكُون فيها لمسلِمٍ أو معاهَدٍ دَمَا .

السادس — جِهادُ مَنْ عانَدَ الإسلامَ بعد الدَّعوة حتّى يُسْلِم أو يدْخُلَ فى الذِّمَّة : ليقام بحقِّ الله تعالىٰ فى إظهارِه علىٰ الدِّين كلِّه .

السـابع — جِبَايةُ الفَيْء[1] والصَّدَقاتِ علىٰ ما أوجبه الشرْعُ نصًّا واجتهادا من غير حَيْف ولا عَسف .

الثـامن — تقدير العطَاء وما يُستَحَقُّ فى بيتِ المـال من غير سَرَف ولا تفْتير ، ودفعُه فى وقت لا تقديمَ فيه ولا تأْخير .

التـاسع — استِكفاءُ الأُمَنـاء ، وتقليدُ النُّصَحاء ، فيما يفَوِّضه [إليهم من الأعمال[2]] ويكلُه إليهم من الأموال : لتكونَ الأعمالُ بالكُفَاةِ مضبُوطة ، والأموالُ بالأُمَناءِ محفُوظة .

العـاشر — أن يُباشِرَ بنفسه مُشَارَفَةَ الأمور وتصَفُّحَ الأحوال : لِيَنْهَضَ بسياسة الأمّة ، وحِراسـة الملّة ؛ ولا يُعوّل علىٰ التفويض تشاغُلاً بلذّةٍ أو عبادة ، فقد يخونُ الأمينُ ويغُشُّ الناصحُ . وقد قال تعـالىٰ : ﴿ يا داوُدُ إنّا جعلْناكَ خَلِيفةً فى الأَرْض فاحْكُمْ بَيْنَ النّاسِ بِالْحَقِّ ولا تَتَّبِعِ الْهَوىٰ فيُضِلَّكَ عن سَبِيلِ اللهِ ﴾ . فلم يقتصر الله

---

(١) يطلق الفيء على الغنيمة والخراج والمراد هنا الثانى .

(٢) الزيادة من "الأحكام" .

Marfat.com

تعالىٰ على التفويض دُونَ المباشرة ، بل أسَرّه بمباشرة الحُكْم بين الخَلْق بنَفْسه . وقد قال صلىٰ الله عليه وسلم : " كُلُّكُمْ راعٍ وكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عن رَعِيَّته " ولله درُّ محمدِ بنِ يَزْدادَ وزيرِ المأمون، حيثُ قال مخاطبا له :

مَنْ كانَ حارِسَ دُنْيَا إنَّهُ قَمِنٌ * أنْ لا يَنامَ وكُلُّ الناس نُوَّامُ!

وكَيْفَ ترقُدُ عَيْنَا مَنْ تَضَيَّفه * هَمَّانِ مِن أمْرِه : حَلٌّ وإبْرامُ!

وحينئذ فيجبُ علىٰ الكاتب أن يضَمِّن هذه الأمورَ العشرةَ فى وصايَا المعهُود إليه . وقد ذكر المَقَرّ الشِّهابىُّ بنُ فضل الله فى " التعريف " فى وصيَّة ولىِّ العهد بالخلافة ومَنْ فى معناه من الملوك وولاة عهْدهم هذه الأمورَ ممتزِجةً بأمور أخرىٰ من مُهِمَّات الملك وحُسْن تدبيره وسياستِه .

قلت : إنما يحسُن إيراد هذا كلِّه فى وصايا وُلَاة العهد إذا كان الأمرُ علىٰ ما كانت الخلافةُ عليه أوّلا من عُموم التصرُّف، أما الآنَ فالواجبُ أن يُقْتَصَر فى وصاياهم علىٰ حُسْن التأتِّى فى العهد بالسلطنة لمن يقُوم بأعبائها، وأن يكونَ ماتقدّم مختصًّا وصايا المُلوك فى العهُود عن الخلفاء .

الوجـــــه الرابع

(فيما يُكتَب فى الطُّرَّة ، وهو تلخيصُ مايتضمَّنُه العهدُ)

وهذه نسخة طُرَّة أنشأتُها ليُنْسَج علىٰ مِنْوالها، وهى :

هذا عهدٌ إمامىٌّ قد علَتْ جُدُوده ، وزادَ فى الارتقاء فى العَلْياء صُعُودُه، وفُصِّلت الجواهر قلائدُه ونُظِّمتْ بنفيس الدُّرّ عقُودُه . من عبد الله ووليِّه الإمام المتوكِّل

على الله أبي عبد الله محمد بن الإمام المعتضد بالله أبي الفتح ابى بكر، بالخلافة المقدَّسة، لولده السيِّد الجليل ذخيرة الدِّين، وولىِّ عهد المسلمين؛ أبي الفضل العباس: بلَّغه الله فيه غايةَ الأمل، وأقرّ به عينَ الأمة كما أقرّ به عينَ أمير المؤمنين وقد فعل على ما شرح فيه.

الوجـــــه الخامس

(فيما يُكتَب لأولياء العهد من الألقاب)

[وهو] كما سيأتى فى الطريقة الثانية من المَذْهب الأوّل مما يُكتَب فى مَتْن العهد من كلام المقرّ الشهابىّ بن فضل الله فى "التعريف" أنه يقال فيه: الأمير السيِّد الجليل، ذخيرة الدِّين، وولىّ عهد المسلمين؛ أبى فلان فلان. وفى المذْهَب الثالث فيما كتب به للمستوثق بن المستكفى ما يوافقه، وقد تقدّم أنه لا يَقَع فى ألقابهم إطنابٌ، ولا تعدُّدُ ألقاب، فليقتَصِرْ على ذلك أو ما يشابهه.

الوجـــــه السادس

(فيما يكتب فى مَتْن العهد، وفيه ثلاثة مذاهبَ)

المـــذهب الأوّل

(أن يفتتَح العهدُ بعد البسملة بلفظ «هذا»)

مثل: «هذا ما عَهِد به فلان لفلان» أو «هذا عهدٌ من فلان لفلان» أو «هذا كتابٌ اكتتبه فلان لفلان» ونحو ذلك.

وللكُتَّاب فيه طريقتان:

الطريقـــة الأُولىٰ

(طريقـــةُ المتقدِّمين)

وهى أنْ لايأتى بخُطْبة فى أثناءِ العَهْـد ، ولا يتَعرَّض إلىٰ ذكرِ أوصافِ المعهود إليه والثناءِ عليه ، أو يتعرَّض لذلك باختصار ؛ ثم يأْتى بالوصايا ؛ ثم يختمُه بالسلام أو بالدعاءِ أو بغيرِ ذٰلك ممـا يُناسِب . وعلىٰ ذٰلك كانتْ عهودُ السَّلَف من الصَّحابة والتابعين فَمَنْ بعدَهم ، آتِّباعًا للصِّدِّيق رضى الله عنه فيما كَتَب به لعُمَرَ بنِ الخطَّاب ، كما تقدمت الإشارةُ إليه فى الإستشهاد .

ونسختَه فيما رواه البيهقىُّ فى " السُّنَن " وآقتصر عليـه الشيخُ شهاب الدِّين محمود الحلبىّ فى " حسن التوسُّل " .

«هذا ماعهِدَ أبو بكر خليفةُ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم آخِرَ عهْدِه بالدنيا وأوّلَ عهدِه بالآخرة : إنى آستخلفْتُ عليكم عمرَ بنَ الخطاب فإنْ بَرَّ وعدَلَ فذٰلك ظنّى به ، وإن بدّلَ أو غيَّرَ فلا علْمَ لى بالغَيْب ، والخيرَ أردتُ بكم ، ولكلِّ آمرئٍ ما آكتسبَ مِنَ الإثْم : ﴿ وسيعلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُون ﴾» .

وذكر أبو هلال العسكرىّ فى كتابه " الأوائل " عن المدائنىّ أنه حِينَ دعا عثمانَ آبنَ عفّانَ رضى الله عنه لكتابة العهْد بالخلافة بعـده قال : آكتُبْ « هذا ماعهِدَ أبو بكرِ بنُ أبى قُحافةَ فى آخرِ عهدِه بالدنيا [نازحا عنها] وأوّلِ عهـدِه بالآخرة داخلا فيهـا حيثُ يتوبُ الفاجرُ ، ويؤمِنُ الكافر ، ويَصْـدُقُ الكاذبُ ، ويحرزُ [الله] الذين آتقوا لا إلٰهَ إلّا اللهُ وأنَّ محمدًا عبـدُه ورسوله ، وقد آستخْلَفـ» [ثم أغمى عليه فكتب عثمان : « عُمرَ بنَ الخطَّاب » . فلمّـا أفاق ، قال : آكتبت شيئا ؟ قال نعم عُمَرَ

(١) الزيادة من كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة .

Marfat.com

ابن الخطاب . قال : « رحمك اللهُ ، أمَا إنَّك لو كتبْتَ نفْسَك لكنْتَ أهـلًا لها . آكتُبْ قد آستخلَف عمرَ بن الخطاب ورضيه لكم ، فإنْ عَدَل فذلك ظنِّى به ورأْيِى فيه ، وإنْ بدّلَ فلِكُلِّ نفْسٍ ما كسبَتْ وعليها ما آكتسبَتْ ، والخيْرَ أردتُ ، ولا أعلَمُ الْغيبَ . ﴿ وسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾ » .

وعلىٰ هـذه الطريقةِ كُتِب عهدُ عمرَ بنِ عبـد العزيز بالخلافةِ عن سُليمانَ بن عبد الملك ، ثم مِنْ بعده إلىٰ أخيه يزيدَ بنِ عبد الملك .

وهذه نسختهُ فيما ذكره آبنُ قُتَيبةَ فى تاريخ الخُلَفاء :

هـذا ماعَهِدَ به عبدُ اللهِ سليمانُ بنُ عبد الملك أميرُ المؤمنين وخليفةُ المسلمين . عَهِدَ أنه يَشْهَدُ للهِ عز وجل بالرُّبُوبيَّة والوَحْدانيَّة ، وأن محمّدًا عبدُه ورسولُه صلّى الله عليـه وسلم ، بعثه إلىٰ مُحْسِنِى عبادِه بَشِـيرا ، وإلىٰ مُذْنِبِيهم نَذِيرا . وأنَّ الجنةَ والنارَ مخلوقَتان حَقًّا : خلقَ الجنةَ رحمةً وجزاءً لمن أطاعه ، والنارَ نِقْمة وجزاءً لمَنْ عَصَاه ، وأوْجبَ العفْوَ جُودًا وكرمًا لمَنْ عَفا عنه . وأنَّ سليمانَ مُقِرٌّ علىٰ نَفْسه بمـا يعلَمُ اللهُ من ذُنُوبه ، وبما تعلمُه نفْسُه من معصيةِ ربِّه ، مُوجِبا[1] علىٰ نفْسِه آستحقاقَ ماخَلَق من النِّقْمة ، راجيا لنفسه ماخَلَق من الرحمة ووَعَد من العفو والمغْفِرة ، وأن المقادِيرَ كلَّها خيْرَها وشَرَّها مقـدُورة[2] بإرادته ، مكَوَّنةٌ بتكْوِينـه ، وأنه الهـادِى فلا مُغْوِىَ ولا مُضِلَّ لمن هَدَاه وخلَقَه لرحمتـه ، وأنه يُفْتَن الميت فى قَبْره بالسؤال عن دِينِه ونبيِّه الذى أُرْسِل إلىٰ أمَّتـه ، لامَنْجىٰ لمن خرج من الدنيا إلىٰ الآخرة من هـذه المسألة إلا لمن آستثناه عز وجلَّ فى علمـه . وسليمانُ يسألُ اللهَ الكريمَ بواسع فَضْله ، وعظيم مَنِّـه ، الثباتَ علىٰ ماأسَرّ وأعلَنَ من معرفة حقِّـه وحقِّ نبيه عنـد

(١) كذا فى الأصول بالنصب وكذلك وقع فى كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة .

(٢) فى كتاب الامامة والسياسة لابن قتيبة «خيرها وشرها من الله وأنه هو الهادى الخ» .

Marfat.com

مَسْأَلَةَ رُسُلِهِ ؛ والنَّجاةَ من هَوْل فتنة تَقْاسِيه . وبشَّرَهُ أنَّ الميزان يومَ القيامة حقٌّ يقين ، يَزِنُ سيئاتِ المسيء ، وحسناتِ المحسنين ؛ ليرى عباده من عظيم قُدْرته ، ما أراده من [تظاهر] لعباده بما لم يكونوا يَعْلَمونه ، فثقلت موازينُ من ثقلت موازينُا فأولئك هم المُفْلِحون ، ومَنْ خفَّتْ موازينه يومئذٍ فأولئك هم الخاسِرون . وأنَّ حوض محمدٍ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم يومَ الحَشْر والوُقوف للعَرْض حقٌّ ، وأنَّ عددَ آنيته كنُجوم السماء ، من شَرِبَ منه لم يظْمأْ أبدا ، وسليمان يسألُ الله بواسع رحمته أن لا يُذُودَه عن حوض نبيِّه عطشان . وأنَّ أبا بكر وعمرَ خيرُ هذه الأمة بعد نبينا ، والله يعلمُ بعدَهما حيثُ الخيرُ وفيمن الخيرُ من هذه الأمة . وأنَّ هذه الشهادةَ كلَّها المذكورةَ فى عهدِه هذا يعلمُها الله من سِرّه وإعلانه وعَقْدِ ضميره ، وأنه بها عبدَ ربه فى سالفِ أيّامه وماضِى عُمُره ، وعليها أتاه يقينُ ربه ، وتوفّاه أجَلُه ، وعليها يُبْعَث بعد موته إن شاء الله . وأن سليمان كانت له بينَ هذه الشهادة بَلَايَا وسيِّئاتٌ لم يَكُنْ له عنها مَحِيد ولابُدّ ، جرى بها المقدور من الرَّبِّ النافذُ إلى إتمام ماحَدّ ؛ فإن يعْفُ ويصْفَحْ فذاك ماعُرِفَه منه قديمًا ونُسِب إليه حَدِيثًا ، وتلك صِفَتُه التى وَصَفَ بها نفسه فى كتابه الصادق ، وكلامِه الناطق ؛ وإنْ يُعاقِبْ ويَنْتَقِمْ فيما قدّمتْ يَداه ، وما اللهُ بظلّام للعبيد . وأن سليمان يُحْتَجّ على مَنْ قرأ عهدَه هذا وسمِع ما فيه من حكمه أن يَنْتَهِىَ إليه فى أمره ونَهْيه ، بالله العظيم ، وبالله بسوله الكريم ، وأن يَدَعَ الإحَنَ المُضْغِنة ، ويأخُذَ بالمكارم المُدْجِنة ، ويرفَعَ يديه إلى الله بالضمير النَّقِىّ ، والدُّعاءِ الصحيح ، والتَّضَرُّعِ الصَّرِيح ، بسؤاله العفوَ عنّى ، والمغفرةَ لى والبراءةَ من فَرَعِى والمسألةِ فى قَبْرِى ، لعلَّ الوُدُودَ ، أن يجعلَ منكم مُنابَ الدعوة بما مَنَّ الله علىّ

(١) فى كتاب الامامة والسياسة « لم يكن له عنها محيص ولا دونها مقصر بالقدر السابق والعلم النافذ فى محكم الوحى فلا يعف » الخ .

Marfat.com

من صَفْحه يعود، إن شاء الله، وأنّ ولىّ عهد سليمان بن عبد الملك أميرِ المؤمنين، وصاحبَ أمْره بعد موته، في جُنده ورعيّته وخاصّته وعامته، وكلّ من آستخلفني الله عليه، وآسترعاني النظر فيه، الرجلُ الصالح «عمرُ بن عبد العزيز» بن مَرْوان ابنُ عمّي، لما بلوتُ من باطن أمره وظاهره، ورجوتُ الله بذلك [وأردت] رضاه ورحمته إن شاء الله. ثم من بعده تُسلَّم إلى يزيد بن عبد الملك بن مَرْوان إن بقي بعده، فإنّي ما رأيتُ منه إلّا خيرا، ولا اطّلعتُ له على مكروه. وصغار ولدي وكبارهم إلى عُمَر، إذ رجوتُ أن لا يألوهم رَشَدا وصَلاحا، والله خليفتي عليهم وعلى جماعة المؤمنين والمسلمين وهو أرحم الراحمين، وآقرءوا عهدي عليكم السلام ورحمة الله. ومن أبى أمري هذا أو خالف عهدي هذا، وأرجو أن لا يخالفه أحدٌ من أمة محمد، فهو ضالٌّ مضلٌّ يُستعتَب، فإنْ أعتبَ وإلّا فإنّي(١) لمن صاحب(؟) عهدي فيهم بالسيف السيف والقتل القتل، فإنهم مستوجبون لهم، وهم بهيئته ملقحون، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله العليم الإحسان.

تم ذلك والحمد لله وحده، وصلواته على سيدنا محمد وآله.

* * *

وعلى نحو من ذلك كتب المأمون العباسي محمد بن موسى العَلَوي (المعروف بالرضي) بالخلافة بعده.

وهذه نسخته مما ذكر صاحب النقد:

هذا كتابٌ كتبه عبد الله بن هارون الرشيد أميرُ المؤمنين بيده، لعلي بن موسى بن جعفر ولي عهده.

---

(١) في كتاب الأمانة والسياسة: «إلا فالسيف والمستعان» وهي واضحة.

أما بعدُ، فإنّ الله عز وجلّ ٱصْطفى الإسلامَ دينا، وٱصْطفى له من عباده رُسُلا دالّين عليه، وهادين إليه، يبشّر أوّلُهم بآخرِهم، ويصدّق تاليهم ماضيَهم؛ حتّى ٱنتهتْ نبوّةُ الله إلى محمدٍ صلّى الله عليه وسلم على فَتْرةٍ من الرُّسُل، ودُرُوس من العلم، وٱنقطاعٍ من الوَحْى، وٱقترابٍ من الساعةِ؛ فختم اللهُ به النبيّين وجعله شاهدًا لهم، ومُهَيْمِنا عليهم؛ وأنزل عليه كتابَهُ العزيزَ الذى ﴿لا يأتيه الباطلُ من بَيْنِ يَدَيْهِ ولا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ من حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (١). فأحلّ وحرّم، ووعَدَ وأوْعَد؛ وحذّر وأنذر، وأمر به ونهى عنه (١): لتكونَ له الحجةُ البالغة على خلقه: و﴿لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عن بَيِّنَةٍ، ويَحْيَا مَنْ حَيَّ عن بَيِّنَةٍ وإنَّ اللهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. فبلّغ عن الله رسالتَه، ودعا إلى سبيله بما أمره به من الحِكْمة والمَوْعِظة الحَسَنة، والمجادلة بالتى هى أحسَن، ثم بالجهاد والغِلْظة حتّى قبضه اللهُ إليه، وٱختار له ما عنده صلّى اللهُ عليه؛ فلمّا ٱنقضتِ النبوّةُ وختم الله بمحمد صلّى الله عليه وسلم الوَحْىَ والرسالة، جعل قِوامَ الدين، ونِظامَ أمر المسلمين، بالخلافةِ وإتمامِها وعِزِّها، والقيامِ بحق الله فيها بالطاعةِ التى تُقام بها فرائضُ الله وحُدُوده، وشرائعُ الإسلام وسُنَنُه، ويُجاهَد بها عدُوُّه. فعلى خُلَفاء الله طاعتُه فيما ٱستحفظهم وٱسترعاهم من دينه وعباده، وعلى المسلمين طاعةُ خُلَفائهم ومُعاونتُهم على إقامةِ حقِّ الله وعَدْله، وأَمْنِ السُّبُل وحَقْن الدِّماء، وصلاحِ ذاتِ البَيْن، وجَمْع الالفة؛ وفى إخلال ذلك ٱضطرابُ حَبْل المسلمين وٱختلالهم، وٱختلافُ مِلّتهم، وقَهْرُ دينهم، وٱستعلاءُ عدُوِّهم، وتفرُّقُ الكلمة، وخُسرانُ الدنيا والآخرة. فحقٌّ على من ٱستخلفه اللهُ فى أرضه، وأتمنه على خَلْقه [أن] يُؤثِر عليه رضا اللهِ وطاعتُه ويعْد [ل] فيما اللهُ واقفُه عليه وسائلُه عنه، ويحكم بالحق ويعمل بالعدل فيما حمّله الله وقلّده؛ فإن الله عز وجل يقول لنبيه داود عليه السلام:

(١) لعل الجار والمجرور فى المحلين زائد من قلم الناسخ.

Marfat.com

﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب﴾ . وقال عز وجل : ﴿فوربك لنسئلنهم أجمعين عما كانوا يعملون﴾ . وبلغنا أن عمر بن الخطاب قال : « لو ضاعت سخلة بجانب الفرات لتخوفت أن يسألني الله عنها » . وايم الله إن المسئول عن خاصة نفسه ، الموقوف على عمله ، فيما بين الله وبينه ، لمتعرض لأمر كبير ، وعلى خطر عظيم ، فكيف بالمسئول عن رعاية الأمة ؛ وبالله الثقة ، وإليه المفزع والرغبة في التوفيق مع العصمة ، والتسديد والهداية إلى ما فيه ثبوت الحجة ، والفوز من الله بالرضوان والرحمة . وأنظر الأئمة لنفسه ، وأنصحهم في دينه وعباده وخلافته في أرضه ، من عمل بطاعة الله وكتابه وسنة نبيه عليه السلام في مدة أيامه ؛ واجتهد وأجهد رأيه ونظره فيمن يوليه عهده ، ويختاره لإمامة المسلمين ورعايتهم بعده ؛ وينصبه علما لهم ، ومفزعا في جمع ألفتهم ، ولم شعثهم ، وحقن دمائهم ، والأمن بإذن الله من فرقتهم ، وفساد ذات بينهم واختلافهم ، ورفع ترع الشيطان وكيده عنهم ؛ فإن الله عز وجل جعل العهد بالخلافة من تمام أمر الإسلام وكماله وعزه وصلاح أهله ؛ وألهم خلفاءه من توسيده لمن يختارونه له من بعدهم ما عظمت به النعمة ، وشملت منه العافية ، ونقض الله بذلك مر(١) أهل الشقاق والعداوة والسعي في الفرقة والرفض(٢) للفتنة ؛ ولم يزل أمير المؤمنين منذ أفضت إليه الخلافة فاختبر بشاعة مذاقتها ، وثقل محملها وشدة مئونتها ؛ وما يجب على من تقلدها من ارتباط طاعة الله ومراقبته فيما حمله منها ؛ فأنصب

(١) في المناسك ج ٢ ص ١٥ « المر بفتح الميم الحبل » .

(٢) أي تركها تسير في الناس ، وفي اللسان الرفض أن يطرد الرجل غنمه وإبله إلى حيث يهوى فإذا بلغت بها عنها وتركها .

(٣) لعله ناظرا فيها بما يقتضيه منصبها وما يجب الخ وبه يستقيم الكلام بعد تأمل .

بدنه، وأسهر عينه؛ وأطال فكره فيما فيه عز الدين، وقمع المشركين؛ وصلاح الأمة، ونشر العدل، وإقامة الكتاب والسنة؛ ومنعه ذلك من الخفض والدعة بغية العيش: علما بما الله سائله عنه، ومحبة أن يلقى الله مناصحه فى دينه وعباده، ومختارا لولاية عهده، ورعاية الأمة من بعده، أفضل من يقدر عليه فى دينه وورعه وعلمه، وأرجاهم بقيام بأمر الله وحقه؛ مناجيا لله بالاستخارة فى ذلك، ويسأله إلهامه ما فيه رضاه وطاعته فى ليله ونهاره، ومعملا فى طلبه والتماسه من أهل بيته من ولد عبد الله بن العباس وعلى بن أبى طالب فكره ونظره، ومقتصرا بمن علم حاله ومذهبه منهم على علمه، وبالغا فى المسألة عمن خفى عليه أمره جهده وطاقته، حتى استقصى أمورهم بمعرفته، وابتلى أخبارهم مشاهدة، وكشف ما عندهم مساءلة؛ فكانت خيرته بعد استخارته لله واجتهاده نفسه فى قضاء حقه وبلاده، من البيتين جميعا «على بن موسى بن جعفر» بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب: لما رأى [من] فضله البارع، وعلمه الناصع؛ وورعه الظاهر، وزهده الخالص، وتخلّيه من الدنيا، وتسلّيه عن الناس؛ وقد استبان له ما لم تزل الأخبار عليه متواطئة، والألسن عليه متفقة والكلمة فيه جامعه؛ ولما لم يزل يعرفه به من الفضل يافعا وناشئا، وحدثا ومكتهلا؛ فعقد له بالعقد والخلافة إيثارا لله والدين، ونظرا للمسلمين، وطلبا للسلامة وثبات الحجة والنجاة فى اليوم الذى يقوم الناس فيه لرب العالمين.

وخط أمير المؤمنين ولده، وأهل بيته، وخاصته، وقوّاده، وخلصاءه، [وشيعته] مصوّبين له عالمين بإمامة أمير المؤمنين طاعة الله تعالى له، وعلموهم ممن هو أشبههم به رحما وأقرب قرابة، وشبهه بالرعى له إذ كان رضيا عند أمير المؤمنين.

Marfat.com

فبايِعُوا معْشَرَ بيتِ أمير المؤمنين ومَنْ بالمدينة المحروسة من قُوّاده وجُنْده، وعامة المسلمين « الرِّضَى » من بعده ، على اسم الله وبركته وحُسْن قضائِه لدينه وعباده ؛ بيعةً مبسوطةً إليها أيْديكم ، منشرحةً لها صدُوركم ، عالمين بما أراد أمير المؤمنين بها ، وآثَر طاعةَ الله والنظرَ لنفسه ولكم فيها ، شاكرينَ لله على ما ألْهَم أميرَ المؤمنين من نَصائحه في رِعايتكم ، وحِرْصه على رُشْدكم وصَلاحكم ، راجينَ عائدَه في ذلك في جمع أُلْفتكم ، وحَقْن دمائكم ، ولَمّ شَعْثكم ، وسدّ ثُغُوركم ، وقُوّة دينكم ، ورغْم عدوّكم ، واستقامة أموركم . وسارِعُوا إلى طاعة الله وطاعة أمير المؤمنين ، فإنّه الأمْر إن سارعتُم إليه ، وحمِدتُم اللهَ عليه ، عرَفتُم الحظَّ فيه ، إنْ شاء الله تعالى .

* * *

وعلى هذه الطريقة كتب الوزيرُ أبو حفص بنُ بُرْد عهدَ الناصر لدين الله عبد الرحمن بن المنصور بن أبي عامر العامري ، عن المؤيّد بالله هشام بن الحكم الأموي ، الخليفة بالأندلس . وهذه نسخته :

هذا ما عهِدَ هشامُ المؤيّدُ بالله أمير المؤمنين إلى الناس عامّة ، وعاهدَ اللهَ عليه [illegible] وأعطى به صفْقةَ يمينه بيعةً تامّة ، بعد أن أتمّ النظرَ وأطال [illegible] وأهّله لجعل الله إليه من الإمامة ، وعَصَب به من أمر المؤمنين ، واثقًا [illegible] خائفًا نزولَ القضاء بما لا يُصْرَف ، وخَشْيَ إنْ هُمْ تقوم [illegible] ولم يرَ طاعةَ الأمّة عليها تأتي إليه ، وإلْجاءَها تُعطِف [illegible] تصاولوا فشطّا سلاحًا عن [illegible] غيرها من يستحقّ أن يُسْتَكْفَى الأمر [illegible]

Marfat.com

بعد اطّراح الهوى والتحرّى للحق ، والتزلّف إلى الله بجلّ جلاله بما يُرضيه .
وبعد أنْ قطع الأواصرَ وأسخط الأقاربَ ، فلم يجدْ أحقّ أنْ يؤثره عهده ، ويفوّض إليه الخلافةَ بعده : لفضل نفسه ، وكرم خيمه ، وشرف مَرْبيته ، وعلوّ منصبه ، مع نُقاه وعفافه ، ومعرفته بحزمه ونقاوته ، من المأمور الجيب ، الذى جمع الجَيْب «أبى المطرّف عبد الرحمن بن المنصور أبى عامر محمد بن أبى عامر وفّقه الله ، إذ كان أميرُ المؤمنين ـ أيده الله ـ ابتلاه واختبره ، ونظر فى شأنه واستبره ، فرآه مُسارعا فى الخيرات ، سابقًا فى الحلبات ، مستوليًا على الغايات ، جامعا للمأثرات ، ومَنْ كان المنصورُ أباه ، والمظفّرُ أخاه ، فلا غَرْوَ أنْ ينتج من سبيل البرّ مداه ، ويحوِىَ من خلال الخير ماحواه ، مع أنّ أمير المؤمنين ـ أيده الله ـ بما طالعه من مكنون العلم ، ووعاه من مخزون الأثر ، يرى أن يكون ولىّ عهده القحطانىّ الذى حدّث عنه عبدُ الله بن عمرو بن العاص وأبو هريرة : أنّ النبىّ صلّى الله عليه وسلم قال : « لاتقومُ الساعةُ حتّى يخرجَ رجلٌ من قحطان يسوق الناس بعصاه » فلما استوى له الاختيار ، وتقابلت عنده فيه الأنظار ، إذ لم يجد عنه مذهبا ، ولا إلى غيره معدلا ، صرّح إليه فى تدبير الأمور فى حياته ، وفوّض إليه الخلافة بعد مماته ، راضيًا مجتهدا ، وأمضى أميرُ المؤمنين عهدا ، أبرزه أنضر ، ولم يشترط فيه ولا خيارا ، وأعطى على الوفاء به فى سرّه وجهره ، وذمّة نبيه محمد صلّى الله عليه وسلم ، ما يلزم المطيعين لله من عباده ، أن لايبدّل ، ولا يغيّر ، ولا يحوّل ، ﴿ وكفى بالله شهيدا ﴾ ، وأشهد من أرضى ... القول والفعل ، فضمن ... وفّقه الله ، وقوله ما قلّده ، وإلزامه ...

Marfat.com

سنة ثمـان وتسعين وثلثمائة . وكتَبَ الوزراءُ والقضاةُ وسائر الناس شهاداتِهم بخطوط أيديهـــم بذلك .

الطريقة الثـانيـــة

(طريقـــة المتأخرين من الكُتَّاب)

أن يأتى بالتحميد فى أثناء العَهْد . ويأتى من ألقاب ولىّ العهد بما يناسب على الاختصار . وعليها اقتصر المَقَرّ الشّهابى بنُ فضل الله فى "التعريف" فقال : واعلم أنَّ عهُودَ الخلفاء عن الخلفاء لم تجر عادةُ مَنْ سلَف من الكُتَّاب أن يستفتحها إلا بما يذكر . وهو :

«هـذا ما عَهِد [به] عبدُ الله ووليُّه فلانٌ أبو فلان الإمامُ الفلانىّ أميرُ المؤمنين ، عهد إلى ولده ، أو [إلى] أخيه الأميرِ السيد الجليل ، ذخيرةِ الدِّين ، وولىِّ عهد المسلمين أبى فلان فلان ، أيَّده الله بالتمكين ، وأمدَّه بالنصر المُبين ، وأقرّ به عينَ أمير المؤمنين» . ثم يُنْفِق كلُّ كاتبٍ بعد هذا على قَدْر سَعَته ، ثم يقول :

«أما بعدُ ، فإنَّ أميرَ المؤمنين يحمدُ إليك اللهَ الذى لا إله إلَّا هو ، ويصلِّى على نبيه محمدٍ صلَّى الله عليه وسلم» ويخطُبُ فى ذلك خُطْبة يُكثِر فيها التحميد ويَنْتَهِى فيه إلى سبعة ، ثم يأتى بعد ذلك بما يُناسب من القول : يصف فكر الذى يَعْهَد [illegible] ويصفُ المعهودَ إليه بما يليق من الصِّفات الجليلة ، ثم يقول : [illegible] إليه وقلَّده [illegible] جميع ما هو مقلَّد [illegible] من صَلاح الأمة ، أو صلاح الخلق ، بعد [illegible] فى ذلك [illegible] يتدبَّر ذلك [illegible] فيه [illegible] ويستشير أهل الرأى والنظر [illegible] أمور الأمة ومصالح

الدنيا والدِّين» ومن هذا ومثله ؛ ثم يقال : «إنَّ المعهودَ إليه قَبِلَ ذلك منه» ويأتى فى ذلك بما يليق من مَحَاسن العبارة وأحاسِنِ الكلام .

قلت : ولم أظفَر بنسخة عهدٍ على هذا الأسْلوب الذى ذكره المقرُّ الشِّهابىّ ؛ وقد أنشأت عهدًا على الطريقة التى أشار إليها ، امتحاناً للخاطر : لأنْ يكونَ عن الإمام المتوكِّل على الله أبى عبد الله محمد بن المعتضد أبى الفتح أبى بكر ، خليفة العصر ، لولده العباس : ليكون أنموذجا يُنسج على منواله .

ومن غريب الاتفاق أنى أنشأته فى شهور سنة إحدى وثلاثمائة امتحانا للخاطر كما تقدّم ، وضمّنته هذا الكتاب وقلّدوا السائل على ذلك قبل أن يرتحل الله تعالى الإمامَ المتوكِّل — قدّس الله تعالى روحه — بسنة ثمان وثلاثمائة ، فاجتمع أهلُ الحلّ والعقد على مبايعته بالخلافة ، فبايعوه ووفّق الله تعالى [illegible] من إنشاء العهد باسمه فى الزمن السابق ، ثم صَيَّره ماضياً إلى الله تعالى [illegible] فى مستهلّ شهر ذى القَعْدة الحرام سنة ثمان وثلاثمائة ، فصرّف [illegible] آخره ، وهو مُصْغٍ له مظهرٌ الابتهاج به ، وأجاز عليه الجائزة السنية [illegible] رسالةً وضمنته إيّاها وأوعت بخزانته العالية ، عمرها الله بطول بقائه .

وهـــاء نسخته :

هذا عهدٌ سعيدُ الطالع ميمونُ الطائر ، مباركُ الأوّل جميلُ الأثر [illegible] تَشْهد به حضراتُ الأملاك ، وترفرفُ كفُّ الثريا بإعلام القبول [illegible] وتُباهى به مُلوكُ الأرض ملائكةَ السماء ، وتَسْرى بنشره القبولُ فى [illegible] بكلّ ناحيةٍ عَلَما ، وتُطْلِعُ به سعادةُ الجَدّ من مَطالع المَدْل فى كلّ أفق نجما ، وترقُص من فرحها الأنهار فتَقَطّها شمسُ النَّهار بذَهَب الأصيل على صَفَحات الماء ، عهد به

عبدُ الله ووليُّه أبو عبد الله محمدٌ المتوكِّل على الله أميرُ المؤمنين إلى وَلَده السيد الجليل عُدَّة الدِّين وذَخِيرته ، وصَفِيِّ أمير المؤمنين من وَلَده وخِيرتِه ؛ المستعينِ بالله أبى الفضل العَبَّاس بلَّغ الله فيه أميرَ المؤمنين غايةَ الأمَل ، وأقرّ به عينَ الخلافة العبَّاسيَّة كما أقرّ به عينَ أبيه وقد فَعَلْ .

أما بعـدُ ، فالحمدُ لله حافِظِ نِظام الإسـلام وواصِلِ سَبَبه ، ورافِعِ بيتِ الخلافة وماذ طُنُبه ، وناظِمِ عِقْد الإمامة المعظَّمة فى سِـلْك بَنِى العباس وجاعِلِها كلمةً باقيةً فى عَقِبِـــه .

والحمـــدُ لله الذى عَدَلَ أمْرَ الأمة منهم بأعظَمِهم خَطَرا ، وأرفَعِهم قَـدْرا ؛ وأرجَحِهم عَقْلا وأوسَعِهم صَدْرا ، وأجزلهم رأْيا وأسلَمِهم فِكْرا .

والحمـدُ لله الذى أقرّ عينَ أمير المؤمنين بخيرِ وَلِىّ وأفضَلِ وَلَد ، وشدّ أزْرَه بأكرم سـيد وأعزِّ سَنَد ، وصرَفَ آختيارَه إلى مَنْ إذا قام بالأمر بعـدَه قيل هذا الشِّبْلُ من ذاكَ الأسَد .

والحمـــدُ لله الذى جمعَ الآراءَ على آختيار العاهد فمـا قَلَوْه ولا رفَضُوه ، وجبَل القلوبَ على حُبِّ المعهود إليه فلم يَرَوُا العُدُولَ عنه إلى غيره بوجه من الوُجُوه .

والحمـدُ لله الذى جدّدَ للرعيَّة نِعمةً مع بَقاء النِّعمة الأُولى ، وأقام لأمْرِ الأمة من بَنِى عمِّ نبيِّه المصطفى الأوْلى بذلك فالأَوْلى ، وآختار لعهد المسلمين مَنْ سبقَتْ إليه فى الأزَل إرادتُه فأصبح فى النُّفُوس معظَّما وفى القلوب مَقْبُولا .

والحمـدُ لله الذى أضحك الخلافةَ العبَّاسية بوجُود عبَّاسها ، وأطاب بذِكْره رَيَّاها فتعطَّر الوجودُ بطيبِ أنفاسِهـا ؛ ورفع قَدْرَه بالعهد إليـه إلى أعلى رُتْبـة مُنِيفه ؛

Marfat.com

وخَصَّه بمشاركةِ جَدّه العبَّاسِ فى الاِسم والكُنْية ففاز بما لم يَفُزْ به قبْلَه منهم ست وأربعون خَلِيفه (١) .

والحمـــدُ للهِ الذى أوْجبَ علىٰ الكافَّة طاعةَ أُولِى الأمْر من الأئمّـه ، وألزَمَهم الدُّخولَ فى بَيْعــة الإمامِ والانقيادَ إليه ولو كان عبْدًا أسودَ فكَيْفَ بمن أجْمع علىٰ سُؤْدَده الأُمّه ، وأوضَحَ السبيلَ فى التعريف بمَقام الآلِ والعِتْرة النبويَّة ﴿فلا يَكُنْ أمْرُكُمْ عليكُمْ غُمَّه﴾ .

يحمَـدُه أميرُ المؤمنين علىٰ ما مَنَحه من طِيبِ أُرُومةٍ سَمَتْ أصـلا وزَكَتْ فَرْعا ، وحَبَاه من شَرَفٍ مَجْتِدٍ راقَ نظَرا وشاق سَمْعا ، ووصله به من نِعَمٍ آثرتْ نَفَّاعا وأثَّرتْ نَفْعا ؛ ويشهد أنْ لا إلٰهَ إلا اللهُ وحدَه لا شريكَ له شهادةً يتوارَثُونها كالخلافه كابرًا عن كابر ، ويُوصَّى بها أبدًا الأوّلُ منهم الآخِر ، ويُؤْذِن قيامُهم بنُصْرتها أنَّهم مَعْـدن جوهرِها النَّفيسِ ونِظامُ عِقْدِها الفـاخِر ؛ ويشهَدُ أنَّ سـيِّدنا محمّدًا عبدُه ورسولُه ، الذى خصَّ عمَّه العباسَ بكريم الحِبَاء وشريفِ الإنافَه ، ونَبَّه علىٰ بَقاء الأمر فى بَنِيه بقوبِ ضَلَّ مَنْ أظهر عِنَادَه أو أضمر خِلافَه ؛ حيثُ أسَرَّ إليـه : " ألَا أُبَشِّرُكَ يا عَمِّ بِى خُتِمتِ النبوَّةُ وبوَلَدِك تُخْتَمَ الخِلَافه " صلىٰ الله عليـه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً تعم بركتُها الوَلَدَ والوالِد ، ويشْمَل معروفُها المعهودَ إليه ويَعْرِفُ شرَفَها العاهد ، ويعتَرِف بفضلها المُقِرُّ ولا يَسَـعُ إنكارُها الجاحد ؛ مانُوِّهَ بذكر الخلافة العباسـيَّة علىٰ أعواد المَنابِر ، وخَفَقتِ الرايَاتُ السُّود علىٰ عساكر المَوَاكب ومَوَاكب العساكر ؛ وسلَّم تسليما كثيرا .

(١) ذكَّر اسم العدد علىٰ حد ماأنشده الفراء .

أبوك خليفة ولدته أخرى * وأنت خليفة ذاك الكمال

Marfat.com

هـذا وكلُّ راعٍ مسْئُول عن رعيَّته، وكلُّ أمْرِئ محمولٌ على نِيَّته ، مخبِرٌ بظاهره عن جميلِ ما أكنَّه فى صَدْره وما أسَرَّه فى طَوِيَّته ؛ والإمامُ منصوبٌ للقِيام بأمر الله تعالىٰ فى عِباده ، مأمورٌ بالنصيحة لهم جُهْدَ طاقته وطَاقَةَ آجْتِهاده ، مطلوبٌ بالنظر فى مَصالحهم فى حاضِرِ وقتِهم ومستقبله وبَدْءِ أمرهم ومَعَادِه ؛ ومِن ثَمَّ آختلفَتْ آراءُ الخلفاء الراشدين فى العهد بالخلافة وتبايَنَتْ مقاصِدُهم ، وتنوَّعَتْ آختياراتُهم بحسب الآجتهاد وآختلفتْ مواردُهم ؛ فعَهِد الصدِّيقُ إلىٰ عمرَ بنِ الخطَّاب رضى الله عنه متثبِّتا ، وتركَها عمرُ شُورىٰ فى ستَّة وقال : « أتحمَّل أمْرَكم حيًّا وميِّتا ! » وأتىٰ رضى الله عنه لكلٍّ من المذهبين بما أذْعن له الخَصْمُ وسلَّم ، فقال : « إنْ أعْهَدْ فقَدْ عَهِد مَنْ هو خيرٌ منِّى ، وبكر ، وإنْ أترُكْ فقد تَرَكَ مَنْ هو خيرٌ منِّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم » فأخذ الخلفاءُ فى ذلك بسنَّتهما ، ومشَوْا فيه علىٰ طريقتهما ؛ فمن راغبٍ عن العهد وراغبٍ فيه ، وعاهدٍ إلىٰ بعيدٍ منه وآخَرَ إلىٰ آبنه أو أخيه ؛ كلٌّ منهم بحسب ما يؤدِّى إليه آجتهادُه ، وتَقْوىٰ عليه عزيمتُه ويترجَّحُ لديه آعتمادُه .

ولمَّا كان أميرُ المؤمنين ـ أحسنَ الله مآبه ـ قد نوَّر اللهُ عينَ بصيرته ، وخصَّه بطهارة سِرِّه وصفاء سريرته ؛ وآتاهُ الله المُلْك والحِكْمه ، وأقامه لِمَصالح الرعيَّة وصلاح أمر الأمَّه ؛ وعلَّمه مما يشاء فكان له من عِلْم الفِراسة أوْفَرُ قِسْم ، وآصطفاه علىٰ أهل عصره وزاده بَسْطَةً فى العِلْم والجِسْم ؛ فلا يَعْزِمُ أمْرا إلَّا كان رَشَادا ، ولا يعتمِد فعْلا إلا ظهر سَدَادا ؛ ولا يَرتئِى رأيا إلا أُلْفِى صَوَابا ، ولا يُشِير بشىء إلا حُمِدت آثاره بدايةً ونهايةً وآستصحابا ؛ ومع ذلك فقد بَلَا الناسَ وخَبَرَهم ، وعلم بالتجربة حالَهم وخَبَرَهم ، وآطَّلع بحُسْن النظر علىٰ خَفَايا أمورهم ، وما به مصْلحةُ خاصَّتهم وجمهورهم ؛ وترجَّح عنده جانبُ العهد علىٰ جانب الإهمال ، ورأىٰ المبادرةَ إليه أَوْلىٰ من الإمْهال ؛ ولم يزلْ يروِّى فكرتَه ، ويُعْمل رَوِيَّتَه ؛ فيمن يصْلُح لهذا الأمر

Marfat.com

بعْده ، وينهَض بأعبائه الثقيلةِ وَحْده ؛ ويتّبع فيه سُبُلَه ويسلُك طرائقه ، ويقتفى فى السِّيرة الحسنةِ أثره ويتيمم فى العدل بوارِقَه ؛ ويُقْبِل على الأمر بكُلِّيّته ويقْطع النظر عمَّا سواه ، ويتفرّغ له من كلّ شاغِلٍ فلا يخلِطُه بما عَدَاه .

وقد علم أنَّ الأحقَّ بأن يكونَ لها خَليفًا من كان بها خَليقا ، والأَوْلى بأن يكُونَ لها قَرينا مَنْ كان بوَصْلها حَقيقا ، والأجدَرَ أنْ يكُونَ لديها مكينًا من اتّخذ معَها يدًا وإلى مَرْضاتها طَريقا ، والأليقَ بمنْصبها الشريف مَنْ كان بمطْلُوبها مَليًّا ، والأَحْرى بمكانها الرفيع مَنْ كان بمقْصودها وَفِيًّا ، والأَوْفَقَ لمقَامها العالِي مَنْ كان خَيْرا مَقَامًا وأحسَنَ نَديًّا ؛ وكان ولَدُه السيدُ الأجلُّ أبو الفضل المشارُ إليه هو الذى وجّهت الخلافةُ وَجْهَها إلى قِبلته ، وبالغَتْ فى طَلَبه وألَحَّتْ فى خِطْبته ؛ على أنه قد أُرْضِع بلبانها ورُبِّى فى حِجْرِها ، وانتسب إليها بالبُنوّة فضمّته إلى صَدْرها ؛ وكيف لا تتشبّث بحباله ، وتتعلّق بأذْياله ؛ وتطمَعُ فى قُرْبه ، وتتغالى فى حُبّه ؛ وتميلُ إلى الأُسْد ، وتُراوِدُه عن نَفْسه ، وهو كُفْؤُها المستجمِعُ لشرائطها المتّصفُ بصفاتها ، ونَسيبُها السامى إلى أعَاليها الراقِى على شُرُفاتها ؛ إذ هو شِبْلُها الناشئُ فى أجامِها ، بل أسَدُها الطامى لحِمَاها ومُجيرُها الرافِى بذِمَامها ، وفارِسُها المقدَّم فى حَلْبة سِباقِها ووارِثُها الحائزُ لجميع سهامِها ، وحاكِمُها الطائعُ لأمْرها ، ورشيدُها المأمونُ على سِرِّها ، وناصِرُها القائمُ بواجِبها ، ومَهْدِيُّها الهادى إلى أفضل مذاهِبها ؟ قد ألتحفَ من الخلافة بردائها ، وتمكّن من القُلُوب فى سُوَيْدائها ، وتوسّمت الآفاقُ تفويضَ الأمر إليه بعد أبيه ، لظهور المَخايل فى أرْجائها ، وأتّبع سِيرةَ أبيه فى المعروف وأقتفى أثَرَه فى الكَرَم ، ولقد بدا فى السماء (ومَنْ يُشابِهْ أبَهُ فَما ظَلَم) وتقبّل الله دُعاء أبيه فوهبَ له من الأيام ما أحبّ ، ومن الدنيا ما تمنّاه فيه فمكّن له فى الأرض وآتاه الملْكَ صَبِيًّا ، فاستوسق له الأمر فى قُرْبه وبُعْده ، ولقّى المسلمين ولىَّ عهْدهم ، واليًا على أمورهم فى حياته وبعْد مماته ، مستقلًّا بالأمر فى قُرْبه وبُعْده ،

Marfat.com

مُعِينًا لأبِيــه فى حياتِه خلِيفةً له من بعْـدِه؛ وأن يصَرِّحَ له بالاِستخلافِ ويُوضِّح ، ويتلُوَ عليه بلسان التفويض ﴿ آخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وأَصْلِحْ ﴾ .

واقتضتْ شفَقةُ أمير المؤمنين ورأفَتُــه ، ورِفْقُه بالأمة ورحمتُه ؛ أن ينْصِب لهم ولىَّ عهدٍ يكونُ بهذه الصِّفات متَّصِفا، ومن بحْره الكريم مغْتَرِفا، ومن ثِمَـار معروفِه المعروفِ مقتَطِفا ؛ ولمَنْهَـله العَذْب وارِدا، وعلىٰ بيتِــه الشريفِ وسائِرِ الأمَّة بالخير عائِدا ؛ فلم يجِدْ من هو مستكمِلٌ لجميعها، مستوعبٌ لأُصُولها وفُروعِها ؛ وهو بمطْلُوبها أَمْلىٰ، وعلىٰ قلوب الرعيَّــة أحْلىٰ ؛ وللغَلِيل أشْــفىٰ، وبالعهدِ الجميلِ أوْفىٰ ؛ من ولده المشارِ إليه . فاستشار فى ذٰلك أهلَ الحَلِّ والعقْد من قُضاتِه وعلمائِه، وأُمَرائه ووُزَرائه، وخاصَّته وذَوِيه، وأقاربه وبَنِيه ، وأعيان أهل العصر وعامَّته ، وجُمْهوره وكافَّته ؛ فرأَوْه صوابًا، ولم يَعْرُهم فيه ظِنَّةٌ ولا مُسْترابا[1]، ولا وجدَ أحدٌ منهم إلىٰ باب غيره طريقًا ولا إلىٰ طريقِ غيرِه بابًا ؛ فاستخارَ اللهَ تعالىٰ فيه فأقبلَ خاطرُه الشريفُ عليه، وكَرَّر الاِستخارةَ فلم يجِدْ عنه مَحِيدًا إلَّا إليه .

فلمَّــا رأىٰ أنَّ ذٰلك أمرٌ قد انعقد عليه الإجماعُ قَوْلا وفِعلا، وعُدِم فيه المخالِفُ بل لم يكُنْ أصْلا ؛ حمِدَ اللهَ تعــالىٰ وأثْنىٰ عليه، وسأله التوفيقَ ورَغِب إليه ؛ وجَدَّد الاِستخارةَ وعَهِد إليه بأمْر الأمَّة ، وقلَّده ما هو متقَلِّده من الخلافة المقدَّســة بعْدَه علىٰ عادةِ مَنْ تقدَّمه من الخُلَفاء المــاضين ، وقاعدةِ مَنْ سلَف من الأئمة المهْدِيِّين ؛ وفوَّض إليه ماهو من أحْكامِهــا ولَوازِمها ، وأُصولهــا ومَعالِمها . من عَهْدٍ ووِصَايه، وعَزْل وولَايه ؛ وتفْويض وتَقْليــد، واِنتزاعٍ وتَخْليــد ؛ وتفْرِيقٍ وجَمْــع، وإعطاءٍ ومَنْع، ووَصْــل وقَطْع ؛ وصِلة وإدرار، وتقْليــلٍ وإكْثار ؛ جُزْئيِّها وكلِّيِّها، وخفِيِّها

(١) اضطره السجع إلىٰ نصب المرفوع .

Marfat.com

وجَلِيِّها، ودانيها وقاصِيها، وطائِعها وعاصِيها ؛ تفويضًا شرْعِيًّا، تامًّا مَرْضِيًّا، جامعًا لأحكامِ الوِلَاية جَمْعا يعُمُّ كلَّ نِطاق، ويَسْرِى حكمُه فى جميع الآفَاق، ويدخلُ تَحْتــه سائِرُ الأقاليم والأمصارِ علىٰ الإطْلاق، لايغَيَّر حكمُه، ولا يُمْحىٰ رسْمُــه، ولا يَطِيشُ سَهْمه، ولا يأفلُ نَجْمه .

قِبَلَ المعهودُ إليه ــ أعلىٰ الله مَقامَه ــ ذلك بمحْضَر من القُضاة والحُكَّام، والعلماء الأعْلام، ولزِمَ حكمُه وٱنبَرَمْ، وكُتِب فى سِجِلَّات الأفلاك وٱرْتَسَم، وحُمِلت رسائلُه مع بُرُد السَّحاب فطافَتْ به علىٰ سائِرِ الأُمَم ؛ وهو ــ أبقاه الله ــ مع ماطُبِعت عليه طِباعُه السليمه، وجُبِلت عليه سَجاياه الشريفةُ وأخلاقُه الكَرِيمه ؛ قد تلقَّىٰ عن أمير المؤمنين من شريف الآدابِ ماغُذِّى به فى مَهْــده، وتلقَّف منــه من حُسْن الأَدَوات مايَرْوِيه بالسَّــنَد عن أبيــه وجَدِّه ؛ ممــا ٱنْطَبع فى صَفاء ذِهْنــه الصَّقِيل وٱنتقَشَ فى فَهْمِه، وٱختَلَط من حال طُفُوليَّته بدَمِه ولَحْمِه وعَظْمِه ؛ حتَّىٰ صار طبْعا ثانِيا، وخُلُقا علىٰ مَمَــرّ الزمان باقِيا ؛ وٱجتمع لدَيْه الغَرِيزىُّ فكان أصْلا ثابِتا، وفَرْعا علىٰ ذٰلك الأصلِ القوىِّ نابِتا ؛ لكنْ أميرُ المؤمنين يُوصِيه تبرُّكا، ويشْرَح له مايكونُ به ــ إن شاء الله ــ متَمَسِّكا ؛ والمرءُ إلىٰ الأَمْر بالخير مَنْدُوب، ووصيَّةُ الرجل لبَنِيه مطلوبةٌ فقد قال تعالىٰ : ﴿ ووَصّىٰ بِهَا إبْراهِيمُ بَنِيهِ ويَعْقُوبُ ﴾ .

فعليكَ بمراقبةِ الله تعالىٰ فَمَنْ راقبَ الله نَجَــا، و [اجعل] التَّقْوىٰ رأسَ مالك : ﴿ومَنْ يَتَّقِ اللهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾ وٱلجَأْ إلىٰ الحق فقد فازَ مَنْ إلىٰ الحق لَجَا ؛ وكتابُ الله هو الحبلُ المتين، والكتابُ المُبِين ؛ والمَنْهَج القوِيم، والسبيلُ الواضِحُ والصِّراطُ المستقِيم ؛ فتَمَسَّكْ منه بالعُرْوة الوثقىٰ، وٱسْلُكْ طريقتَه المُثْلىٰ وٱهتَدِ بهَدْيِه فلا تَضِلّ ولا تَشْقىٰ ؛ وسُــنَّة نبيِّه محمد صلى الله عليه وسلم عليك بالٱقتداءِ بأفعالهــا الواضحه، والإصغاءِ لآثار أقوالِها الشارحه ؛ عالمًــا بأنَّ الكتاب والســنة أخَوَان لا يفْتَرِقان ،

Marfat.com

ومُتلازِمانِ بحبْل التبايُن لا يعتَنِقان ؛ والبِلادَ والرَّعايا فحُطْهما بنَظَرك ما ٱستطعْت ؛ وتثبَّت فى كل قَطْع ووَصْل فأنتَ مسْئُول عن كل ما وصَلْتَ وقطَعْت ؛ والآلَ والعِتْرَةَ النبويَّة فَفِيهِمَا حقَّ القرابة منك ومن رسولِ الله صلَّى الله عليه وسلم الذى أشرقَتْ به ؛ وٱعلم أنك إذا أكرمْتَ أحدا منهم فإنما أكرمتَه بسَببِه ؛ وٱتَّبع فى السِّيرة سِيرةَ آبائك الخلفاء الراشدين لا تَزِغْ عنها ، ولا تعمَلْ إلَّا بها وبما هو ـ إن ٱستطعتَ ـ خيرٌ منها ؛ وٱقْفُ فى المعروف آثارَهم المقدَّسَةَ لتحْوِىَ من المآثِرِ ما حَوَوْا ، وٱحْذُ حَذْوَهم فى طريقِهم المباركةِ وٱبنِ المجدَ كما بَنَوْا ؛ وأحْيِ من العمل سنَّة سلَفِك المصطفَيْنَ الأخيار ، وٱحرِصْ أن تكونَ من الأئمة الذين يُظِلُّهم الله تحتَ عرشه : ﴿ يَوْمَ يَقُومُ الأَشْهادُ يَوْمَ لا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ . وأسْلِفْ خيرًا تُذْكَرُ به على مَمَرِّ اللَّيالى ، وينتظِمُ ذِكْرُه فى عُقُود الأيَّام كما تنتظم فى السِّلْكِ اللَّآلى ؛ ولْيكُنْ قصْدُك وجهَ الله ليكونَ فى نُصْرتك فإنَّ مَنْ كان الله تعالى فى نُصْرته لا يُبالِى ؛ ولْتعْلَمْ حقَّ اليقينِ أنَّ حسنَةَ الإمام تُضاعَفُ بحَسَبِ ما يترتَّب عليها من المَصالح أو يتجدَّدُ بسببها ، وسيِّئَته كذلك فمن سَنَّ سيئةً كان عليه إثمُها وإثمُ مَنْ عمِل بها ؛ ودُرْ مع الحقِّ كيفَ دارَ ومِلْ معه حيثُ مال ، وٱعلَمْ بأنَّ اللهَ لا يُغَيِّر ما بقَوْم حتَّى يُغَيِّروا ما بأنفُسِهم وإذا أرادَ اللهُ بقوم سُوءًا فلا مَرَدَّ لَهُ وما لهم مِنْ دُونِه مِن وال ؛ ولا تُخطِرْ ببالك أنَّ هذا الأمْرَ ٱنتهى إليكَ بقُوَّه ، أو يَغُرَّكَ ما قدَّمناه من الثناء عليك فالتأثُّر بالمَدْح يُخِلُّ بالمُرُوَّه ، ولا تتَّكِلْ على نَسَبك فمَنْ أطاعَ اللهَ أدخلَه الجنةَ ولو كان عبْدا حبشيًّا ، ومَنْ عصاه أدخلَهُ النارَ ولو كان هاشميًّا قُرَشيًّا ، وٱستنْصِر اللهَ ينصُرْك وٱستعِنْ به يكُنْ لك عَوْنا وظَهِيرا ، وٱستَهْدِه يَهْدِكَ ﴿ وَكَفَى بِرَبِّكَ هادِيًا وَنَصِيرًا ﴾ وكُنْ [من] الله خائفًا ومن مكره من المُشْفِقين ، فإنَّ الأرضَ لِلهِ يُورِثُها من يَشاءُ من عباده والعاقبةُ للمتَّقين .

Marfat.com

هـذا عهدُ أمير المؤمنين إليك ، ووصيّتُه تُملَى عليك ؛ ﴿وذكّر فإنّ الذّكرى تنفعُ المؤمنين﴾ والله تعالى يبلّغه منك أملاً ، ويحقّق فيك علماً ويزكّي بك عملاً ؛ والاعتماد على الخطّ المقدّس الإماميّ الحاكميّ – أعلاه الله تعالى – أعلاه ، [illegible] فيه إن شاء الله تعالى .

المذهب الثاني

[illegible] يفتتح [illegible] بعد البسملة بلفظ «من [illegible] إلى فلان» كما يكتب في المكاتبات [illegible] يأتي [illegible] بما [illegible] الحال [illegible] ذكر الولاية [illegible]

[illegible]

ثم [illegible] بأن [illegible] في [illegible] .

[illegible] من ذلك [illegible] الحافظ لدين الله الفاطمي [illegible] حيدرة [illegible] عبد [illegible] فيها [illegible] :

من عبد الله [illegible] الحافظ لدين الله أمير المؤمنين ، إلى [illegible] الطاهر [illegible] والسامي [illegible] الله [illegible] أمير المؤمنين ، [illegible] سلام .

سلامٌ عليك [illegible] أمير المؤمنين [illegible] إليك الله الذي لا إله إلا هو [illegible] يصلّي على جدّه [illegible] خاتم النبيين [illegible] المرسلين ، صلّى الله عليه [illegible] الأئمة المهديّين [illegible] تسليماً .

أما بعد ، فإنّ [illegible] البديع [illegible] الدين [illegible] وآراه ، واستكفى [illegible] من [illegible] الأ[illegible] .

Marfat.com

ونزّلهم بمنزلة الضِّـياء من الأزْناد ؛ وجعلهم مستخْدِمين لأفكارهم فى مصالح البريّة التى غدَتْ فى أمَانِهم ، وحصلَتْ فى ضَمَانِهم ؛ فظلَّت فى ذِمَامهم ، وسَعِدت فى عِزّ مَقَامِهم وظلّ أيّامهم : لأنّهم نُصِـبوا للنظر فيما جَلّ ودَقّ ، وتَعِبُوا لراحة الكافّة تَعَبا صَعُب وعَظُم وشَقّ ؛ وكان ذٰلك سِرًّا من أسرار الحِكْمه ، وضرْبا من أفضـل تدْبير الأُمّه ؛ إذ لو ساوىٰ بينَ الرئيس والمرْءُوس ، والسائِس والمَسُوس ؛ لآختلطَ الخُصُوص بالعُمُوم ، ولم يبقَ فرقٌ بين الإمامِ والمأْمُوم .

وقد آستخلص اللهُ أمير المؤمنين منْ أشرَفِ أُسْرة وأكرمِ عِصَابه ، وأيّده فى جميع آرائه بالحَزَامة والجَزَالة والأَصالة والإصابَهْ ؛ وقَضىٰ لأغْراضِه أن يكونَ السعدُ لها خادما ، وحَتَم لمقاصِده أن يُصاحِبَها التوفيقُ ولا يَنْفَكّ لها مُلازِما ، وجمع له ما تفترق فى الخليقة من المَفَاخر والمَنَاقِب ، وألهمه النظَرَ فى حُسْن الخواتم وحميد العَوَاقب .

ولـما كان ولِيُّ عهْـدِ أمير المؤمنين أكبَرَ أبناءِ أميرِ المؤمنـين ، والمنتَهىَ لأشرف المراتِب من تقادُم السِّنين ؛ وقد آستولىٰ علىٰ الفَخْر باكتِسابه وآنْتِسابه ، وتصدَّت له مخطوباتُ الرُّتَب ليحُوزَها باستحقاقه وآستِيجَابه ؛ وله من فضـيلةِ ذاته ما يدُلُّ علىٰ النبإ العظيم ، وعايه من أنوار النبوّة ما يهْتدى به السارى فى الليل البَهيم ؛ وحين حوىٰ تالِدَ الفَخْر وطارِفَه ولم يستَغْنِ بالقـديم عن الحديث ولا بالحَديث عن القَديم ؛ والصِّفاتُ إذا آختلفَتْ أربابُهـا لا تقَع إلا دونه ، والثوابُ الجزيلُ مـا أعدّه الله للذين يُخْلِصون فيه ويتولَّوْنه ، ولْيفخَرْ بأنْ خُصَّ من العِناية الملكُوتيّةِ بالحظّ الأجْزَل ، ولْيتسَمَّحْ علىٰ البَرَايا ليكُونَ ممدُوحًا بالكتاب المنزَّل ؛ ولْيبْذَخْ فإنّ وصْفَه لا تُبْلِغ غايتُه وإن آستُخْدِمت فيه الفِكَر ، ولْيَسْجحْ فإن فضله لا يُدْرك حقيقةً إلا إذا تُلِيت السُّوَر ، فامتَعه اللهُ بمواهبه لدَيْه وأمتَع أمير المؤمنين به ، وأجرىٰ أمورَه عاجلا وآجلا بسَبَبه .

رأىٰ أميرُ(١) المؤمنين أن يختَصه بوِلَاية عهد أمير المؤمنين تميزاً له بهـذا النعْت الشريف، وسُمُوًّا به إلىٰ مايجب لمَجْده الشامخ ومحلِّه المُنِيف ؛ وٱقتداءً بأسلافه الأئمة الأطهار فيما يُشَرِّفُون به أبناءَهم الأكْرَمين ، وتخصيصًا له بما يبقىٰ فخرُه علىٰ متجدِّد الأزمان ومُتطاوِل السِّنين . وأمر أمير المؤمنين أن يُتخَيَّر من رجال دوْلته، ووُجُوه أجناده وشِيعتِه ؛ طائفةٌ يكونُ إليه آنتماؤُها، وإلىٰ شَرَف هـذا النعتِ آنتسابُها وآعتزاؤُها ؛ فتُوسَم بالطائفة العَهْديَّة، وتَحْظىٰ إذا أخلصَتْ فى الوِلَاية بالسَّعادة الدائمة الأبدِيَّه ؛ وتظلَّ موقُوفةً علىٰ خِدْمته، متصرِّفةً علىٰ أوامِرِه وأمْثِلته ؛ منتهيةً فى طاعته إلىٰ أغراضـه ومآرِبه، ملازمةً لِلَّازم المتعَيِّن من مُلازمة الخِـدْمة فى مَواكِبه ؛ والله تعالىٰ يجعلُ مارآه أميرُ المؤمنين من ذٰلك كافِلًا بالخيرات، ضامنًا لشُمول المنافِع وعمومِ البركات ؛ إن شاء الله تعالىٰ : والسلامُ علىٰ ولىِّ عهد أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاتُه .

* * *

وهذه نسخةُ بولايةِ العهد من خليفةٍ لولده بالخلافة علىٰ هذه الطريقة، من إنشاء القاضِى الفاضِل ؛ أتىٰ فيها بالتحميد بعد التصدير ثلاثَ مرَّات، وهى :

من عبـدِ الله ووليِّه فلان أبى فلان الإمام الفلانىّ إلىٰ فلانٍ الفلانى ، والصلاة والسلام علىٰ النبىّ صلىٰ الله عليه وسلم على نحو ماتقدّم فى العهد قبله .

أما بعـدُ ، فالحمدُ لله الذى آستحقّ الحمدَ بفَضْله ،وأجرىٰ القَضَاءَ [علىٰ ما أراده](٢) ووَسِـعَ الجَرَائِمَ بعَفْوه وعَدْله ؛ وصَرَّف المَراحِمَ بين قَوْله وفِعْـله . وأعلىٰ منارَ الحق

(١) لعل هذا جواب الشرط فى أول الفقرة قبـل ويكون العامل فى حين بعـده محذوفا دل هذا عليه . تأمل .

(٢) بياض فى الأصل والتصحيح من المقام .

[illegible] إلى أهله ، واختار الإسلامَ ديناً وعَصَم المعتقين بحبله ، وأوضح سُبُل النجاة [illegible] لسالكيه من سُبُله ، وتعالى عُلاه إلى الصفات ، فلم يوصف بمثل قوله : [illegible] كمثله ، وتنزه عن اشتراك التشبيهات ، في كل جليل الوصف مستقلّه وغير [illegible] ، علم ما اشتملت عليه خَطَراتُ الأسرار ، وأشارت إليه نَظَراتُ الأبصار ، [illegible] عنه غَمَراتُ الأخطار ، وأخفته سَتَراتُ الظلماء وباحت به جَهَراتُ [illegible] سواء منكم من أسرّ القول ومن [illegible] به ومن هو مستخف بالليل [illegible] بالنهار) .

والحمد لله الذي [illegible] الدين عنده الإسلام ، فمن ابتغى غيره ضلّ المنهج ، وأبعد [illegible] ، وغلط المخرج ، وفارق النور الأبلج ، وركب الطريق [illegible] بالسان الملجلج ، ومن أسلم وجهه إليه فاز بالسعي [illegible] ، وورد المورد الأحمد ، ويمّم القصد الأقصد ، ووجد [illegible] المنهج الأرشد ، فهو العروة الوثقى ، والطريقة المثلى ، [illegible] المرسلين ، المنعوت في سير الأولين ، المبعوث بالحق [illegible] الأميين ، والهادي إلى الحق وإلى طريق مستقيم ، [illegible] به غفر له ما تقدم من ذنبه وأجير من عذاب أليم ، [illegible] بفضل ما منح من الخلق العظيم ، والممدوح بقوله : [illegible] من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين [illegible]

[illegible] الحمد لله الذي [illegible] النبوة بالإمامة ، وجعلها كلمة باقية في عقبه إلى يوم القيامة ، [illegible] التي لا تنبغي إلا لتمام الكرامة ، وأجار بها خلقه من متالف

---

(١) [illegible] من المقام [illegible]

الطامّة وبَوادِى النَّدامه ، وهدىٰ بشرف مَقامِه إلىٰ دار المُقامه ، وآستردَّ بأنوار تدبيرِه من ظَلَام البـاطِلِ الطُّلَامه ، وأحسَنَ بمـا أجراه من نَظَره النظرَ للخاصَّـة والعامه ، ﴿ إنَّ هٰذَا لَهُوَ الفَضْلُ المُبِين ﴾ .

يحمَدُه أميرالمؤمنين أنْ رَفَعه إلىٰ ذلك المحلِّ المُنِيف ، وآستَعْمَر به المَقامَ الشريف ، وأظهرَ كلمةَ الدِّين الحنيف ، ونفىٰ عنه تَغَـالِىَ التعمُّق وتَحْدِيفَ التحريف ، وبيَّن بموافَقة تَوْفِيق هَدْيه طريقَ التكليف ، وأمدّه بمَوادَّ إلٰهيَّة تشتهر فتستغنِى عن التعريف ، وتتَّصل فتقْطَع مَوَادّ التكْيِيف .

ويسألُه أن يصلِّىَ علىٰ جدّه محمدٍ الذى نَسَخ بشريعتِه الشرائع ، وهذَّب بهِدَايتـه المَشَارع ، وأيَّده بالحُجَج القواطِع ، والأنوارِ السَّواطع ، وجعل من ذُرِّيَّته جبالَ الله القَوارع ، ومن مِشْكاته نُجومَ الهُدىٰ الطَّوالع ، وعُدِقتْ صـنائعُه بالله إذا آفتخَرت المُنْعمون بالصَّنائع ، وعلىٰ أخِيـه وأبِينا أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب المخصوص بأُخُوَّته ، وأبى الثقَلَيْنِ من عِتْرته ، والسابقِ إلىٰ الإسلام فهو بعْـدَه أبو عُذْرته ، وإلى تفريج الكَرْب عن وجْهه فى الحَرْب فهو آبنُ بَجْدَته . وعلىٰ الأئمةِ من ذرّيتهما مَصابيح الظُّلُمـات ، ومَفاتيح الشُّكوك المُبْهَمَات ، والممنوحين من شَرف السِّمات ، ماجَلَّ عن المُسامَات ، والممدوحينَ بفضْل الجاه فى الأرَضين والسَّمٰوات .

وإن الله بحكمته البَدِيعـه ، ورحمتِه الوَسِيعه ، أقام الخلفاء لخلقه قِوَاما ، وقُوَّاما ، وجعل نارَ الحوادثِ بنُورهم بَرْدا وسَلَاما ، وجعـل لهم الهداية بأمره لِزَاما ، وآستَصْرَف بهم عن الخَلْق عذابَ جَهَـنَّم ﴿ إنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَاما ﴾ ، فهم أرواحٌ والخلائقُ أجسام ، وصَبَاحٌ والمَسَالِكُ أَظْلام ، وثمراتٌ والوجُودُ أكمام ، وحُكَّام والحقائقُ أحْكام ، يَسْهَرُون فى منـافع الأنَام وهم نِيَام ، وينفَرِدُون بوَصَب النَّصَب

Marfat.com

ويُفْرِدُونهم بلذّاتِ الجَـام ، ويهتَدُون بهِدَاياتهم إلىٰ ماتَدِقُّ عنـه حوائِطُ الأفْهام ، ولا يُدْرَك إلّا بوسائِط إلهام . وقد آصطفىٰ اللهُ الأميرَ من تلك الأُسْره ، ورَقّاه شرفَ تلكَ المنـابِرِ ومُلْك تِلكَ الأسِرّه ، وأنار بمَقَامه نُجومَ السـعادة المستَسِرّه ؛ وآستخْدَم العالَمَ لأغْراضه ، وسدّدَ كلَّ سهْمٍ فى رَمْيه إلىٰ أغراضه ، وأقرضَ اللهَ قَرْضًا حسَنا فهو واثقٌ بحُسْن عواقب إقراضه ، وآفترضَ طاعتَه فى خَلْقه فالسعيدُ من تلقّىٰ طاعة أميرِ المؤمنين بآفْتِراضـه ، وأمضىٰ أوامِرَهُ علىٰ الأيّامِ فـا يقابِلُها صَرْفٌ من صُروفها باعْتِراضه ، وأدار الحقّ معه حيثُ دار ، وكشَفَ له ما آستجَنّ تحتَ أستارِ الأقْدار ، ووقَفَ الخيرةَ والنُّصْرة علىٰ آرائِه ورِاياتِه فهو المستَشار والمستَخار ، وألهمه أن يحفَظَ للأمة غَدَها كما حَفِظ لهـا يومَها ، وأن يُجْرِىَ لهـا مَوارِدَ توفيقِ الآرتيادِ ولا يُطيلَ حومَها ، وأن يجعل المؤمنَ علىٰ ثَلَج من الصُّدور ، وفَلْج من الظُّهور ، ويُودِعَ عندها بَرْدَ اليقينِ بالإشارةِ إلىٰ مستَوْدَع النُّور ، ويجعلَها علىٰ شريعـةٍ من الأمر فتَتّبِعها ، ويُحِلَّها بمنزلة الخِصْب فترتَبِعها ، ويُعْـلِم نَدِىَّ خَيْره ليكونَ غايَتَها ومَفْزَعها ، ويُعَرِّفَها من تنتظِرُه فتتّخذه مآلَهَا ومَرْجِعَها ، ويقتَدِى فى ذٰلك بسيد المرسَلين فى يومِ النَّدِير ، ويُشِير إلىٰ مَنْ يقُوم به المشيرُ مقام البشير .

ولمّـا كنتَ حافِظَ عهد أمير المؤمنين والسـيِّدَ الذى لا بُدّ أن يُتَوَجَ به السَّرير ، والنَّجْمَ الذى لابُدّ أن نستطِيلَ إلىٰ أنْواره ونسـتَطِير ، والذَّخيرة التى ادَّخَرها اللهُ لِنَيْل كل خَطَر ودَفْع كلِّ خَطِير ، والسَّحابَ الذى فيه الثَّجُّ المَطِير ، والنَّجمُ المُنِير ، والرَّجْمُ المُبِير ، وقد تجلَّتْ لكَ أوجُهُ الكرامات وتبدّتْ ، وتبرَّجَتْ لك مخطُوبات المَقَامات وتصـدّتْ ، وطلَبَتْك كُفْئًا لنَيْلِ عَقِيلتها وسُكْنى مَعْقِلها فـا تعدّتْ ، وأدّت إليكَ لطائِفُ فَهْمِكَ من أسرار الحقائِقِ ما أدّتْ ؛ وعرَفَتْ من سِيمـاكَ هَـدْى النبوّه ، وآجتمع لكَ مزِيّةُ الشرَفين من الطَّرَفيْنِ الأُبُوّة والبُنُوّه ، وأخذْتَ كتابَ الحكمة

ومَصُون العِصْمة بقُوّه ، وأَجَرْتَ القلوبَ التى بعوارض الشَّكِّ مَمْنُوّه، وآثرْتَ العقائدَ التى بنواقِض العقْد مملُوّه، وغدَتْ وُجُوه الأنام بأيْمك بَجْلُوّه، وتوافقت الألْسُنُ على مَدْحك ولا مِثْـلَ ما مُدِحْتَ من الآيات المتلُوّه ، وكنتَ بحيثُ تَذْهبُ بالأهوال المسْلُوّه ، وتُقْبِـل بالآمالِ المرْجُوّه ؛ ولو أنَّ رَكْبًا ضلَّ لَهَداهُ نورُك فى اللَّيْـلِ البَهيم، ولو أنَّ ذِكْرَك شذَّ لتبـدّى فى الآياتِ والذِّكْر الحكيم، ولو أنَّك طلَعْتَ على الأوّلين لمـا تساءَلُوا ولا آختلَفُوا فى النَّبإ العظيم، ولوأنَّ قديمًا عَلا فوق كلِّ حديثٍ لقام لكَ الحديثُ مَقَامَ القديم ، ولو أنَّ جميعَ الأنام فى صـعيدٍ واحدٍ لصَعِدتَ دُونَهم المَقَـامَ الكريم ،ولو أنَّ يدَكَ البيضاء تجَسَّمتْ للناظرين لأعَدْتَ آيةَ مُوسىٰ الكليم ، ولو أنَّ هِدايتَكَ الغرَّاء تنسَّمتْ للذاكرين لأحيَيْتَ بهـا العِظامَ وهى رَمِيم ، ولو أنَّ عُلُومَك نتشرتْ بينَ العلَماء لتلَوْا : ﴿وفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيم﴾ ولو أنَّ ليلةَ وِلادتِك رصَدَتْها البصائرُ، رأت كيف يُفْرَقُ فيها كلُّ أمْرٍ حكِيم ؛والصِّفاتُ إذا آحتفل أربابُها وقفَتْ لك عبيـدا ، والأيامُ إذا كانتْ ظُروفًا لفضائِلكَ كان كلُّ يوم منها للعبيد عِيدا ، والأنسابُ إذا عددْتَها كان الجَدُّ سعِيدا ؛ فلْتفخَرْ قبْلَ السير بأن أمليْت عليها السُّوَر، وأبشِرْ بأن المنتَظَر من فضل الله لكَ فوْقَ ما تَعجَّله النظَر، وآشمَخْ بأنَّ سادةَ القبائل مُضَرُ وأنك بعـد أمير المؤمنين سـيِّدُ مُضَرْ، وآبذَخْ بأنك عِوَضٌ من كلِّ مَنْ غاب وماعنك عِوضٌ فى كل مَنْ حَضَر، وآبْجَحْ بأنك قد أُهِّلْتَ لأمرٍ أبىٰ الله له إلا أُولِى العَزْم والخَطَر، وآشكُرِ اللهَ علىٰ نعمة خلقَك لها بِقَدَرْ، ومزيَّةٍ لايُوفِّ حقَّها من أضمر فأغْرَقَ أو نطقَ فشكَر : وقُلِ ﴿ الحمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى هَدَانَا لِهٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِىَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا الله ﴾ : ﴿ وقُـلْ رَبِّ أَوْزِعْنِى أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِى أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وعَلىٰ وَالِدَىَّ وأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاه ﴾ .

Marfat.com

فإليك هـذا الأمرُ يَصِير، وأنت لَهُ واللهُ لك نِعْمَ المَوْلىٰ ونِعْمَ النَّصير؛ وتأهَّبْ له في درجته التي لايَنَـالُها باعٌ قصير، ولا يمْتَطِيها إلَّا من آختارهُ اللهُ علىٰ عِلْمٍ من أهل الثقلين ولو أنَّ بعضَهم لبعضٍ ظَهير، ولا نرىٰ لها أهلا إلَّا مَنْ أراه الله من آياتِه أنه هو السَّمِيع البصير، وفاوِضْ أميرَ المؤمنين في مُشْكِلات الأمر ولا يَنَبِّئُك مثلُ خَبِير، وآقْتَدِ منه بمن هو [في] أهل دهره وَصِيُّ الوصِيّ ونظيرُ النَّذِير، وآهتَدِ بنُوْره الذي هو بالنُّور البائنِ دُونَ الخلق بشِير، وسِرْ إذا آستعْمَلك اللهُ فيهم بما رأيتَ أميرَ المؤمنين به فيهم يَسِير، وآدْعُ اللهَ بأن يُيَسِّر علىٰ يَدِك مَنَاجِحَهم إنَّ ذٰلك علىٰ الله يَسِير، وآعْرِف ما آثَرَك اللهُ به من أنه لم يجعل لِيَدِك كُفُؤًا إلا ذا الفَقَار ولا لقَدَمك كُفُؤًا إلا المِنْبَر والسرير، وتحدّثْ بنعمة الله وإجرائِها فأميرُ المؤمنين اليومَ عليك أميرٌ وأنت غَدًا علىٰ المؤمنين أمير: ﴿هٰذا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لنفســـه﴾.

وأما العـدْلُ وإفاضَتُه، والجَوْرُ وإغاضَـتُه، والصَّعْبُ ورِياضَـتُه، والجَدْب وترويضُه، والخَطْب وتَفْوِيضه؛ والجهادُ ورَفْع عَلَمه، والذبُّ عن دِينِ الله وحِفْظُ حُرَمه؛ والأمْرُ بالمعروف ونَشْر رِدَائه، والنهيُ عن المنـكر وطَيُّ آعتِدَائه؛ وإقامةُ الحدّ بالصُّفْح والحَـدّ، والمُساواةُ في الحقِّ بين المَوْلىٰ والعَبْد؛ وبثُّ دعوة الله في كل غَوْر من البلاد ونَجْد، وأمرُ عباد الله إن عباد الله في زمنك الرغد؛ فذٰلك عهْدُ الأئمة الراشدين، وهو إليك من أمير المؤمنين، عَهْدٌ مؤكَّد العَقْد: وهو سُنَّة فضل الخلفاء التي لاتَجِـدُ لهـا تَحْويلا، ومعنىٰ العـهدِ الذي أمر اللهُ بالوفاء به فقـال: ﴿إنَّ العَهْدَ كان مَسْئُولا﴾.

وهل يُوصىٰ البحرُ بتلاطُم أمْواجه؟ وتَدَافُع أفْواجِه؟ وبتَزَاخُر عَجَاجِه؟ وهل يُحَضُّ البدرُ المنيرُ علىٰ أن يُنِير سِراجُهْ، ويَطْلُعَ ليتَّضح للسالك مِنْهاجُه؟ أو يُنَبَّهُ علىٰ هدايته

Marfat.com

إذا تهادَتْه أبراجُه ؟ وعليكَ من سرائرِ أنوار الله ما يُعنيك أن تُوصى ، ولديْكَ من ظواهر لطائفِ اللهِ ما تَميَّز به عن الخلقِ إذ أضحيْتَ به مخصوصا ، ومن شواهدِ اختيار الله ما تظاهرتْ عليك آياتُه نُصوصا ، فبسلام الله يُحيِّيك المؤمنون ، وبالاعتلاق بعصمة ولائك في يوم الفزع الأكبر يأمنون ، والله منجزٌ لك وعده كما أنجزه لمن جعلهم أئمةً لمَّا صبروا وكانوا بآياتنا يُوقنون ، والله سبحانه يُهدي إليك تحيةً من عنده مباركةً طيبة ، ويُسدي إلى مقام شرفك سحابةً رحمةً غدقةً صيبة ، ويجعل ما رآه أمير المؤمنين من ولايتك عهده ، وكفالتك للأمة بعده ، للمسرات تمثالا ، وللمساءات حاسما ، وللبركات جامعا ، وللباطل خافضا وللحق رافعا ، وأمر أمير المؤمنين أن يعيّن على رجال من أولياء دولته ، ووجوه شيعته ، وأنصار مدينته ، عدة يكون إليك اعتزاؤها وبك اعتزازها ، وببابك العالي إقامتها وإلى جنابك انحيازها ، فتكون موسومةً بالعبودية ، ومتعرضةً بالولاء للسعادة الأبدية ، فتستقل على ما تكلّه من المراسم ، وتتصرف على ما تصرفها عليه من العزائم ، وتكون أبدا لما يتعلق بك من أحكام الهبات والمكارم ، وتقوم من ملازمة الخدمة في مواليك بما هو أعلى من فرض لازم ، وتسارع في مطالبك إلى ما يسارع إليه الحاسم ، وتعود بالأمانة الإلهية بالقدر الساجم ، وتقدر لها من الواجبات والزيادات ما تقتضيه همم المكارم ، وتبذل في الخدمة الاجتهاد ، وتنافس فيما تستعد [به] الحضرة بحضرة الإسعاد ، [illegible] من الإحسان [illegible] الأدباء ، وتعيها [illegible] ، [illegible] وتفتخر بأن [illegible] إن شاء الله تعالى .

المـــــــذهب الثـــالث

(أن يَفْتَتِح العهدَ بعد البسملة بخطبة مفتتحة بـ«الحمد لله» ثم يأتِيَ بالبعديّة، ويأتى بما يُناسبُ الحالَ على نحو ماتقدّم؛ وعليه عمل أهل زماننا مع الاقتصار على تحميدةٍ واحدةٍ، والاختصارِ فى القول)

وهذه نسخةٌ أوردها علىّ بنُ خلَف من إنشائه فى كتابه "مواد البيان" لترتيب الكتابة فى زمن الفاطميين، وهى:

الحمد لله مُعِزِّ دينه بخُلَفائه الراشدين، ومرتِّبِ حقِّه بأوليائه الهادين؛ الذى آختار دِينَ الإسلام لصَفْوته من بريّته، وخَصَّ به من آستخلَصَه من أهل طاعته؛ وجعله حَبْلَه المتين، ودينَه الذى أظهرَه على كلِّ دين؛ وسبيلَه الأفسح، وطريقَه الأوْضَح؛ وآبتعثَ به نبيَّه محمدًا صلى الله عليه فصدَعَ بأمره، وأعلَنَ بذكره، والناسُ فى فَتْرة الضَّلاله، وغَمْرة الجَهالَه؛ فلما أنجز فى نُصْرة حقِّه، وتأييده لسُعَداء خَلْقه [قبضه] إليه محمودَ الأثَر، طيّبَ الخَبَر [وقام] بخلافته، مَن آنتخبَه من طَهَرة عِتْرته؛ وأودعَهم حكمتَه، وكفّلهم شريعتَه؛ فآتّخذوا سبيلَه، وآتبعوا دليلَه؛ كُلَّما قبَضَ منهم سَلَفا إلى مَقَرّ بَعْده، آصطفى خَلَفا للإمامة من بعْده.

يحمَدُه أمير المؤمنين أن أفضى إليه بتُراث الإمامةِ والرِّساله، وهَدى به كما هدى بجَدّه من الزَّيغ والضَّلاله؛ وآختصّه بميراث النبوّة والخلافه، ونصَبَه رحمةً للكافّه؛ وأتمّ نعمتَه [عليه] كما أتمّها على آبائه؛ وأجزَل حظَّه من حُسْن بَلائه؛ وأعانَه على ما آسترعاه، ووفّقه فيما ولّاه؛ وأنهضَه بإعزاز الملّه، وإكرام الأمّه؛ وإماتةِ البِدَع، وإبطال

(١) بياض بالأصل، والتصحيح مما يقتضيه المقام.

Marfat.com

المَذْهَبِ المخترَع، وإحْياءِ السُّنَن، والاِستقامة علىٰ لاحِبِ السَّنَن ؛ ووَهَبه من بَنِيه وذُرِّيَّته، مُؤَازِرِين علىٰ ماحَمَّله من أعباء خِلافَتِه، ومُظاهِرِين علىٰ ما كَلَّفَه من إمعان النظر فى بَرِيَّته .

ويسالُهُ الصلاةَ علىٰ محمدٍ خاتَمِ أنبيائه ، والخِيرةِ من خُلَصائه ؛ الذى شرَّفه بخِتام رُسُله ، وإقرار نِيَابته فى أهله ؛ صلَّى الله عليه وعلىٰ أخيه وآبنِ عمِّه وباب حِكْمَتِه، علىّ بن أبى طالب وَصِيِّه فى أُمَّته ؛ وعلىٰ الأئمة الطَّهَرة من ذرِّيَّته ، مَنَاهِج رحمتِه، وسُرُج هِدايَتِه ، وسلَّم تسليما .

وإنَّ الله تعالىٰ جعل الخلافةَ للكافَّةِ عِصْمه ، ولأهْلِ الإيمان رَحْمه، تجمَعُ كَلِمَتَهم ، وتحفَظُ أُلْفَتَهم ؛ وتُصْلِح عامَّتَهم، وتُقِيم فرائضَه وسُنَنَه فيهم، وتَمُدُّ رُواقَ العدل والأَمَنَة عليهم ؛ وتحسِمُ أسبابَ الكُفْر والنِّفاق ، وتقْمَع أهلَ العِناد والشِّقاق ؛ ولذلك وصلَ اللهُ حبْل الإمامه، وجعلها كلمةً باقِيَةً فى عَقِب أوليائه إلىٰ يوم القيامه .

ولما نظرَ أميرُ المؤمنين بعين اليَقِين، وآقتبَس من الحقيقة قَبَس [الحق] المُبِين، عَرَف ماأُبنِيَتْ عليه الدنيا من سُرْعة الزَّوال، ووَشْك التحوُّل والاِنْتقال ؛ وأنَّ ماقَوَّض الله إليه من خلافته لا بدّ أن يَنْتقِلَ عنه إلىٰ أبنائه المَيامين ، كما آنتقل إليه عن آبائه الراشدين ؛ فلم يغْتَرَّ بمَوَاعِيدها المُحَال، وأضرَبَ عمَّا تَخْدَع به من الأَمَانِيّ والآمال ؛ وأشفَقَ علىٰ مَنْ كَفَّله الله بسياسَتِه ، وحمَّله رعايَتَه من أهل الإسلام المعتصِمين بحبل دَعْوَتِه ؛ المشتمِلين بظلّ بَيْعته ، عند تَقَضِّى مُدَّتِه ونُزُوعه إلىٰ آخِرَتِه ؛ فى الوقت المعْلُوم، بالأجل المَحْتُوم : من آنتشار الكلمة ، وآنبِتَات العِصْمه ؛ وآنشِقَاق العَصَا ، وإراقة الدِّمَاء، وآستِيلاء الفتَن ، وتعطيل الفُرُوض والسُّنَن ؛ فنظر

لهم بما يَنْظِم شَمْلَهم ، ويصِلُ حَبْلَهم ، ويَزْجُر ظَلَمَتَهم ، ويَجْمَع كلِمتَهم ، ويؤلِّف أفْئِدَتَهم ، ورأى أن يَعْهَد إلى فلان ولَدِه : لأنه قريعُه في عِلْمِه وفَضْله ، وعقيبُه في إنصافِه وعَدْله ، والمَلْمُوح من بعده ، والمرجُوّ ليومه وغَدِه ، ولِمَا جمعَ اللهُ له من شُرُوط الإمامة ، وكَمَّله له من أدَوَاتِ الخلافة ، وجَبَله عليه من الرَّحمة والرَّأفة ، وخَصَّه به من الرَّصَانة والرَّجاحة ، والشَّجاعة والسَّماحة ، وآتاه من فَصْل الخِطَاب ، وجَوامِع الصَّواب ، ومحاسِن الآداب ، ووِقايةِ الدِّين ، والغِلْظة على الظالمين ، واللُّطْف بالمؤمنين ، بعد أن قام استخارة الله تعالى فيه ، وسأله توفيقَه لما يُرْضيه ، ووقَفَ فِكْرُه على اختياره ، ولم يَكْتَفِ باختياره مع إيثاره ، ويَلُوح في شمائله ، ويَسْتَوْضِحُ في مَخايله ، أنه الوليُّ الكَفِيّ ، والخليفةُ المُصْطَفَى ، الذي يحيي الله به دِمَارَ الحقّ ، ويُعْلِي بسلطانه شِعَارَ الصِّدْق ، وأنه — سبحانه — قد أفضى إليه بما أفضى به إلى الخُلَفاء من قَبْله ، وأفاض عليه من الكَامِنات ما أفاضَه على أهله ، وبعد أن عاقده وعاهده على مثل ما عاهده عليه آباؤه : من تقوى الله تعالى وطاعته ، واستشعار خيفته ، ومراقبته ، والعمل بمكانه ، وبإقامة حُدُود الله التي حدّها ، بفُرُوضه التي وَكَّدها ، والاقتداء بسنن الراشدين في المُكافَحَة عن الدِّين ، والمسامحة عن أوزار [illegible] والحكم بينهم بالسوية ، وإنصاف المظلوم [illegible] وصرف [illegible] عن أهل الإسلام ، [illegible] وأن لا يولّى [illegible] بعدالته ، [illegible]

Marfat.com

على ذُكْره منه وبَال . فتحامَوْا التثقيلَ عليهم والإضرارَ بهم . وأشهدوا على بكلّ ما تحمّلَه وحَدَّده ، والعملِ بما يعهد إليه فيما تقلّده . على أنه غنيّ عن توصيته بذلك وتذكيره ، إلا أنّ محمّدا سيّد المرسلين ، يقول لعليّ صلى الله عليهما : " لولا أن أوصيك " .

فبايِعُوا على بركة الله تعالى طائعين غيرَ مُكْرَهين ، بنيّة لا يشوبها ، وبإخلاص لا يُداهنه ، بيعةَ رِضًا واختيار ، واتّفاقٍ وإيثار ، بصحّة من نيّاتكم ، وسلامة من صُدُوركم ، ووصفاءٍ من ضمائركم ، ووفاءٍ واستقامةٍ فيما تعقدون عليه أيمانكم ، ليعرفكم الله [من] سُبُوغ النّعمة ، وشمول الخِيَرة ، وحُسْن العاقبة ، واتّفاق الكلمة ، ما يقرّ نواظركم ، ويبرّد ضمائركم ، ويُذهب غِلّ صدوركم ، ويعزّ جانبكم ، ويذلّ مُجانبكم ، فاعلموا هذا واعملوا به إن شاء الله .

وقد يُغْنِي هذا الكتابُ الذي ذكرناه مَعْنَى العهد ، فلا يحتاج إلى عهد .

وعلى ذلك كُتِبَ عن الإمام المستكفي بالله أبي الربيع سليمان ، لابن أخيه بالله أحمد ، عهدُ والده المستوثِق بالله « بركة » بالخلافة بعده ، وهذه نسخته .

الحمدُ لله الذي أيّد الخلافةَ العبّاسيّة بأجلّ والدٍ وأبرّ ولد ، وجعلها كعبة يُحَجّ إلى عَتَبه والسّنَد كالسّنَد ، وآواهم من أمرهم إلى الكهف فالكهف ، فما تناهى العدد ، وزان عطفها إسْوِدَادُ سوادِ شعارهم المسجّاة أنوارُهم ، لا [ ] (٢) في السّواد ، وعدق بصولتهم النبوىّ مُعْجِزُها كلّ مُناد .

---

(١) كذا في الأصول مضببا عليه وهو .

(٢) لعله وقدح . أي كفّ . تأمل .

Marfat.com

يحمَدُه علىٰ مامنّ به من تَمَـام النِّعمة فيهـم، ونُزُول الرحمة بتَوَافِيهم ؛ ونشهدُ انْ لا إلٰهَ إلّا الله وحدَه لا شريكَ له شهادةً مَحْضَـةَ الإخْلاص ، كافلًا مَحْضُها بالفَكّاك من أسر الشِّرْك والخَلَاص ؛ ونشهد أنَّ محمّدًا عبدُه ورسولُه المبعوثُ بمـا أوضَحَ سُبُلَ الرَّشاد، وقَمَع أهـلَ العِنَاد، والشـفيعُ المشَفَّع يوم التَّنادْ ؛ صـلّىٰ الله عليه وعلىٰ آله وصَحْبه صلاةً لا انقضاءَ لهـا ولا نَفَاد، وسلَّم تسليما كثيرًا .

وبعدُ فإنَّ أمير المؤمنين (ويذكر اسمه) يعْتَصِم بالله فى كلِّ مايأْتى ويَذَر ممـا جعل اللهُ [له] من التفويض ، ويُشِير إلىٰ الصَّواب فى كل تَصْريح منه وتعريض ؛ وإنه شَدّ اللهُ أزْرَه، وعَظَّم قَدْره، استخار اللهَ سبحانَه وتعالىٰ فى الوصيَّة بمـا جعله الله له من الخلافة المعظَّمة المفَخَّمة المورُوثةِ عن الآباء والجُدُود ، المُلْقاةِ إليه مقاليدُها كما نصَّ عليه ابْنُ عمِّه صلّى اللهُ عليه وسلم فى الوالد من قُرَيش والمَوْلُود ؛ لوَلَده السيِّد، الأجلِّ، المعظَّم، المكَرَّم، فلان ؛ سـليلِ الخلافةِ وشِـبْلِ غابِها، ونُخْبةِ أحسابها وأنسابها؛ أجلَّه اللهُ وشرَّفه ، وجَمَّـل به عِطْفَ الأمانَةِ وفَوَّقه : لِمَـا تلمَّحه فيه من النَّجَابة اللائحةِ علىٰ شمائِله ، وظَهَر من مستَوْثِق إبْداءِ سِرِّه فيه بدَلائل بُرْهانِه وبُرْهان دلائِله ؛ وأشهدَ علىٰ نَفْسه الكريمة ـ صانها الله تعالىٰ ـ مولانا أو سيدُنا أمير المؤمنين ، مَنْ حضَر من حُكّام المسلمين : قُضاة قُضاتهم ، وعلمائهم ، وعُدُولهم، بمجلسـه الشريف، أنه رضِىَ أن يكون الأمْرُ فى الخلافة المعظَّمة ، الذى جعله الله له الآنَ لولده السـيِّد الأجلِّ فلان بعد وفاته، فسَّح الله فى أجَلِه ، وعَهِد بذلك إليه ، وعوّل فى أمر الخلافة عليـه ، وألقىٰ إليه مقاليدَها ، وجعل بيـده زِمامَ مُبْدِئِها ومُعِيدها ، وصىّ له بذلك جزئيِّه وكُلِّيِّه، وغامِضه وجلِيِّه ، وصيَّةً شرعيـةً بشُروطها اللازمة المعتبره، وقواعِدها المحرَّره، أشهَد عليه بذلك فى تاريخ كذا .

Marfat.com

الوجـــــه السـابع

(فيما يكتب فى مستَنَد عهدِ ولىّ الخلافة عن الخليفة ، وما يكْتُبه الخليفة فى بيت العلَامة ، وما يُكْتَب فى ذَيْل العـــهد بعد إتمـام نُسْخته من قَبُول المعهود إليه ، وشهادةِ الشُّهود على العهد)

أما مايكتب فى المستَنَد ، فينبغى أن يكونَ كما يُكْتَب فى عُهود المُلُوك عن الخلفاء ، على نحو ماتقدّم فى البَيْعات ، وهو أن يُكْتَب : «بالإذْن العالى ، المولَوىّ ، الإمامىّ ، النبوىّ ، الفلانىّ (بلقب الخلافة) أعلاه الله تعالى » أو نحو ذلك من الدعاء .

وأما ما يكتُبُه الخليفة فى بيت العلامة ، فينبغى أن يَكْتُب : « عهِدتُ إليه بذلك » : لأنه اللفظُ الذى ينعقِدُ به العـــهد . ولو كتب : « فوّضْتُ إليه ذلك » كما يكتُب الخليفةُ فى عهد السلطان الآنَ على ماسيأتى ، كفى ذلك . والأليقُ بالمقام الأوّلُ .

وأما مايُكتَبُ فى ذيل العهد بعد إتمـام نُسْخته ، فالمنقولُ فيه عن المتقدّمين ما كَتَبَ به « علىّ الرِّضىّ » تحت عهْد المأمُون إليه بالخلافة ، وهو :

الحمـدُ لله الفعّالِ لمـا يَشَاء ، لامُعقِّبَ لحُكْمه ، ولا رادَّ لقَضائه ، يعـلَمُ خائنـةَ الأعْيُن وما تُخْفِى الصُّـدور ، وصـلواتُه على نبيِّـه محمدٍ خاتَمِ النبيين ، وآله الطيّبين الطاهرين . أقولُ وأنا علىُّ بنُ موسى بن جعفر : إنّ أمير المؤمنين عضّده الله بالسّداد ، ووفّقه للرشاد ، عَرَف من حقّنا ماجهله غيره : فوَصَلَ أرْحاما قُطِعتْ ، وأمّنَ أنفُسًا فَزِعتْ ، بل أحياها وقد تَلِفَتْ ، وأغناها إذ افتقرت ، مُتّبعا رِضا ربّ العالمين ، لايُرِيد جزاءً من غيره وسـيَجْزِى اللهُ الشاكِرين ، ولا يُضيعُ أجرَ المُحْسنين ،

Marfat.com

والله جعل الـ[illegible] والإحنة الكبرى إن بقيت بعده، فمن حلّ عقدة [illegible]
[illegible] أو نقض عهدًا [illegible] إلقاء فتنة أيام حياته أحلّ محرمًا [illegible]
[illegible] وأراق [illegible] حرمة الإسلام، فلقد جرى الدالّ فيه [illegible]
على الطالبات، ولم يعتصم بعقدها على العزمات، ولا على مثلث الذين [illegible]
قتل المسلمين، ولا بأدب أمر الجاهلية، وبعد فرصة تتهيأ، وناقية تتقى، [illegible]
له تعالى علا نفسي أن أستقيل عن المسلمين، وكلهم بلاغة، العمل في [illegible]
في يوم البأس في عمل لا يكون خاصة بذاته، وبسنة رسول الله صلى الله عليه و[illegible]
وأن لا أسفك دمًا حرامًا به، ولا أبيح فرجًا ولا مالًا إلا ما سفكته حلوته، وناحته
فرائضه، وأن أغير الدماء بجهدي وطاقتي، وسعلت بذلك على نفسي عهدًا، وكذا
يسألني [الله] عنه، فإنه عز وجل يقول: ﴿ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴾.
إن أحدثت أو غيرت أو بدلت، كنت للذي يستحقه، وبالكل، متعرضا، وأعوذ بالله
من تعاطيه، إليه أرغب في التوفيق لطاعته، والحول بيني وبين معصيته، (في عامة
المسلمين، والطاعة والحضريد لا [illegible] على ضد ذلك) : ﴿ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي
وَلَا بِكُمْ ﴾ : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ ﴾. لكنني امتثلت
أمر أمير المؤمنين، وآثرت رضاه، والله يعصمني وإياه، واشهدت الله على نفسي
بذلك وكفى بالله شهيدا. وكتب بخطي بحضرة أمير المؤمنين - أطال الله بقاءه -
والفضل بن سهل، وسهل بن الفضل، ويحيى بن أكثم، وبشر بن المعتمر، وثمامة
ابن الوليد، في شهر رمضان سنة إحدى ومائتين.

ثم كتب فيه من حضر من هؤلاء، وهذه صورة كتابتهم

فكتب الفضل بن سهل وزير المأمون ما صورته :

---

(١) كتبت هذه العبارة في الأصل رسما علامة التوقف. وسنعثر عليها في غير هذا الكتاب.

"رحم أمير المؤمنين أطال الله بقاءه [illegible] هذا المكتوب [illegible]
بحرم سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم [illegible] على رؤوس الأشهاد
ومرأى ومسمع من وجوه بني هاشم وسائر الأولياء والأجناد [illegible]
يعرف أمير المؤمنين وكافة المسلمين بركة هذا العهد وتلميذه [illegible]
أمير المؤمنين [illegible] على جميع المسلمين، وأبطل الشبهة التي كانت اعترضت آراء
الجاهلين: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ﴾، وكتب "الفضل [illegible]
في التاريخ المعين فيه".

وكتب عبد الله بن طاهر ما صورته: "أثبت شهادته فيه بتاريخه عبد الله بن
طاهر بن الحسين".

وكتب يحيى بن أكثم القاضي ما صورته: "شهد يحيى بن أكثم على مضمون
هذه الصحيفة ظهرها وبطنها، وكتب بخطه بالتاريخ".

وكتب حماد بن النعمان ما صورته: "شهد حماد بن النعمان بمضمون ظهره
وبطنه، وكتب بيده بتاريخه".

وكتب بشر بن المعتمر ما صورته: "شهد بمثل ذلك بشر بن المعتمر [illegible]
بخطه بالتاريخ".

قلت: وعلى نحو ما تقدم من كتابة المعهود إليه بالقبول [illegible]
العهد ينبغي أن يكون العمل أيضا في زماننا: فيجمع خط [illegible]
ما تقدم، وشهادة الشهود. ولو اقتصر المعهود إليه في الكتابة على قوله: "قبلت
ذلك" كان كافيا، وإن كان أميا اكتفى بشهادة الشهود.

الوجـــــــه الثـــامن

(فى قطع الورق الذى تُكتَب فيه عهودُ الخلفاء، والقلمِ الذى يُكتَب به، وكيفيـــةِ كتابتها وصورةِ وَضْـــعها)

أما قطعُ الورق فمقتضىٰ قول المقرّ الشهابىّ بن فضل الله فى "التعريف" أنّ للعهود قَطْعَ البغدادىّ الكامل، وأن عُهودَ الخلفـاء تُكْتَب فى البغدادىّ كما هو مستعمَل فى عهُود الملوك عن الخلفاء، علىٰ ماسيأتى فى موضعه إن شاء الله تعالىٰ. وهو مقتضىٰ ماتقدّم فى الكلام علىٰ قطْع الورق فى مقدّمة الكتاب نقْلاً عن محمد بن عمر المدائنى فى كتابه "القلم والمداة" أنّ القطع الكامل للخلفاء.

قلت: وقد أخبرنى من أثِق به أنه وقف علىٰ عهد المعتضد بالله أبى الفتح أبى بكر، والد المتوكّل علىٰ الله: أبى عبـــد الله محمد خليفة العصر، وهو مكتوب فى قطع الشاهى الكامل، وأنه كُتِبَ عهد المتوكل على ظهره بخط الشهود دون كاتب الإنشاء، وكأنهم لما تقهقرت الخلافة وضَعُف شأنُها، وصار الأمرُ إلى الملوك المتغلّبين علىٰ الخلفاء، تنازلُوا فى كتابة عُهودهم من قطـع كامل البغدادى إلىٰ قطع الشاهى. وهذا هو المناسبُ للحال فى زماننا.

وأما القـلم الذى يُكتَب به، فالحكمُ فيـه ما تقدم فى البَيْعات. وهو إن كُتِب العهدُ فى قطع البغدادى كُتِب بقلم مختَصَر الطُّومار. وإن كُتِب فى قطع الشاهى كتب بقلم الثلثين الثقيل.

وأما كيفيّة الكتابة وصورةُ وضْعها، فعلىٰ ماتقدّم فى كتابة البَيْعات، وهو أن يُبتدأ بكتابة الطُّرّة فى أول الدَّرْج بالقلم الذى يُكتَب به العهدُ سطورا متلاصقةً ممتـدّةً

فى عَرْض الدَّرْج من أوّله إلى آخره من غير هامش . ثم إن كانت الكتابةُ فى قَطْع البَغْدادىّ الكامل ، جرى فيه على القاعدة المتداوَلة فى عهود الملوك عن الخلفاء ، فيترُكُ بعد الوصل الذى فيه الطرّة ستّةَ أوصال بياضًا من غير كتابة ، ثم يكتُبُ البسملة فى أوّل الوصل الثامن بحيثُ يُلْحِق أعالىَ ألفاته بالوصل الذى فوقه ، بهامش قَدْر أربعة أصابع أو خمسة ؛ ثم يكتُب تحتَ البسملة سَطْرا من أوّل العهد ملاصقا لها ، ثم يخلّى مكانَ بيت العلامة قَدْرَ شبر كما فى عُهُود الملوك ؛ ثم يكتُب السطر الثانى تحتَ بيت العلامة على سَمْت السطر الذى تحت البسملة . ويحرِص أن تكونَ نهايةُ السجعة الأولى فى السطر الأوّل أو الثانى ؛ ثم يسترسِل فى كتابة بقيّة العهد إلى آخره ، ويجعل بين كلّ سطرين قدْرَ رُبُع ذراع بذراع القُمَاش . فإذا انتهى إلى آخر العَهْد ، كتب « إن شاء الله تعالى » ثم المستَنَد ، ثم البَسْمَلة ، والصلاةَ على النبىّ صلّى الله عليه وسلم والحَسْبَلة ، على ما تقدّم فى الفواتح والخواتم . ثم يكتب المعهودُ إليه والشهودُ بعد ذلك . وإن كُتِب فى قطع الشامى ، فعلى ما تقدّم فى البَيْضات : من أنه ينبغى أن يُقْتَصر فى أوصال البياض على خمسة أوصال ، ويكونُ الهامشُ قدْرَ ثلاثة أصابع .

وهذه صورة وضعه فى الورق ، ممثّلا فيها بالطرّة التى أنشأناها ، على ما تقدّم ذكره فى العهد الذى أنشأته على لسان الإمام المتوكل على الله خليفة العصر لولده العبّاس ، وهو العهد الأخير من المَذْهب الأوّل من عُهُود الخُلَفاء عن الخلفاء

بياض بأعلى الدرج تقدير اصبع

Marfat.com

Marfat.com

Marfat.com

النـــــوع الثـانى

(عهودُ الخلفاء للملوك ، ويتعلَّق النظر به من جهة أربعة)

الوجـــه الأوَّل

(فى أصـــل مشـــروعيَّتها)

والأصلُ فيها ماروَاه ابن إسحاقَ وغيرُه : أنه لما رَجَع وفْدُ بنى الحارث بنِ كعب إلى قومهم باليَمَن بعد وُفُود [هم] على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلَ وفاته بأربعة أشهر ، بعث إليهم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بعد أن وَلَّى عليهم عَمْرو بنَ حَزْم ، يفقِّههم فى الدِّين ، ويعلِّمهم السُّنَّةَ ومَعَالِمَ الإسلام ، ويأخُذُ منهم صدقاتِهم ، وكتب له كتابًا عَهِد فيه عَهْدَه ، وأمَرَه فيه أمرَه ، على ماسيأتى ذكرُه فى أثناء نُسَخ العُهُود الواردة فى هذا الكتاب إن شاء الله تعالى . فقد تقضَّى النبىُّ صلى الله عليه وسلم أمرَ اليمن فى حياته إلى عَمْرو بن حَزْم رضى الله عنه ، وذلك أصرحُ دليل وأقومُ شاهد لما نحن فيه .

الوجـــه الثـانى

(فى بيان [معنى] ذلك والسُّلْطنة للذى يقعُ العهدُ بها)

قد تقدَّم ... م على الألقاب نقلا عن ... " الفُرُوق " فى اللغة للعسكرى أن المُلْك أعمُّ من السَّلْطنة : لأن المُلْك لا يطلَقُ إلا على الوِلَاية العامَّة ، والسَّلْطنة تُطلَق على أنواع الوِلَايات ، حتَّى إنَّ الفقهاء يعبِّرون عن القاضى وولَاة البلد فى أبواب الفقه بالسُّلْطان .

Marfat.com

ثم تفويضُ الخليفة الأُمورَ فى البلاد والأقاليم إلى مَنْ يدبِّرها ويقُوم بأعبائها على ثلاثة أقسام :

القسم الأوّل — وهو أعلاها وِزارةُ التفويض، وهو أن يَسْتوزِرَ الخليفةُ من يفوّض إليه تدبيرَ الأمور برأيه وإمضاءَها على اجتهاده، وينظُرُ فيها على العُمُوم. وعلى ذلك كانتِ السلطنةُ فى زَمَن الخلَفاء الفاطميين بمصر على ما سيأتى ذكره. قال الماوردىّ فى "الأحكام السلطانية": ولا يمتنِعُ جوازُ مثلِ ذلك: لأنَّ كلَّ ما وُكِل إلى الإمام من تدبيرِ [الأمة](١) لا يقْدِر على مباشرة جميعه إلّا بالاستنابة، ونيابةُ الوزيرِ المشارِك له فى التدبير أصحُّ فى تنفيذ الأمور، [من تفرّده بها](١) ليستظهر به على نَفْسه ولنَفْسه، ليكُونَ أبعدَ من الزَّلَل، وأمنَعَ من الخَلَل. قال: وتعتبر فى [تقليد](٢) هذه الوزارة شروطُ الإمامة إلا النَّسبَ وحده. وقد تقدّم بيانُ شروط الإمامة فى الكلام على البيعات. ثم قال: وكلُّ ما صحَّ من الإمام صحَّ من وزير التفويض إلا فى ثلاثة أشياءَ:

أحدها — ولايةُ العهد، فإنَّ للإمام أن يَعْهَدَ إلى مَنْ يرى وليس ذلك للوزير.

الثانى — أنَّ للإمام أن يستَعْفِىَ الأُمَّةَ من الإمامة وليس ذلك للوزير.

الثالث — أنّ للإمام أن يعْزِل من قلَّده الوزيرُ وليس للوزير أن يعزِلَ من قلَّده الإمام.

وتفارق هذه الوزارةُ الخلافةَ فى عموم النظر فيما عدا ذلك من وجهين:

---

(١) الزيادة من الأحكام السلطانية ص ١٨.

(٢) الزيادة من الأحكام السلطانية ص ١٨.

Marfat.com

[illegible] يختص بالإمام وهو أن يختار [illegible] الوزير وتدبير الأمور : ليُقرّ [illegible] يوافق الصواب [illegible] ويمتثل ما يختاره [illegible] الأمة إليه وتُوكل [illegible] أيضاً [illegible] .

[illegible] يختص بالوزير وهو [illegible] أعماله من تدبير وأنفاذه [illegible] .

[illegible] السياسة [illegible] ما يأتي عقيب الوزارة إن شاء الله تعالى .

[illegible] إدارة الاستخبار .

[illegible] الاستخبار عن أحوال [illegible] على سبيل العهود ونظر مشهود [illegible] أعمال [illegible] ورقابة [illegible] أحوال [illegible] وتفقد [illegible] أعمال [illegible] نظر [illegible] تقليد [illegible] الناس [illegible] أرزاقهم [illegible] كذلك [illegible] .

وعلىٰ هذا كانتِ الأمراءُ والعُمَّال فى الأقاليم والأمصار من ٱبتداء الإسلام إلىٰ أن تغلَّب المتغلِّبون علىٰ الأمر وٱستُضْعِف جانبُ الخلفاء .

قال الماوردىّ : ويعتبَرُ فى هذه الإمارة ما يُعتَبر فى وِزَارة التفويض من الشروط : إذ ليس بين عُمُوم الوِلَاية وخُصوصِها فَرْقٌ فى الشروط المعتَبَرة فيها .

القسم الثالث — إمارة الٱستيلاء .

وهى أن يقلِّده الخليفةُ[1] الإمارةَ علىٰ بلاد ويفوِّض إليه تدبيرَها ، فيستَوْلى عليها بالقوّة ، فيكون [الأمير] بٱستيلائه مستَبِدًّا بالسياسة والتدبير ، والخليفةُ بإذنه يَنْفُذ أحكامَ الدين : لتخْرُج عن الفساد إلىٰ الصِّحَّة ، ومن الحَظْر إلىٰ الإباحة ، نافذ التصرُّف فى حقوق الملة وأحكامِ الأُمَّة . وهذا ما صار إليه الأمرُ بعد التغلُّب علىٰ الخلفاء ، والٱستبدادِ بالأمر بالغَلَبة والقوّة .

قال الماوردىّ : وهذا وإنْ خرج عن عُرْف التقليد المُطْلَق فى شروطه وأحكامِه ، ففيه [من] حفْظ قوانينِ الشرع وحِرَاسة الأحكام الدينية ما لا يجوز أن يُتْرك مختَلًّا مدْخُولا ، ولا فاسدًا مَعْلولا ، فجاز فيه مع الٱستيلاء والٱضطرار ما ٱمتَنَع فى تقليد الٱستِكْفاء والٱختيار : لوقوع الفَرْق بين شروط المَكِنة والعَجز . قال : والذى يُتَحَفَّظ بتقليد المستولى من قوانين الشريعة سبعةُ أشياء ، يشترك فى التزامها الخليفةُ المولِّى والأميرُ المستَوْلى ، ووجُوبُها فى جهة المستولى أغلظ .

---

(١) عبارة "الأحكام السلطانية" وإمارة الاستيلاء التى تعقد عن اضطراب فهى أن يستولى بالقوة على بلاد يقلده الخليفة إمارتها ويفوّض إليه الخ وهى أوضح وأصرح .

(٢) فى المصباح . وله مَكِنَةٌ أى قوّة وشدّة .

Marfat.com

أحدها — حِفْظ مَنْصِب الإمامة فى خلافة النبوّة، وتدبيرِ أمورِ الأمة : ليكون ما أوجبه الشرعُ من إقامتها محفُوظا، وما تفرّعَ عنها من الحقوق مَحْروسا .

والثـانى — ظهورُ الطاعةِ الدِّينية التى يزُولُ معها حكمُ العِناد فى الدين ، وينتفى بها مأْثَم المُباينَةِ له .

والثالث — ٱجتماعُ الكلمةِ علىٰ الأُلْفة والتنَاصُر : ليكونَ المسـلمونَ يدًا علىٰ مَنْ سـواهم

والرابع — أن تكونَ عقُود الولايات الدينيَّة جائزة، والأحكامُ والأقضيةُ [فيها] نافذة؛ لا تبطل بفساد عُقُودها، ولا تسقُط بخَلَل عُهُودها .

الخامس — أن يكونَ ٱستيفاءُ الأموال الشرعيَّة بحقٍّ تبرأ به ذمَّةُ مؤدِّيها ، ويستَبِيحه آخِذُها ومُعْطِيها .

السادس — أن تكونَ الحدُودُ مستوفاةً بحقٍّ ، وقائمةً علىٰ مستَحِقّ ؛ فإنَّ جَنْب المؤمِن حِمًى إلَّا من حقُوق الله تعالىٰ وحُدُوده .

السـابع — أن يكون للأُمَّـة فى حِفْظ الدين وازِعٌ عن محارم الله تعالىٰ، يأمُرُ بحقِّـه إن أطيع ، ويدعُو إلىٰ طاعتـه إن عُصِى . ثم قال : فإن كُمِلت فيـه شُروطُ الٱختيارِ المتقـدّمةُ، كان تقليدُه حتْما ٱسـتِدْعاءً لطاعتـه ، ودفْعا لمشاقَّته ومخالَفَته ؛ وجرىٰ علىٰ مَنِ ٱستَوْزره أو ٱستَنَابه أحكامُ من ٱستَوْزَره الخليفة أو ٱستَنَابه . وإن لم تكْمُلْ [فيه] شروطُ الٱختيار ، جاز له إظهارُ تقليدِه ٱستدعاءً لطاعته وحَسْما لمخالَفَته ومعانَدته ؛ وكان نفُوذُ تصرُّفاته فى الحقوق والأحكامِ موقُوفا علىٰ أن يستنيب الخليفةُ

Marfat.com

له مَنْ تكاملَتْ فيه الشُّروط . قال : وجاز مثلُ هذا وإن شَذَّ عن الأصول : لان الضرورةَ تُسْقِط ماأعْوزَ من شُروط المَكِنة .

قلت : ومملكةُ الديار المصرية من حِينِ الفتح الإســلامىّ وهلُمَّ جرًّا إلىٰ زماننــا دائرةٌ بين هذه الأقسام الثلاثة ، لاتكادُ تخْرُج عنها : فكانتْ فى بداية الأمر « إمارةَ آستكفاء» يولِّى عليها الخليفةُ فى كلِّ زمن مَنْ يقُوم بأعبائها ، ويتصرَّف فى أمورها ، قاصرُ الولاية عليها ، واقفٌ عند حَدِّ مايَرِد عليه من الخليفة من الأوَامِر والنَّواهى ، إلَّا ما كان فى أيام بَنِى طُولُون من الخُــرُوج عن طاعةِ الخلَفاء فى بعض الأحيان . فلَمَّــا آستَوْلىٰ عليها الفاطِميُّون وآستَوْزَرُوا أربابَ السُّيوف فى أواخِرِ دَوْلتهم ، وعظُمتْ كلمتُهم عندهم ، صارتْ سلطَنتُها "وزارةَ تَفْويض" . وكان الخليفةُ يحتَجب والوزيرُ هو المتصَرِّف فى المملكة كالمُلوك الآنَ أو قريبٍ منهم . وكانوا يُلَقَّبون بألقاب المُلوك الآنَ : كالمَلِك الأفضــل رِضْوان وزيرِ الحافظ ، وهو أوَّلُ من لُقِّب بالمَلك منهم فيما ذكره المؤيَّد صاحبُ حماةَ فى تاريخه ، والملِك الصالح طَلائِــع بن رُزِّيك وزير الفائز ثم العاضد . والملِك المنصُور أسدِ الدين شِيركُوه بن شادِى وزيرِ العاضد ، وآبنِ أخيه صــلاح الدين يُوسفَ بنِ أيُّوب وزيرِ العاضد أيضا ، قبل أن يستقِلَّ بالمُلْك ويخطُبَ بالديار المصرية لبَنِى العَبّاس ببَغْداد . ولاأنْكَرَ فى تسمية الوزير مَلِكا ، فقد قيــل فى قوله تعالىٰ فى قِصَّة يوسفَ عليه الســلام : ﴿ وقَالَ المَلِكُ آئْتُونِى بِهِ أَسْتَخْلِصْــهُ لِنَفْسِى ﴾ إنَّ المرادَ بالملِك الوزيرُ لا الملِكُ نفْسُــه . ولمــا آنتُزِعَتْ من الفاطميين وصارتْ إلىٰ بنى أيُّوبَ . وكانوا يَلُونَهــا عن خُلَفاء بنى العبّــاس ، صارتْ « إمارةَ آستيلاءٍ » لآستيلائِهم عليهــا بالقُوّة ، وآستبدادِهم بالأمْر والتــدبير مع أهْمالِ إذنِ الخليفة وتقْليده . وكان الرشــيدُ قد لقَّب « جَعْفَر بن يَحْيىٰ البَرْمَكىّ »

Marfat.com

[illegible] ولم يأخذ الناس في التلقيب به . فلمّا تغلّب
[illegible] لقب السلطان سمةً لهم ، مع
[illegible] كشرف الدولة ، وعضد الدولة ،
[illegible] وشاركهم في لقب السلطنة
[illegible] صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وتلقّب
[illegible] وزارته له ، ونقل
[illegible] وصارت الوزارة عن السلطان
[illegible] من التصرف ، وبقي الأمر على ما هو عليه من الاستيلاء
[illegible] وهي على ذلك إلى
[illegible] من حين قتل [illegible]
[illegible] حنيفة بمصر
[illegible] التفويض ،
[illegible] التفويض [illegible]
[illegible] وعموم
[illegible]
[illegible] الكلام [illegible]
[illegible]
[illegible] التفويض [illegible] الاستيلاء .

الوجـــــه الثـالث

(فيما يجبُ علىٰ الكاتب مراعاتُه فيـــه)

وآعلم أنه يجب علىٰ الكاتب مراعاةُ أمور :

منها ــ براعةُ الآستهلال بمـا يتهيأُ له منَ آسْمِ السـلطان أو لَقَبه الخاصِّ : مثل فلان الدين ، أو لَقَبِه بالسلطنة : مثل الناصِر، والظاهِر ، ونحوِهما ، أو غيرِ ذٰلك ممـا يدُلُّ علىٰ مابعده قبلَ الإتيان به كما تقدّم فى البَيْعات وعُهُود الخُلَفاء .

ومنها ــ التنبيهُ علىٰ شَرَف السَّلْطنة وعُلُوّ رُتْبتها ، ووجُوبِ القيام بأمْر الرعِيَّـة ، وتحمُّل ذٰلك عن الخليفة .

ومنها ــ الإشارةَ إلىٰ آجتهاد الخليفةِ وإعمـال فِكْره فيمَنْ يقُوم بأمْر الأُمَّـة ، وأنه لم يَجِدْ بذٰلك أحقَّ من المعهود إليه ولا أوْلىٰ به منه ، فيَصِفُه بالصِّفات الجميلة ، ويُثْنِي عليه بمـا يليقُ بمَقَام المُلْك .

ومنها ــ الإشارةُ إلىٰ جَرَيان لفظٍ تنعَقِد به الوِلايةُ من عَهْد أو تقليدٍ أوتفويض ، وقبول ذلك ، ووُقُوع الإشهاد علىٰ الخليفة بالعهد .

ومنها ــ إيرادُ مايليقُ بالمَقَام من الوصيَّة ، بحسَب مايقْتضيه الحال : من علُوّ رتبة الخلافة وآنخفاضها ، مبيِّنا لما يلزَمُه القيامُ به : من حِفْظ الدِّين علىٰ أصوله المستمِرّة ، وما أجمعَ عليه سلف الأمة ، وتنفيذِ الأحكام ، وإنصافِ المظلوم من الظالم ، وحِمايةِ البَيْضة ، والذَّبِّ عن الحُرَم ، وإقامةِ الحُدُود ، وتحصين الثُّغُور ، وجهاد أعداءِ الله وغَزْوِهم ، وجباية الفَيْء والصَّدَقات علىٰ ما أوجبه الشرعُ من غير حَيْف ولاعَسْف ،

Marfat.com

وتقديرِ العطاء، وصَرْف مايُسْتَحَقُّ فى بيت المـال من غير سَرَف ولا تقْتِير، فى وقْتِ الحـاجة إليـه، وآستِكْفاءِ الأُمَنـاء، وتقليد النُّصَحاء للأعمال والأموال، ومُباشرةِ الأمورِ بنَفْسـه وتَصَفُّح الأحوال ؛ إلىٰ غير ذٰلك من الأمور المتعلّقة بالإمامة : من إقامة مَوْسِم الحجّ، وتأمين الحَرَم الشريف وإكرام ضرائِح الأنبياء وبيتِ المقَدْس، وتحرير مقادير المُعامَلات، وغير ذٰلك مما يقتضيه أمْرُ المملكة .

الوجـــه الرابـــع

(فيما يكتب فى الطـــرّة، وهو نمطان)

النَّمَط الأول ــ ما كان يُكتَب فى وِزارة التفويض فى دَوْلة الفاطميين .

وكان الخليفةُ هو الذى يكتُب بيده . وهذا أمْرٌ وإن كان قد تُرِك فالمعرفةُ به خيْرٌ من الجهل، خصُوصًا وقد أثبتَ المقرُّ الشَّهابىّ بنُ فضل الله عهْدَىْ أسد الدين شـيركوه وآبنِ أخيه السلطانِ صَلاح الدِّين يوسُفَ بن أيوب بالوزارة عن العاضد، فى جملة عُهود الملوك علىٰ ما سـيأتى ذِكْره . وسنُورِدُهما فى جمـلة عُهود الملوك عن الخلفاء فيما بعدُ إن شاء الله تعالىٰ .

فمن ذلك ما كتب به العـاضِدُ فى طُرَّة عهدِ أَسَـد الدِّين شـيركوه المتقدم ذكره، وهو :

«هذا عهْدٌ لا عَهْدَ لوزيرٍ بمثله، وتقليدُ أمانةٍ رآك اللهُ تعالىٰ وأميرُ المؤمنين أهْلًا لحَمْله، والحجةُ عليْكَ عندَ الله بما أوضَحه لكَ من مَرَاشد سُبُله ؛ فخُذْ كتابَ أميرِ المؤمنين

Marfat.com

بِقُوّه، وٱسْحَب ذَيْلَ الفَخَار بأن آعتَزَتْ خِدْمَتُكَ إلىٰ بُنُوّة النُّبُوّه ؛ وٱتخِذْ أميرَ المؤمنين للفَوْز سبيلا ﴿ ولا تَنْقُضُوا الأَيْمانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلا ﴾ » .

ومن ذلك ما كتب به العاضدُ أيضا فى طرَّة العهد المكتَتَب عنه بالوِزارة للسلطان صلاح الدِّين يُوسفَ بن أيُّوب قبل آستِقْلاله بالسلطنة ، وهو :

« هذا عهدُ أميرِ المؤمنين إليْك، وحُجَّتُه عند الله تعالىٰ علَيْك ؛ فأَوْفِ بعَهْدك ويَمينِك، وخُذْ كتابَ أمير المؤمنين بيَمينك ؛ ولِمَنْ مَضىٰ بجدِّنا رسولِ الله صلّى الله عليه وسلم أحسَنُ أُسْوه، ولمن بَقِيَ بقُرْبنا أعظَمُ سَلْوَه ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لايُرِيدُون عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَافَسَادا والعاقِبَةُ للمتقين ﴾ » .

النمط الثانى — ما يُكْتَب فى طُرّة عُهود المُلوك الآنَ .

وهو قريب مما كان يُكتَب أوّلا مما تقدّم ذكْرُه ؛ إلَّا أنه يُبَدّل فيه لفْظُ الوِزارة بالمُلْك والسَّلْطنة ؛ ويكونُ الذى يكتُبه هو الذى يكْتُب العَهْدَ دُونَ الخليفةِ . ثم هو بحسَب مايُؤْثِره الكاتِبُ مما يُدُلُّ علىٰ صَدْر العهد علىٰ مايقتضيه الحال .

وهذه نسخةُ طرّةِ عهدٍ ، كتَب بها القاضى محيي الدين بن عبْد الظاهر، فى نسخةِ عهدٍ أنشأه للسلطان الملكِ الناصرِ محمد بن قَلاوُون، فى سنة سبعَ عشْرةَ وسبعمائة، وهو :

« هذا عهدٌ شريفٌ تجدّدتْ مَسَرّاتُ الإسلام بتَجْديده ، وتأكدَتْ أسبابُ الإيمان بتأْكيده؛ ووُجد النصرُ العزيز والفتحُ المبينُ بوُجُوده، ووَفَد اليُمْنُ والإقبالُ

Marfat.com

علىٰ الخليقة بوُفوده، وورد الأنامُ مَوْرِد الأمانِ بوُرُوده . من عبـدِالله وولِيِّه الإمام المستكفِى بالله أبى الرَّبيع سليمانَ أميرِ المؤمنـين ، آبنِ الحاكم بأمرِ الله أبى العباس أحمـد . عَهِد به إلىٰ السلطان الملكِ النـاصر أبى الفتح محمّـد ، خلّد الله سلطانه ، آبن السلطان الملكِ المنصورِ سيفِ الدين قلاوون الصالحِى قدّس الله روحه » .

تم الجزء التـاسع . يتلوه إن شاء الله تعالىٰ الجزء العـاشر

وأوّله الوجـــــه الخامس

(فيما يكتب فى ألقـاب الملوك عن الخلفـاء ، وهو نمطان)

والحمد لله رب العالمين . وصلاته علىٰ سيدنا محمد خاتم الأنبيـاء والمرسلين

وآله وصحبـــه والتابعين وسلامه

وحسبنا الله ونعم الوكيل

Marfat.com